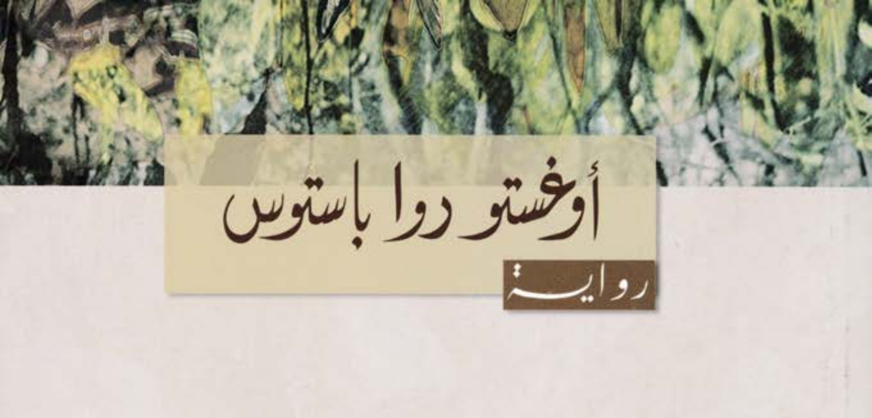


أوغستو روا باستوس

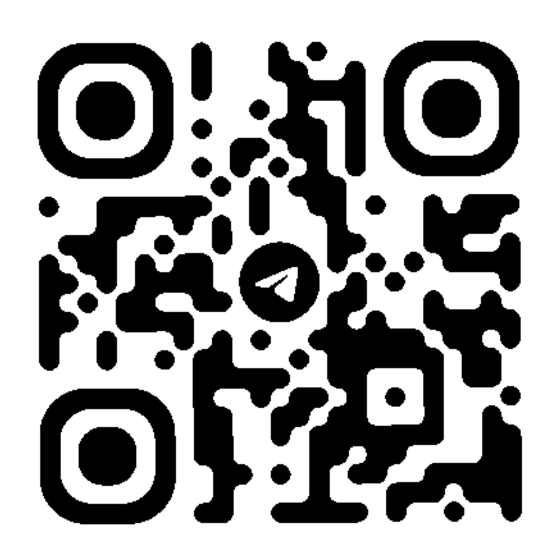
رواية

ابن الإنسان

مكتبة سر من قرأ

ترجمة: بسّام البزّاز

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود
telegram @soramnqraa



لن ننسى تشرين .. 23

لن ننسى غزة والشهداء

ابْنُ الإنسان

ابْنُ الإنسان - رواية

Hijo de Hombre

تأليف: أوغستو روا باستوس

Augusto Roa Bastos

ترجمها عن الإسبانية: بسّام البزّاز



t.me/soramnqraa

8 12 2023

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

ISBN: 978 - 9933 - 641 - 74 - 0

الطبعة الأولى: 2022



دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: 9838

هاتف-فاكس: 963 11 6133856+

جوال: 971 557195187+

البريد الإلكتروني:

addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني:

addar.mamdouhadwan.net

fb.com /Adwan.Publishing.House

twitter.com /AdwanPH



دار سرد للنشر

جوال: 961 81756938+

البريد الإلكتروني:

info@darsard.net

الموقع الإلكتروني:

www.darsard.net

facebook.com /Sard.Publishing

twitter.com /SardPublishing

© AUGUSTO ROA BASTOS, 1960, 1984 and Heirs of Augusto Roa Bastos.

أوغستو روا باستوس



ابْنُ الإنسان

رواية

ترجمها عن الإسبانية:

بسّام البزّاز

على سبيل التقديم

مقابلة مع روا باستوس أجراها

توماس إلُوْيْ مارتينيث (Tomás Eloy Martínez)



– اسم أبي لوثيو Lucio، واسم أمّي لوثيّا Lucía، وهو تشابه يصف العلاقة التي عاشاها، في هدوئها وتجانسها وعمقها. دام زواجهما خمسين سنة لم يفقد الحبّ بينهما أثناءها شيئاً من قوّته.

* علمتُ أن لوثيو توفي عام 1978، أي بعد ما يقرب من عشرين عاماً من وفاة لوثيّا.

– حين مات أبي، كان عمره 95 عاماً. ولطالما مثّل حضورُه مصدرَ كدرٍ وإزعاج لي، فقد كان حادّ المزاج شديد الانفعال. هل أخبرتُكَ مرّة أنّه نال مرتبة رَسَامة صغرى في المعهد اللاهوتي في أسونثيون؟! نعم. نعم. كما أقول لك. وحين اكتشف أنّ اللاهوت ليس طريقه، خلع رداء الكاهن وصعد إلى الجبل، وعمل حطّاباً. ثمّ عاد من هناك مصاباً باللشمانيا، وهو نوع من الجذام الطفيلي، ولم يُشفَ منها إلا بعد وقتٍ طويل، ثمّ عاد فأصيب بها بعد ستين عاماً، قبيل وفاته بقليل.

* فقد كان إذاً، بشكلٍ من الأشكال، خوسيه غاسپار رودريغيث دي فرانسيا[1]، الأعلى: طالبَ لاهوت مرتدّاً ورجلاً مصاباً بمرض الغابات. ألا ترى أنّكَ في الأدب تعيش تأثيرَ حياة أبيك؟ فقطع الأشجار وقسوة العمل سماتٌ مشتركةٌ بين لوثيو روا وشخصيّات «الرعدُ بين الأوراق»[2].

- نعم. هذا ممكن. لكنّ ذكرى رائحة الخشب والإحساس بأنّ الأشجار بشر تعود لي وحدي. سألتُ أبي مرّة -وكان عمري خمسَ سنوات تقريباً- عن شعوره وهو يقطع الأشجار بفأسه ويُسقطها. كنتُ أحسبُه قادراً على أن يكون داخل إحدى تلك الأشجار، فبما أنّ الأشجار لا تتكلّم، فما من سبيل إلى سماع معاناتها في طبقات الجذوع أو في عروق الفروع. لم يردّ أبي على سؤالي، لكنّي حاولتُ أن أفكّ اللغز في «أنا الأعلى» حين قلتُ إنّ لا سجنَ للإنسان أسوأ من السجن الذي يعانيه لبّ الشجرة.

* هاجسٌ آخرُ من هواجسك، أليس كذلك؟: الجمودُ بصفته رافداً من روافد الموت.

- نعم، كنتُ أرى الجمودَ المفزع في بعض الأشجار، مثل «المازاريه»، وهو نوع منقرضٌ تقريباً في پاراغواي (يشبه شجرة سيكويا العملاقة في كاليفورنيا)، فهو حين يُضرب بالفأس يرنّ وكأنّه قطعة حديد. قد تكون ألياف الشجرة القويّة (لاحظ أنّ الأقوياء يموتون في العادة قبل سواهم) وهدوءها المخيف هما ما يجعلاني أفكّر في الموت.

* ولكن، إلى جانب ثبات أشجارها الكبيرة، فإنّ پاراغواي تحظى

---

(1) José Gaspar Rodríguez de Francia (1766–1840): حكم پاراغواي بين عامي 1813 و1840.

(2) El trueno entre las hojas: أوّل مجموعة قصصية للكاتب. صدرت عام 1953. يترجم العنوان عادة بـ«البرق بين الأوراق»، والصحيح هو ما ذكرنا.

بحركة أنهارها التي لا تعدّ ولا تحصى. ثمّ إنّ الماءَ والموتَ والأشجارَ حيّة فيك، حتّى أنّها تظهر في أسماء كتبك: خشب محترق، ورعد بين الأوراق، وموت، والأقدام فوق الماء.

– هذا صحيح. ما من بلد في العالم أغنى من پاراغواي بالأنهار، باستثناء الهند ربّما. ولا سيّما في أقاليمها الشرقيّة، التي هي نقيض «چاكو الشماليّة»، تلك الصحراء التي كانت، في وقت من الأوقات، قاعاً لبحر. ما يفصل بين الحالتين المتناقضين هو نهر «پاراغواي»، الذي هو بمنزلة مفصل بين مِصْراعي باب بلدي. إنّ هذين العالمين هما من الابتعاد أحدهما عن الآخر أنّ سكّان البلاد الأصليين فيهما متباعدون أيضاً، فما من صلة بين حضارة «چاكو» وحضارة «غواراني»، لا في اللغة ولا في نمط الحياة. عِرقان مختلفان.

أيام مدرسة إيتوريه

* هل كان والدُك رجلَ كتاب أم رجلَ حرب؟

– كلا الأمرين. أوّل الكتب التي قرأتُها هي كتبُه؛ الكتّاب الإسبان الكلاسيكيّون «كيبيدو» و«ثربانتس» واعترافات سان أغوسطين، الذي كان يحفظه عن ظهر قلب، وهو الكتاب الذي وضع نهايةً لميوله الدينيّة.

* قد يرى فيك معلّموكَ الپاراغوانيون نموذجاً غريب الأطوار.

– لم يكن لي معلّمون. ولم أذهب إلى المدرسة. لم يسمح لي أبي بالذهاب إلى المدرسة. كانت إحدى أخطاء أبي الكبيرة حرماني من تعلّم لغة السكّان الأصليين، فثمّة خطّ أحمر توافقت عليه الأسر البرجوازيّة في پاراغواي. لكنّ أوّل شيء فعلتُه، بالطبع، هو أنّي تعلّمتُ اللغة الغوارانيّة،

جرياً على قاعدة الممنوع المرغوب. تعلّمتُ هذه اللغة وأنا أسبح في النهر مع أترابي في «إيتوربه»، البلدة الجنوبيّة الصغيرة التي أخذنا أبي إليها.

* لكنّكَ ولدتَ في أسونثيون.

– صحيح، لكنّهم أخذوني بعد أشهر قليلة إلى مجمع البيوت التي في الغابة. هي، بالأحرى، أكواخٌ مبعثرة، مقامة على أرض خصبة. في حدود عام 1910 أو 1912، أقيم في «إيتوربه» معملٌ للسكّر التحق أبي به عاملاً. بدأ بناؤه مع حركة مدّ الطريق بين الأهوار والغابات. وفي الوقت نفسه مُدّت خطوط السكة الحديدية، التي استُخدمت لاحقاً في نقل مكائن معالجة قصب السكّر. شارك أبي في مراحل تلك المغامرة كلّها. أراد أن يجرّب صعوبة الحياة وقسوتها: من صرامة معهد اللاهوت إلى عربدة المواخير. كان لديه من الفطنة ما يكفيه لمعرفة الناس. لقد اعتاد أن يقول لي، حين يكون مزاجه رائقاً: «يا بُنيّ، أمامك طريقان... فإمّا أن تكون رجلاً عظيماً وإمّا أن تكون مجرماً عظيماً».

* في الحالتين هو يمنحك العظمة.

– كنتُ أفضّل أن أكون مجرماً عظيماً، فأنا أستطيع أن أتماهى مع قاتل. في تلك الأوقات شاع في پاراغواي نوعٌ من شِعر الجوّالين سُمّي بـ الكومپويستو [= المُرَكّب]. نظمٌ مكوّن من أبيات زوجيّة متناوبة: بيتٌ بالغوارانيّة وبيت بالقشتاليّة[3]. في هذه القصائد، يشيد الشاعرُ، مثلاً، بمآثر خانتو أوسونا، الذي حزّ بطعنتين رقبة أمٍّ لسبعة أولاد. وهكذا. حجمُ المجزرة يعتمد على طول نَفَس المُغنّي. الموت لا يؤشّر إلى نهاية

(3) القشتالية castellano هي الإسبانيّة. تسميتها تشير إلى أنّها في الأصل لغة مملكة Castilla أو قشتالة.

الإنسان، بل انتقالَه إلى نوع آخر من الحياة. أنا، وأنا أتماهى مع تلك الكائنات الساحرة، مثل خاثنتو أوسونا، حلمتُ بأن أكون أشدّ إجراماً منه.

* فأبوك، إذاً، كان يضع أخلاقية تعليمه الصارمة في مواجهة لاأخلاقيّة أهل القرية الشعريّة. قلتَ إنّه حوّل البيتَ إلى مدرسة، كان هو المعلّم فيها. هل كان يعلّمك وفق منهج؟

– أخضعَنا، أنا وأختي، لبرنامج دراسة صارم: بعد القيلولة، من الساعة الخامسة حتى السادسة عصراً. ساعة من الدرس. في غرفة من غرف البيت، وضع أبي –وكان نجّاراً ماهراً– مقاعدَ صنعها بنفسه، وعمل فيها فتحاتٍ لوضع الأقلام، وحفراً صغيرة لتثبيت المحابر. وضع خارج البيت عَلَماً، كنّا نرفعه ساعة الدرس، أمّا الجرس فقد صنعه من قطعة أخذها من سكّة القطار. كنّا نخضع للنظام ذاته المطبّق في الأديرة والثكنات ومطاعم المعامل. عند انتهاء الساعة، كان يكلّفنا بواجبات تستغرق الليل بطوله. كنتُ أشعر أنّي لم أُخلَق للعمل. كنت أحبّ الاستلقاء على سرير في الهواء الطلق، تحت عرائش العنب، أتأمّل صفاء السماء وبريق النجوم وحركة الغيوم.

أوّل رحلة للكاتب

* ألاحظ أنّ شخصيّة لوثيّا باستوس خافتة باهتة إزاء حضور لوثيو روا الطاغي. أنتَ لم تذكر أمّك ولا مرّة حتّى الآن.

– لكنّها، مع ذلك، أبعدُ ما تكون عن الظلّ. كانت ابنة برتغالي وفرنسيّة: امرأة بالغة الحسن، عينان زرقاوان وشعر أشقر. كائن أثيريّ خفيف، كنتُ أنظرُ إليها وكأنّي أنظر إلى شبح.

* ها أنتَ ذا تستخدم صفاتٍ تطلق على كائنات خفيّة، غير مرئيّة. قلتَ «أثيريّة» و«شبح».

– سترى كم أنتَ مخطئ. كانت أمّي ميزوسوپرانو رائعة، وقد عاشت، قبل أن تتزوّج، حياة ترف ودِعة. كانت لا تملّ من قراءة الكتاب المقدّس، مع ذلك، فقد كان كتابُها المفضّل ملخّصاً لمسرحيات شكسبير ألّفه شارل لام[4]. كانت تضعه على المنضدة القريبة من سريرها. كنتُ، كلّ يوم، أقرأ شيئاً منه سرّاً. وهكذا، وفي حضن الغابة، راحت أصوات «بوسكون» كيبيدو و«عطيل» شيكسبير و«پرسيليس» ثربانتس، و«پروسپيرو» العاصفة، تملأ طفولتي.

* پروسپيرو: سيّد جزيرة، مثل الدكتاتور الأعلى دي فرانسيا.

– فعلاً. انتبهتُ إلى التشابه بينه وبين فرانسيا في ما بعد.

* على نحو ما يحدث في أحلامك، فإنّ لوثيّا هي ميراندا، ولوثيو هو الملك لير.

– نعم، هذا صحيح. كنتُ آمل في سرّي أن يصيب أبي من العثرات ما أصاب الملك لير. ومن السعادة: كنت أتمنّى أن يجد في أختي الكبرى ما وجده الملك لير في كورديليا: البنت القادرة على التخفيف من مرارة شيخوخته وجنونه.

* وهكذا انتهيتَ، وأنتَ في عزّ طفولتك، إلى الخلط بين الواقع والخيال.

– إلى درجة أنّي كنتُ أرى في أمّي، مثلاً، تجسيداً لكلّ مخلوق

---

(4) Charles Lamb (1775–1834): كاتب وناقد إنكليزي. الكتاب المذكور هو Tales from Shakespeare «قصص من شيكسبير»، وقد شاركته أخته ماري تأليفه.

أسطوري. هل تعلم أنّ أمّي هي من دفعني إلى الكتابة؟ في حدود عام 1928، هُرِع الآلاف من سكّان پاراغواي صوب الحدود مع بوليفيا، في حرب لم يُعلن عنها. مات الكثيرون منهم في الطريق، جوعاً. وتمكّن القليلون من العودة إلى بيوتهم مشياً على الأقدام. كان عمري حينئذٍ ثلاثة عشر عاماً، وقد كتبتُ، بمساعدة أمّي، مسرحيّة قدّمناها معاً في البلدات وتبرّعنا بريعها للجنود. كتبتُ في تلك السنة أيضاً قصتي الأولى: قتال حتّى الفجر (يعلّق روا باستوس عليها في هذه الصفحة)، التي هي، في الواقع، قصّة مقتل وطن. صحوة الكتابة في داخلي كانت من قبيل التسلية وإمضاء الوقت، فأنا لم أذهب إلى المدرسة طوال أشهر التعبئة العامة تلك (كنتُ وقتذاك أعيش في أسونثيون، في بيت عمّي المطران) واستطعتُ أن أمضي إجازة طويلة في «إيتوربه».

* ما كان عنوان تلك المسرحية، التي كتبتَها مع والدتك؟

– القهقهة. تروي قصّة محاربٍ عاد إلى بيته مجنوناً، ووجد حقله مدمّراً، بعد أن غزته الحشائش والأعشاب. لكنّه في داخله كان سعيداً، وكان يضحك طوالَ الوقت.

* لكنّ المسرحيّة أضافت كآبة على كآبة المتطوّعين المحبطين من الحرب الموهومة حين شاهدوها. كانت مشاهد قاسية.

– صحيح. لقد بكى الناسُ كثيراً، كما يحدث في دراما السيرك العنيفة. وكانت قهقهات خشبة المسرح تُقابل بالدموع من طرف المتفرّجين. وكانت أمّي تشدو بصوتها الرائع بعض الأغاني الشعبيّة، لكي تخفّف من بكاء الباكين.

* من المناسب أن نتوقّف عند بعض المحطات في حياتك: قلتَ إنّك تعلّمتَ الأحرف الأولى في مدرسة لوثيو روا، لكنّك اضطررتَ، بطبيعة الحال، إلى معادلة ما درسته بما يُدرّس في مدارس أسونثيون. ورويتَ ذات مرّة أنّكَ سافرتَ وحدك من إيتوربه إلى العاصمة، ولبستَ في تلك المناسبة أوّلَ حذاءٍ لك.

- كان حذاءً بطرقة من مطاط الكريب لطالما حلمتُ به. ولمّا لم يكن في مقدور أبي أن يشتريه لي، فقد وفّرتُ، طوال ثلاث سنين، النقودَ التي كانوا يدفعونها لي في البيت مقابل كنس الأرضية أو غسل الصحون. وهكذا استطعتُ أن أقتني ذلك الحذاء. لكن ليس صحيحاً أنّي سافرتُ وحدي إلى أسونثيون. فقد عهدَتْ أمّي بي إلى امرأة (ذكرتُها في ابن الإنسان) كانت هي من قدّمت لي، ما أدعوه أنا، لمحة عن الحياة الجنسيّة. في طريق القطار المتجه إلى العاصمة، هناك حفرة كبيرة نتجت عن تفجيرات وقعت أثناء إحدى الحروب الكثيرة التي شهدتها البلاد. في تلك المنطقة، يجب على الركّاب أن يبدّلوا القطار وينتقلوا إلى قطار آخر. كان مع تلك المرأة طفل رضيع يبلغ من العمر شهوراً قليلة. اضطررنا يومذاك أن نمضي الليل في العراء. وفي لحظة معيّنة، تأملتُ بعينين محمومتين الطفل البريء وهو يرضع من ثدي أمّه، فبدأتُ (وكنت في الثامنة من عمري) بمصّ ثديها الآخر، وتملّكني عندئذٍ، وللمرة الأولى، إحساسٌ بالشهوة.

* سمعتكَ تقول إنّكَ طالما تخيّلتَ «أسونثيون» امرأة عظيمة النهدين، أو امرأة واسعة الفم -وهو العكس تقريباً-. فهل هذا من تأثير تلك الأم المرضعة التي أمضيت معها ليلة في العراء؟

– أنتَ تخلط بين الأشياء. ما تتحدّث عنه هو انطباعي الأول عن العاصمة، إذ تصوّرتُها امرأة ضخمة عليها عباءة، وقد علمتُ في ما بعد أنّها صورة تمثال ينهض في إحدى ساحاتها. كانت المرأة شبه ساقطة، منحنية وفي فمها فجوة كبيرة كانت العصافير تدخل وتخرج منها. منذ ذلك الحين وأسونثيون بالنسبة إليّ هي المرأة آكلة العصافير.

* ولم ترَ والديكَ طوال السنة التي أمضيتها هناك؟

– لا لم أرَهما، لكنّي كنتُ ملزماً بالكتابة إليهما مرة في الأسبوع. كان ذلك تعذيباً يصعب عليّ تحمّله، فليس لدي دائماً أخبار تستحقّ أن تروى: ألم في الضرس. إسهال بسيط. درجة جيّدة في الدروس. كان من الصعب العثور على مادة للكتابة. لذلك ليس أصعب عليّ في الأدب من العثور على موضوع. وهكذا تولّد لديّ نفور من كتابة الرسائل. وقد اعتدت أن أقول لأبي: «أكره كتابة الرسائل، لأنّ كتابة الرسائل تستدعي أن تكونوا بعيدين عنّي». لكنّ أبي كان يصرّ على أن أحكي له عن أحوالي.

* في المقابل، لا يبدو أنّ تديّن المطران إيرمينيخيلدو روا أثّر فيك كثيراً.

– لأنّ الحياة هناك منفتحة. وكنّا، أبناءَ إخوة المطران، نسكن معاً. عشرون صبيّاً، تتراوح أعمارنا بين ست سنوات وثماني عشرة سنة. كنّا جميعاً نتمتّع بمنحة للدراسة في مدرسة «سان خوسيه»، وهي منحة أُعطيت للمطران تعبيراً عن الامتنان لمساعداته. أنا كنتُ أفقر من مرَّ ببيته من الأقارب: ما كنتُ أملك، مثلاً، غير زوجين من الجوارب، مرتوقين في مئات من المواضع. ولمّا كنتُ عاملاً كادحاً، فقد اعتدتُ أن أساعد زملائي الأغنياء في وظائفهم الدراسيّة مقابل جبنة گروير. فالجوع الذي أشعر به كان يستوعب كلّ فضاءات المدرسة وكلّ هواء العالم.

ما أسرع ما جاء الموت!

* الجوع والأسى والانطواء ودنوّ الموت أحاسيسُ بارزة في ابن الإنسان وفي مجموعاتك القصصيّة. فإلى أيّ حدّ أثّرت مدرسة المطران أو بيته في ذلك؟

- هو تأثير نهر إيتوربه، الذي كنّا نسبح فيه. مقابل بيتنا، في منعطف، يرسو قارب يستعمله سائقو الماشية لنقل أغنامهم إلى الضفة الأخرى من النهر. كان هؤلاء عموماً سكارى، لذلك كثيراً ما سقطوا في الماء، حين يرتفع منسوب المياه. إحدى ألعاب طفولتي كانت البحث عن الغرقى في سرير النهر العكر. هناك، في قاع النهر، لمست ميّتاً لأوّل مرّة في حياتي. مددتُ يدي وتحسّستُ وجه الرجل وشعره. لم أستطع إلى الآن أن أتخلّص من الإحساس بالموت في هذه البقعة من جلدي.

* لا يأتي الخوف إلّا بعد معرفة. فأنتَ لا تخاف ما تجهله، بل تخاف ما تلمّسته أو توقّعته أو تخيّلته. تخاف ما بات، بشكلٍ أو بآخر، ملكك. أليس كذلك؟ وهكذا أظنّكَ، حين كتبتَ «أنا الأعلى»، خفتَ الموت، خفتَ على الوجود كلّه. توالت عليك الأمراض واستبدّ بكَ الاكتئاب واعتادتكَ الكوابيس. فهل كنتَ تخاف ربّما ألّا تُنهي الكتاب، أم إنّك خشيت أنّ عدم انتهائك منه قد يعني موتكَ؟

- لطالما آمنتُ أن لا أحدَ يموت قبلَ أن يُنهي عمله. فلو كانت أنا الأعلى هي عملي الأخير حقّاً، لما متّ بكلّ تأكيد قبل الانتهاء من كتابة آخر صفحاتها، أو لواصلتُ كتابتها بعد موتي. صحيح أنّ صعوباتٍ ماديّة وبدنيّة وأخرى تتصل بالعلاقة الزوجيّة قد تراكمت عليّ في تلك الفترة. كانت شهوراً قاسية جداً.

* لكنّها ليست سوداً.

- بل شديدة السواد. لقد شمخت شخصيّة الأعلى في وجهي خصماً فظيعاً. لا شكّ أنّكَ لاحظتَ أنّ الرواية تخلو من الأصوات، أو أنّ فيها، بالأحرى، صوتاً واحداً متعدّداً يتسرّب إلى آخرين. صوتٌ يأتي من كائن بلا صورة (إلا من خلال خداع المرايا). تلك الشخصيّة تفعل فعل المتكلّم من بطنه، فتنغّم أصوات الآخرين، تدلّلها، لأنّ تنغيم اللغة الشفوية، كما هو معلوم، هو ما يولّد بقيّة شخوص الجوقة.

سنوات الذلّ.. سنوات الحرب

* لنعد الآن إلى هروبِكَ من مدرسة «سان خوسيه»، وأنت في السابعة عشرة، وصعدتَ سرّاً، مع خمسةٍ آخرين، إلى سفينة حربيّة، كانت ذاهبة من أسونثيون إلى بويرتو كاسادو، الذي كان، في الواقع، مركز الحرب. لقد باتت تعبئة 1928 الكاذبة حقيقيّة، وبدأت الحرب بين بوليفيا وباراغواي.

- حرّكتنا روحُ المغامرة، وحرّكنا المللُ من حياة المدرسة. وعلى الرغم من أنّ آباءنا حاولوا سحبنا من هناك، فقد عوقبنا بأن أُرسلنا إلى خدمة الإسناد.

كان ذلك أسوأ من الجبهة، فالموت في خطوط القتال نظيف على الأقل. أمّا من بقينا في معسكرات الإسناد الخلفيّة، فقد كُلّفنا بتنظيف المراحيض وحراسة الأسرى البوليفيين. وحين انتهت الحرب، كان واجبنا أن نعود بهم إلى الحدود، في مسيرة شعرنا فيها بالإهانة أكثر ممّا شعروا بها هم.

* ولم تستطع إكمال الثانويّة.

- لم تتعدَّ دراستي الصف السادس الابتدائي، وعدة أشهر من المتوسطة.

* قلتَ إنّ السنوات التالية كانت أقلّ مغامرة. بعد انتهاء الحرب عدتَ إلى منزل المطران، عملتَ لأشهر قليلة موزّع إعلانات تجاريّة، ثمّ صبيّاً في حانوت لبعض الأقارب.

- حكيتُ لك ذلك مرّة. واخترع الأقارب حكاية أنّي سأرث المصلحة، لكي لا يدفعوا لي شيئاً مقابل عملي.

* مع ذلك، فقد غامرتَ بالزواج.

- كان عمري اثنين وعشرين عاماً، مع ذلك فقد بدأت حياتي تتحرّك في اتجاهات أخرى. فبعد أشهر من العمل في بنك لندن، انتقلتُ إلى الصحافة. وصلتُ إلى وظيفة مدير الأخبار في صحيفة «الپاييس» في أسونثيون. وتلقّيتُ، بصفتي هذه، دعوة من السير ميلينغتون دراك، وكان مدير المركز الثقافي البريطاني، فسافرتُ إلى لندن، حيث أمضيت الأشهر الأخيرة من الحرب، وكانت مناسبة لمشاهدة التجارب الأخيرة التي أجرتها ألمانيا على قنابل الـ V-2 التي اخترعها فون برون.

* وهل بدأت الغناء قبل رحلتك إلى أوروبا أم بعدها؟

- قبلها. يعود جزء من الفضل في الرحلة إلى أنّ السير ميلينغتون دراك سألني عن سبب غنائي في حفلة كان حاضراً فيها. والواقع هو أنّي كنتُ أعملُ ليلاً في فرق السرينادة[5] أو في الراديو، لأضيف إلى أجريَ أجراً. لم يكن صوتي جميلاً، لكنّي كنت أكوّن ثنائياً مع تينور رائع، لم يكن في فمه

(5) Serenata: وهي فرق لعزف الأعمال الموسيقيّة الخفيفة والهادئة.

سنّ واحدة، وطالما رفضوه في الإذاعات لأنّه كان يُغرق المايكروفون، بعد دقائق قليلة من الغناء، من كثرة ما يرشقه من وابل لعابه. كانت مساهماتي الرئيسة حينئذٍ -مع رداءة صوتي- هي تأليف أغانٍ على نمط الأغاني الشعبيّة.



لا أريد أن أتذكّر اسمه[6]

* في تلك السنوات بدأتَ تنظم الشعر، وقد نال أحدُ كتبك عام 1942 جائزة مهمّة في أسونثيون.

- لم أكتب القصّة بل الشعر، لأنّ الشعر لا يكلّف ما تكلّفه القصّة. فالقصيدة لا تأخذ منّي أكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات، بينما أحتاج إلى أسبوع لأكتب قصّة. وليس هذا عدلاً. ثمّ إنّك تستطيع في القصيدة أن تضع أيّ شيء -وخصوصاً إذا لم تكن شاعراً-. الطبعات الوحيدة المعروفة آنذاك في باراغواي هي المطبوعة على الآلة الكاتبة، واستنساخ قصص من عشرين أو ثلاثين ورقة عمل متعب. في حالة الشعر، العملُ أبسط. وكان من حسن حظ ذلك الكتاب، الذي صدر عام 1942، أن تكفّلت جمعية أدبيّة بنشره، وكان من سوء حظّي أنّها وزّعته في أنحاء العالم. لا أذكر ما إن كان له عنوان. لا أريد أن أتذكّر اسمه.

* لا عليك. فما هو بالكتاب الذي يسهل تعريفه. وقّعتَه بجميع أسمائك وبلقب واحد من لقبيك[7].

---

(6) بهذه العبارة تبدأ رواية دون كيخوته، حين يتكلّم عن مكان في «لا مانچا» يقول إنّه لا يريد أن يتذكّر اسمه.

(7) من التقاليد السائدة في إسبانيا وأميركا اللاتينية أن يتسمّى المولود بأكثر من اسم واحد. أمّا اللقب فهو دائماً لقبان: أولٌ هو لقب أسرة الأب، وثانٍ هو لقب أسرة الأم.

- أوغستو خوسيه أنطونيو روا. أحملُ اسمَي جدّي لأمّي وجدّي لأبي (أوغستو جدّي لأمّي، وخوسيه جدّي لأبي)، زائداً اسم القديس الذي ولدتُ في يومه: الثالث عشر من حزيران. ثمّ أزلتُ اسمين ووضعتُ لقبَ أمّي، إذ ليس من العدل أن أتجاهل تلك التي دفعتني إلى طريق الأدب.

* وهكذا ظهر اسم أوغستو روا باستوس، مؤلّف يوميّات الحرب التي نشرت في «الپاييس»، لدى عودتك من لندن.

- ثمّ جُمعَتْ في كُتيّب صدر منتصف عام 1946. لكنّ النسخ اختفت حين أحرقت ميليشيات الحكومة في السنة التالية مكتب الصحيفة.

ملاحقة ومنفى

* وفي ذلك الوقت من عام 1947، أمر ناتاليثيو غونثالِث، وزير ماليّة إيخينيو مورينيغو، بالقبض عليك حيّاً أو ميتاً. كيف لرجل مثقف، له تأمّلات طويلة في أدب پاراغواي، وهو أوّل من نشر قصائد مانيدونيو فرنانِدث، أن يتورّط في عملٍ بوليسي كهذا؟

- لأنّه كان، أيضاً، أكبرَ فاسدٍ عرفته أسونثيون حتّى ذلك الوقت، وأكبرَ سارق للمال العام والوثائق الحكوميّة. كان مزيجاً حقيقياً من التناقضات. لكنّ السببَ الرئيس لكراهيته لي هو أنّي، بعد أن سخرتُ في أحد مقالاتي من أفكاره حول تاريخ الثقافة في پاراغواي، امتنعتُ عن مصافحته في حفل استقبالٍ عام. لم يغفر لي ذلك الهنديُّ الداهية، ذو الجبهة المشعرة، تلك الإهانة قطّ.

* ألم يكن هو من كان يمتلك عصاباتٍ تعمل لحسابه، وكانت إرهاصات فرق الموت الحاليّة؟

- كان هو من أنشأها في باراغواي. جنّدَ ناساً من القرية، ونظّم عصاباتٍ مسلّحة سُمّيت لوس پيماندي، أي الأرجل الحافية، كانت تدخل بيوت خصوم النظام، فتنهبها وتدمّر كلّ ما تصادفه فيها. أرسل بهذه العصابات إلى الصحيفة ذات يوم لتبحث عنّي، لكنّي نجوت بعد أن هربتُ عبر السطوح. ولمّا لم أكن منحازاً، سياسياً، في الصراع بين الليبراليين والملوّنين، لم يكن يراني مهمّاً. لكنّ حقد ناتاليثيو كان عابراً للإيديولوجيّات. في تلك الليلة، أمر بالبحث عنّي في بيتي، لكنّي اختبأت في خزّان الماء، من العاشرة حتّى الخامسة فجراً. وطفح الخزّان وفاض، لكنّ المخبأ ستر عليّ لأنّ الطقس كان ماطراً وشديد البرودة في شهر مارس ذاك. في اليوم التالي، عرّجتُ للمرة الأخيرة على بيت عمّي المطران، ثمّ اختبأتُ في مكتب صديق مؤرّخ كان ملحقاً ثقافياً للبرازيل، هو الدكتور أولاندا، خال المغنّي چيكو بواركه. ولم تتراجع رغبته في الانتقام إلا بعد خمسة وأربعين يوماً. عندئذٍ وافقت الحكومة على تزويدي بوثيقة مرور. وهكذا سافرتُ إلى بوينوس آيريس.

* واضطررتَ إلى العمل في مهنٍ عجيبة غريبة. ولمّا كنّا، نحن الصحفيين، احتفاليين بطبعنا، فقد شاع أنّك اشتغلتَ عاملاً في فندق، بينما لم يكن عملك في الحقيقة غير ترتيب أسرّة في نُزُلٍ يرتاده العشّاق ويعمل بالساعات في شارع «غويميس» في بوينوس آيريس.

- وصلتُ إلى هناك بالمصادفة. كنتُ أسكن في بانسيون يعمل بنظام الفراش الدافئ: بمعنى أنّي كنتُ أشارك صديقاً لي سريره حين يذهب هو إلى العمل، وبالعكس. ذات يوم، ترك الصديق لي، فضلاً عن السرير، عمله في بيتٍ للدعارة. فعملتُ طوال أسابيع في حمل الملاءات المستعملة إلى المصبغة، وتقديم المشروبات في الغرف واستدعاء سيارات التكسي

للزبائن، إلخ. بل لقد وقعتْ لي مواقفُ محرجة، فبعد أشهر، وبينما كنتُ أعطي «كورساً» حول كتابة الرواية في جمعية الكتّاب الأرجنتينيين، بدأ أحد الحاضرين، وكان يتردّد على الفندق بصحبة زوجة كاتب آخر، يرمقني بارتياب. هدّأته وبيّنتُ له أنّ أخاً لي توءماً يسكن في بوينوس آيريس، وأنّ الشبه الذي بيننا كبير.

إرث ساباتو

* وعلى الشاكلة نفسها، فإنّ «الكورس» الذي قدّمته في جمعية الكتّاب كان أيضاً إرثاً تركه لك إرنستو ساباتو.

– كان ساباتو قد تعب من الإملاء، فعرض عليّ «الكورس»، بعد أن أعطاني كلّ ما كتبه من قصاصات. لاحظت، حينذاك، أنّه، وهو الذي لم يؤلّف غير كُتيّب من المقالات، كان يعدّ نفسه ليكون روائياً عن طريق هضمٍ دقيق للتقنيّات الموجودة، محنّطة، في ذلك المصنّف. كانت تلك من التجارب المهمّة التي مررتُ بها: تعلّمتُ كيف يبني كاتبٌ نفسه. كان ذلك الوقت الذي نشر فيه ساباتو رواية النفق.

* وفي الوقت نفسه تقريباً، ولكن بطرق مختلفة، بدأتَ أنتَ بكتابة مجموعة قصصك الرعذُيين الأوراق.

– لم أدخل، وأنا أسرد، عبر القصاصات، بل عبر الصعوبة. يقول مثلٌ في باراغواي إنّ الخروج من المصاعب لا يحدث إلا بصعوبة. وهكذا خرجتُ. كنتُ حينذاك أعملُ في دار نشر موسيقيّة، وقد رتّبتُ لنفسي في قبوها سريراً وضعتُه على دكّة لقطع أوراق النوتات. وفي ظرف شهرين، كتبتُ فوق تلك المقصلة القصص السبع عشرة التي تؤلّف تلك المجموعة.

* بعد ذلك، حين عملتَ بائعاً بسيطاً لبوليصات التأمين في شركة كونتيننتال (لم تكن، على ما أذكر، راضياً عن عملك، وكنتَ تفضّل أن تقدّم أفكاراً لوكلاء آخرين، في مجلّة خاصّة بتلك المهنة اسمها أويختيونيس)، لزمتكَ ستّة أشهر لتكمل عملك في روايتك الأولى ابن الإنسان.

- بذلتُ الوقت والجهد نفسه تقريباً لعمل سيناريو الأفلام العشرة أو الاثني عشر التي كتبتها بين عامي 1957 و1970. كلّ شيء بدأ عصرَ يوم من الأيام، حين حضر المنتج أرماندو بو إلى «الكونتيننتال» ليعرض عليّ تحويل إحدى قصص الرعد إلى السينما. عن موافقتي تولّدت فكرة مغامرة مزدوجة: تلك التي بدأتُها في السينما الأرجنتينيّة، مع شبّان مجدّدين مثل لاوتارو مونيّا أو دافيد كون أو رودولفو كون، والأخرى التي بدأها «بو» مع بطلة الرعد بين الأوراق، وهي شابّة رائعة اسمها إيسابيل سارلي، أصبحت في ما بعد أسطورة الجنس في سينما أميركا اللاتينيّة.

* أستغربُ أنّكَ لم تحتج إلّا إلى زمن قصير لكتابة قصص الرعد وسيناريو عدة أفلام ورواية معقّدة من وزن ابن الإنسان، بينما أنفقتَ خمسَ سنوات كاملة لكتابة أنا الأعلى. فأيّ اضطرابات استقلابيّة غيّرتْ إيقاع تنفّسك الأدبي، أغوستو؟

- كانت لتلك الأعمال الأولى وظيفة ثانويّة. تذكّرْ أنّي كنتُ أعيش في المنفى، ممزّقاً وبلا جذور، أريد أن أرفع صوت بني وطني الذين حُرموا الصوت. كنتُ أؤمن بقيمة الرسالة، بقوّة الرواية وقدرتها على إحداث تحوّل اجتماعي. ألاحظ الآن أنّي أخضعتُ نفسي لاغتراب أخلاقي حين سمحتُ لما هو أخلاقي بأن يتغلّب على ما هو جمالي، وحين أجزتُ لهذا المفهوم أن يخلّ بالتوازن في أعمالي. حين ألّفتُ أنا الأعلى، كنتُ قد تخلّيتُ عن دعوتي إلى الأدب الملتزم، وبدأتُ أطمح إلى كتابة نصّ

ينبثق من داخلي. وهكذا تحرّرتُ من ذلك الضمير الذي كان يبدو وكأنّه يُملي عليّ مصائب المجتمع، واستطعتُ أن أجعل حياة النص تعكس تلك المصائب.

محضر اتهام ضدّ البووم

* قلتَ مرّة، وشددتَ على ذلك، إنّ أنا الأعلى قوبلت بالازدراء من لدن مجاميع السلطة المدمنة على الطفرة التي شهدتها الرواية في أميركا اللاتينيّة، بل ومن طرف أعضاء المجموعة أنفسهم. لم يحدث هذا مع ابن الإنسان. أذكر أنّهم حاولوا ضمّ روايتك إلى ذلك التيار بين عامي 1962 و1967 حين لم يجدوا بينهم ممثّلاً لپاراغواي.

– حدث الأغربُ حين ظهرَتْ عام 1957. قوبلتْ باستحسان لم يلبث، بعد خمس سنوات، أن تحوّل إلى نسيان. لكنّنا لم نعدم من حاول، منذ ذلك الحين، أن ينتشل رواية ابن الإنسان نقديّاً ليضمّها إلى الطائفة. عليك أن تأخذ في الحسبان أن دورة الاستهلاك الجديدة التي حدثت لم تثبّتْ قانون قيمِها على أساس النصوص بوصفها نصوصاً، بل على أساس احتمالات الانتشار الكبير التي تحظى به تلك النصوص.

* قلتَ إنّ البووم تصرّف آنذاك وكأنّه سوقُ بيع وشراء، عن طريق اللعبة التي انتهجها الصحفيون والناشرون، بل الكتّابُ أنفسهم. قلتَ أيضاً إنّ الكتّاب بدؤوا، وقد احترفوا المهنة، يتصرّفون وكأنّهم عملة تصريف.

– أظنّ فعلاً أنّ هياكل الإنتاج الرأسمالي أدخلت إلى منظومتها صيغاً محدّدة من العمل الفنّي (كالتشكيلي والأدبي، على وجه الخصوص)، وبدأ المؤلّف، عندئذٍ، يعاني كلّ أنواع الضغوط والتشويهات التي عادةً ما

تفرضها الرأسماليّة على منتجاتها واسعة الاستهلاك. وهكذا تخلّت بعضُ دور النشر عن أساليب عملها التقليديّة، وكوّنت ترستات أو توابعَ تدور في فلك المجموعات الاقتصاديّة - الماليّة التي يحرّكها رأس المال الكبير. أي إنّها، بعبارة أوضح، انضمّت إلى الشركات المتعددة الجنسيّة.

* هذا اتّهامٌ خطير. معنى هذا أنّ كتّاباً وناشرين، معروفين بمعاداتهم للرأسماليّة، باتوا شركاء في المناورة (واعين أم غير راغبين، لكنّ غياب الوضوح في الحالة الثانية خطأ لا يغتفر). هل تقصد، مثلاً، أنّ كتّاباً يعتنقون الاشتراكيّة، مثل خوليو كورتاثار أو كارلوس بارّال أو غابرييل غارثيّا ماركيز، كانوا مستعدّين للانخراط في تلك اللعبة؟

- من الأفضل أن نتتبّع سير العمليّة كاملاً. هناك كتّابٌ اجتازوا نطاق المحلّيّة، ودخلوا، من حيث لا يشعرون، في لعبة خطيرة، من دون أن يحسبوا المخاطر التي تترتب على مجاراة هياكل الإنتاج الرأسمالي. دخلوا في تلك اللعبة على الرغم من صفاء أذهانهم وقوّة حاسة الشمّ السياسيّة لديهم. وهكذا وصلنا إلى حالة من تعاظم الشعور بتأنيب الضمير، إلى درجة أنّ بعض الكتّاب ظنّوا أنفسهم مجبرين على استخدام اللغة التنبّئية والتعبير عن الواقع بأسلوب قاطع. وكم سمعناهم يردّدون، في السنوات الأخيرة، عبارات طنّانة من مثل إنّ الأدب هو ما سينقذ أميركا اللاتينيّة. متناسين أنّ القهر الذي تمارسه السلطات أشدّ وأقوى من قهر الأدب، وأقلّ استعراضيّة، على وجه الخصوص. إنّها سلطات تخضع لقواعد المصلحة الماديّة، وتستهين، في الوقت نفسه، بالقوّة الكاشفة والمضيئة التي يمكن لأدب حرّ أن يتّسم بها.

* هل تقصد أنّ الأدب قادرٌ على ممارسة تأثيره على عمليات تحوّل الواقع؟

- إطلاقاً. أنا أرى أنّ الأدب نشاط من نشاطات أخرى يمارسها الإنسان. نشاط يستطيع أن يسهم في خلق وعي ثوريّ في قارّات كقارتنا. المشكلة هي أنّ تضخيماً حدث للدور الذي في مقدور الأدب أن يؤدّيه بوصفه قوّة محوّلة للمجتمع.

* هل هذه هي الأفكار التي تطرحها رواية المؤتمرات؟

- لاحِظ أنني لستُ مُنظّراً لهذه الأحداث الأدبيّة. إنّما أكتفي بترجمتها في مصطلحات الخيال الخالص. الرواية التي ذكرتَها هي واحدة من الروايات الثلاث التي لم تكتمل بعد، والتي سيكون عنوانها النهائي ربّما: الشامانات[8]. إنّها رواية هجائية تراجيديّة تدور حول الصناعة الثقافيّة، وعلى شاكلة أنا الأعلى، فأنا أستخدم فيها الأسماء الحقيقيّة للمسؤولين عمّا أصاب الأدبَ حتّى حوّله إلى بضاعة، وأضع أسماء مستعارة على الكتابة غير الواقعيّة لأستطيع، هكذا، تحويلها إلى خيال. أنا، بصفتي أميركياً لاتينيّاً، لست مستعدّاً لتقبّل أدبٍ يرى في نفسه هدفاً. الأدب واسطة، وحكاية القصص واجبة، وطريقة حكايتها يجب أن تتجدّد، كلّ يوم، وتتعمّق.

(8) الشامان في ثقافة آسيا الوسطى وسيبيريا وسكّان أميركا الأصليين هو الكاهن أو الساحر الذي يستعان به في شؤون الأرواح والعلاجات البدنية والروحيّة.

كلمة للمؤلّف

نُشرت النسخة الأصليّة من ابن الإنسان في بوينوس آيريس عام 1960. وبها بدأتُ ثلاثيّة تتخذ من حياة المجتمع في پاراغواي وتاريخِه مصدرَ إلهامها. لقد عملتُ في ابن الإنسان وأنا الأعلى والنائب العام (ما زلتُ أعمل في هذه الأخيرة) ببطء، ومزجتها بواقع پاراغواي وتقلّباتِ حياتها التاريخيّة والاجتماعيّة الغريبة المأساويّة. ذلك الواقع الذي يهذي، كما لمسه رافائيل بارّيه ووصفه بداية القرن.

في أدب هذه البلاد، تجبرُ خصوصيّات ثقافتِها المزدوجة، الفريدة من نوعها في أميركا اللاتينيّة، الكتّابَ والأدباء، الذين يكتبون بالقشتاليّة، على سماع خطاب لم تكتمل صياغته، لكنّه موجود في الناحية الوجدانيّة والأسطوريّة من اللغة الغوارانيّة. هذا الخطاب الشفوي، هذا النص الذي لم يُكتب بعدُ، يكمن في العالَم اللغوي ثنائي التكافؤ الهسبانو-غواراني، الذي يتوزّع بين الأداء التحريري والشفويّ. إنّه نصٌّ لا يفكّر الكاتب فيه، لكنّه يتذكّره. وهكذا، فإنّ الغوارانيّة تفرض حضورَها من داخل عالم الپاراغوانيين الوجداني. تطبعُ لغتهم العاميّة وتعبيرَهم الرمزي عن مفهومهم للعالم، عن أساطيرهم الاجتماعيّة، عن تجاربهم الحياتيّة، الفرديّة والجمعيّة.

فأعمال الخيال التي ألّفتُها، تشكّلت، مجتمعةً، في رحم هذا النص الأوّل، هذا النص الشفوي الغواراني، الذي تُصادف علاماتُ الكتابة القشتاليّة صعوبةً كبيرة في إدراكه والتعبير عنه، والذي لم تتمكّن الصيغُ والتأثيراتُ الثقافيّة والأدبيّة الواردة من الخارج أن تمحوَه.

لقد مكّنتني رواية ابن الإنسان، وهي أولى روايات الثلاثية المذكورة، من تعميق تجربة البحث هذه، في محاولة للوصول إلى دمج نصفَيْ الكرة اللغويّة للثقافة في پاراغواي، أو مزجهما في التعبير عن اللغة الأدبيّة لروائييها وشعرائها. عالمان لغويان بتركيبة ووظيفة مختلفتين. حاولت أن أبلغ ذلك عن طريق صِيَغ التجربة الرمزيّة والتجربة السيمانتيّة اللتين تسمحان بهذه التركيبة البعيدة عن مجرّد جمع المفردات والنحو في مزيج القشتاليّة والپاراغويّة المحكيّة، وهي التركيبة التي استعملتها في أعمالي الأولى ولم أوفّق فيها.

ولم تُرضِني محاولة التلاصق السيمانتي التي جرّبتها في ابن الإنسان. لذلك وجدتُ نفسي، بعد عشرين سنة، أصحّح وأعدّل في النص مدفوعاً بالخبرة التي اكتسبتها من عملي في الروايتين اللاحقتين، ضدّ حياتي (لم تنشر بعد) وأنا الأعلى. لقد بدا لي تصحيح نصٍّ منشور وتعديله مغامرة مثيرة. فالنص -قلتُ لنفسي وأنا أستحضر نماذج من هذه الممارسة الآثمة- لا يتبلور مرّة واحدة ونهائيّة، ولا يكبر في سبات النباتات. النصّ، إذا كان حيّاً، يعيش ويتغيّر. يغيّره القارئ ويعيد اختراعه مع كلّ قراءة. إن كان هناك إبداع، فهذه هي أخلاقيته. الكاتب أيضاً -بصفته قارئاً- يستطيع أن يغيّر في النص إلى ما لا نهاية. لا يُفقده طبيعتَه الأصليّة، بل يغنيه بلمساتٍ دقيقة. إن كان هناك خيالٌ حرّ فعلاً وخلّاقٌ فعلاً، فهذه هي شاعريّة التغييرات. هذا يفسح الطريق لمغامرة تحوّل الكتب المنشورة أو غير المنشورة في بحثها عن هويتها، بالضبط كما يفعل الإنسان طوال

حياته: تعديل غامضٌ على مُجرّدين: الشكل والمضمون. وما الشكلُ إلا المضمون ظاهراً على السطح، يقول فيكتور هوغو. وهذا يحدث أحياناً -دائماً تقريباً- ببطء شديد.

ومن ناحية أخرى -قلتُ لنفسي أيضاً، وأنا أزيّف قليلاً حقيقة الأشياء-، إذا كان للإنسان أن يموت ميتة واحدة، فإنّ المؤلّف يطمع في أن يولد كتابُه مراتٍ ومرات. أدركتُ أنّ تلك الفكرة ليست مستبعدة ولا خاطئة. من شكسبير إلى بورخس، من روايات المايا والأزتيك، التي خلّفوها مخطوطة في الرقاع، إلى حكايات الموروث الشعبي والعالمي، من كتابات المؤلّف المجهول في العصر الوسيط إلى المنقول الشفويّ من ثقافات السكّان الأصليين والمدجّنين؛ لنقل إنّ الحرف، من فرانسوا فيلون إلى إيميليانو ريبارولا فرنانِدث، أعظم من نظم الشعر بلغتين في باراغواي، تراجع أمام الروح، وأنّ المكتوب تراجع أمام المنطوق. هذا الشعر، شعرُ التنويعات الذي يزعزع «النصوص القائمة» ويحرّكها، هو الطروس القديمة التي تدفع بالنقّاد الفطنين إلى حافة اليأس، لكنّها تروق للقراء الساذجين.

طالما غيّر مكاريو العجوز، وهو واحد من أبطال ابن الإنسان، المحكوم بهوس الثبات الظاهري لحكاياته، أصواتَ الذاكرة الجمعيّة وأحلامَها المجسّدة في ذلك البدن الهزيل الضئيل الذي لن يحتاج حين الدفن -أي، حين الولادة الثانية- إلى أكثر من تابوت طفل صغير.

لقد قلّدتُ طوال أكثر من عشرين عاماً، وعلى امتداد حياتي، مكاريو العجوز من دون أن أدري، وأرى أنّ على كلّ مؤلّف، وخصوصاً الأقلّ شهرة، أن يعتمد أخلاقيّة التنويعات وشاعريّة التغييرات. أن يعمد إليها حتّى من دون تفكير أو تخطيط، بين رؤية وأخرى، وصولاً، في نهاية الدورة، إلى صورة أخيرة ترفض الأولى وتنفيها.

وعليه فإنّ رؤية ابن الإنسان هذه عملٌ جديد، وإن لم يبلغ حدّ القطيعة مع الرؤية الأصليّة. إنّها، في جوهرها، وفيّة للأصل، لأنّ حقيقتها مؤسّسة على واحدة من الحكايات المحتملة التي في مقدور الكلمة الناقلة للأساطير أن تخترعها.

أ. ر. ب.
تولوز 1982

مقدّمة المترجم
في البدء كان الإنسان

لماذا ابن الإنسان؟

لأنّ الكنيسة ترى أنّ المصلوبَ هو ابن الله.

منذ الآن -أضاف الواعظ- سيُطلق على هذا التلّ اسم طريق الربّ، لأنّه يمرّ عبر أكثر الأماكن تواضعاً، فيملأها بركة... [...]

لم أكن موافقاً -قال مكاريو حينئذٍ- ما كان من داعٍ لتغيير الاسم. بل كان الواجب أن يطلق عليه اسم طريق الإنسان.

وما دخلُ الكنيسة في الموضوع؟

لأنّ الكنيسة تقف على طرف النقيض من واقعِ ضحيّته الإنسانُ ابن الإنسان. وهكذا فهي، حين تنسب المسيح إلى الله، إنّما تجرّده من صفته وتضامنه مع أخيه في الإنسانيّة.

تحوّله إلى أيقونة.

محروسة بعناية الأب

بينما شعور الجمهور

شعور الناس الفقراء
هو أنّ من يُصلَب إنسان ابن إنسان.
ابن أفعاله وأعماله.
يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.
إنسان يكدح
ويعاني
ويتضامن مع بني «جنسه»
ويُصلب من أجلهم.
يصلب هو
لا شبيهه.
يصلب على يد إنسان مثله.
وهذا هو بيت القصيد:
صلب الإنسان على يد الإنسان.
ظلم الإنسان لأخيه الإنسان.
وهكذا ينتقل المسيح من الرمز إلى الواقع
من منظور مجرّد إلى منظور اجتماعي واقعي.
مسيح متضامن، يُؤْثِر الآخرين على نفسه:

«لم يكن بخيلاً. فما كان يوفّر لنفسه إلا ما يكفي لشراء مستلزمات عمله من مواد وعُدد، أمّا الباقي فيوزّعه على من كانوا أحوج إلى المال منه: يسدّد ديونَ المزارعين الذين أتلفت النيرانُ أو البَرَدُ أو الجرادُ زرعهم. ويشتري الهندام والطعام للأرامل واليتامى».

فالمسيح إنسان.

دينه الإنسانيّة

وهي المسيحيّة الأولى

قبل أن تدخل الكنيسة على الخط وتصوّره خالصاً منزّهاً لمّاعاً برّاقاً:

وكيف لا تصوّره هكذا وهو ابن الله!

> نظر الكاهن إلى المنحوتة بطرف عينيه، وبدا على إيماءته وصوته نفورٌ لم يستطع مداراته. فهيئة المسيح غير بالغة التأثير في من ينظر إليه. ينقصه الشعر. ثمّ إنّ عروق الخشب تملأ وجهه وصدره ببقع خشنة زُرق.
>
> «إنّه من صنع مريضٍ مجذوم -قال الكاهن-: وقد يسبّب العدوى.. وبيت الربّ يجبُ أن يكون نظيفاً دائماً. فهو موطن الصحّة».

*

لطالما أشار الدارسون والنقّاد إلى الثنائيات والمقابلات *dualidad* في هذه الرواية.

وفي ذلك انعكاس لواقع تلك البلاد المليئة بالثنائيّات:

- ثنائية الموروث الشعبي والدين
- ثنائيّة المسيحية والوثنيّة
- ثنائية التاريخ والجغرافيا
- ثنائية اللغة: الإسبانية والغورانيّة
- ثنائية السكّان: الأصليين والطارئين

وفي تلك الثنائيات ما يجعل من البلاد الأميركية بلاداً عجيبة غريبة.

لأنّ كلّ ذلك مختلط فيها وباقٍ. يسري في دم أبنائها وعاداتهم وتقاليدهم ودينهم ولغتهم وأرضهم.

باراغواي، على وجه الخصوص، بلد ثنائي اللغة *bilingüismo*

هو البلد الوحيد الذي يتخذ من لغة سكّانه الأصليين لغةً رسمية ثانية، إلى جانب القشتالية أو الإسبانية.

والرواية تعكس هذه الحالة بوضوح.

يشير باستوس إلى هذه المسألة في مقدّمة الكتاب:

> كانت إحدى أخطاء أبي الكبيرة حرماني من تعلّم لغة السكّان الأصليين، فثمّة خطّ أحمرُ توافقت عليه الأسر البرجوازيّة في باراغواي. لكنّ أوّل شيء فعلتُه، بالطبع، هو أنّي تعلّمتُ الغوارانيّة، جرياً على قاعدة الممنوع المرغوب. تعلّمتُ هذه اللغة وأنا أسبح في النهر مع أترابي في البلدة الجنوبيّة الصغيرة التي أخذنا أبي إليها.

*

في الجانب التاريخي، توصف الرواية بأنّها «حكاية رمزية أخلاقية لتاريخ باراغواي».

تمتد وقائعها بين حادث سقوط مُذنّب هالي عام 1910 ونشوب حرب چاكو (1932–1935)، وإن بدأت بإشارات إلى عهد دكتاتور باراغواي غاسپار رودريغِث دي فرانسيا (1813–1840) وإلى الحرب العظيمة، التي نشبت، بتدبير من بريطانيا الاستعماريّة، بين حلف ثلاثي (البرازيل والأرجنتين وأوروغواي) وپاراغوي (1864–1870)، والتي أبيد فيها 75% من سكّان باراغواي.

لكنّ الحدث التاريخي هنا يصبّ في خدمة الإنسان.

فهو حين يتكلّم عن الحرب، لا يهمّه منها التاريخ والتوثيق، قدر ما يهمّه ما تولّده الحرب من ظرف اجتماعي وحياتي ينعكس على الإنسان.

أمّا عن موقعها في الرواية والأدب، فتوصف بأنّها إحدى روائع الأدب في أميركا اللاتينيّة.

وقال عنها بورخس: «إنّ اهتمامها بالعملية التاريخيّة والهوية الوطنية للپاراغواي، فضلاً عن الجانب الفنّي الواضح، يجعل منها واحدة من أفضل الروايات الأميركية اللاتينية في القرن العشرين».

ثمّ إنّها من روايات الريادة التي مهّدت لظهور ما عرف في الستينيّات بالطفرة أو البووم.

يقول المكسيكي كارلوس فوينتِس، وهو من روّاد ذلك التيّار:

«حتّى أعوام قريبة، كانت الرواية الأميركيّة اللاتينيّة أقرب إلى الجغرافيا منها إلى الأدب، وكان الروائيون يبدون أقرب إلى كبار مستكشفي القرن السادس عشر، حين لم يروا في أميركا اللاتينيّة إلّا عالماً من غاباتٍ وجبال. وحين صوّروا الطبيعة عدوّاً يبتلع الإرادات ويحطّمها ويذلّ المقامات ويؤدّي بها إلى الفناء. كانت الطبيعة هي البطل، وليس الرجال الذين تسحقهم الطبيعة بقوّتها».

هذا التركيز على قضيّة الإنسان هو ما يضع رواياتٍ من شاكلة \ابن الإنسان\ في خانة ما عُرف بأدب الرفض والاحتجاج *literatura de denuncia*، الذي يعرّفه باستوس بأدب الواقع الإنساني الملتزم وثورة الإنسان في المجتمع في وجه كلّ ما يسحقه ويحطّ من قدره:

شيء ما يجبُ أن يتغيّر. لا يمكن الاستمرار في ظلم الناس
إلى ما لا نهاية. الإنسانُ كالنهر، أبنائي...، قال العجوز مكاريو

فرانسيا. يولدُ ويموتُ في أنهار أخرى. وما أسوأ النهر الذي يموت في الهور! الماءُ الراكد سامّ. يكوّنُ مستنقعاتٍ تتوطّنها حمّى خبيثة، جنونٌ مجنون. وحين تريد أن تداوي المريض أو تخفّف عنه، فليس أمامك إلا قتله. بات تراب هذه البلاد متخماً بالموتى. «والموتى تحت التراب لا يتجذّرون!» لا بدّ من مخرج من هذا التناقض المرعب. تناقض الإنسان المصلوب على يد الإنسان. وإلّا فستحلّ بنا لعنةٌ أبديّة. وهذا هو الجحيم. لا بدّ من أملٍ في الخلاص...

لكنّه رفضٌ ديناميكيٌّ متحرّكٌ فاعلٌ ثائرٌ، من أجل التغيير. بالفعل والعمل، لا بانتظار المعجزات:

- هل تؤمن بالمعجزات، كريستوبال؟

- معجزات؟

- المعجزات من الأمور المستحيلة. وهو ما لا يستطيع فعله إلّا الربّ...

- ما لا يستطيعه الإنسان، لن يستطيعه أحدٌ سواه.

*

في جانب آخر، يكثر الدارسون من الإشارة إلى الرمزيّة التي تزخر بها الرواية:

فالصليب رمز، لأنّه «يحمل» الإنسان المعذّب.

والقطار رمز لأنّه، وهو منطلق، يرمز إلى التقدّم. وحين يُفجّر وتتحوّل إحدى عرباته إلى سكن لأحد الثوّار، يصبح رمزاً لحياة جديدة. لانطلاقة جديدة، لأنّه يتحوّل إلى وكر للإعداد لثورة جديدة.

والشاحنة رمز، لأنّها تدرج وتتعثّر وتدمّر وتحشى دواليبها بالحَلْفاء، لكنّها لا تتوقّف، لأنّ أمامها مهمّة نبيلة.

ولأنّها تحمل الإنسان عبر التلّ «إيتاپيه» والسهل «ساپوكاي» والصحراء «چاكو».

فكأنّها تلخّص حركة پاراغواي بحركة القطار والشاحنة.

وكأنّه يلخّص جغرافيتها.

حتّى أبطال الرواية رموز:

فكاسيانو هو الثورة التي قُمعت.

وابنه كريستوبال هو امتداد للثورة. حتّى وهو مهزوم منكسر، فهناك ابنه، الذي كان ينتظره.

ابنه كوچوي، هو الأمل.

*

قلنا إنّ الرواية تُدرج ضمن تيّار البووم. أو ضمن بداياته.

وهنا أريد أن أُدلي بدلوي لأقرّب صورة ما حدث للرواية على يد روّاد هذا التيار، ثمّ على يد أبطاله اللاحقين.

كانت الرواية، في ما مضى، تسير بالقارئ في أحداث لها مسار خطّي خيطي. قد يكون في مسارها شيء من التعرّج، شيء من الغموض. شيء من التشويق الموجّه.

مع خوان رولفو وبورخس، زاد المسار تعرّجاً وزادت الأجواء غموضاً: شخصيات معقّدة، لغة ملتوية، شخوص مقطّعون، وأحداث متشظّية.

ظاهرُ هذه الرواية هو التمزّق

لكنّ الانتباه

والتركيز

وإعادة القراءة، ربّما

ورسم مخطط بالشخوص

وشجرة عائلة، ربّما،

سيكشف لنا عن ترابط تام وحبكة محكمة.

وأنا أعمل في الترجمة، كنتُ أربطُ صفات حصان بصفات حصان يظهر بعد فصلين أو ثلاثة لأعرف أنّ الراكبَ هو نفسه.

ربط بالصفات

بسنّ الذهب

باللحية

بالمدرسة

بالإيماءة

لا بالأسماء

أو الألقاب.

غموض متعمّد ومخطّط له.

غموض يضيّعك برهة

قبل أن تكتشف سرّه وموضعه، لتشعر بنشوة من يحلّ لغزاً في الرياضيات، أو يكتشف كلمة ناقصة في لعبة كلمات.

مع ذلك، تبقى خيوط سائبة:

سننتهي من القراءة ونحن لا نعرف حقيقة بعض الأحداث.

هو، إذاً، «تشغيل» متعمّد لذهن القارئ

تمرينٌ له على القراءة الواعية اليقظة.

وفتح مجال لمناقشة وجدال، على مبدأ أبي الطيّب المتنبي:

أنامُ ملءَ جُفوني عن شوارِدِها ويسهرُ الخَلْقُ جرّاها ويختصمُ

لكنّ ابن الإنسان هي من بدايات البوم. والجرعات فيها مقبولة.

*

صدرت ابن الإنسان في طبعتين مختلفتين:

طبعة 1960، فيها تسعة فصول.

طبعة 1984، في عشرة فصول، بعد أن أضيف إليها فصل «خشب محترق» كان صدر منفصلاً.

ولا يقتصر الأمر على فصل ناقص أو فصل زائد.

بل تنقص وتزيد فقرات ضمن الفصل الواحد.

ولتلك الظاهرة تفسيرها.

إذ يدافع باستوس عن مراجعة النص وتغييره، ويرى في ذلك تجربة محفّزة. يقول: «إذا كانت للقارئ قراءاته، فللكاتب أيضاً كتاباته. فالنص لا يتبلور مرة واحدة وإلى الأبد. وهو ليس محكوماً كالنبات بالسبات. فالنص الحي يواصل الحياة والتطوّر».

وهو يبدأ الفصل الأوّل من الرواية بقول للشاعر والمسرحي الإيرلندي وليام ييتس: «**حين أعدّل على مؤلّفاتي إنّما أعدّل على ذاتي**».

ويشير في ثنايا مقدّمته إلى العديد من النقاط التي أثرناها هنا.

*

ابن الإنسان

صرخة من أجل الإنسان.

الإنسان الذي لم يطلب يوماً أكثر من

وطن

خبز

حريّة.

*

بقي أن أشير أخيراً إلى أن حواشي الرواية جميعها من وضع المترجم. وتشير الأرقام الواردة ضمن [ ] في المتن إلى رقم حاشية سابقة.

لقاؤنا القادم مع ثانية الثلاثيّة: «أنا الأعلى *Yo, el Supremo*».

قراءةً ممتعة!

بسّام البزّاز

الجزائر، 22 أكتوبر 2021

إلى أبي

وإلى ذكرى أمّي

يَا ابْنَ آدَمَ، أَنْتَ سَاكِنٌ فِي وَسْطِ بَيْتٍ مُتَمَرِّدٍ (12.2)

يَا ابْنَ آدَمَ، كُلْ خُبْزَكَ بِارْتِعَاشٍ، وَاشْرَبْ مَاءَكَ بِارْتِعَادٍ وَغَمٍّ. (12.18)

وَأَجْعَلُ وَجْهِي ضِدَّ ذلِكَ الإِنْسَانِ وَأَجْعَلُهُ آيَةً وَمَثَلًا، وَأَسْتَأْصِلُهُ مِنْ وَسْطِ شَعْبِي. (14.8)

(حزقيال)

سأجعل الصوتَ يسري في العظام من جديد...

والكلامَ يكتسي جسداً من جديد...

بعد أن يغيبَ هذا الزمنُ

ويشرقَ زمنٌ جديد...

(نشيد الموتى الغوارانيين)

الفصل الأوّل

ابن الإنسان

حين أعدّل على مؤلّفاتي إنّما أعدّل على ذاتي.

و. ب. ييتس[9]

.1

جلدٌ على عظم. ظهرٌ مقوّس. يهيم في البلدة، كعادته، ساعة الظهيرة المستعرة بريح الشمال. مرّت سنواتٌ كثيرة، لكنّي ما زلتُ أتذكّره. تراه في أيّ مكان، ينبع من أيّ ركنٍ معتم، من أيّ ممرٍّ مُظلم. وقد يستند على إفريزٍ حتّى يتحوّل إلى بقعة إضافيّة من تلك التي تملأ جدار الطوب المتصدّع. ثمّ تأتي أشعّة الشمس، بقيظها، لتزحزحه عن موضعه. يواصل السير متلمّساً طريقه بعصاه. عينان هامدتان، يغشاهما ماءٌ أبيض، أسمالٌ من رداء قطني على هيكل عظمي، قامة لا تربو على قامة صبيّ.

– ها هو ذا مكاريو!

---

(9) وليام بتلر ييتس W. B. Yeats (1865–1939): شاعر وكاتب مسرحي إيرلندي.

نترك خذاريفنا قربَ الحفرة، ونخفّ لرؤية ذلك العجوز الذي كوته نارُ القيظ. ويمرّ مكاريو من أمامنا، يمرّ ابنُ أحد عبيد الدكتاتور دي فرانسيا الطلقاء من أمامنا، مثل شبح آتٍ من الماضي.

يلاحقه بعضُنا لاستفزازه، لكنّه لا يعيرنا بالاً، تحمله ساقاه الدقيقتان كساقَيْ عصفور الدوري.

- مكاريو الدوري!

يلاحقه التوءمان غويبورو، ويرشّانه بحفنات من التراب تغطّي، للحظة، ذلك الجسم الصغير.

- أيتها الحشرة القبيحة.. قبيحة.. قبيحة!

- أيّها العجوزُ بلا ذيل ![غوارانيّة]

لا تؤثّر فيه صيحاتُ الاستهزاء ولا عبارات التندّر، بل كان ينسلّ، مُترباً مرتعشاً، هارباً من القيظ، إلى أفياء الحدائق وظلال أشجار الهوفينيه التي تحاذي الرصيف.

ها هي ذي إيتابيه، بعد ثلاثة قرون من تأسيسها، بأمر من نائب الملك في ليما، بلدة بائسة ضائعة في قلب أرض «غوايرا» الصفراء.

ولم يقدّم نائب الملك المعلول ذاك خدمةً تُذكر لتلك البقاع الشاسعة المجهولة المقفرة، فما كان معنيّاً بفقراء ولا بكادحين، بل كان يوجّه كلّ عنايته لناظري الأهالي، فيوزّع الأراضي عليهم، وللزعماء المحليّين، فيكافئهم على إسهامهم في إخضاع قبائل الهنود.

لم يبقَ من تلك البلدة البدائيّة غير بيوت الحجارة والطوب التي تحيط بالكنيسة. من الجدران المتهالكة تطلّ سيقان السرخس البرّيّة، وتطرح دعامةٌ خشبية قديمة، فجأةً، برعمَها الأخضر. في الميدان، وبالقرب من

البرج الخشبي، تتوهّج ثمارُ جوز الهند تحت الشمس بغُرفٍ من لهيب جاف مسترسل، وتتحوّل الأبخرة الساخنة بينها إلى صرير يشبه زقزقة عصافير استبدّ بها العطش.

ووصلت إلى البلدة تمديداتُ خطوط سكّة «بيّا إنكارناثيون». وانضمّ سكّان إيتاپيه إلى العمّال. وقضى كثيرون منهم تحت فلنكات الخشب تلك، التي كانت ترنّ تحت ضرب الأرفاش وطرق المعاول وكأنّها سبائك معدنيّة.

ومع السكّة، بدأت البلدة تنفض غبارَ الكسل عنها. صار الرصيف الترابي يشهق تحت الأقدام الحافية التي تنشط عليه. أمّا وجنات بائعات الچيپا والألوخا[10] اللائي كنّ ينشطن مرّةً في الأسبوع مع مرور القطار، أمّا ثيابهنّ المهلهلة، فقد بدأتْ تصطبغ بالحمرة.

باتت القطارات تنشط. وباتت لدينا محطّة جديدة ورصيف حجري استعاد لونه السابق. خط ثانوي يؤدي إلى معمل السكّر الذي أُنشئ على النهر، ليس بعيداً عن البلدة. قبالة المحطّة مستودعاتُ محلّ لبيع الخمور، أمّا حوانيتُ الأتراك فكانت تؤذي العين بجدرانها التي تبدو وكأنها طليت بالجير الحي. وأزاحت الكنيسة الجديدة ما تبقّى من القديمة. وأزيلت الشموعُ السود الموضوعة في قشور جوز الهند. وأزيل برجُ الناقوس أيضاً. ووضعوا مكانه مقصوراتٍ ومنصّة مخصّصة للاحتفالات التي تقام في عيد سانتا كلارا، شفيعة البلدة وحاميتها.

يُسمع الآن ضجيجٌ وتُلاحظ حركة. ولا شيء غير ذلك.

---

(10) Chipá: خبز معمول من الذرة والجبن والبيض والنشا بالحليب. Aloja: ماء محلّى بالعسل ومطيّب بالأعشاب.

وملأت الأكواخُ الطريق المؤدّية إلى «بورخا» و«بيّاريكا»، من أوّلها إلى آخرها، تلك الطريق التي توقّفت على قارعتها المغبرّة، منذ الأزل، عربةٌ بدت طافية على السهل.

شيء آخر باقٍ من ذلك الزمن.

بعد ما يقرب من نصف فرسخ من البلدة، ينهض تلّ إيتاپيه، الذي يمرّ من أسفله الطريق العام، الذي يقطعه جدول يتشكّل من نبع ذلك التل. في ساعات بعينها، حين تعمل انكساراتُ الضوء في ذلك المرتفع تكبيراً وتصغيراً، يبرز كوخ المسيح في الأعلى، ومن فوقه صفحة السماء المتوهّجة.

هناك اعتادوا الاحتفالَ بالجمعة الحزينة.

لأهل إيتاپيه طقوسُهم، تقاليدُ باتت حكاياتٍ، وإن استندت إلى أحداث ليست موغلة في القِدم.

يضعون المسيحَ في صدر العربة، مسمّراً على الصليب الأسود، تحت مظلّة من الحَلفاء، شبيهة بمظلّة الهنود، لحمايته من الأنواء. ما كانوا في حاجة إلى تمثيل مراحل الصلب، فبعد عظة الكلمات السبع، يأتي مشهدُ النزول عن الصليب. تمتد الأيادي المتشنّجة المرتعشة نحو المصلوب. ينزعون عنه مساميره بقوّة ونفاد صبر، ثمّ ينزلون من التلّ حاملين التمثال على ظهورهم بين أناشيدَ وصلوات. يقطعون نصف فرسخ حتّى الكنيسة. لا يدخل المسيح. يصل إلى الفناء وحسب. يبقى هناك لحظة، بينما تعلو الأصوات وتصدح بالأناشيد وتتحوّل إلى صرخات عدائيّة متحدّية. وبعد هنيهة يلفّ المحمل حول الجمهور، ويعود المسيح أدراجه إلى التلّ محمولاً على الأكتاف، يعلوه شحوبُ الموتى أمام ضوء المشاعل والمصابيح المضاءة بالشموع.

طقوس متمرّدة بدائيّة، خميرة التزام مردُّه تمرّدٌ جمعي، فكأنّ النفوس تثور لرائحة القربان وتنفجر في هتاف لا يُعرف ما إن كان لضيقٍ أم لرجاء أم لكره، عند التاسعة من جمعة الآلام[11].

وهذا هو ما أورثنا، نحن أبناء إيتاپيه، سمعة التعصّب ووصف الهرطقة.

لكنّ الناس، آنذاك، واصلوا الحجّ إلى التلّ، سنةً بعد أخرى، لينزعوا عن المسيح مساميرَه، وليطوفوا به في البلدة. المسيح الذي يرون فيه الضحيّة التي يجب الثأر لها، لا الربّ الذي أراد أن يفتدي البشر ويموت من أجل البشر. فقد لا تستوعب عقولهم البسيطة هذا السرّ.

فهو إمّا ربّ، وما كان لربّ أن يموت. أو إنسان أريق دمُه على رؤوسهم، من دون طائل، إذ لم يستطع أن يفتديهم، لأنّ الأمورَ لم تتغيّر إلا نحو الأسوأ.

ربّما كان أصلُ مسيح التلّ هو ما أيقظ في نفوسهم ذلك الاعتقاد الغريب في مخلّص كان على الدوام مهلهلَ الثياب مثلهم، مثارَ سخرية وميّتاً مثلهم، منذ أن كان العالم عالماً. اعتقادٌ يعني، في حدّ ذاته، استثماراً للإيمان وميلاً دائماً إلى الثورة.

قد يكون الذي يحاولون إعادة الاعتبار له، أو، على الأقل، الدفاع عنه حقّاً، هو غاسپار مورا، صانع الأدوات الموسيقيّة، الذي ترك البلدة، بعد أن أصيب بالجذام، ولجأ إلى الجبل. لكنّهم لا يسمّونه بالاسم، في اتفاق ضمني، وربّما غريزي، على الصمت.

كنتُ حينذاك صغيراً، وشهادتي منقوصة، لأنّي الآن، وأنا أسطّر هذه

---

(11) La hora nona: هي في الطقوس المسيحية الساعة التاسعة بعد شروق الشمس. أي الثالثة عصراً، حين لفظ يسوع المسيح أنفاسه الأخيرة، وهو على الصليب.

الذكريات، أشعر بأنّ خيانة الرجل الذي في داخلي والنسيان والميتات المتكرّرة في حياتي، تختلط ببراءة طفولتي وبكلّ ما هو مذهلٌ وعجيبٌ فيها. أنا هنا لا لأستحضر تلك الذكريات؛ بل ربّما لأمحوها.

.2

أمّا خير من يعرف تلك القصّة فكان مكاريو العجوز. تلك القصّة وغيرها الكثير.

كنّا آنذاك صِبيةً صغاراً. لم نكن جميعُنا نسخر منه. بعضنا يسير وراءه، لا لنثر التراب عليه، بل للاستماع إلى قصصه وحكاياته، التي تحمل عبقَ الماضي ونكهته. كان حكواتياً رائعاً، حتّى قبيل تدهور صحّته وموته: ذاكرة حيّة، مطّلعة على أمور البلدة، بل تتجاوز حدود البلدة. هو لم يولد فيها، بل يقال إنّه من مواليد فرانسيا[1]. فاسمه في سجلّ المواليد يحمل ذلك اللقب.

يبدو أنّ مكاريو ولد بعد سنوات قليلة من قيام الدكتاتوريّة الأبديّة[12]. كان أبوه، العبدُ المعتوق، پيلار، وصيفاً للأعلى[1]، يحملُ لقبه. وقد تسمّى الكثير من العبيد الذين أعتقهم -بينما زجّ بأبناء النبلاء في السجون- بهذا الاسم، المظلم ظلمة تلك الحقبة، فباتوا موسومين بطالعه الذي لا يُمحى، كما هو لون بشرتهم.

وكان مكاريو كذلك. نستمع إليه وأبداننا مقشعرّة، فصمته بليغ قدرَ ما هو كلامه. تكوي أجواءُ تلك الفترة الغامضة وجوهَنا. يتكلّم بالغوارانيّة،

(12) إشارة إلى دكتاتورية غاسپار رودريغيث دي فرانسيا[1] التي دامت من عام 1813 حتى عام 1840.

فتحيل نبرته الهنديّة الحلوة خوفَنا أمناً، بل تتغلغل في دمنا، أصداءً أصداء، أخيلةً أخيلة، انعكاساتٍ انعكاسات. ربّما ليست حقيقة الأحداث، ولكن سحرها.

«الإنسان، يا أولادي» -يقول لنا- «كالنهر. فيه منحدرٌ، وله ضفة. ينبع من نهرٍ ويصبّ في نهر. لا بدّ من فائدة يقدّمها. ما أسوأ النهرَ الذي يموت في الهور!».

كان يراوح في الماضي.

«أمر السيّد الأعلى بهدم بيوت الأغنياء وقطع الأشجار» -حكى لنا- «كان يريد أن يرى كلّ شيء. في كلّ ساعة وفي كلّ وقت. حركاتِ خصومه، الذين باعوا أنفسهم للمملوكا[13] ولرجال بوينوس آيريس. بل كان يريد أن يراقب حتى أفكارهم، بعد أن تآمروا عليه ليل نهار. إنّهم الهور الذي يريد أن يبتلع وطننا. لذلك فهو يلاحقهم ويدمرهم. ولذلك فهو يريد أن يردم الهور بالتراب».

لم نكن نفهمه تماماً. لكنّ شخصيّة الأعلى كانت طاغية، تلوح أمامنا، على خلفيّة من سماواتٍ وليالٍ، تراقب البلدَ بإرادة لا تُقهر، وتحكمه بسلطة مقتدرة كالقَدَر.

- كان ينام بإحدى مقلتيه ويتّقي الأعادي بالأخرى. ما كان لأحد أن يخدعه ويغشّه.. نرى الأقبية المظلمة مليئة بأناس دُفنوا أحياء، يتحرّكون في رقادهم تحت رقابة العين الساهرة المثابرة. وكنّا نحن أيضاً نتحرّك في كابوس، لكنّه كابوس يعجز عن أن يجعلنا نكره ظلّ السيّد الأعلى.

كنّا نراه مساءً، على صهوة جواده، يطوف عبر الشوارع المهجورة،

---

(13) Mamelucos: كلمة برتغالية تشير إلى الجيل الأوّل من مزيج الأوروبيين مع الهنود في أميركا اللاتينيّة.

محاطاً بثلّة من الرجال المسلّحين بالسيوف والبنادق. يمتطي ظهر حصانٍ كأنّه الأيل، فوق سرجٍ قرمزيّ من المخمل، فيه مواضعُ لمسدّس ومواضعُ لحراب، معمولة من الفضّة. يتبختر، مرفوعَ الهامة، ممسكاً بالأعنّة، ويمرّ بخُطا سريعة متنشّقاً صمت الغروب، تحت ظلّ القبّعة المثلّثة الكبيرة، متدثّراً بعباءة سوداءَ بطانتُها حمراء، فلا تبدو منه غير جواربه البيض وحذائه الجلدي اللمّاع بإبزيمه الذهبي، المربوط إلى ركابه الفضّي. وفجأة يلتفت وجه الطير الحاد نحو البوّابات والشبابيك المغلقة كالقبور، فنتراجع نحن، حتّى نحن، وبعد قرن، نرتدّ نحو الخلف، مرعوبين من كلمات العجوز، ومن تلكما الجمرتين المتقدتين اللتين تتجسّسان علينا من فوق صهوة الحصان، بين قعقعة السلاح وجلبة الحديد.

بيت «لا پلاثا دي أرمادا» العتيق، ليلة الملوك، الاحتفال بميلاده. بين أضواء الشموع الكثيرة التي تتلألأ في عتمة الرواق، ترى السيّد الأعلى، بلحمه وشحمه، محشوراً في بدلة زرقاء وبنطلون أبيض، متمنطقاً سيفه، يوزّع العطايا على أبناء الفقراء، عند أقبية السجن تقريباً. يتخلّون عن قناديلهم، يتركونها في الممرّات، بدلاً من قطع النقود التي كانت يدا القدير المقتدر تنثرها نثراً. ما كانوا يملكون ما يعطونه إياه غير تلك القطرة من ضوء شكرهم وضياء خوفهم.

كان مكاريو يحرص على استخدام هذه الكلمة. ولكن كان ممكناً تصوُّر الرجل المقدّس المقيت، بهندامه الفاخر، وهو يتفحّص بنظراته أسمالَ الفقر تلك وعلاماتِ التوقير تلك، ليرى ما إن كان تحت جذام التآمر أصغرُ علامة من تمرّد أو أقلّ بادرة من كراهيّة.

– ما كان في مقدور أحدٍ أن يخدعه.

حتّى الخلاسي بيلار، أبو مكاريو، لم يتمكّن من خداعه، وهو الوحيد الذي كان موضع ثقته.

«كان يحبّه محبة ابنه» -قال لنا ذات مساء- «كان هو من يذوق طعام السيّد الأعلى ليتأكّد من خلوّه من السمّ. وحين بات لا يستطيع النهوض من السرير، بعد أن يبّس الروماتيزم مفاصله، كان أبي بيلار هو من سافر إلى إيتابوا ولاكانديلاريا لجلب العلاج الذي كان الطبيب الفرنساوي، السجين في سانتا آنا، قد وصفه له. رافقتُ أبي في سفرته. تعافى السيّد بذلك الدواء. وكان أبي أسعد الناس. لكنّي جئت آنذاك وأفسدتُ فرحته...» - سكت برهةً، يستعيد الذكرى وذقنه مغروسٌ في صدره.

«وكيف أفسدتَ عليه فرحته، يا جدّي مكاريو؟» - تشجعتُ لسؤاله.

«ذلك المساء...» -تحرّكت عُصابتا الحرير المحتقنتان- «ذلك المساء رأيتُ أونصة من الذهب على الطاولة. كان السيّد قد خرج في أول جولة له بعد مرضه. لم أستطع أن أقاوم الإغراء. تناولتُ الأونصة.. وضعتُها في يدي، فانبعث من يدي دخانٌ وضاعت رائحة لحم مشويّ. ألقيتُ بالأونصة وركضت لأختبئ. كان السيّد الأعلى قد وضع الأونصة على موقد متّقد. حين عاد استدعاني. طلب منّي أن أبسط ذراعي. أن أفتح يدي. ورأى كيّ الحقيقة مرسوماً عليها. لم يكتفِ بتلك العقوبة، بل أمر أبي بأن يقرعني بالعصا. أمامه. خمسون جلدة أمامه. ضربني أبي خمسين جلدة، الواحدة تلو الأخرى، بفرع جوافة مبلول بالخلّ والملح. تحمّلتُ الجلدات الأولى. لم أبكِ. لكنّي رأيتُ عينَيْ أبي، قبل أن أسقط بلا وعي، رأيتهما وقد ابيضّتا من الألم، الألم الذي كنتُ أشعر به، وأنا أحَبّ أبنائه إليه. ركل أبي سلطان، أعزّ كلاب السيّد إلى قلب السيّد. فأمر هذا بحبسه، وأمر بأن يُجلد مئة

جلدة، وبالعصا نفسها. جُنّ جنون أبي. وبعد أيام تشاجر مع حارس المطبق. قيل إنّ تلك كانت تهمته. فأمر بشنقه مع متآمرين آخرين. لقد أحبّه السيّد الأعلى كما أحبّ ولده، لكنّه لم يغفر له خيانته، وما كان بخائن. وهكذا مات أبي بسببي، لأنّ مصيبته جاءته من الأثر الأسود الذي خلّفته لصوصيتي على راحة يدي. ونُفينا، نحن أبناءَ پيلار الاثني عشر، وتفرّقنا في جهات مختلفة. أنا أتيتُ إلى هنا، وبقيتُ مع أختي ماريّا كاندي، والدة غاسپار، الذي صار في ما بعد موسيقياً وصانع آلات».

ذلك المساء فقط علمنا أنّ مكاريو هو خال غاسپار، ولم يكن من قبلُ أشار إلى ذلك ولا لمّح.

«والآن. أروني أيديكم!» – قال لنا فجأة.

وضعنا أيدينا إلى جنب أصابعه الهزيلة المتعرّشة، وفتحناها وأغلقناها بقوّة، على الرغم من علمنا بأن الماء يحجب الرؤية عن عينيه. فتح يده اليمنى. كانت شفّافة تقريباً. في راحتها، وعند مستوى العظام، رأينا البقعة السوداء بين التجاعيد الترابيّة. كانت كالثقب.

– من يدري! هل وقع لكم مثل ما وقع لي! أنا عشتُ لكي أدفع. وقد عشتُ طويلاً.

كان يسحرنا بقصصه.

– قبل بداية الحرب العظيمة[14] بسنوات، ذهبتُ إلى سانتا آنا، حيث الطبيب الأكبر، طلباً لدواء. كانت أختي الكبرى كاندي قد مرضت مرضاً شديداً، وصارت تعاني من نوبات نزف. لم تكن السفرة موفّقة. تذكّرتُ

---

(14) la Guerra Grande أو حرب باراغواي، أو حرب الحلف الثلاثي: دارت رحاها بين عامي (1864–1870) بين باراغواي ودول التحالف الثلاثي الأرجنتين والبرازيل وأوروغواي. وانتهت بهزيمة نكراء للباراغواي.

سفرتي الأخيرة، قبل ذلك بعشرين عاماً، مع أبي لجلب المرهم للسيّد. لم يحالفني الحظ هذه المرّة. فالفرنساوي كان مريضاً أيضاً. هذا ما قالوه لي. أمضيتُ ثلاثة أيام أمام بيته، بانتظار أن يتعافى. كانوا يخرجونه في الليل إلى الممرّ على كرسيّ من الجلد. نراه ساكناً وأبيض، بديناً ونائماً على ضوء القمر. في الليلة الأخيرة مرَّ من أمامه سكّير. حيّاه بصوتٍ عالٍ، وراح يتحرّك أمامه جيئة وذهاباً، ويزداد غضباً وصراخاً في كلّ رواحٍ ومجيء: «طاب مساؤك، سيّد بونپلان! السلام عليكِ، ماريا الطاهرة، سيّد بونپلان!».

وفي الأخير شتمه. لم يلتفت إليه الطبيب الأكبر، الضخمُ الأبيض، الذي كان يغالب نعاسه، ولم يُبدِ ما يدلّ على أنّه مستاء. لم يتحمّل السكّيرُ الإهانة. فأخرج سكّيناً وصعد إلى الممرّ وطعن الطبيب بشدّة إلى أن انقضضتُ عليه وأخذتُ منه السكّين... خفَّ أناسٌ كثيرون. علمنا حينئذٍ أنّ الطبيب الأكبر ميّت من ثلاثة أيام، وأنّ السكّير لم يسدّد طعناته إلا للجثّة المحنّطة التي وضعوها في الهواء الطلق لكي تتهوّى وتجفّ. أمّا أنا فقد بدا لي وكأنه مات للمرة الثانية.. حين عدتُ إلى إيتاپيه، وجدتُ شقيقتي ماريا كانديلاريا وقد شفيت وتعافت. ولكي تتعافى تماماً وضعتُ تحت رأسها سكّين الرجل السكّير الذي انهال على جثة الطبيب الأكبر طعناً.

كان البعضُ لا يصدّق حكاياته. التوءمان غويبورو، مثلاً. پيدرو له وجهٌ مضحك، بينما بيثنته له قلبُ شيطان. لكنّهما في النتيجة واحد. كانا، آنذاك، قد بدأا يسخران من العجوز المعتوق.

اصطحبَا ذات يوم إلى كوخه. من ثقب في ثوبه أخرج لفافة. نشرها. وأخرج من كيس صغير، معمول من جلد الإغوانا، شيئاً أحاطت به بقايا من الجبصين. في يده، التي بلون التراب، كان يرتعش إبزيمٌ من فضّة.

«هذا...» – قال، لكنّه لم يستطع مواصلة الكلام.

لم تكن به حاجة إلى المزيد.

تأملنا الإبزيم مذهولين. نيزكٌ سقط في صحراء. حذاء الجلد اللمّاع، الجوارب البيض، والشبح الهزيل المهندم يخرج منه، طويلاً مثل فلقة شجرة لم تستطع الصاعقة إسقاطها.

عصفت الحرب العظيمة بالبلد وخرّبته تماماً. كان مكاريو فرانسيا حينئذٍ رجلاً ناضجاً.

حكى أنّ حملة «هومايتا» وحملة «كوادريلاتيرو» انضمّتا أيضاً إلى صفوف القائد الشهير، غريب الأطوار، ألفيريث نياندوا، الذي جُرح في المعركة وأسره الحلفاء في «لوماس فاليتيناس»، لكنّه استطاع الهرب وعاد إلى الظهور في معسكر المارشال لوپيث[15].

«مادامـا[16] هي من شفت لي كتفي!» – كان يقول مزهوّاً.

كتف هادلة، ساقطة نحو الأرض، فكأنّها تنوء بحمل ذلك المجد، وبثقل ذلك الكابوس.

لقد عاش مكاريو رعب المذبحة[17]، رعبٌ دام خمس سنوات، حتّى هزيمة آخر محاربي لوپيث في «ثيرّو كورا». وكان لعازار[18] الذي انبعث من المحرقة العظيمة.

---

(15) رئيس الدولة وقائد الجيش، فرانسيسكو سولانو لوپيث، الذي يُعزى نشوب الحرب إلى سياساته التعسفيّة.

(16) Madama روح صالحة تتجسّد إلهاً وتُنسب إليها كرامات ومعجزات، وهي شفيعة المعالجين الطبيعيين.

(17) يقال إنّ الحرب العظيمة[14] تسببت في مقتل معظم سكّان باراغواي من الذكور.

(18) لعازار هو أحد من أحياهم السيّد المسيح بعد مماتهم. ويرمز إلى القيامة والانبعاث من الموت.

لم يغنم من كلّ ذلك غير إبزيم الفضّة وحِمْل ذكرياته المشوّشة الذي لا يقدّر بثمن. أمّا عن ابن أخته المجذوم، فلا يتذكّر شيئاً. عامداً متعمّداً، كما الجميع. وما كان يشير إلى مولده إلا لماماً.

«ولدته أختي كاندي في أيكسودو دي لا ريسيدنتا...» - كان ذلك الشيء الوحيد الذي يصرّح به حين نلحّ عليه بالسؤال.

شخصٌ آخر في إيتابيه يعرف القصّة: ماريّا روسا، بائعة الچيبا التي تسكن عند تلّة «كاروبيني». لم تكن تتكلّم هي الأخرى. وإن تكلّمت، لم يلتفت إليها أحدٌ، لأنّها مجنونة. لا تتفوّه إلا بعبارات غير مترابطة، تزيدها الغوارانيّة القديمة غموضاً وتعقيداً. لكنّها كانت تردّد ذلك المقطع الاستشرافي من نشيد موتى الغوارانيين.

سأجعل الصوتَ يسري في العظام من جديد...
والكلامَ يكتسي جسداً من جديد...
بعد أن يغيبَ هذا الزمنُ
ويشرقَ زمنٌ جديد...

مكاريو نفسه لم يبدأ الكلام عن ابن أخته غاسپار مورا إلّا حين شاخ فجأةً، وبات قاب قوسين أو أدنى من الموت. تكتّم الجميعُ، من دون وعي، على السرّ، ولم يخرج من العجوز إلّا حين بات كومةً من العظام النخرة. عندئذٍ خرج ليغطّي على كلّ ما سواه.

.3

– حدث ذلك حين كان المُذنّب على وشك أن يكنس الأرض بذيله الناري.

من هنا اعتاد أن ينطلق بالكلام. كان يطلق على المذنّب اسم إيباغا-راتا، ومعناه نار السماء، في إشارة إلى القوى الكونيّة التي أطلقته، وإلى فناء الكون، استناداً إلى سفر التكوين عند الغوارانيين.

أتذكّر المُذنّب هالي العملاق، والرعبَ الذي أصابني، وأنا ابنُ خمس سنوات، بعد أن هزّني مشهدُ تلك الأفعى-الكلب التي تهمّ بابتلاع العالم. أتذكّر ذلك، لكنّ حكاية مكاريو أعادتني به ومعه إلى ماضٍ بعيد.

لم يكن مهتمّاً بالمُذنّب قدرَ اهتمامه بعلاقة المُذنّب بحكاية ابن أخته المجذوم. وجدتُه يعدّل في الحكاية ويبدّل في كلّ مرّة يرويها. يقدّم في الأحداث ويؤخّر، يغيّر الأسماء والتواريخ والأماكن، وربّما هو ما أفعله أنا الآن دون أن أشعر، فشكّي أكبر من شكّ ذلك العجوز الهرم، الذي كان، على الأقل، نقيّ السريرة.

ويكتمل انغلاقُ العجوز وتكتّمه حين تتسلّل امرأة إلى الحلقة. لم يتكلّم يوماً عن غاسپار في حضور امرأة. ويا عالم لماذا؟! يكتشفهن في الحال، رغم شيخوخته وارتعاشه، فيلوذ بالصمت. فإذا كان قريباً من النار، راح يبصق على الجمر، فلا يسمع، طوال الوقت، غير أزيز بصاقه. وترتفع من الجمر أعمدةٌ رفيعة من بخار أصفر، وعندئذٍ لا تجد الدخيلة بدّاً من الانصراف.

ويعود مكاريو إلى حكاية المُذنّب.

حدث هذا ذات ليلة. فما إن راحت قدما امرأة تبتعدان، ملامِسةً الأرضيّة الترابيّة ملامَسة، حتّى توقّف العجوز عن قلي بصقاته على الجمر، وسمعته يتمتم بصوت بلغميّ أجشّ:

- اختفى في قلب الجبل. وهناك ظلّ ينتظر الموت.

ثمّ أضاف: «لكنّه، قبل ذلك، رُزق بولد».

«أيّ ولد، جدّي؟» - سأله أحدنا.

لم يردّ. طأطأ رأسه. وشقّت زفرةٌ صدره.

كلّنا نعلم أنّ غاسپار مورا لم يعقّب. بدا وكأن العجوز انتبه إلى زلّة لسانه، فندم وشعر، ربّما، بالخجل من خيانةِ أمانةٍ وكشفِ مستور.

عاد بنا، حينئذٍ، القهقرى، محاولاً إصلاح ما انكسر. رجع إلى سنوات سبقت عزل مريض في منفرج طريق الغابة. تغيّر قناع غاسپار مورا ثانيةً لنعود إليه شاباً وضيءَ الوجه، أسمرَه، قوياً، نحيفاً، أخضر العينين، وديعَهما. عاد بنا إلى ذلك الشاب الذي ما زالت صورته تعلق في ذاكرتنا.

تنبعث من غاسپار رائحة الخشب، الخشب الذي يعمل فيه. يأتون إليه من بعيد لشراء الآلات التي يصنعها، ويدفعون له ما يطلب. لم يكن بخيلاً. فما كان يوفّر لنفسه إلا ما يكفي لشراء مستلزمات عمله من مواد وعُدد، أمّا الباقي فيوزّعه على من كانوا أحوج إلى المال منه: يسدّد ديونَ المزارعين الذين أتلفت النيرانُ أو البَرَدُ أو الجرادُ زرعهم. ويشتري الهندام والطعام للأرامل واليتامى.

«كان الأولاد» -يقول مكاريو- «يلتقون في ورشته ليتعلّموا منه، فقد كان يعلّم النجارة والموسيقا لمن يريد أن يتعلّمهما. وأقام مدرسة صغيرة وحفر نقوشاً على الجمالون وعلى الحمّالات. ما عدتُ أراها، لكنّي أعلم أنّها ما زالت هناك».

فعلاً. ما زالت هناك. لقد رسم الزمنُ، بعروق حيّة تقريباً، حزوزاً تصوّرُ الأواني والأنسجة الهنديّة التي نقشها غاسپار بالإزميل والمطرقة على حمّالات من خشب السبستان والكيتوما. ظلّ حسّه حاضراً في كلّ تلك

الأشياء. لكنّه ظلَّ حيّاً في العجوز المتشرّد الذي كان يعيش على صدقات الناس، والذي لا نعرف كيف كان يتدبّر أمره لتظلّ أسماله البالية نظيفة على خيش جلده.

لم يكن مرَّ وقتٌ طويل على موت غاسبار. وبما أنّه اختفى في غمرة الفزع، فقد بدا وكأنّ صدْعاً من صدوع زمن بعيد ابتلعه.

كان مكاريو فرانسيا هو من يصاحبه.

يحلّ الظلام فيشرع يدندن على الغيتار الذي بين يديه ليجرّب نقاء صوته وسلامة صنعته.

أذكر هذا جيّداً. ويفترش الناس العشبَ ليستمعوا إلى عزفه. أو يخرجون من أكواخهم. كان عزفُه يصل حتّى الربوة. حتّى النهر. أذكر مشهد أمّي وهي تسمع صوت الغيتار البعيد، وأذكر عينيها وقد ابتلّتا بالدمع. ويعود أبي من الحقل فيحرص على ألّا يثير ضجيجاً.

حتّى بعد موته في الجبل، سمع الناسُ، غيرَ مرّة، صوتَ الغيتار. يتهدّج صوتُ مكاريو. في صمت الليل، حين يبدأ ومض اليراعات، كنّا نسمع دندنة الغيتار مكتومة، فكأنها تصدر من قبر، أو، كأنّ العجوزَ يبعث فينا ذكرى ذلك الصوت.

في تلك اللحظة فهمنا أيضاً دلالة ما تفوّهت به ماريّا روسا من كلمات متقطّعة متفرّقة. وبتنا نتلمّس، في هوسها اللذيذ، الجزءَ الخفيّ من قصّة غاسبار.

«حين كنّا نستمع إليه» -تقول بائعة الچيبا المجنونة- «ما كان فينا من يظنّ أنّه سيموت. نام في قلب الخشب. كان مرهقاً، فقد كان، طوال الوقت، يصارع الخفّاش الكبير.. لكنّه سيستيقظ يوماً ما وسيأتي ليأخذني.

سيأتي به المُذنّب من جديد! دقّوا يديه وقدميه بالمسامير.. لكنّ المُذنّب سيوقظه وسيأتي به ثانية من الجبل».

كان الاثنان، مكاريو بخرفه، وماريا بجنونها الساكن الوديع، يبدوان مطليّين بذلك الصمغ الفوسفوري الذي يلصقهما، وإلى الأبد، بالمجذوم الميت في الغابة.

وظلّت ماريّا روسا، الأربعينيّة التي وخطها الشيبُ، على الرغم من تلك الأمومة المتأخرة التي رُزقت منها ببنت، مغرمةً به.

لا شكّ أنّ جميع النسوة، آنذاك، كنّ مغرمات بالموسيقيّ، أو بما كان يمثّله لهنّ. أستحضر الآن صورة فتيات إيتاپيه، جالسات بين البراعات الفوسفوريّة، عند هبوط الظلام، حين «لا أحدَ يفكّر بالموت». جاثياتٍ يستمعن إلى موسيقاه بأجسادهنّ وأرواحهنّ وجوارحهنّ. كان ذلك التنافس، الذي يؤاخي بينهنّ، هو ما يشغله عنهّن جميعهنّ، إلّا عن تلك المرأة الممتعة المجنونة، التي كان يضمّها بين ذراعيه ويغمرها في الظلمة.

ما كان مكاريو يعلّق بشيء على ذلك، الله أعلم لماذا. أو إنّه علّق، لكنّي لا أتذكّر، لأنّي لم أكن، حينذاك، أفكّرُ في هذه الأمور.

نعم أذكر أنّ أحدهم استنطقه بخبث وسأله عن أشياء.

«غاسپار مات بتولاً...» - قال بثقة هادئة تناقضُ زلّة لسانِه التي أشعرته بشيء من الخجل حين قال إنّ المجذوم رُزق بولد قبل موته. كانت شيخوخته تربة صالحة للتناقضات والنسيان والرموز.

«عجوزٌ متعلّم!» - يسخر التوءمان غوييورو من مكاريو. كان الاثنان قد جرّبا النساء. وكانا يتفاخران أمامنا، نحن الذين لم نكتشف ذلك اللغز. ولم يفلح العجوز في إقناعهما بعفّة غاسپار، الذي كانا يريان فيه دجّالاً دعيّاً.

لكنّ بيثنته، قلبَ الشيطان، كان يحمل في حزامه إبزيم الفضّة، الذي سرقه من العجوز.

وأخمّنُ الآن أنّهما كانا يشعران بحقدٍ دفين، ليس تجاه مكاريو وحسب، بل تجاه غاسپار أيضاً، فقد كان أبوهما، الذي مات لاحقاً بنطحة ثور، عدوّاً لدوداً لكليهما. وكان هو من أورث ولديه الكراهية التي صدر عنها طعنُهما بمكاريو والمسيح. فالتوءمان ما كانا، في الواقع، يقيمان وزناً لشيء.

تفوّه پيدرو، ذات عصر، عند النهر، بكلمة بذيئة في حق غاسپار: «خُنثى: لا ذكرٌ ولا أنثى». فكأنّه لطمنا على وجوهنا. انقضضنا عليه، طرحناه أرضاً وملأنا فمه تراباً، فكأننا أردنا أن نعيد الشتيمة إلى جوفه، ونقطع دابر نفيه صفة الرجولة عن رجل كان الأكثر رجولة من الجميع. حاول بيثنته عبثاً الذود عن أخيه التوءم، فوضعتُ قدمي على رقبته بينما كان الآخرون يمسكون به.

- خنثى أم ليس خنثى؟ أعِدْ قول ما قلت، إن كنت شجاعاً!

«ليس...!» - صرخ وشكا، بعد أن جَبُن وخارت قواه.

وهكذا تمكنّا منهما. لكنّهما انفردا بي، ذات يوم، وأوشكا أن يغرقاني في منطقة ينحبس فيها ماء النهر، لأنّي لم أرضخ لهما، ولأنّهما أرادا أن يثأرا لحفنة التراب التي حشرناها في فم پيدرو.

لكنّي نجوتُ، فأنا أجيدُ السباحة والغطس أكثر منهما. ثمّ لأنّي أؤمن بشيء إيماناً ثابتاً. كنتُ، وأنا تحت الماء، ملتصقاً بالوحل، أفتح عينيّ، وأحبسُ نَفَسي، بينما هما يبحثان عنّي ليغرقاني. وظنّا أنّي غرقتُ، فانصرفا، من دون أن ينتبها إلى فقاعات الدم التي راحت تخرج من أنفي ومن أذنيّ.

وشعرتُ، وأنا واقع تحت تأثير الشعور بالاختناق، بأنّ يد غاسپار

الخشبيّة تجرّني نحو اليابسة. كانت أرومة شجرة سوداء تشبّثتُ بها، برهةً من الوقت.

.4

حين اختفى غاسپار، لم يُلاحظ أحدٌ غيابه، إلا بعد حين.

ترك بيته مفتوحاً. لم يحمل معه إلا قليلاً من عدّته.

بحثوا عنه في كلّ مكان. جالوا، على ظهور الأحصنة، الطرقات والرهبانيّات البعيدة والبلدات القريبة. ما من أحد يعرف شيئاً. لقد توارى عن الأنظار من دون أن يترك أثراً يدلّ عليه.

فكأنّه مات.

قدّمت العجائز النذور من أجله. وسارت الفتيات حزانى، يوجّهن رؤوسهنّ صوب الألم. ولا سيّما واحدة منهنّ: ماريّا روسا، بائعة الچيبا الصغيرة، التي ما انفكّت تحمل له أرغفة الخبز ساخنةً مقمّرة، من دون مقابل. وتأتي له بعرجون الموز والماء البارد، من نبع التلّ، في زمزميّة ملفوفة بأوراق الموز المبللة. هي نفسها كان لحمها أسمر سمرة جرّة الفخار، وتقاطيعها مكوّرة، وخدّاها محمّصين، وبريق عين الماء يشعّ من حدقتيها السوداوين.

وكانت ماريّا روسا، قبل ذلك، تستقبل الرجال، ليلاً، في كوخها في تلّة «كاروبيني». لم يكونوا من رجال البلدة، بل رعاةً أو عابري سبيل. تنظر العجائز إليها شزراً، ويعملن فيها، من وراء ظهرها، نميمة واغتياباً. أمّا هي، فما كانت تعيرهنّ بالاً ولا تحمل لهنّ ضغينة.

حين اختفى غاسپار مورا، ظلَّ الكوخ مغلقاً، معزولاً، صامتاً، بين أشجار جوز الهند. ما عاد القنديل الصغير «الخفّاش» يتلألأ في أعلاه، من خلال الكوّة المغطّاة بقطعة من قماش مزهّر.

«ألم يكن غاسپار يتردّد على ماريّا روسا قبل اختفائه؟» - يسألونه ليثيروا حفيظته.

«غاسپار مات بتولاً!» - كان العجوز يردّد بعناد، ضارباً على مقبض عصاه.

إنّي لأتخيّل الآن ماريّا روسا تبحث عن المفقود وتنتظره، تكفّر عن ذنبها بالانتظار، وكأنّها اكتشفت، فجأةً، أنّ كلّ الرجال مجموعين في رجل واحد، وأنّ هذا الرجل ما عاد موجوداً، وربّما لن يعود.

.5

وانقضت شهور، وربّما سنون. وجاء حطّابٌ إلى البلدة بالنبأ. حكى أنّه سمع، في أعمق أعماق الجبل، وهو يقطع الأشجار، وقت الغروب، صوت غيتار. حسبه، في البداية، روحاً.

«عفريتٌ أو جنّي، قلتُ لنفسي. ربّما هو العفريت الأشقر الذي يظهر وقتَ القيلولة أو في حقول الذرة. مع أنّي لا أؤمن بهذه الأشياء» -قال في الحلقة التي تشكّلت للاستماع إليه- «ظلَّ الغيتار يدندن. بحثتُ عن مصدر الصوت. وعثرتُ عليه، بعد جهد. كانت الموسيقا، المكتومة في الجبل، تقودني، نحو اليمين تارةً، ونحو اليسار، تارة أخرى. ودخلتُ أخيراً في درب ضيّق قادني إلى وادي نهرٍ قديم. رأيت الكوخ أولاً. في الواجهة،

كان غاسپار يجلس على جذع شجرة يعزف على غيتار أبيض، لم يُطلَ بالورنيش.. كان مريضاً.. مصاباً بداء لعازار».

علا الرعبُ الوجوه.

حكى لهم الحطّابُ أنّه مدَّ له يده، لكنّ الآخر لم يمدّ له يده. بل قال له: «أنا لا أمدّ يدي لأحد. لا أمدّها إلا لهذا» -وأشار إلى الغيتار- «فهو لا يصاب بالعدوى».

«وأين هو؟» - سأل مكاريو.

«لا أستطيع البوح بذلك» - ردّ الحطّاب.

«بل ستتكلّم!» -هدّده العجوز- «علينا أن نبحث عنه».

- أقسمتُ له على فأسي إنّي لن أتفوّه بكلمة. غاسپار يريد أن يظلّ وحده.

غادرَتْ ماريّا روسا الاجتماع، وواصل الآخرون جدالهم. انصرفت هي إلى كوخها. وضعت في السلّة الچيپا والمؤونة، وتوجّهت صوب الجبل. كانت تعرف أين يحطب الحطّاب.

في اليوم التالي، صادفتها مجموعة كان يقودها مكاريو. كانت في طريق العودة من هناك. أوقفوها عند المنحدر. رفضت الكلام. لقد تغيّر وجهها حتى باتت كأنّها تسير في نومها.

.6

وفوجئ مكاريو ومرافقوه أيضاً بقرار المريض اعتزال الناس، وتمسّكه بالبقاء هناك حتّى النهاية.

«الموتى لا يختلطون بالأحياء» - حكى مكاريو أنّه قال لهم من بعيد، طالباً منهم بالإشارة ألّا يقتربوا منه.

«جئنا لنأخذك، غاسپار!» -قال له مكاريو- «بحثنا عنكَ في كلّ مكان».

«أنا الآن ميّت» -أجابهم- «وأستطيع أن أقول لكم إنّ الموت ليس سيئاً كما نظنّ».

قال مكاريو، بعد أن ظلّ صامتاً برهة.

«إنّه يحفرني ببطء» -حكى أنّه قال بعد ذلك- «بينما يقصّ عليّ أسراره. من الجيّد أن يعرف الواحدُ على الأقل أنّه لا يزول، بل يستمرّ في حياة أخرى، في شيء آخر. لأنّ الواحد يريد أن يعيش حتّى وهو ميت. هذا بات معروفاً لي الآن. الموت علّمني أن أكون صبوراً. وأنا أعزف له، مقابل ذلك، شيئاً من الموسيقا» -قال مبتسماً، وكأنه يمزح- «نحن، أنا وهو، متفاهمان!».

- لكنّك تعاني، غاسپار.

«أعاني؟ نعم، أعاني. لكنّي لا أعاني من هذا...» -نظر نحو قدميه- «أعاني لأنّي مجبر على أن أكون وحيداً، ولأنّي لم أقدّم لبني جلدتي ما يكفي، حين كنتُ أستطيع أن أقدّم لهم شيئاً».

- ولهذا جئنا لنأخذك. يمكنك أن تشفى. سنعتني بك.

هزّ رأسه ونظر إليهم من عمق لا يُسبر غوره. فكأنّ ميتاً نهض ليثبت أنّ الموت محتّم.

ولكي يبطل التعويذة الخبيثة، جلس على الجذع يدندن بنشيد «معسكر ثيرّو ليون» وكأنّه يودّعهم. وهكذا خرج نشيد الحرب العظيمة من بين الأوتار المليئة بالعقد، حماسياً عسكرياً.

«وما من شيء يمكن فعله حيالَ ذلك» - قال مكاريو.

كان الليل يجثم على فسحة الأرض تلك، وكانت اليدان المتفختان تتحرّكان فوق الآلة الشاحبة، التي راحت تغرق في الظلام إلى أن توقّفت عن العزف. مكتبة سُر مَن قرأ

كانت تلك المرة الأخيرة التي رأوه فيها وكلّموه.

.7

عادوا مرّة وأخرى إلى وادي النهر المهجور، لكنّ المريض كان يقابلهم بالوحدة الناجعة التي تعرف كيف تحمي نفسها حين يكون ذلك لازماً.

يرون الكوخ المهجور، والممرّ الموحش، وسط الغابة، لكنّهم لا يرونه هو. ربّما ينظر إليهم من مخبئه، جاثياً بين الأجمة، وعيناه الخاليتان من الرموش، مزروعتان في رأس الأسد الكبير، المقشور المأروض.

قرّروا أن يتركوا له طعاماً عند مدخل الغابة، قليلاً من اللحم المقدّد والنقانق والجبن. وأتوا له بأوتار جديدة. فكان يأخذها لاحقاً، ويخطّ بعود صغير على الأرض كلمة «شكراً».

وواصلت ماريّا روسا حمل الجيبا وعرجون الموز والزمزميّة، التي تشبهها، مليئةً بماء من نبع التلّ. لكنّها باتت تدرك أنّ الشقّة كانت تزداد بُعداً على القدمين المقرّحتين.

وبين الحين والحين، صار يصل إلى مشارف الغابة موكبٌ من الحجيج، يأتون خفيةً ليستمعوا بخشوع إلى صلاة المجذوم. يحاولون ألّا يُحدثوا ضجيجاً، فقد يكفي أن يتهشّم غصنٌ صغيرٌ ليهشّم معه الموسيقا. ظلالٌ

معلّقة بين الأوراق. يتبادلون النظرات النديّة المتوهّجة، بينما يطبق الليل على الوادي ببلاطة من زرقة غامقة.

ثمّ يعودون، عبر الظلام، إلى الصمت.

طال الوقتُ وتطاول. وظنّوا أنّ المنيّة وقعت، هي الأخرى، في غرام الموسيقي.

«لكنّها تريده حيّاً، هناك...» - قال مكاريو، وأضاف: «كالمحبوس في قفص».

.8

في تلك الأوقات، ظهر المُذنّب في السماء، وتقرّب بذيله الناري العظيم من الأرض مهدّداً.

شاع الرعبُ. كان إعلاناً واضحاً عن نهاية العالم. وكانت أبعاد الخبر المفزع عن العقاب تتضاعف في الكنيسة، بين نحيب وصلوات. أتذكّر هذا جيّداً.

نسينا غاسپار مورا. نسيناه وحيداً في الجبل.

ثمّ بدأ موسم القحط والجفاف، وكأنّ أنفاسَ الوحش اللاهبة شفطت الماء من الأرض والسماء.

حاولت ماريّا الوصول إلى ممرّ الغابة، بحملها من الماء والمؤونة. لكنّها لم تستطع. ضاعت في الجبل، أعمتها نار السماء الشريرة. وبعد أيام ظهرت تتلمّس طريقها وتومئ بيدها: «ما عاد موجوداً.. لقد رحل!» -كانت تهمهم بيأس هادئ- «أخذه المُذنّب معه!».

ولمّا تراجع الرعب، وصل مكاريو وآخرون إلى مدخل الغابة. ووجدوا آخر مؤونة في مكانها. لم يأخذها أحد. ورأوا النمل يحمل بقاياها المتعفّنة.

نادوا عليه. فردَّ فراغ الجبل صدى ندائهم مضخّماً. اقتفوا أثره نحو الجدول. وجدوه هناك، جاثياً فوق حصى الوادي اليابس ورمله. كان ميتاً، من أيام.

في ذلك المكان، بالقرب من المجرى، حفروا له بفؤوسهم قبراً ودفنوه. وارتجل مكاريو صليباً من خشب «البورسيرة» وغرسه عند رأس القبر.

عادوا صامتين مقهورين نحو وادي النهر المهجور، يخامرهم شعور بالذنب.

«كان وقع موته ثقيلاً علينا» -قال مكاريو- «ذهبنا لأخذ الغيتار وإحراق الكوخ».

.9

نظروا من الفتحة، التي كانت بمنزلة الباب، فلمحوا رجلاً عارياً يقف بالقرب من الحائط الترابي.

أصابهم الذهول فتسمّروا في مكانهم.

«سرت برودة الموت في أبداننا...» - روى مكاريو.

كان الرجل ثابتاً في مكانه، وقد انغرست لحيته في صدره وبسط ذراعيه. لم تسمح لهم العتمة برؤية واضحة. بدا وكأنّه بلا شعر، ويبدا عريه مَرَضياً هزيلاً، بدا عريَ هيكلٍ عظمي تقريباً.

ألم يدفنوا غاسبار مورا للتوّ؟ فمن أين جاء النزيلُ الجديد؟ لم يستعيدوا القدرة على الكلام إلا بعد حين، فقد عقدت أنفاسٌ خارقة ألسنتهم.

«مَن.. مَن هناك؟!» – قال مكاريو بعدَ جهد.

ظلَّ الرجل جامداً، وقد حنى رأسه وبسط ذراعيه، وكأنه خَجِلٌ من وجوده هناك.

كرّر مكاريو السؤال، هذه المرّة بالقشتاليّة، وما من جواب. لم يُبدِ الغريب أيّ حركة. كان صمته وسكونه يجرّحان جلودهم التي اقشعرّت من الخوف. تملّكهم الشعور بأنّ ذلك الرجل لن يتزحزح عن مكانه ولن يردّ على نداءاتهم ولو مرّت ألف سنة. ربّما كان ميتاً، لكنّ توازناً إعجازياً يبقي عليه واقفاً، ويُبقي على عظام ذراعيه الطويلة ممسكة بالظلمة.

«ظننّا في البداية أنّه جاء من العالم الآخر» –قال لنا مكاريو– «لكنّه كان رجلاً. كان شكله وهيئته شكلَ مسيحيّ وهيئته. يقف هناك، ساكناً، ينظر إلينا بصمت ويبسط ذراعيه...».

وعندئذٍ، اندفع الجميع إلى داخل الكوخ، بعد أن أثارهم الخوفُ وأغضبهم، وشهر مكاريو حربته في وجه الدخيل. فماذا رأوا؟ على ضوء النصل المرفوع في الهواء، تبيّن لهم أنّ الرجل الواقفَ مسيخٌ من خشب، بحجم رجل.

«لم يكن غاسبار يحب الوحدة» – همهم العجوز.

لقد حفر التمثال بصبرٍ أثناء معتكفه، ربّما ليكون له رفيقاً، ربّما لأنّه ما عاد يطيق الوحدة، التي لا شكّ أنّها كانت أشدّ عليه وأقسى وطأةً من المرض.

هناك كان رفيقه الوديع.

وقد ظلّ بعده وديعاً. وظلّت على الخشب الباهت الشاحب بصماتُ اليدين المقروحتين. لقد نحته على شكله وصورته. ولو كان لروحٍ من تجسيد، لكان ذلك التمثال تجسيداً لروح غاسپار مورا.

واقترح أحدهم أن يُدفن التمثال في قبر المجذوم.

«لا!» -قال مكاريو بحزم- «إنّما تركه ليحلّ محلّه».

وهزّ الآخرون رؤوسهم موافقين.

«علينا أن نحمله إلى البلدة» - قال مكاريو.

.10

حملوه على الأكتاف وعادوا عبر طريق الغابة، تهسّ تحت أقدامهم أوراقٌ يابسة وأغصان متكسّرة.

في أعماق الجبل رافق هديل طائر «الأوروتوا» خطواتهم مثل قرع ناقوسٍ حزين. كان مكاريو يسير، في الخلف، حاملاً الغيتار.

يعلو الغبار. يرافقهم. في مسيرهم البطيء المُعتم الذي يُخرج مسيحاً من الغابة، بدا وكأنّهم أنزلوه من صليبٍ عظيم.

وفجأة انضمّ إليهم خيالٌ هزيل. إنّها ماريّا روسا. ملابسُها تتساقط منها ممزّقة. ودمُها، اليابس من خمشٍ ومن سلخ، يرسم خطوطاً على جلدها في كلّ اتجاه. سمّرت نظرتها المجنونة في التمثال.

«لا شكّ أنّه عطشان!» - قالت.

كانت الزمزميّة في يدها. رفعتها. تدفّق الماءُ من إحدى فتحاتها. لكنّ أحداً لم يلتفت إليها.

سارت برهة، ثمّ بدأت تغنّي، بصوت منكسرٍ واهن، تلك الأبيات الغريبة من نشيد الموتى. تتوقّف برهة، ثمّ تعاود الغناء وقد صكّت على أسنانها.

ثمّ انطفأ غناءُ الأجداد على شفتيها. كانت تسير ببطء والزمزميّة في يدها، وراء مكاريو، الذي حدّب الغيتارُ ظهره.

وكان من ذهولهم وشرودهم أنّهم، حين بلغوا الأرض المنبسطة، لم ينتبهوا إلى أنّ الجوّ تغيّر. لقد تشقّقت السماء المتوهّجة، نصفُ الشفّافة، في خطوط دقيقة، وراحت تتلبّد بغيوم بدت أشدّ سواداً من ومض متقطّع يطعن بطنها. وسرعان ما خيّم السوادُ على المسيح وغطّى وجوهَ حامليه، وراحت العيونُ تومض مع كلّ ومضة برق.

حين مرّوا من أمام التلّ، سقطت أولى القطرات، قطرات من رصاصٍ مصهور. وحين بلغوا البلدة، كان المطر ينهمر مدراراً على رؤوسهم، بينما الصواعقُ وعصف الرياح تلهب ظهورهم. كان الشرر يتطاير من المسيح، فكأنّه شُحن بالكهرباء.

توجّهوا صوب الكنيسة، يغوصون حتى رُكبهم في الماء. وجدوا البابَ مغلقاً. لكنّهم يسمعون الصوتَ المكتوم المنبعثَ من الناقوس الذي كان وابلُ المطر يطرق عليه طرقاً. أدخلوا المسيح إلى الرواق، تحت السقف. أسندوه إلى الحائط، كما وجدوه في الكوخ، وجلسوا القرفصاء حوله.

ظلّت ماريّا روسا واقفة تحت المطر، مبلولة منقوعة، صورة مزيّفة زالت عنها ألوانها.

تصنّع الرجالُ الغفلة عنها. أمّا المسيح فكان يبسط ذراعيه نحوها.

.11

ظلّ التمثالُ هناك أياماً، على ذلك الوضع، وعلى تلك الحال، حتّى وصل الكاهن، الذي ما كان يأتي إلى إيتابيه إلا أيام الأحد الخالية من الالتزامات.

شرح له مكاريو ما حدث. لكنّ الكاهن، وكان مطّلعاً على الأمر، عارض إدخال التمثال إلى المعبد، على الرغم من علامات الإعجاز التي اكتنفت الحادث. فلقد أتى بالمطر من الجبل. لكنّ ذلك ليس كافياً. فقد يكون المطرُ سقط مصادفة. نظر الكاهن إلى التمثال بطرف عينيه، وبدا على إيماءته وصوته نفورٌ لم يستطع مداراته. فهيئة المسيح غير بالغة التأثير في مَن ينظر إليه. ينقصه الشعر. ثمّ إنّ عروق الخشب تملأ وجهه وصدره ببقع خشنة زُرق.

«إنّه من صنع مجذوم» -قال الكاهن- «وقد يسبّب العدوى. وبيت الربّ يجب أن يكون نظيفاً دائماً. فهو موطن الصحّة».

وأسهب في الكلام عن حيويّة العصيّات. وبينما هو يتكلّم، حضر المزيدُ من الناس. استمعوا إليه غير مقتنعين بكلامه. استمعوا إليه بعيون شاردة، مصوّبة نحو التمثال المنحوت في الخشب.

لاحظ الكاهن أنّ الحاضرين لا يعون ما يقول. فهو لا يجد الكلمات الغوارانيّة المناسبة لوصف المرض وخطورة العدوى.

«... لا يمكن أن نحمله إلى الداخل!» -قال، ثمّ توقّف عن الكلام، إذ لاحظ أنّ كلماته تواجه برفضٍ متنام- «نعم.. إخوتي الأعزّاء.. صحيح أنّه صورة سيّدنا المسيح. لكنّ العدوّ مكّار. وما أكثر أساليبه وحيله. إنّه ليفعل أيّ شيء للقضاء على خلاص أرواحنا. بل إنّه قادر على تقمّص صورة

المُخلّص...» -استجمع أنفاسه وواصل الكلام بنبرة فيها نُصحٌ وتحذير- «فكّروا جيّداً في صانع هذه المنحوتة... ملحدٌ، رجلٌ لم تطأ قدماه عتبة الكنيسة يوماً، نجسٌ مات تلك الميتة لأنّه...!».

«غاسپار مورا كان رجلاً طاهراً!» - قاطعه مكاريو العجوز بعينين مفتوحتين متحدّيتين.

وعلت همهمة تدعم كلماته. فظلّ الكاهن لا يدري ما يفعل ولا ما يقول.

«كان رجلَ عدلٍ وصلاح!» -أضاف مكاريو- «أدّى واجبَه. ساعدَ الناس. لم يفعل شيئاً إلّا لسبب. ترك بصمات يده وروحه النقيّة وقلبه النقيّ في كلّ مكان.. سنظلّ نسمعه حيثما يعلو صوت غيتار أو قيثارة أو كمان. كان ذاك آخر شيء عمله» -قال وهو يشير إلى المنحوتة- «أتينا بها من الجبل، وكأننا أتينا بها منه هو. لا ملوّثة، ولا مُعدية. لقد غسلها المطر وطهّرها ونحن في الطريق إلى هنا. انظر إليها! إنّها تتكلّم بفمها الخشبي.. تقول أشياء علينا أن نسمعها.. أنصِتوا إليها! أنا الآن أسمعها» -قال وهو يضرب على صدره- «إنّها رجلٌ يتكلّم! نحن لا نفهم الربّ.. لكنّنا نفهم الإنسان.. غاسپار موجود فيها! لا بدّ أنّه أراد أن يقول لنا شيئاً بهذا العمل الذي خرج من بين يديه.. وهو يعلم أنّه لن يعود، وهو يعلم أنّه ميّت!».

ذُهل الحاضرون. لم يتصوّر أحدٌ أن في مقدور المتسوّل العجوز أن يقول للكاهن ما قال، وأن يعرف ما يقول.

كان واضحاً أنّ مكاريو لا يجادل في أمور الدين، بل في معناه ورسالته. أيّدتْه الأغلبيّة. عرفهم من التوتّر الذي بدا على أبدانهم، ومن أثر كلماته على تعابير وجوههم.

وانحازت قلّة إلى الكاهن، الذي احتقن وجهه من الغضب. لكنّه أدرك أنّ عليه كسب الوقت.

«هاكم الدليل!» -قال، وقد مدَّ ذراعه نحو مكاريو. كان الغضبُ الكظيم يُضفي حدّة على كلماته- «الأخ مكاريو يُسيء إلى الربّ.. ينتهك الحرمات، هنا، في عقر بيت الربّ! هذه المنحوتة ملعونة! تلبّسها الشيطان! هكذا هي.. ألا ترون أنّها جعلته ملحداً! وهو ما سيجلب لنا عقابَ الربّ!».

«لنحرقها! لنحرقها الآن ولننتهِ من الأمر!» - صرخ، مع الكاهن، وبصوت واحد، راعي القطعان نيكانور غويبورو، والد التوءمين.

وانضمّت أصواتٌ أخرى إلى صوته، لا لغَيرة وحميّة، بل لمحاباة أو خوف، فقد كان الراعي معروفاً بنزقه وعدوانيته. أدار عينيه المحتقنتين وراح يبحث عمّن يدعمه بين الحضور.

«صحيح! الأفضل أن نحرقها وننتهي منها!» - قال أحدهم وهو ينظر إلى الأرض ويبصق كريّة التبغ، التي بدا وكأنّها لسعت فمه.

«نحنُ من جاء بها ونحن من سيأخذها!» - صاح مكاريو بأعلى صوته.

علت همهمات. وانقسم الناس إلى فريقين، وصمَّ الصخبُ الأسماع.

استلّ راعي القطعان سكينه واندفع صوب مكاريو، وكان حمل المنحوتة على ظهره، وسقط على ركبتيه تحت وطأة الحمل. دفع أحدهم بذراع غويبورو، فانحرفت عن هدفها ولم تصب إلا كتف المسيح. وبرقت أنصالٌ تحت الشمس ولمعت أسنّة، تحمي انسحاب مكاريو وأتباعه، والمسيح محمول على الظهور. وصرخت النسوة والأطفال من الخوف. وبدأت أجراس الناقوس تقرع منذرةً محذّرة.

واكتشف الكاهنُ أنّ الدواءَ كان أسوأ من الداء.

رفع ذراعيه عالياً وصرخ داعياً الجميع إلى الإصغاء إليه والالتزام بالنظام.

بدأت حدّة الصخب تخفّ، استجابةً لصرخات الكاهن المرتعشة.

«الهدوء.. الهدوءَ، إخوتي!» -وجّه صراخه إلى الحشد الهائج- «لا تنساقوا وراء العنف!» -قال، وقد شبك أصابعه على صدره في إيماءة سلام وتواضع- «ربّما كان الأخ مكاريو على حق. ربّما كنتُ مخطئاً. ربّما استحقّ المسيحُ الذي حفره غاسپار مورا على الخشب أن يوضع في الكنيسة.. من يدري؟! فربّما ندم على ذنوبه قبل موته وغفر الربّ له.. لن أعترض على أن تأخذ المنحوتة مكاناً لها داخل الكنيسة.. ولكن علينا أن نرتّب للأمر بعناية. علينا أولاً أن نباركها، أن نوقّرها. وهذه مسألة دقيقة. أعطوني وقتاً لأستشير محكمة الكنيسة. ستنظر هي في القضيّة وتحلّها بالطريقة التي تناسب مصالح الدين المقدّس. أليس هذا هو الشيء الصحيح؟!».

وافق الناسُ، صامتين، على الهدنة التي طالب بها الكاهن.

وظلَّ مكاريو وأعوانه لا يبدون حراكاً. وجوههم كانت ملطّخة بالغبار والعرق. تبادلوا النظرات، وعادوا وأسندوا المنحوتة إلى الحائط. في الرواق. وتفرّقت الجموع بين همهمة وغمغمة.

.12

في ذلك المساء، حين كان الكاهن يغيّر ملابسه في غرفة القندلفت، تكلّم مع قارع الناقوس، وهو صبيّ أعرج يملأ الحَبّ وجهَه، وكان هو

القندلفت أيضاً[19]: «حين أنصرف، عليكم أن تُخفوا تلك المنحوتة. لا أريد أن يشيعَ الكفرُ بين رعاياي المؤمنين!».

مدَّ الصبيّ عنقه الطويل المتفخ، ونظر إلى الكاهن. بدا عليه أنّه لم يفهم ما أمره به.

واصطدمت المبخرة، التي كان الرماد يتساقط منها، بالأرض، فرنّت.

«حين أخرج، عليك أن تفعل ما قاله غويبورو» - واصل الكاهن كلامه بنبرة فيها من التكتّم قدر ما فيها من الأمر.

- كيف، أبونا؟!

- ما سمعتَه. ستحرق هذه المنحوتة خفيةً، أثناء الليل، في الجبل، دون أن يراك أحد. ثمّ تدفن الرماد وتغلق فمك. حذارِ ثمّ حذارِ! سيتهمون غويبورو، أو كائناً من يكون.. المهم.. هذا أفضل.

«لا بدّ من الانتهاء من هذه المسألة» - قال لنفسه.

- هل فهمت؟

«أحرقُ المسيح، أبونا؟ أنا؟!» - شهق قارعُ الناقوس.

بدا الاضطرابُ والحيرة على وجه خادم الكنيسة المحبّب. فقد كان بين خوفٍ مما هو مقدم عليه، وشكٍّ في أنّه لم يفهم ما سمع. كانت تفاحة آدم تصعد وتنزل في حنجرة الصبيّ.

«أنا؟» - عاد يبرطم.

«نعم. ستحرقه» - غمغم الكاهن وسحب دُرجَ المكتب بقوّة.

- تقول: أحرقُ المسيح!

---

(19) القندلفت رتبة كنسيّة يؤدي حاملها مهام السادن أو الخادم، ومن ذلك: صيانة المبنى وتعمير القناديل والمباخر.

- لكنّه لم يتلقَّ البركة بعدُ! وما هو إلا قطعة من الخشب.

«كيف، أبونا؟!» -تمتم الصبيّ، وهو ينظر خلسة إلى الخارج- «فمنذ أن أتوا به من الجبل وهم يتناوبون حراسته. ويحملون حرابَهم!».

- اذهبْ إلى مأمور الشرطة وقل له إنّك قادم من طرفي، وسيتكفّل هو بمساعدتك.

بدا وكأنّ الكاهنَ نفسه غير متأكّد ممّا يقول، فقد انتهتْ كلماته في همهمة مبهمة.

ارتدى الكاهن معطفه وذهب إلى مقرّه. راجع هناك دفتر ملاحظاته المهترئ، بينما جاؤوا له بالمتّة. بعد هنيهة، طلب ركوبته، وانطلق مسرعاً إلى «بورخا»، من دون أن يسلّم على أحد، كما اعتاد أن يفعل. بل إنّه لم ينتظر قدّاس الأحد.

ظنّوا أنّه ما زال مستاءً ممّا جرى.

سار القندلفت وراء الكاهنِ مسافة، يعرجُ كما لم يعرج من قبل، وقد طأطأ رأسه، كما لم يطأطئه من قبل.

.13

تغفو البلدة في سكون القمر الثابت النديّ. وتتلاشى الأكواخ والأشجار في بياض كبياض الحليب، يلفّها بهالةٍ من الغبار.

عند ظلّ شجرة جوز هند، بالقرب من حاجز ساحة الكنيسة، افترشَ أربعة رجالِ العشب. كان مكاريو واحداً منهم.

أفزعه همسٌ بلغ سمعه فأيقظه. نهض.

لم يرَ شيئاً، لكنّه تصوّر أجساماً متدثّرة تقترب بحذرٍ عبر الرواق، وتتجه صوب التمثال المسنود إلى الحائط. رمشت جفونه غير مصدّقة. لم يكن الماء الأبيض قد غطّى حدقتيه بعدُ، وكان ما يزال قادراً على الرؤية بوضوح. عاد الهمسُ يبلغ مسامعه. وسرعان ما تأكّد له سماعُ صليل حراب من نوع «غايّو»، يستخدمها رجالُ المأمور، ملفوفة بمعاطف الشرطة.

«بيدرو.. إليخيو.. تاني!» - أيقظ الفتيانَ الذين كانوا معه.

وقف الأربعة بقفزة واحدة، تناولوا حرابهم. اجتازوا الحاجز وانقضّوا على المندسّين، الذين كانوا قد حملوا المنحوتة.

«لا تلمسوها، أيّها الأرذال!» - صاح مكاريو بهم.

ترك اللصوص المنحوتة، وقد أُخذوا على حين غرّة، وانسحبوا إلى جهة الحائط، وشهروا حرابهم. من وراء العمود، بدا وجه القندلفت المُجدّر، الأبيض بياضَ القمر، كقناع من نبتة الساموهو. نزل وزحف بين الأحراج، يجرّ ساقه، نحو برج الناقوس. واتخذ الشرطيّان الآخران من الظلام ستاراً لهما وتسلّلا، كلّ واحد منهما صوب أحد طرفي الرواق.

.14

حمل مكاريو التمثال إلى كوخه بمساعدة الآخرين.

وانضمّ كثيرون إليهم في الطريق، وقد بدا على وجوههم النعاس. ما كان أحد يتكلّم ولا يسأل شيئاً. كان الغبار يغطّي على وقع خطواتهم. وعاد الصمتُ، بعد تلك الضجّة، ليخيّم على الهدوء الذي أغرقه بياض الشروق.

بينما كانوا يغادرون الساحة، قرعت الأجراسُ في ما بدا سعلةً عصبيّة.

التفتوا لينظروا إلى البرج المائل، فرأوا ظلّاً جالساً هناك. لم يفكّر أحدٌ في قارع الأجراس. واصل الموكبُ الصغير مسيره، والمنحوتة على أكتاف أنجب تلامذة غاسپار: پيدرو مارتير وتاني وإليخيو. فقد كانوا هم من دفنه في الجبل، بعد أن ألقوا عليه نظرة الوداع، وها هم أولاء يحملون على أكتافهم آخر ما صنعته يداه.

أمسك قارع الأجراس برافدة من الروافد، وراح يتأمّل الجمع الذي يسير ببطء ووجوم، حاملاً منحوتة الفادي المخلّص. إنّه يراه بحجم طفل وليد، أبيضَ اللونِ، عاري الجسد، محمولاً على الأكتاف المعتمة. نظر إلى يديه. ربّما فكّر في أنّه كان على وشك أن يحرق منحوتة هي أكبر من قطعة جبل.

حشر كلّ رأسه تقريباً في جوف الناقوس، فظلّ أزيزه يضغط على صدغيه. وراحت ذراعاه تطلقان الرافدة شيئاً فشيئاً. كان يرى حبل القنّب المهترئ يتحرّك كالرقّاص أمام عينيه اللتين أغرقهما الدمع. وحين خمد الأزيز في الحديد، ارتفع من بين أسنانه المغلقة نشيجٌ وعويل. مدَّ يده نحو الحبل وأمسك به برهة.

رفسٌ مكتومٌ فوق ألواح الخشب. ثمّ عاد الناقوسُ يقرع صاخباً. تدلّت القدمُ المشدودة في الهواء، ثمّ سكن كلّ شيء، في هدأة الليل البهيم.

.15

وخلصوا ثلاث ليالٍ نجيّاً، والمسيحُ بالقرب منهم.

تذكّر أحدُهم، مكاريو ربّما، أنّ المطرَ بدأ بالهطول حين مرّوا من أمام

التل، الذي بدا لهم شبيهاً بتل كالباريو[20]. فلا بدّ أن المسيح المجذوم هناك. في الهواء الطلق، قريباً من السماء.

سرت الفكرة وشاعت في أنحاء البلدة.

أحاط الناس بكوخ مكاريو.

وتحوّل المتسوّل العجوز، في تلك الأيام، إلى بطريرك البلدة الفعلي. بطريرك ثائر يحبه الجميع ويدينون له بالطاعة.

شارك الجميع في تنظيف التلّ. وبنى مكاريو، يعاونه پيدرو مارتير وإليخيو بريسوينيا وتاني لوپيث، الصليب، الذي ركزوا عليه التمثال، بعد أن ألصقوا به شعرَ امرأة أسودَ فاحماً، ناولهم إيّاه أحدٌ من أفراد الجمهور الصاخب.

لم يروا ماريّا روسا إلا بعد وقت، كانت تقف جنب الصليب، وقد حلقت شعرها وغطّت رأسَها بشالها الممزّق.

نصبوه أعلى التلّ. ورفعوا لحمايته سياجاً من الحلفاء، شبيهاً بكوخ الغابة حيث ولد.

ربّما كانت الضجّة التي أثارها المسيح، والتي ستستمرّ بالتأكيد، هي السبب في أن تتنازل محكمة الكنيسة وتصرّح بمباركة التمثال.

كان القرار أقربَ إلى الأمر منه إلى التصريح. مع ذلك، لم تكن تلك إرادة مكاريو.

«مسيحنا لا يحتاج إلى مباركتهم!» – دمدم. لكنّه رضي بالحكم، لأنّ الخلافَ لم يكن بلغ مبلغه.

---

(20) Calvario أو طريق الصلبان vía crucis. كومة من الحجارة يوضع عليها الصليب إشارة إلى وجود قبر.

.16

أُقيم احتفال الجمعة المقدّسة لأوّل مرة في تلّة إيتاپيه.

من أسونثيون جاء الأب فيديل ماثيث، وهو أحد كبار خطباء الكنيسة آنذاك، ليفتتح نصب الكالباريو ويلقي عظة الكلمات السبع.

وخرجت البلدة كلّها قاصدة التلّ، لتكون شاهدة على الانتصار المنقوص لمكاريو وأتباعه.

هزّ كلام الخطيب المقدّس مشاعرَ الحاضرين واستمالهم، فقد كان صوتُ الأب ماثيث معروفاً بدفئه وقوّته، وكان إتقانه للغة الغوارانيّة، وجزالة تعبيره بها تذكّران بأوقات مونتويا[21].

لم يجد صعوبة في إقناع أهل إيتاپيه أنّ ابن الربّ، بتواضعه اللامتناهي، سمح بأن تولد صورتُه على يد رجلٍ مجذوم، كما سمحت إرادته، قبل ألفي سنة، بأن يولد هو في مِذود.

«منذ الآن، سيطلق على تلّ إيتاپيه هذا» -أضاف الواعظ- «اسم توپا-راپيه، لأنّ طريق الربّ يمرّ عبر أكثر الأماكن تواضعاً، فيملأها بركة!».

وهذا هو اسمه حتّى يومنا هذا، توپا-راپيه، الذي يعني، في لغة الهنود، «طريق الربّ».

«لم أكن موافقاً» -قال مكاريو حينذاك- «ما كان من داعٍ لتغيير الاسم. مع ذلك، فقد كان الواجب أن يطلق على تلّة المسيح المجذوم اسم كويمبائي-راپيه».

وهكذا كان هو يسمّيه: طريق الإنسان.

---

(21) Antonio Ruiz de Montoya (1585–1652): كاتب ورجل دين من پيرو. مارس التبشير في پاراغواي.

«لأنّ للإنسان، يا أبنائي» -قال مكرّراً عبارات غاسپار وكلماته- «ولادتين: ولادة عند الميلاد وأخرى عند الموت.. يموت، لكنّه يظلّ حيّاً في الآخرين، إن كان أميناً مع الآخرين. إذا عرف كيف ينسى نفسه ويُؤْثر غيره عليها، في الحياة، فإن التراب سيأكل جسده، لا ذكراه».

ذلك الخلود، في نظر أحد أبناء الأعلى المعتوقين، هو الخلود الوحيد الذي في مقدور الإنسان أن يطمح إليه: اقتداء الآخرين والحياة من خلالهم. فاتحادهم في المصيبة، يحتّم عليهم أن يكونوا متّحدين أيضاً بتطلّعهم إلى الفداء ورجاء وقوعه.

- يجب أن يكون عملَ الجميع.

كان يقول ذلك كلّه، لأنّ الواقع لا يلبّي رغباته ولا ينطبق عليها.

- لقد شختُ وتعبتُ، وعليكم أنتم أن تغامروا!

لم نفهم ما قال. ظننّاه يخرّف. وسرعان ما ساءت حاله. في السنة التالية، حين أقيمت احتفالات المئويّة، رأيناه وقد نزل الماء الأبيض في عينيه، فعمي. وراح يزداد شروداً، وراح، يوماً بعد يوم، يزداد انحناء، ربّما ليس من ثقل السنين، بل من خيبة مسعاه الأخير، الذي سحقه سحقاً وهو في التسعين من العمر.

اشتدّت عليه الوحدة، وحجب العمى الرؤيةَ عن عينيه، وفقد ذاكرته، وسقط في أسوأ حالات النسيان: نسيان الإهمال. أتذكّره في ذلك الوقت. حفنة من التراب، تلقي بها يدُ أحد الأولاد، كانت كفيلة بمحوه.

.17

تزحف خطوط السكة الحديديّة فاتحةً أخدوداً أحمر عبر الوادي.

بعد اجتياز التلّة، ما عاد ممكناً رؤية نهايات السكّة، وهي تطلق شررها في الحقل.

كانت إيتاپيه تستيقظ من قيلولتها التي استغرقت قروناً. لكنّ البلدة عادت وانقسمت إلى فريقين لا يمكن التوفيق بينهما، وهو ما سمح للحاكم وللكاهن باستعادة سلطتهما الضعيفة.

يهيم مكاريو في الطريق، يسمعُ اهتزاز الفلنكات من تحت معاول العمّال وأرفاشهم. كانت مجاميع العمّال تلك تعمل كالمحكوم عليهم بالأشغال الشاقّة.

«وداعاً، مكاريو!» – يصيحون به حين مروره بهم.

فإن اقترب منهم أعطوه شيئاً من مؤونتهم الفقيرة. حبوب ذرة محمّصة، كسرة خبز، أو أيّ شيء تتسع له حوصلة عصفور.

ذات صباح شتائي، وجدوه، عند أسفل التلّة، متيبّساً جاثماً على الجليد، بأسماله البيض. وضعوه في إحدى عربات السكّة، وحملوه إلى البلدة، بين الأدوات والعُدد. كان صريرُ الدواليب على السكّة هو ترنيمة موته.

ودفنوه في تابوت طفلٍ وليد.

الفصل الثاني

خشبٌ ولحم

.1

– ها قد جاء الدكتور!

يقول الناس صباحاً، بينما تستدير «سايوكاي» نحو المشرق ببطء، يلفّها الترابُ والندى، وقد برزت بيوتها المتناثرة حول الكنيسة المهدّمة، وحول أطلال المحطّة.

بالقرب من السكّة، التي تضيع في الحقل بخطوطها البرّاقة، في قوس كالهلال، ترتعش الأنقاض المسودّة، متجمّدة والوقت بعدُ ظلام. راح العمّالُ يردمون، شيئاً فشيئاً، الحفرة التي خلّفتها القنابل. بدت حفرةً بلا قاع. حفرة يرقد فيها أيضاً ضحايا الانفجار: نحو ألفي شخص، بين امرأة ورجل وطفل. يواصلُ العمّالُ ردمها بالحجر والتراب والحصى، من دون أن يبلغوا السطح.

تهتزّ الجوانب وتنطّ فوق الدعامات المؤقّتة، كلّما مرَّ القطار من فوق الحفرة.

يغوص الترابُ ويغوص الحجر، فتصيح الشقوق العميقة: هل من مزيد؟ ويلقون بالمزيد، وهكذا، حتّى تخمد بلدة الموتى الراقدين بلا حراك تحت السكّة.

ما زالت آثار الرصاص، وأنقاض العربات المحطّمة، وسواد الحريق فوق حمرة التراب تُشاهَد في المحيط. وما زالت آثارُ الحمم ماثلةً على الأرض. فما حدث كان من قبيل بركانٍ ثار تحت أقدام البشر.

جدران دُعمت بالطوب، وسقوفٌ جُبرت بجذوع النخيل وحزم القش، فراحت تكتسي، عند التقاطعات، لون الذرة الناضجة تحت ضوء الشمس المشرقة.

في الطريق القادمة من «كوستا دولثي»، حيث معامل الآجر، والتي تخرج من البلدة بمحاذاة سكّة الحديد، يتقدّم الكلبُ وصاحبُ الكلب، لاهيَيْن عن الكارثة، غير عابئين بشيء.

أقصد، الآن يأتي الكلبُ وحده.

تتثاءب المراعي ماءً، ويتثاءب الطريقُ تراباً. الكلب يسير متمهّلاً، بلا عجلة، بين بخار يُخفي قوائمه فيجعله كسولاً حالماً، فكأنّه كلبٌ من رماد. سلّة جريد النخل معلّقة بين أنيابه، تتمايل كلّما هزّ رأسه المهلوس.

يمكن أن يقال إنّ البلدة استيقظت مع مروره، توّاً.

خرج الحوذيّون قبل قليل صوب الأرض المزروعة من الغابة. وفقدت الزُّهرة لونها الناريّ في تربيع السماء الأخير. وانطلق الحطّابون نحو الجبل، وعلى أكتافهم فؤوسهم التي راحت تتلألأ على ضوء الفجر. لم يبقَ في البلدة غير قليل من الرجال، فمن لم يقتلهم الانفجار والمذبحة والإعدامات التي تبعته، تفرّقوا أشتاتاً. وهجر سكّان معامل الآجر في

«كوستا دولثي» منازلهم. لم يبقَ أحد منهم، لأنّهم انضمّوا إلى ثورة الفلّاحين. عافوا العمل، ولوقتٍ طويل، في قطع الآجر وشيّه في الأفران. ما عادوا مهتمّين بإعمار تلك البلدة، التي بدت، منذ إنشائها، سنة ظهور المذنّب، وكأنّ الشؤم، كلّ الشؤم، نزل بها.

شؤم قبيح، يقول الناس، وهم يفكّرون في ذلك الطالع المشؤوم.

في تلك الساعة القلقة من الفجر، تذهب النسوة أيضاً، ويذهب الشيوخ والأولاد، إلى الغدران والمزارع والمستودعات. لكنّ البلدة تظلّ، في تلك الساعة بالتحديد، في سبات، كالميّتة، خالية هادئة، إلا من صرير بكرة على بئر، أو دقّ هاون لطحن الذرة، استعداداً لطبخ اللوكرو أو الماثامورا في أحد بيوتات البلدة[22].

باستثناء نبض قلب الخشب المتسارع، أو صياح الديكة اللجوج، لا تتسم «سابوكاي» باستيقاظ صاخب كالذي يميّز بقيّة البلدات، على الرغم من ورشة تصليح السكك الحديديّة، وهي الآن مغلقة.

كفّت أجراس الكنيسة عن القرع منذ أن أطاح الانفجار ببرج الناقوس وبالناقوس، فبقي في مكانه، منكفئاً، نصف مدفون، بين أعشاب القُرّاص، ملطّخاً بذروق الحمام.

في تلك الساعة الميّتة من ساعات البلدة، حين تتسلق الشمسُ جبال «إيتاكوروبي»، نافخةً تلّ «ثيرّو بيرده»، حتّى ليبدو كالدمّلة، يمرّ الكلبُ بالقرب من السكّة. ويحدث الشيء نفسه حين لا تشرق الشمس. كلّ يوم، سواءٌ أكان الطقس حسناً أم رديئاً، يواظب الحيوان على قطع الطريق

(22) Locro حساء معروف في عدد من أقطار أميركا اللاتينيّة قوامه الذرة واليقطين والبطاطس. أمّا الـ mazamorra فهو حلوى قوامها الذرة.

النازل من الجبل، حيث منزل الدكتور، شبه الفارغ، والمحاط بأكواخ المجذومين، بين المقبرة ومعامل الآجر في كوستا دولثي.

حتى المطر لا يمنعه من النزول.

- ها قد جاء الدكتور!

لا يقولون ذلك بكلمات؛ بل يقولونه جادّين، وبالتفكير الذي اعتادوه إزاء تلك الصورة المألوفة، والبنّاءة، نوعاً ما، على الرغم من كلّ ما حدث. فقد كان الدكتور، في وقت من الأوقات، من أصدقاء سابوكاي وحُماتها.

حلَّ فيها حين لم تكن جروح الحادث الفظيع قد اندملت. وساهم، من حيث لا يدري ولم يخطط، في حرف انتباه أهل البلدة عن مصيبتهم، بعد أن ظلّوا، لأكثر من خمس سنوات بعد الحادث، بين مصدّق ومكذّب. ثمّ انصرف إلى مساعدة الضعفاء والمحتاجين، بلا حساب ولا مصلحة، قبل أن يُنشئ، قريباً من كوخه، مصحّة المجذومين تلك، التي راحت تنمو وتزدهر.

هكذا كان الدكتور، الذي يكادون يشاهدونه الآن يسير خلف الكلب.

.2

وتراه ماريّا ريغالادا ولا تراه، وهي تستند على إحدى دعامات الكوخ القريب من المقبرة.

ترى خلف الكلب ظلّاً طويلاً نحيفاً، لم يكن، في نظرها، ظلّاً. ولم يكن ظلّاً في نظر الكلب. ولكن ما من ظلّ. الكلب يسير وحده، بطيئاً، مشوّشاً، يقتفي، على الطريق، أثراً لا يعرفه إلا هو، أثراً ما عاد موجوداً،

يرافقه ألم سيّده، والعينان المقذيّتان، ولا يحمل غير السلّة البالية القذرة، التي يسيل عليها لعابه، بلا انقطاع، في خيطين فضّيين طويلين. يقطع مسافة الفرسخ والنصف، ذهاباً وإياباً، بين الجبل وحانوت دون ماتيّاس سوسا، مروراً بالمقبرة، حيث بيتُ ماريّا ريغالادا.

في الربيع، ستكون قد مرّت ستة أشهر على غياب الدكتور. لا أحد يعلم بمكانه، لأنّه اختفى كما الدخان، ولم يترك من أثره غير كلبه المشرّد الوحيد الذي يأتي كلّ يوم حاملاً السلّة بين أنيابه، كما حين كان موجوداً، حين يأتيان في تلك الساعة، لشراء النزر القليل من المؤونة، التي يسدّد ثمنها من المال القليل الذي يكسبه من علاجاته.

يواصل الكلبُ سيره، على الدرب نفسه، بدقّة في التوقيت تثير الاستغراب والدهشة؛ كوكبٌ صغير مهلوس يدورُ في فلك ذلك المدار الغامض، حيث يمتزج ما هو حيّ بما هو ميّت. يصل إلى المخزن، فيترك السلّة على الأرض، أمام الباب، ثمّ ينظّف بدنه ممّا علق به من براغيث، أو يبقي على أذنيه مسبلتين. يحوم الذبابُ حوله. يدير رأسه الكبير فجأة، بسرعة البرق، ليصطاد واحدة، بلسعة من لسانه. أصبتَ الهدف! سيقول له دون ماتيّاس لو أنّه رآه. يطأطئ رأسه ويكفّ عن الحركة، فكأنّه يشعر بخجل أو بتأنيب، إلى أن يدفعه صوتُ المتراس أو يحرّكه صرير الباب عن مكانه.

«صباح الخير، دكتور!» -يحيّيه البقّال، غير ساخر، بالغرابة المعتادة، فكأنّ صاحبه الصامت موجود فعلاً إلى جنبه- «وكيف لأفضل زبائني أن يغيب! ما المطلوب اليوم؟ طحين وجعة؟» -سأله، مشدّداً على لفظه، في محاكاة فظّة- «لا. ليس لدينا طحين. جعة فقط، أليس كذلك؟ انظر.. ولا حبّة!».

ينظر الكلب إليه بعينين وادعتين، ناعمتين. يحرّك ذيله وأذنيه. يبدو واثقاً، لكنّه لا يفقد وقاره.

- عجباً.. كلبٌ مجنونٌ كسيّدك!

لكنّ دون ماتيّاس بات يعامل الكلب حسب مزاجه. ما عاد يشعر نحوه بذاك الالتزام. فقد يضع له في السلّة قطعة من اللحم فيها من العظم أكثر ممّا فيها من اللحم، وبسكوتات عفنة، أو فضلة نقانق تالفة. وقد يكتفي بركله؛ وقد يتجاهله ولا يعطيه شيئاً، وهو ما كان يحدث في أغلب الأحيان.

يحمل الكلبُ السلّة بأسنانه ويعود أدراجه، راضياً بكلّ شيء: ركلات البقّال، أو كريّات الطين المطبوخ التي يقذفها عليه أحد الأولاد بشريط مطّاط ليجرّب مهارته في التصويب، أو الأفاعي والضفادع الميتة التي يلقي بها آخرون خفيةً في السلة. بينما يمضي هو، مشغولاً بتتبّع الأثر، لاهياً عمّا يفعلون. نسي حتّى النباح. ما عاد يُسمع منه إلا عواء رفيع، ما زال يخرج من حنجرته، في بعض الليالي، حين يكون القمر في التربيع الأخير، قبل أن ينام، مكوّراً، عند باب الكوخ الخالي.

ولطالما انتظرته ماريا ريغالادا، عند تقاطع المقبرة، لتساعده وتخفّف عنه ما تلقّاه من سوء معاملة. تمرّر يدها على جلده المهلوس، تلوك أوراقاً من لسان الحمل وتضعها لبخة على الخدوش التي خلّفتها كريات الطين المطبوخ، تنظّف السلّة ممّا فيها من هوام، وتضع فيها، إن كانت فارغة، شيئاً من الطعام. ثم تسير معه نحو البيت المعزول، لأنّ ماريّا ريغالادا تشعر، كما يشعر الكلب، بأنّ الدكتور حاضرٌ معهم، وبأنّه قد يعود بين لحظة وأخرى، ويراودها الأمل الذي يراوده.

ذلك هو ما كان يقرّب بين الفتاة والكلب، ويوالف بينهما، في حالة

توشك أن تكون هوساً، لا يعدو، ربّما، عن أن يكون رضوخاً وقبولاً بالأشياء دون الكفّ عن انتظارها.

واصلت ماريّا ريغالادا، على الرغم من حَمل بطنها، نشاطاتها التي آلت على نفسها القيام بها: تنظّف الكوخَ المهجور، وتعدّ الطعامَ للمجذومين، وتعتني بالمزرعة، حيث تنمو الطماطم الحمراء كبيرة، وحيث ينثني سياجُ القصب الذي أقامته، حين كان الدكتور ما زال على قيد الحياة، تحت ثقل متسلّقات الفاصولياء، المحمّلة بالقرون المكتنزة والسميكة كالأصابع.

أمّا الشيء الوحيد الذي لم تستطع إصلاحه، فهو تلك التماثيل مقطوعة الرأس.

لا تتجرّأ على مسّها، ولو بواحدة من سيقان تلك النبتة التي تضمّها إلى بعضها لصنع مكنسة. تخشى، إن حرّكتها، أن يخرج من خشبها الأسود دمٌ أسود، سمّمه عقابُ الربّ.

.3

– ها قد جاء الدكتور!

يحسبون أنّهم عرفوه. لكنّهم لا يعرفون عنه أكثر ممّا عرفوا عنه يوم وصوله إلى البلدة، عقب سنوات من سحق ثورة الفلّاحين، في مجزرة القنابل تلك.

أنزلوه من القطار رفساً تقريباً، بين ضجيج المسافرين وصراخ حرس القطار وسبابهم.

قيل إنّه أراد أن يخطفَ طفلاً من امرأة، أو إنّه ألقى بالطفل من النافذة

في لحظة غضب أو جنون. ما من شيء مؤكّد لكي يقال إنّ الأمور جرت هكذا، وفُتحت قضيّة ووُجّهت تهمة وصدر حكم يقوم على وقائع تتجاوز قيل الجنود في المحطة وقال بائعات الچيبا.

اعتقلوه يومين أو ثلاثة أيام في مركز الشرطة. ألقوا به في المطبق. ظلَّ صامتاً، لا يردّ على أسئلة المحققين، ربّما لأنّه لا يجيد القشتاليّة، ولا الغوارانيّة. أو لأنّه، ببساطة، لم يُرد أن يقول شيئاً ولا أن يبرّر شيئاً ولا أن يشرح شيئاً. وربّما لأنه كان بريئاً فعلاً، لكنّه غير مهتمّ ببراءة أو بإدانة.

ثمّ أطلقوا سراحه. لكنّه لم يترك البلدة، بل مكث فيها، وكأنّ الأماكن ما عادت تهمّه.

ظلَّ هائماً على وجهه، لوقت من الأوقات، بينما راحت ملابسه تهترئ وجزمتاه تتمزّقان.

استأجرَ حجرة في نُزُل «نيا لولي چاموزّو»، وهو بيتٌ نصف خرب، يقع في الضواحي، حيث يبيت رعاة «پاراغواري»، وهم في طريقهم إلى «مسيونيس»، ويعرّج عليه مفتّشو الضرائب، أولئك الذين يستمتعون، أحياناً، بالخادمات الصغيرات، اللائي يقدّمن خدماتٍ «من كلّ نوع».

لم يكن الغريب يتحدّث مع أحد، ولا حتى مع العجوز الثرثارة، البدينة المكرّشة. بل كان يمضي وقته معتكفاً في الحجرة الرطبة التي كان المطبق أكبر منها وأدعى للراحة. ما كان يخرج إلا للتردّد على الحانوت.

.4

في المرة الأولى التي ذهب فيها إلى الحانوت، قال دون ماتيّاس لزبائنه همساً:

- يبدو أن الغرينغو[23] يحتاج إلى استنشاق الهواء.

«ما يحتاجه هو عصا القيادة» - قال ديخيسوس ألتامارينو، أمين سرّ البلديّة، وهو أيضاً يشرب في حانوت دون ماتيّاس ويعتاش من إكراميات أصحاب معامل العرق غير المرخّصة.

اقترب من طاولة البيع.

«أيّ خدمة، سيّد؟!» - سأل البقّال بلطف، فيه من الفضول أكثر ممّا فيه من روح الخدمة.

«جِعة» - قال، من دون تحيّة ولا تقرّب ولا تودّد ولا تفاهم، كما يفعل أيّ رجلٍ مطوّق محاصر، بغضّ النظر عن طوق اللغة والعرق، وبعيداً عن طوق المصائب الخاصّة والتعاسة العامة.

عبَّ الكأس. دفع وانصرف.

«من يدري إلى أين هو ذاهب!» - قال دون ماتيّاس سوسا.

«وأين عساه يذهب!» -قال ألتاميرينو- «العنزة إلى جبلها والخنزير إلى حظيرته».

«هو ليس عنزة ولا خنزيراً» -قال البقّال- «ولا متشرّداً من المتشرّدين. يبدو مسؤولاً هارباً من أحد بلدان أوروبا. أنا لا أُخدع بمثل هؤلاء. سيسترخي ويلين. سأجرّه في الكلام. فليس من عادة الآدمي أن يظلّ صامتاً لوقت طويل».

«هذا إذا كان آدميّاً» - قال ديخسوس ألتامارينو.

---

(23) تطلق كلمة Gringo، ومعناها «غريب» أو «أجنبي»، في أميركا اللاتينية، على كلّ من يرطن بلغة غير مفهومة. وتشمل الأميركان خصوصاً، والأوروبيين على وجه العموم.

– سأجعله يتكلّم.

– لكنّ نيا لولي لم تستطع أن تجرّه في الكلام. الأمر يبدو لي صعباً.

– هذا حالة خاصة. حالة لا تقدر هي عليها.

– سنرى...

لكنّهم لم يروا إلا القليل القليل؛ لم يروا غير أنّ الغريب واصل التجوال. لم يبدُ عليه أنّه ينوي الرحيل عن البلدة. عاد إلى حانوت البقّال غير مرّة. يطلب الجعة دائماً، بطريقة تغلب اللامبالاة فيها على الغطرسة، واليأسُ على الكبرياء. يدخل هو وصمتُه. لا شيء آخر. حتّى الكلب والسلّة جاءا لاحقاً. وجاءت البقيّة.

.5

في تلك الأيام بدؤوا ببناء المحطة الجديدة، وأعادوا فتح ورشة السكك الحديديّة. فعلى الرغم من الحفرة، وهي مقبرة تحت السكّة، وعلى الرغم من كلّ ما جرى، كانت سابوكاي تحاول قفزة نحو الأمام، بعد توقّف مأساوي دام أكثر من خمس سنوات.

وشرعت لجنة إعادة بناء الكنيسة، التي ترأّسها الكاهن، في ترميم البرج المهدّم. أعادوا وضعَ الناقوس وفق منظومة معقّدة من البكرات، وأمروا بجلب ساعة من أسونثيون، ساعة غريبة تسجّل الوقت بالمقلوب، لأنّ البنّاء نصبها، حين نصبها في البرج، بالمقلوب.

لذلك وجد الذين يرتادون المحطة ما يتسلّون به ويعلّقون عليه، ونسوا موضوع الغرينغو.

ترك سكنه في النُّزُل. وما عاد يتردّد على حانوت البقّال. نفد ما لديه من نقود. صار ينام، حين هطول المطر، تحت الأشجار أو في رواق الكنيسة. وكان هو من أصلح مسار ساعة سرطان البحر المقلوب، فكافأه الأب بنيتيث عن ذلك بأن سمح له بذلك الامتياز، على الرغم من احتجاج لجنة السيّدات، اللائي لم يكنّ ينظرن إلى الغريب بعين الرضا، لأنّه كان يتجاهلهنّ تماماً.

من بين شقوق قميصه تبدو بشرته البيضاء، التي لوّحتها الشمس. أصابه الهزال. طالت لحيته، وتدلّت خصلٌ من شعره الأشقر على كتفيه، وأطلّت خصلٌ أخرى من تحت قبّعة القش التي بات يلبسها بدل قبعة اللبّاد، بعد أن اهترأت من كثرة ما احتكّت بالحجر وبالحشائش، فقد كان يتوسّدها أيضاً. أمّا الجزمتان فقد استبدل بهما خفّين، اشتراهما، كما اشترى القبّعة والعباءة، من حانوت دون ماتيّاس، ربّما بآخر ما كان يملك من نقود، فقد ترك مرجوع ما دفع على طاولة البيع، ولم يعد إلى الحانوت إلّا بعد أن مرَّ بعض وقت.

بدا، عندئذٍ، رجلاً آخر.

لم يبقَ من ذلك الرجل الأوّل إلا العينان الزرقاوان المحمرتان، وإلّا نظرات الأعمى الثابتة الكدرة.

.6

في تلك الأثناء، عُرِف جديدٌ عنه.

في مسامرات النزل والحانوت، قلّبت نيا لولي ودون ماتيّاس والحاكم

السياسي[24] أتاناسيو غالبان، وألتامارينو، ما لديهم من معلومات، وتبادلوا الآراء والانطباعات، واستنتجوا أنّ الغريب مهاجر روسي.

أمّا أغلب المعلومات فقد جاء بها أتاناسيو غالبان، عاملُ التلغراف السابق، الذي تبوّأ أعلى سلطة في البلدة بعد أن وشى بالثوار. كان على اتصال مباشر بوزارة الداخليّة.

«رأيتُ جوازَ سفره» -قال، وهو ينقر، بأطراف أصابعه، نقراً عصبياً على الطاولة، وكأنّه يبرق رسالة الوشاية تلك- «جواز سفر نظامي، يحمل تأشيرة قنصليّة بلده في بوينوس آيريس. اسمه أليكسيس دوبروفسكي» -تهجّاه بصعوبة- «إنّه غرينغو منغلق جداً! لم أستطع أن أحصل منه على كلمة واحدة، على الرغم من أنّني لوّحتُ له بالكرباج».

وذكرَتْ واحدة من جاسوسات نيا لولي أنّها فتّشت أوراقه، بينما هو في الحانوت، وعثرت على صورة بين أوراقه. وقد أطلعت صاحبة النزل عليها؛ ثمّ أعادتها إلى مكانها.

«كان هو» -قالت عظيمة الجسم مكتنزة البدن، كاشفة السرّ بعينين مستغربتين- «نعم. كان هو. من دون لحية، وأصغر سنّاً. لكنه هو. يرتدي بدلة رسميّة فاخرة، شبيهة ببدلة الكولونيل ألبينو خارا. لكنّه أطيب من الكولونيل، وإن كان الكولونيل طيّباً أيضاً. هل تتذكّرون حين مرَّ متجهاً إلى كاي پوينته لافتتاح خط السكة الحديد؟ كان متأنقاً منمّقاً. نزل إلى رصيف المحطة مع السادة الذين كانوا يرافقونه، وبدا شبيهاً بكبير الملائكة، جبريل، ذا شارب أسود. وحبست الفتياتُ أنفاسهنّ. حتّى أنا.. يكفي أن أقول ذلك لألخّص لكم كلّ كلام».

(24) وُجد هذا المنصب أثناء حرب چاكو (1932-1935) ليدلّ على مدير الشرطة. ثمّ غُيّر إلى «العمدة».

توقّفت لتستجمع أنفاسها.

«وما علاقة ما تقولين بالغرينغو؟» - قال ألتامارينو.

- أقول إنّه كان يشبه الكولونيل خارا. ولكن على أشقر. وكانت الفتيات هناك سيتأوّهن عليه أيضاً. لكنّه متزوّج. في الصورة يظهر واقفاً مع امرأة شابّة، فاتنة، تحمل بين ذراعيها طفلة.

«وما الذي جاء به إلى هنا؟» - قال قاضي الصلح، كليماكو كابانياس.

«ربّما هارباً من البلشفيك» -قال الأب بنيتيث- «فهم يقتلون النبلاء هناك».

تحدّث قليلاً عن قيصر روسيا، الذي أُعدم وقتذاك مع كلّ أفراد عائلته فوق سطح أحد البيوت.

«ولماذا فوق سطح أحد البيوت؟» - سأل سكرتير البلديّة.

«لكي يقتصّوا منهم في الأعالي» -قال صاحب الحانوت، وهو عند طاولة البيع- «فالقيصر، يا صديقي، لا يمكن إعدامه في حفرة! أليس كذلك، دون كليماكو؟».

«المسألة هي أنّ من انتصر هناك هم الثوريون» - تمتم القاضي، وتزحزح نحو أحد أطراف الكرسي.

«هناك!» -قال عامل التلغراف، الذي رُقّي إلى منصب حاكم سياسي، بازدراء- «لأنّنا هنا نعرف كيف نتعامل مع الذين يريدون الثورة على النظام. هل تتذكّرون كيف قضينا عليهم؟».

ما كانوا في حاجة إلى أن يشير الجاسوس الواشي إلى ذلك الفصل. وتذكّر الجميع، بلا شكّ، انتفاضة الفلّاحين. تلك الانتفاضة التي ما

زالت آثارها، على الرغم من السنوات التي مرّت والترميمات التي تمّت والحفر التي طُمّت، ماثلة للعيان. بل تعيش في وجدان كلّ فرد.

لقد ثبّتَ عمودُ اللهب الذي نتج عن قنبلة تلك الليلة المرعبة، ليلة الأوّل من آذار عام 1912، بضيائه، الصورة الفوريّة للكارثة. لا شكّ أنّهم يتذكّرون الآن القطار الذي كان الثوّار، تحت قيادة النقيب إليزاردو ديّاث، يعجّلون به لينقضّوا على العاصمة بمقاتليهم الألفين، بين جنود مقاتلين وفلّاحين. كانوا يمتلكون حتّى قذيفتين من عيار 75. كانت ورقة النصر الأخيرة في أيديهم. ضربة حظ حقيقيّة. مصادفة. ورقة أخيرة، لكنّها قادرة على الإطاحة بسلطة المركز.

وبالمصادفة أيضاً كان عامل التلغراف في إيتاپيه، أتاناسيو غالبان، يمرّ بـ ساپوكاي. خدع صديقه وزميله ثيپريانو أوليفر وحلّ مكانه، من دون أن يعلم الثوريون بذلك، وبعث بإشارة إلى معسكر پاراغواري، الذي كان تحت سيطرة الحكومة.

«لقد ألحقتُ بهم الهزيمة!» -اعتاد غالبان أن يقول متفاخراً- «إنّه ولائي المجرّب للحزب!».

حينذاك، أطلقت القيادة في پاراغواري قاطرة مشحونة بالقنابل لتصطدم بقطار المتمرّدين. لكنّ الاصطدام لم يحدث في الحقل، كما توقّع مخطّطو العمليّة. وكان في فرار ميكانيكي المتمرّدين ما أضاف تعقيداً غير محسوب على الخطة؛ فقد تغيّرت بسبب ذلك ساعة الانطلاق التي أبلغ عنها عامل التلغراف غالبان.

وانفجر الطوربيدُ العملاق، المنصوب على العجلات، بقذائفه المتشظية الألمانيّة الألف والخمسمئة، وسط محطة ساپوكاي، وتسبّب

في سقوط عددٍ كبيرٍ من الناس الذين تجمّعوا هناك لتوديع الثوار. ثمّ بدأت عمليات الملاحقة والتنكيل في حقّ الناجين من الثوار، وفي حقّ أهاليهم والمتعاونين معهم. وشهد عاملُ التلغراف، وقد بات حاكماً سياسيّاً وممثّلاً للحكومة، بعد «عمله البطولي ومساهمته في حفظ النظام والدفاع عن السلطات القائمة» -والذي لطالما ردّد نصّ مرسوم تعيينه- شهد الإعدامات الأخيرة، وقاد عملية فرض النظام على المدينة، ثمّ أشرف، بعد سنوات، على أعمال إعادة بناء ساپوكاي. أمّا عاملُ التلغراف الآخر، ثيپريانو أوليفر، الذي خانه صديقه أتناسيو غالبان مرّتين، فقد أشيع أنّه كان من بين الذين أُعدموا. أشيع أيضاً أنّه حيّ يُرزق، لكنّه في حبس مؤبّد في مستشفى المجانين في أسونثيون. وظلّ اسم ثيپريانو أوليفر، بين هذه الإشاعة وتلك، معلّقاً في خطوط التلغراف إلى الأبد. وما زال الناس، على طول الساحل، بين إيتاپيه وساپوكاي، يطلقون على خطّاف الصيف المنفرد اسم «سيپيه المنفرد».

ما من أحدٍ من الحاضرين كان يستمتع بتذكّر تلك الأشياء، خلا الحاكم السياسي. وما زالت نقرة التلغراف تلك، التي طالما فعلها بإظفره، تخرج لا إرادياً منه لتفضح مكنونات ضميرٍ لا يعرف الراحة.

عادوا في تلك الليلة، إذاً، إلى موضوع السلافي الهارب.

«وماذا لو كان الغرينغو مجرماً دولياً؟ أليس من الأفضل طرده في الوقت المناسب؟» - قال ألتامارينو.

«لا، فهو لم يفعل ما يُسيء» -قال القاضي- «ألم تقرأ الدستور؟».

«أقصد أنّه» -قال السكرتير بشيء من التواضع- «ربّما كان ميّالاً إلى الثوريين».

«إلى ثوريّي بلاده؟» – سأل غالبان بعجرفة.

– بل إلى ثوريّي بلادنا.

«اترك هذا الأمر لي» –قال له الحاكم السياسي مستهزئاً وقد نفخ صدره– «إذا كان هذا الرجل جاسوساً، فستفضحه تحرّكاته. وعندئذٍ سأعاقبه بما يستحقّ. لن أعدمه فوق السقف».

لكنّهم لم يكونوا، حتّى ذلك الوقت، يعرفون عنه أكثر من اسمه، الذي يصعب عليهم تلفّظه؛ ولم يروا فيه غير رجلٍ أحرقه القدر. أمّا ما عدا ذلك، فشكوكٌ وإشاعاتٌ وكلام.

لم يظهر من بعدُ في البلدة.

.7

ثمّ جاء من يخبرُنا بأنّ صاحبنا يبني كوخاً له في الجبل، قريباً من كوستا دولثي، عند نهر «كانيابيه»، بين المقبرة ومعامل الآجرّ المهجورة. كوخ صغير، مختلف عن البقيّة. ما زالت أفعاله غريبة وغير مفهومة. يأكل عنبة الجبل وبرتقال الجبل، أو يصيد الحيوان المدرّع وقنادس الخليج البنّيّة، ويتلذّذ بأكلها مشويّة.

أخبارٌ لا تعدوعن كونها تكهّنات وافتراضات.

أشارت معلوماتُ البحث التي جمعها الحاكم السياسي إلى أنّه يمضي وقته عند الجدول، يصيد الأسماك، أو مستلقياً. لم يفلح أحدٌ في الحصول على كلمة واحدة منه.

«مهما يكن من أمره» –قال الكاهن، تلك الليلة، أثناء توقّفهم عن لعب الورق– «فإنّ هذا الرجل هجر الدنيا، وزهد في بهرجها».

«لكنّه لم يزهد في شرب الجعة!» - قاطعه أمين سرّ البلدية، مرتشي العرق غير المرخّص.

«... مثل الديريين القدامى» - قال الكاهن.

«وهل كانوا يسكرون؟» - سخر ألتامارينو مجدّداً.

حين هدأ الضحك، مال القاضي في جلسته، كما اعتاد أن يفعل حين يؤلمه مستقيمُه، وقال في ما يشبه الحكم القاطع: «ربّما يكون كما تقول حضرتك، أبونا. لكنّ رجلاً مثل هذا.. ما زالت الحياة أمامه طويلة. فهو ما يزال شاباً. وكلّ ما خلّفه وراءه. لا أدري. طينته لا توحي بأنّه ديريّ. قد تنثر ملحاً في الحقل لكي لا ينمو شيء، لا تنمو حتّى الأعشاب الضارة، لكنّ من الصعب أن تقتل الأرض. فلن تلبث البذورُ القديمة أن تخرج من بين الشقوق التي يصنعها المطر... أو الديدان، وترمي هناك بكلّ رذائلها. وكذلك يفعل الإنسان».

«عجباً، دون كليماكو يقول كلاماً حسناً!» - قال أمين السر، من دون أن يعرف أحدٌ ما إن كان يمدح أم يستهزئ.

«هذه هي الحقيقة» -قال القاضي، من دون أن يبدو عليه أنّه فهم- «حضرتك تفهم في هذا أكثر منّا، أبونا. فمن العبث أن يتوب الواحدُ منّا، إذا كان دمه حارّاً. سنرى كم سيتحمّل هذا».

.8

ثمّ حدث ما سيغيّر اسمَه ووضعَه في سابوكاي، ويعطي الحقّ جزئياً لرجل الدين.

فذات عصر، وبينما كان الغرينغو مارّاً بالمقبرة، رأى ماريّا ريغالادا تتلوّى على الأرض، بين الصُّلبان، تئنُّ ألماً، على مرأى من أبيها، الذي راح يتأملها عاجزاً.

هرول، فحصَ الفتاة. رفعها، وهي تترنّح، وحملها إلى بيت الدفّان.

وضع بنفسه الماء على النار ليغلي، وتناول سكّيناً صغيرة وراح يشحذها بحجر. كان صامتاً. ولم يتجرّأ الدفّان على مقاطعته وهو يراه يجهّز ما يجهّز بسرعة ودقّة.

سأله مرّة واحدة وحسب: «ما الذي ستفعله، سيّدي؟».

ولمّا لم يبدُ على الآخر أنّه سمعه، ظلَّ تاني كاثيريه المسكين صامتاً، يتابع بعينيه القلقتين حركات الغرينغو.

كانت ماريّا ريغالادا ترقد بلا حركة؛ تجرّ أنفاسها بصعوبة. وضعها على طاولة. شقّ ملابسها. غسل يديه بعناية، وغسل الموضع الذي عزم على فتحه. سحب السكين من الماء المغلي وشقّ البطن السمراء التي كانت تعلو وتهبط على ضوء الشمس المتسلّل من العريشة.

تمَّ ما بدا غير ممكن. حكى تاني كاثيريه، وهو يبلع ريقه، حركات الغرينغو الغريبة، حتّى اللحظة التي بدأ هذا فيها بخياطة الشقّ المفتوح في بطن ابنته.

لم يكن أحدٌ يريد تصديق ما حدث. لكنّ ماريّا ريغالادا شُفيت وتعافت. عاينت النسوة الجرحَ الذي بدأت قُطَبُه الستّ تندمل. وجاءت نيا لولي چامورّو من البلدة، خصّيصاً، لتعاين المعجزة. ومن هناك اتجهت إلى كوخ الغرينغو لتُريه الكيس الدهني الذي في قفاها.

.9

بعد أيام قليلة عادت الفتاة إلى عملِها، الذي كان، في نظرها، مصدرَ لهو ولعب.

كانت ماريّا ريغالادا آنذاك في الخامسة عشرة. وبينما كان أبوها، بين الحين والحين، يحفر قبراً، كانت هي تطوف بين كزوارينات المقبرة، تعزق الأعشاب الضارة حول الصُّلبان، وتصلح الشالات المنسولة وترفوها، أو تزيل الزهور الذابلة من على القبور. فكأنّها في مزرعة. لكنّها كانت مسرورة في عملها، بل كانت تعرف لمن يعود كلّ صليبٍ من الصلبان. بين تلك القبور قبرُ أمّها وقبرُ جدّها، خوسيه دل روساريو، وقبورُ أقرباء آخرين وأصدقاء. في وسط المقبرة عددٌ كبير من الصلبان، زُرعت فوق القبر الجماعيّ الذي يضمّ رفات الذين لم يُدفنوا في الحفرة التي خلّفها الانفجار.

الأمواتُ في نظرها متساوون. هم جيرانُها في الحيّ الذي تسكنه. تهتمّ بأحلامهم وتسهر على راحتهم، وهم تحت التراب. تحترمُهم، ولا تخاف منهم. فليس الموت في نظرها إلا الوجه الآخر الساكن من الحياة.

كانت وظيفة الدفّان موضعَ حسد دائم في سابوكاي.

لقد ملأ النزوح الذي سبّبته الحرب العظيمة إقليمَ الوديان الزرق ذلك بالمدافن.

وكان اليسوعيون، قبل ذلك الوقت بثلاثة قرون، قد جعلوا منها مقرّاتٍ لهم، وصلَتْ طلائعها حتّى تلّة پاراغواري، حيث أشاع الرهبانُ حكايةَ حول ظهور سانتو توميه، بعد أنّ ركّبوها، بمهارة وحذق، كدأبهم دائماً، على أسطورة الإله الهندي زوميه، الذي كان ظهر أيضاً في تلك الأنحاء،

حين كانت الشمس بعدُ أصغر من القمر. وبدا وكأنّ الهنود صدّقوها وآمنوا بها. لكنّ ذلك ما عاد يهمّ أحداً الآن.

في مغارة من مغارات التلّة، تظهر آثار قدمي القدّيس، شفيع المتّة، مطبوعة في الصخرة البركانية، وحين تهبّ الريح، يُسمع صوتها، يتردّد قوياً في التجاويف.

فوق تلك الوديان، وخصوصاً پاراغواري وپيرايو وساپوكاي، اعتادت الفراشات الفوسفوريّة، بوهجها المستنقعي، أن تطير، في الليالي التي تنبئ بأحوال جويّة سيئة، ملامسةً سطحَ الأرض. وما زالوا، إلى يومنا هذا، يُخرجون، وهم يحفرون قبراً جديداً، جرّةً فيها قطعٌ من النقود، أو مصوغاتٍ تعود إلى زمن ذلك النزوح، أو قديساً معمولاً من الخشب، يعود إلى زمن اليسوعيين، ليفسحوا المكان للميّت.

يكاد منصب الدفّان في ساپوكاي أن يكون من المناصب الرفيعة.

مع ذلك، فقد توارث الرجال من آل كاثريه، وهم الأفقر في البلدة والأكثر تواضعاً والأقلّ حظاً من التعليم، ذلك المنصب، منذ الحرب العظيمة. توارثوه، جيلاً بعد جيل. ولم ينازعهم فيه أحدٌ.

فالمقبرة أقدمُ، إذاً، من البلدة بكثير. فالبلدة أُسّست في عام الألفيّة، أي حين كان المُذنّب ما زال حيّاً نابضاً تقريباً. ربّما لم يكن المكان الوحيد في پاراغواي الذي أقيمت فيه أكثر من بلدة بالقرب من مقبرة علمانيّة.

إنّه المكانُ الذي عثر فيه خوسيه دل روساريو، جدّ ماريّا ريغالادا، على منحوتةٍ لسان إغناثيو، محفورة على الخشب، بينما كان يحفر أسفل شجرة غار معمّرة. وحين أنقذ الغرينغو حياة الفتاة، حمل تاني كاثريه المنحوتة له هديّة. لكنّه أصرّ على رفض الهديّة، فكان تاني أشدّ إصراراً وعناداً منه.

«لقد داويتَ ابنتي» –قال له بالغوارانيّة– «وأنا لا أملك مالاً. ولن أنتظر أن تموتَ لكي أدفنك مجّاناً. فتقبّل منّي منحوتة القديس وانتهى الأمر!».

وترك له المنحوتة الخشبية مركونة على الحائط.

.10

بدأت سايوكاي تتكلّم عن «غرائب» الأجنبي و«عجائبه».

بعد وقت قصير استأصل الكيسَ الدهني من قفا نيا لولي. ثمّ عالج راعي أغنام تعرّف عليه في النُّزل، وكان أمضى يوماً كاملاً يسخر من الغرينغو، مع عنزاته، التي أثارها قدوم الربيع.

وصل الراعي على ظهر حصانه إلى الكوخ الصغير، تخنقه الدفتريا. فوفّر عليه الغرينغو رحلة إلى حفرة من حفر تاني كاثريه. ورفض، هذه المرّة أيضاً، أن يتلقّى شيئاً ممّا عرضه عليه الراعي: لا المال ولا المسدس ولا الحصان. مع ذلك، قَبِلَ منه الكلب، الذي تآلف معه، بعد ثلاثة أيام من وجوده معه.

ثمّ عالج زوجة أتناسيو غالبان من الربو، وعالج زوجها من شيء ما كانوا يعرفون طبيعته، تطلّب علاجاً طويلاً من مطهّرات القيصوم والريباس. وخفّف عن القاضي آلام بواسيره، التي كانت تلزمه بالجلوس ونصف مؤخّرته خارج كرسيّه. حتّى كبد الكاهن المريضة تحسّنت بالأدوية التي وصفها له. لقد أثبت أنّه خبير بطبّ الأعشاب. كان يغوص في الجبل، ثمّ يخرج حاملاً أكواماً من النباتات والأعشاب الطبيّة. وبلغت شهرة أعشابه ونباتاته كلّ مكان، وأثبتت التجربة نجاعتها للجميع.

منذ ذلك الحين صاروا يطلقون عليه اسم الدكتور.

وهكذا انقلب الارتياب والاستهزاء والهمس احتراماً وإعجاباً. وما عاد أحد يذكره بسوء. لكنّ أطباء «بيّاريكا» و«أسونثيون» رفعوا بحقه دعوى مبهمة، اتهموه فيها بأنّه يمارس الطب وما هو بطبيب. وسرعان ما ضاعت الدعوى في ثنايا إضبارة طويلة وعريضة، أمر عامل التلغراف السابق المؤثّر بأرشفتها.

ما عاد صاحبنا يوصف بـ الغرينغو، وما زال بعيداً عن صفة الهرطقي.

.11

بدأ الناسُ يتجمهرون كلّ يوم حول الكوخ المستدير، وراحت أعدادُهم تزداد يوماً بعد يوم. وصار يأتي، من القرى القريبة ومن البلدات النائية، مرضى ومقعدون، راجلين أو راكبين أو محمولين في العربات، يبحثون عن الدواء والشفاء. وبينهم مجذومون. ينظر الدكتور في حالاتهم جميعاً، الواحد تلو الآخر، بصمت وبصبر، دونما تميز. لا يتقاضى أجراً من الفقراء، الذين اختاروا أن يأتوه بدجاج أو بيض أو مؤونة، أو بنسيجٍ من القطن، يصلح به هندامه.

صنع إنبيقاً لتقطير خلاصة قشور البرتقال، وعمل بلسماً لعلاج المجذومين، بدلاً من زيت الشالموغرا.

وعالج سيّدات اللجنة الكنسيّة جميعهنّ تقريباً، وهنّ اللائي لم يسمحن له، ذات يوم، بالنوم في رواق الكنيسة.

ونظر، آنذاك، في حالة مجنون كان يعاني من حمّى الملاريا، يسكن

في إحدى عربات القطار الذي دمّره الانفجار، برفقة زوجته وطفله، واسمه كاسيانو أمويتيه. لكنّه لم يستطع معالجته. وحين عاد كاسيانو هذا إلى البلدة، بعد غياب طويل، لم يصدّق إلّا القليلون أنّه كاسيانو خارا، زعيم ثورة معامل الآجر، في كوستا دولثي.

عربة القطار تلك هي العربة التي شوهدت، لاحقاً، تبتعد، في مشهد غريب، عبر الحقل، فوق عجلاتٍ مشتعلة.

طبعاً. هذه حكاية أخرى. إشاعة من الإشاعات الكثيرة التي راجت بين أولئك الفقراء الذين ألقى بهم البؤس في براثن الخرافة.

.12

صارت ماريّا ريغالادا، بعد أن شُفيت، تذهب إلى الكوخ المبنيّ من جذوع الأشجار، لتحمل قدور اللوكرو[22]، فكان الدكتور يتقاسم ذلك الطعام مع كلبه.

لم يشكر لها يوماً اهتمامها، ولم يتوجّه إليها يوماً بكلمة، حتّى بعد وفاة أبيها الدفّان.

بذل قصاراه، لكنّه لم يستطع إنقاذ تاني كاثريه من القيء الأسود الذي قضى عليه في أيام قليلة، وألقى به في واحدة من الحفر التي اعتاد أن يحفرها مقدّماً. «لكي لا يتراكم العملُ عليّ فجأة»، كما كان يقول. لم يتراكم العملُ عليه، بل تراكم عليه التراب. وهمس أحدهم قائلاً إنّ الدكتور أهمل الدفّان متعمّداً ليموت.

وحلّت ماريا ريغالادا محلّ أبيها. آل المنصبُ إليها بالوراثة، وكانت

تلك هي المرة الأولى التي تشغل امرأة هذه الوظيفة. مع ذلك، لم تكفّ الفتاة عن التردّد على كوخ الجبل، لأنّ ساكنه لم يكن يمنعها من أن تتردّد عليه.

«إنّها مجنونة به...» - قالت نيا لولي في النُّزل للرعاة ولمفتّشي الكحول، الذين ظلّوا يسألون عن أخبار حفّارة القبور، مفترضين أنّها باتت تمتلك جِرار «دفنٍ» عامرة.

- والغرينغو، ماذا يفعل؟

- لا يفعل شيئاً. بل إنّه لا يكلّمها. يبدو أنّه يحبّ الكلب أكثر منها. وهذا هو ما يجنّنها.

- أكيد أنّهما متفاهمان.

- أبداً. كنتُ علمتُه. فأنا لا يفوتني شيء.

- ربّما ليتزوّجا.

- الدكتور متزوّج.

- لا أحد يعرف عن الأغراب شيئاً، فهم يحسنون خداع نسائنا.

- فماذا يبقى لكم منهنّ، يا من تعاشرون النساء وأنتم عُجُزٌ هَرِمون؟ ما أقلّ ما تستحون، وأنتم تخدعون نساءكم طوال الوقت!

ضحك محاورُوها. فسيّدة النُّزل الجسيمة تعرف على أيّ وتر تضرب، لكنّها تعرف أيضاً كيف تكون لطيفة. غير واحدة من هؤلاء العاملات رحلت بعد أن اختارها أحد نزلاء الفندق محظيّة له. بل إنّ واحدة منهنّ كانت محظوظة جداً في من أخذها، وكانت ترسل لها الهدايا، كلّ سنة، في يوم سيّدتنا عذراء الآلام، وهو يوم ميلادها.

- ليس الدكتور بالرجل السيّئ...

كان صوتها المبحوح يشي بالعرفان. فبعد استئصال ذلك الكيس الدهني من قفاها، شفاها من التهاب رئوي ألمّ بها.

وهكذا تحرّرت ماريا لاريغالادا من القيل والقال ومن تحرّش الرجال، الذين لا شكّ أنّهم ما كانوا ينظرون إلى عينيها الخضراوين خضرة العملة المعدنية، قدرَ ما يفكّرون في النقود الصدئة المكنوزة في جِرار كاثريه المكسورة.

وراحت تعتني بصلبانها أحياناً، وبزرع حقلها، أحياناً أخرى. تكنس الباحة وتعدّ يخنة اليوچيرو، التي تسدّ بها جوع المجذومين العشرين، الذين ينتظرون، كما تنتظر هي، عودة الدكتور.

تتردّد في الدخول إلى الكوخ. ربّما لأنّها تشعر بأنّ الدكتور، وهو في الداخل، في تلك الحجرة المغلقة، المليئة بالأشياء التي تعرفها، أبعدُ عنها من موتاها في المقبرة، أو من أولئك المشوّهين المحتضرين في الأكواخ. فهي، في المقبرة، تستطيع، على الأقل، أن تحكي للصلبان وللموتى عن أشيائها، تحكي لهم عنه، من دون خجل.

واصلت عربة آل أمويتيه تقدّمها الساكن. ربّما كان المجذومون يساعدون ركّابها الثلاثة على دفعها.

وحين كان الحاكمُ السياسي على وشك فتح تحقيقٍ في الحادث، مات ميتة طبيعيّة، ودُفن وفق طقوس الكنيسة المقدّسة.

حضر الدفن زوجتُه والأب بنيتيث، الذي تولّى إقامة المراسم. وحضرها جنود المركز، الذين تناوبوا على حمل التابوت الأسود، بين شجرة وشجرة، تحت وهج الشمس المحرق.

وخصّصت له الحفّارة أبعدَ ركن في المقبرة، وأشدّها وحشة، على

الرغم من احتجاج الكاهن ونحيب الزوجة غير المفهوم، لأنّها بدت، بعد ذلك الفاصل، مسرورة بذرف تلك الدموع.

كان القبرَ الوحيد الذي لا تغطّيه السُّجُف المطرّزة، بل لقد غطّته الحشائش على الدوام.

.13

راحت ماريّا ريغالادا تسقي، كعادتها، أحواض الزرع عصراً، بعد أن وصلت من درب الجبل المختصر وأغلقت بوّابة المقبرة.

فوجئت بضجيج مكتوم، يشبه صوتَ جسم يسقط. نهضت، مدفوعة بهاجس مخيف، وظلّت تتنصّت صامتة. اقتربت، شيئاً فشيئاً، وعاينت الكوخ عبر الأحراج. رأت جسماً داكناً مطروحاً على الأرض. لكنّه لم يكن الدكتور. اقتربت من بين النباتات، فرأتْ ما ظنّته، لأوّل وهلة، مناماً.

رأت الدكتور جاثياً، بينما راح سيل من القطع النقديّة يسقط من بين يديه. قطع من الذهب، وأخرى من الفضّة، برّاقة لمّاعة، تكوّنان، بين ساقيه، تلّاً صغيراً.

بدا الاضطراب على وجهه. عيناه السماويتان كدرتان، فكأنهما على شفا اليأس، كما رأتهما حين لم يستطع إنقاذ أبيها، وكما رأتهما في مرّات أخرى، حين هزمه الموت وقهره.

انحنى فوق كومة النقود، فغطّى شعره الأشقر وجهه. بدا للفتاة أنّها سمعت أنيناً. ثمّ رأته، بعد حين، ينهض ويبدأ بالتقاط النقود بأصابعه المتوتّرة، ويحشرها، بعجلة وقلق، في خرق عتيقة بالية.

بالقرب منه، طُرحتْ منحوتة سان إغناثيو، المحفورة في الخشب، على الأرض.

.14

لم يعرف أحدٌ بالأمر، لأنّ باب القصب لم يفتح لأحد، منذ ذلك الحين. ولا حتّى لماريّا ريغالادا. كان يخرج بعينين برّاقتين ملهوفتين، فكأنّه يحتاج إلى شمّ الهواء.

جهّز حجرة خلفيّة، فصلها عن الكوخ بجدار من العصيّ. وصار يعاين المرضى فيها.

لم يفهم أحدٌ لماذا بدأ الدكتور برفض هدايا الفقراء، أو القليل الذي كان يأخذه من المقتدرين. ولم يفهموا لماذا صار يطلب، أو، بالأحرى، يطالب، مُلمّحاً ومُصرّحاً، بأن يأتوا له، مقابل خدماته، بمنحوتات قديمة وصور أقدم.

ظنّ أهل ساپوكاي أنّ الرجل مالَ فجأة إلى التديّن والتنسّك؛ وخمّنوا أنّه في طريقه إلى أن يكون قدّيساً زاهداً، بدلالة خفّيه الممزّقين وشعره الطويل وعصاه وكلبه وسلّته المعمولة من الخوص.

«ألا ترون أنّه صار يشبه سان روكي؟» - همهمت نيا لولي حين رأته يمرّ، وقد أثارت استغرابها الهالة الجديدة التي اكتساها الدكتور، كما أثارت استغراب غيرها.

لكنّ هذا الانطباع كان يصطدم بانطباع آخر، لا يقلّ عن الأوّل غرابة. فقد بدأ الدكتور يتردّد، من جديد، على حانوت البقّال. يدخل في أيّ

ساعة. يشرب الجعة، ثمّ يخرج إلى المقبرة، مرتعش البدن، أشعثَ الشعر. ما عاد يعالج إلّا من يأتيه وعلى كتفه منحوتة قديمة. يزنُها برفعها في الهواء، ويتفحّص، بعيني المهووس، ما بها من شروخ، ثمّ يُدخلها، وقد رسم على وجهه الهزيل النحيل إيماءة تشي بخيبة أمل مسبقة. ينظر، من بعدُ، إلى عيون مرضاه، ولكن، ليس بالسكون السماوي الذي كان ينظر إليهم به في أوقات أخرى، بل بفتورٍ وشرود.

ظلَّ على تلك الحال أشهراً، ثمِلاً، مجنوناً، وصامتاً، على أشدّ ما يكون الصمت.

ثمّ اختفى.



.15

كانت ماريّا ريغالادا أوّل مَن اكتشف التماثيل مقطوعة الرأس. لم تجرؤ على المساس بها، خوفاً من أن تنزف دماً أسود، عقاباً من الربّ.

هي تجهل لماذا أراد الدكتور تحطيمها ضرباً بالفأس. لم تفهم ذلك حين رأتها للمرة الأولى، عشيّة اختفائه، بالطريقة الغامضة نفسها التي وصل بها.

في تلك الليلة، كان ثملاً وهائجاً، يهذر بلغته غير المفهومة. في تلك الليلة، احتجزها في كوخه واغتصبها بوحشيّة، بين التماثيل المحطّمة.

كانت المرة الوحيدة التي دخلت فيها إلى الكوخ، في آخر ليلة من إقامته في البلدة.

إنّها لا تفهم سبباً لما حدث. لم تفهم حينذاك. وربّما لن تفهم أبداً.

كانت منحوتة سان إغناثيو هي الوحيدة التي لم تُمسّ. حين سقطت من قاعدتها، انفصل غطاؤها، وظهر أنّها مجوّفة من داخلها، بعد أن كانت ماريّا ريغالادا تظنّها ثقيلة. لم يكن ذلك يعنيها أيضاً. لكنّ السؤال الذي ظلَّ يلحّ عليها هو: لماذا أبقى الدكتور على تلك المنحوتة دون غيرها؟ بل لماذا حطّم بقيّة المنحوتات أصلاً؟ لكنّها لا تريد أن تعرف. تريد أن تظلّ تعيش، وهي في صحوتها، ذلك الحلم، الذي يشوّش فكرها وقلبَها، لكنّه لا يُضعف أملها في عودة الغائب.

.16

في اليوم التالي لهروبه، عادت ماريّا ريغالادا إلى الكوخ. في شقّ صغير في الأرضيّة، وجدَتْ قطعة ذهبيّة، علاها التراب، رسم عليها ما ظنّته صورة للدكتور، ملتحياً وبعيداً. مسحت عنها التراب حتّى اتخذت لونَ الشمس، ثمّ حشرتها ساخنة في ثنايا صدرها. كان المجذومون أول من جاء، لإبداء حزنهم على غياب الدكتور.

ثمّ جاءت، بعد ذلك، سابوكاي كلّها، إلى الكوخ المشيّد بجذوع الأشجار، لتشاهد ما حلَّ بالمنحوتات من دمار.

وعندئذٍ، صار الدكتور هو الهرطقي الذي قطع، في نوبة غضب أو جنون، رؤوس القديسين، تماماً كما حدث له حين أراد أن يرمي بالطفل من نافذة القطار.

لكنّ أحداً لم يتجرأ على أن يذكر الدكتور بسوء.

«أنا قلتُ إنّه لن يتحمّل...» – قال القاضي، وهو يتلوّى ويميل بجنبه أثناء الدردشات الموجزة.

ثمّة شيء يصعب على الجميع فهمُه. فأهالي سابوكاي ما زالوا يرون أنّ الدكتور لم يكن امرأ سوء. ما زالت ذكراه باقية، وذكرى أعماله الصالحة أيضاً ما زالت باقية، لكنّهم يذكرون أيضاً جنونه الأخير، الذي بدا أنّه وجد امتدادَه الهادئ في الفتاة وفي الكلب. أمّا امتداده فيها فمختلف.

ماريا ريغالادا لا تكلّم أحداً. تتحدّث عن أشيائها مع موتاها. ومع الكلب، حين يعود من حانوت البقّال والسلّة بين أنيابه، في وسط ضباب غبار ساعات الصباح ونداها.

في محيط الكوخ المهجور، تتحرّك أشباحٌ متقرّحة، تذهب إلى الساقية لتردَ الماء. وما عداها، يمتدّ فوق أرض كوستا دولثي السوداء سلامٌ وسكونٌ يشبه سكون النبات.

أمّا الشيء الوحيد الذي يواصل تقدّمه فهو عربة القطار المحطّمة. تتقدّم من دون سكّة، الله أعلم كيف، فوق السهل الظمئ المتشقّق. قد تكون العربة ذاتها التي ألقوا منها بالدكتور، قبل سنوات، فسقط جاثياً، على رصيف محطة سابوكاي الأحمر، وسط الخرائب والأطلال.

الفصل الثالث

محطّات

.1

جاهدتُ طرال الصبح كي أحشر في الحذاءِ قدميّ، اللتين قرّحتْهما، زمنَ الحريّة والتسكّع، العثراتُ والمشاوير، وشقّقتهما أشواكُ الجبل وقصبُ النهر. ذلك الزمن الذي يوشك، كما كلّ شيء، على الانتهاء، من دون أن أعرف ما إن كان يجب أن أفرح به أم أن أحزن عليه.

ألبس الجواربَ الطويلة. ثمّ أنزعُها. لطالما كانت قدماي أكبرَ من الأحذية الجديدة التي خرجتْ أيضاً من حانوت القصير، وهي الأولى التي سألبسها في حياتي، والتي كانت تنقبض، المرّة تلو المرّة، وكأنّها مصنوعة من جلد سمكة. كنتُ أعالج وأدفعهما، والجوارب تواصل المقاومة. ولو أنّك سمعتَ صريرها وشممتَ رائحة التانين المنبعثة منها! ذهبتُ إلى المطبخ لغسلها، للمرة الثالثة، برغوة الرماد وماء العندم السمّاقي، حتى إلى أعلى الكاحلين. ولكن، لا أوراق الغواياكان، ولا ماء الجافيل استطاعا إزالة الخشونة منها. دعكتُ الكعبين بحجر الحلاقة دعكاً قوياً آلمَ

أصابعي. باتت قدماي أشدّ بياضاً، بل صغرتا، لكنّهما ما زالتا لا تنحشران في الحذاء. عندئذٍ، جاءت روفينا وغسلتهما لي بالنشا، فانحشرتا، وما عاد الحذاء يصرّ.

بعد انتصاف النهار، توجّهنا جميعاً إلى محطة القطار. سرتُ في المقدّمة، أدفع بالحذاء دفعاً لأعرضه وأستعرضه، ولكي لا أتألّم من أجواء الوداع، وداع أولئك الذين يسيرون ورائي، صامتين، أبي وأمي وأخواتي، والعجوز الذي يحمل حقيبة السفر على كتفه، وروفينا التي تحمل سلّة الزاد، وكانت هي من شوى لي الدجاجة.

كانت أعمال بناء المصنع متوقّفة، إذ لم يكن ممكناً جلبُ المكائن، بسبب الحرب العظيمة، التي كانت تعصف بالعالم في الطرف الآخر من البحر، وإن زعم البعضُ أنّها انتهت. وهكذا كان الصمت يضخّم الأشياء والمشاعر. رحتُ أتقدّم عبر السدّ الترابيّ، مستمتعاً، على الرغم من كلّ شيء، بالسير بحذاء جديد. أمّا ما كان يسيء، فهو التهديدُ الذي يمثّله الدخول إلى المدرسة في العاصمة، إذ سيتحتّم عليّ أن أذهب إليها، طيلة أيام السنة، مرتدياً حذائي ومسرّحاً شعري.

«إن أردتَ الدخول إلى المدرسة الحربيّة» -قال لي أبي- «فعليكَ أن تكمل السادس. الدراسة ضروريّة حتّى لمن يريد أن يكون عسكريّاً».

أمّا المدرسة الريفيّة الصغيرة، بسقفها الجملوني وأعمدتها المنقوشة، التي شُيّدت في زمن غاسپار مورا في إيتاپيه، فما كانت الدراسة فيها تتجاوز الثالث الابتدائي.

كانت أمّي تعاني من حلمي ذاك بأن أصبح يوماً ما تلميذاً في المدرسة الحربيّة.

«دعيه!» -غمغم أبي، وكأنّه يريد أن يقول: لكي يتعلّم، فلا بدّ أن يتعب ويشقى!- «البلد نكتةٌ كبيرة. والعسكريون أفضل من سواهم».

«صحيح، لكنّ الثورات عندنا تقوم كلّ سنتين» - غمغمت أمي، وهي تنظر إليّ، وكأنّها ترى البندقية وقد باتت على كتفي.

- لكنّ المدنيين الذين يقتلون في كلّ ثورة أكثرُ من العسكريين. ثمّ إنّه يستطيع ترك الجيش إن لم يعجبه الاستمرار. أنا كنتُ طالب لاهوت. سلكتُ الطريق الخطأ. لكنّ قبولي في السلك لم يمنعني من أن أصبح مزارعاً. علينا أن نرى الأشياء من داخلها لنكتشفها. اتركيه!

كنتُ أسمعهما، خلسةً، يتناقشان. لكنّي كنتُ مهووساً ببدلة تلميذ المدرسة الحربيّة، الزرقاء، بحاشيتها المذهّبة، كما كنتُ مهووساً بالقبّعة والسيف. وما كان لي أن أصل إليها إلّا عن طريق المدرسة، في المدينة المجهولة. وإلا بالسفر بالقطار، فوق تلك السكك التي شهدتُ مدّها عبر البلدة، فلنكةً فلنكة. يوم افتتاح السكّة، مرَّ طلاب المدرسة الحربيّة، وكانوا يحرسون موكب الرئيس، في القطار المزيّن بالأعلام وأكاليل السعف. وقوبل الشبّان الشجعان، وقد أبرزوا صدورهم ورفعوا هاماتهم، بالتصفيق من لدن الرئيس نفسه. وتكرّر المشهد لدى عودته من «بيّا إنكرناثيون».

منذ تلكما المرّتين، اللتين شاهدتُ فيهما أولئك العسكر الرائعين، وصورتهم لا تفارق ذاكرتي.

رحتُ أفكّر في ذلك كلّه، وأنا أعبر السدّ الترابي. فكّرت أيضاً في لاغريما غونثالِث، زميلتي في مقعد الدراسة، والأكبر منّي بقليل. كانت هي من يقرع جرس الدخول والخروج، وقد قبّلتني في الحفلة الليليّة التي نظّمتها المدرسة بمناسبة انتهاء السنة الدراسية. طعم فمها الدافئ ووطأة

نهديها الصغيرين، اللذين لامسا صدري، تلك الليلة، ونحن بين الأشجار، بينما كان الآخرون يردّدون النشيد الوطني، كانا يحرّكان في داخلي الآن شعوراً أثار فيّ لذّة مبتسرة وشوقاً حزيناً، ربّما لأنّي أوشك على أن أفقده.

.2

عند الرصيف، كانت بانتظارنا داميانا دابالوس، مع طفلها، تقف بين الناس الذين راحوا يتجمّعون بانتظار وصول القطار.

بدأت بائعات الچيپا يتحرّكن بسلالهنّ، بينما بائعات الألوخا يدردشن في أكشاكهنّ، وهنّ جالسات يدخّنّ، أمام مشروباتهنّ المرطّبة وجرادلهنّ التي غطّاها الذباب والدبابير. أمّا ماريّا روسا، بائعة الچيپا المجنونة، ساكنة تلّة «كاروبيني»، فكانت تجول بعينيها الغافيتين، تحمل ابنتها على كتفها، تحت ظلّ سلّتها الكبيرة الخاوية.

ينظر التوءمان غويبورو، بطرفَي عينيهما، إلى حذائي الجديد. يتبادلان التعليقات، ثمّ يضحكان مستهزئين، وهما يشيعان قلّة أدبهما بين الأولاد. كنتُ أسمع ضحكهما وصفيرهما، صفير طائر الحَوِيّة الذي يجيدان تقليده. أتجاهلهما، وأنفخ نفسي، مزهوّاً، في ملابسي الجديدة. لكنّي كنتُ، في داخلي، أحسدهما. بل أتمنّى، لو استطعتُ، أن أرمي بالبدلة والحذاء اللمّاع، في وسط الطريق، وأنضمّ، من جديد، إليهما، لأدوّر الخذروف، ولأدخل الدحلات في الحفر، أو لأشتبك معهما ضرباً ولكماً، تحت أشجار الساحة. كنتُ مُرتداً. أشعر بالحزن والخجل، على الرغم من الهندام ومن الحذاء ومن الرحلة ومن المدرسة البعيدة ومن الشرف

الذي ينتظرني، شرف أن أكون طالبَ مدرسة حربية، وهو شرفٌ ما زال بعيدَ المنال.

في تلك اللحظة، ظهرت لاغريما غونثالِث مع إسبرانثا غويبورو، شقيقة التوءمين، تمسكان كلٌّ منهما بيد الأخرى. أطفأت الكبرياءُ حزني. أدرتُ ظهري لهما، على الرغم من أنّي لم أرهما، من قبل، على ذلك القدر من الجمال. خصوصاً لاغريما، برموشها الطويلة ووجهها الأسمر، المتوهّج على الدوام، وبتلك الابتسامة التي ترتسم على فمها، فتصنع غمّازة على جانبيه، وتكشف عن أسنان ناصعة البياض. سرتُ برهةً، وأنا أجرجر الحذاء، فكأنّي ألبس مهمازين وأسير بهما على الحجر، كما يفعل الحاكم السياسي، أورويه.

ظهر القطار من تقاطع «إيرناندارياس». صعد الطلعة بصعوبة. راح يقترب ويكبر حتّى غطّى الرصيفَ والمحطّة والناسَ بضوضائه وظلال عرباته وعمود دخانه، المنبعث من جوفه.

ركضنا صوب عربات الدرجة الثانية.

«اعتني به، داميانا!» – ذكّرتها أمّي.

– نعم، سيّدة...

صعدَتْ داميانا دابالوس وجلسَتْ. يا لها من مسكينة! كانت مرهقة، بسبب مشاعر السفر، ومرض الطفل، والليالي التي أمضتها من دون نوم.

في وسط الزحمة، رفع أبي كيسَها وحقيبتي والسلة التي تحوي الدجاجة المشويّة ولوازم الغسيل. كان الطفل في حضنها، ينظر صامتاً إلى الحشد الصاخب المضطرب.

نزعني أبي من بين المودّعين ودفع بي إلى سلّم القطار.

«وداعاً.. أديلميرا! وداعاً كوكا!» – صرختُ على شقيقتيّ، لأفرّغ ما يعتمل في صدري، لكنّي كنتُ، في الحقيقة، أنظر إلى حيث كانت لاغريما وإسبرانثا.

كانتا تضحكان ساخرتين.

زادت صافرة القطار الضجيجَ ضجيجاً. وغطّى نفثُ البخار على كلّ كلام وصراخ وحركة. واختفت الوجوه والأجسام، الواقفة على الرصيف، بين ضباب حامضي كثيف. چك.. چك.. چك.. وابتعدت القاطرة، تدرج مسرعة.

نظرتُ من النافذة شارداً. تنزاح المحطة راجعة إلى الوراء. كلّ شيء يبدو وكأنّه ينزاح إلى الوراء. وراحت بقعة الناس تصغر وتتضاءل. وما هي إلا برهة حتّى باتت كبقعة من نمل، تبهتُ وتختفي تحت أشعّة الشمس.

وتتابعت أعمدة التلغراف مسرعةً، على جانبَي السكّة، وتتابعت، بعدها، البيوتُ والمزارع والأشجار والحيوانات التي كانت ترعى في أطراف البلدة، ومستودع الأخشاب والمقبرة. تتابعت، واحدةً تلو الأخرى، تتسابق، فلا تلحق إحداها بالأخرى. تدور من بعيد، فكأنّ الأرض تدور حول القطار. وتوارت البلدة في الحقل، من خلف تلال «التابيكواري». بلّلتُ أصابعي بلعابي وانحنيتُ لأمسح حذائي وألمّعه.

حين نهضتُ، انحرف القطارُ قليلاً، فظهرت التلّة. كانت في متناول يدي تقريباً. من كوخ الخيزران العالي، كان المسيح المجذوم ينظر إلينا ونحن نمرّ، مسمّراً على الصليب الأسود، وعليه شعراتُ امرأة سودٌ، يحرّكها هواءُ الظهيرة الساخن. يبدو وكأنّه حيّ، وسط الفراشات الصفر التي تصعد من عين الماء، بين انعكاسات ضوء الشمس.

علا دويّ رعدٍ طويل وأصمّ. إنّها عجلات القطار تمرّ من فوق قنطرة الجدول. رسمت داميانا علامة الصليب، وقد سمّرت عينيها في المسيح. وفعلت بقية النساء مثلها.

تلاشى الاهتزاز في العربة الأخيرة. وارتفعت الأصوات بالحديث من جديد.

كان آخرَ شيء رأيتُه هو صليب مكاريو فرانسيا، في السفح، بين شجيرات البرقوق الشائكة. وهو كلّ ما تبقى من العبد المعتوق، الذي انتشل المسيح من الغابة، والذي يرقد الآن هناك. ليس في المقبرة، بل عند الكالباريو، في تابوت طفل صغير. من بين صخب عجلات القطار، تردّدت في سمعي كلماتُه الأخيرة:

- الإنسان، يا أبنائي، يولد مرتين: مرّة حين الولادة ومرّة حين الموت!

.3

راحت الربوة أيضاً تنزاحُ نحو الوراء. حسبتُ أنّها تعدو وتعدو، مع المسيح، على ظهر الحصان. ثمّ اختفتْ وراء رقعة الخُضرة التي كانت تدور، مع القطار، مثل خذروفٍ كبير وبطيء، يلفّ بخيط السكّة ويدور.

في تلك اللحظة، انتبهتُ إلى رجل يجلس في المقعد المقابل، يغالب النوم. وجدتُ، في البداية، صعوبةً في تمييزه، فقد كان ضوء الشمس والغبار يدخلان بكثافة من النوافذ. في الطرف الآخر من ستارة الغبار، بدأت ملامحه تتوضّح. رجل أجنبي نحيف. لا يشبه بولنديّي المستعمرات، ولا الألمان الذين جاؤوا لبناء المصنع ثمّ رحلوا بعد نشوب الحرب. لكنّه

أجنبيّ. كان واضحاً أنّه أجنبي. ساقاه الطويلتان لا تسمح له بوضع مريح، لذلك انكمش على مصطبته الخشبيّة القاسية. وكادت ركبتاه تلامسان حافة المصطبة المقابلة، لذلك لم تكن داميانا تستطيع الاستناد على النافذة. من تحت قبعة اللبّاد، تطلّ خصلة من شعره الأشقر، الضارب إلى لون قشرة الذرة. أمّا ملابسه فأسمالٌ بالية، أمّا جزمتاه فمهترئتان. كان يحمل كيساً من الصوف، مطويّاً عند أعلى ساقيه. من جيبه تطلّ حافة دفتر أزرق متآكلة، ظهرت عليها حروف مذهّبة، لا يعلم إلّا الربّ ما تقول. يلتصق قميصه بجسمه، ويبين عن أضلاعه الناتئة. يتحرّك على مقعده، ليغيّر من جلسته، فتلمع، بين جفنيه المتفخّتين، من النعاس والتعب، مشبّكاتٌ سماوية زرق. رفع ذراعه، فقد أزعجه ضوء الشمس، وأنزل الستارة المشبّكة، التي شلّ الغبار حركتها. تكوّر، من جديد، في زاويته التي باتت مظلّلة. عندئذٍ، انتبهتُ إلى أنّه أيضاً نظر إلى المسيح، بل أتذكّر أنّه رسم علامة الصليب. ربّما أكون مخطئاً، ربّما خدعني بصري، ربّما لم يتحرّك طوال الوقت. كانت شرائح المشبّكات الزرق تومض، من حين إلى آخر، بين خطوط الظلّ المؤطّرة بالغبار والنور.

راحت داميانا تنظر إليه مرتابة.

في جانبنا، في الصف الآخر من المصاطب، راح ثلاثة آخرون يتكلّمون أيضاً عن المسيح. ثلاثة رجال نحيفين، بدا على واحد منهم أنّه صاحب مزرعة. كان يحكي للآخرين القصّة، مفصّلة، وكأنّه يمرّر أصابعه في نسيج غير محكم النسج. إنّه لا يعرف تفاصيل القصّة جيّداً، أو إنّه يتعمّد بلبلة فكر الآخرين.

– أهل إيتاپيه فخورون به. يقولون إنّه يصنع معجزات.

«حسناً» –قال أحدهم– «المعجزات توجد حيث يوجد الإيمان».

«إن كان ما تقول صحيحاً، نونيث» -قال آخر وقد بدا على صوته الامتعاض- «فيجب أن تكون إيتاپيه وكاكوپيه وتوباتي وكازاپا، وكلّ بلداتنا الزاخرة بالمعجزات والكرامات، أكثر مناطقنا ازدهاراً وتقدّماً».

«طبعاً» -قال المحاور- «الإيمان حجرُ عثرة في طريق التقدّم. نعرف هذا».

«أرأيت، إيتاپيه؟» -أصرّ الآخر- «كلّ شيء فيها باقٍ على حاله، كما كان قبل قرن، قبل الحلف الثلاثي، قبل الثورات».

«إنّهم يبنون مصنعاً للسكّر...» - قال صاحب المزرعة.

- الأمر، في هذه الحالة، لا يتعلّق بالمسيح، بالتأكيد.

«هنا قد يكون الأمر مختلفاً» - قال صاحب المزرعة، وهو يجفّف وجهه العريض الرطب بمنديل. لمع، في واحد من أصابعه، خاتمٌ له شكل البطيخة.

«مختلف؟ لماذا مختلف؟» - سأل الصوت المتألّم.

- مسيح إيتاپيه كان، في البداية، هرطقياً...

ضحكوا، وكأنهم سمعوا نكتة ظريفة. ضحك حتّى صاحب الصوت الأجش. واهتزّ من الضحك كرش صاحب المزرعة، المزيّن بالفضّة، وإن لم يصل الضحك إلى وجهه. لماذا يسافر بالدرجة الثانية مثلنا؟!

«هل صحيح أنّ من صنع المنحوتة مجذوم؟» -سأل أحد الثلاثة النحيفين- «غاسپار مورا.. كان موسيقيّاً، أعتقد، أو صانع آلات موسيقيّة».

«هذه واحدة من الأكاذيب التي تُروى» - قال البدين ساخراً.

تمنّيتُ لو استطعتُ أن أنقضّ عليه لأخمش وجهه بأصابعي العشر، لكنّي لم أكن قادراً على استجماع غضبي لأنّي كنتُ أنظر، من حين إلى

حين، إلى المشبّكات السماويّة، وهي تتلألأ في الظلّ، قبالتي. كنتُ أشعر بدوارٍ خفيف يحدثه فيّ خاتمُ صاحب المزرعة المرصّع بحجر كريم، ونطاقه المعدني، ومسدسه الطويل، يلمع في حزام خراطيشه، من تحت قميصه، وقد بانت نهايته العاجيّة، التي لها صفرة التبغ.

حزنتُ وأنا أفكّر في مكاريو فرانسيا، الذي ما كان ليتجاوز له عن كذبه.

«وأنتم، من أين أتيتم؟»- سأل.

- من المنفى.

- أهااا.. وهل هربتم بسبب الثورة الأخيرة؟!

- يبدو ذلك.

«من حسن حظكم أنّ المدنيين يدَعونكم تعودون بسرعة» - غمغم البدين.

«نحن لم نشترك» -قال واحد كان يدعوه أوثونا- «في الثورة أقصد».

- أخذتكم بالمصادفة، بالتأكيد.

- أنا ونونيث، لأنّنا كنّا نكمل دراستنا لنكون محاميَين. أمّا كويّار، فلأنّه يعمل في جريدة پاتريا[= الوطن].

«كنتُ أحفر خنادق من ورق» - قال كويّار، بلا ضحك.

- تعارَفنا في المركب الذي حملنا إلى المنفى.

«وها نحن أولاء نعود معاً» - قال نونيث.

- أنا مدنيّ. أقيم في كازاپا. لم أتورّط أيضاً. وأظنّهم أكلوا بقراتي. فإذاً...

«الثورات تأكل كلّ ما تصادفه» - قاطعه نونيث بصوت بدا وكأنّه يلامس عظم أنفه المعقوف.

- أنا ذاهب إلى أسونثيون لأقدّم شكوى للمسؤولين بشأن التعويضات. فجماعتنا هم من يتولّى الأمور هناك الآن.

- حضرتك، على الأقل.. أكلوا بقراتك، ويمكنك أن تطالب بالتعويض. فماذا عن الذين ماتوا؟

«هؤلاء ما عادوا يحتاجون إلى شيء...» - قال صاحب المزرعة.

«طبعاً» -قال أوثونا- «هؤلاء يأكلهم التراب».

«حسناً، حسناً!» -قال صاحب المزرعة، مهدّئاً- «لا تحرقْ أعصابك! هو القدر، كما قال الضفدع حين قطع رأسه» -وعاد كرشه يهتزّ من ضحكة مكتومة- «هيا بنا نأكل نحن أيضاً. نوشك أن نصل إلى بورخا. وسنتمتّع هناك بتناول الچيپا اللذيذة».

.4

توقّف القطار. وتكرّر مشهدُ إيتاپيه. ركّابٌ يصعدون وركّابٌ ينزلون، بين صخبٍ وضجيج.

في الناحية الأخرى، على الرصيف، راحت البائعات، بوجوههن المتربة اليابسة، يروّجن لبضاعتهنّ، بينما يتصاعد دخان أعقاب السجائر، من تحت سلالهنّ.

وجرى كلّ شيء كما جرى.

أغلق البدين، شارداً، النافذة. مدَّ يده إلى الخلف وحشرها في حزامٍ أصغر، خلف المسدس، مكسوٌّ أيضاً بغطاء من الفضّة. أخرج حفنة من النقود واشترى خبزاً وموزاً. وأومضت الشرارة الزرقاء، المنبعثة من

خاتمه، على وجه البائعة الترابي. طلب جرّة من الألوخا، وعبّها عبّاً. ثمّ طلب أوراقَ القرّاص المدرّة للبول وقشورَ القيصوم المطحونة وأجنحة الذباب الميّت.

كنتُ أموتُ عطشاً.

تحرّكَ القطار واهتزّ، وعادت الأشياء تنطلق إلى الوراء، في الخذروف العظيم الذي راح يلفّ بالمقلوب، مع البيوت والحقول والحيوانات والجبال النائية.

- لنتناول طعامنا، أيّها السادة!

وزّع صاحب المزرعة على رفاقه رُغفان الچيپا مع أصابع الموز. أكل الأربعة بنهم، وبحركة فكوكٍ موحّدة.

نسيَتْ داميانا زادَنا، فقد غلبها النعاسُ ونال منها التعبُ وألمّ بها خوفٌ مبهم. سال لعابي وأنا أراهم يأكلون. لم أسألها طعاماً، لا بعيني ولا بيدي. أردتُ أن أثبت لها رجولتي، أن أثبت لها أنّني أنا من يعتني بها، وليس الذي كُلّفت هي بالعناية به. لا بدّ أنّها كانت تفكّر في رجلها المعتقل في سجن أسونثيون. كانت تكلّمني عنه، أحياناً، حين تذهب إلى النهر لغسل الملابس. ولطالما علت وجهها الجميل مسحة من حزنٍ وقلق. ويظلّ جسمها بلا حراك على صفحة الماء. كنتُ أرى ظلّها في رمال القاع، وقد حرّكه سمكُ البلودفين، الذي كان يأتي لنقر فُتات الصابون. أمّا الآن، فقد هدّها النعاس والتعب، وبدت وكأنّها شاخت قليلاً من أثر الغبار.

واصل الأجنبي إغفاءته المتقطّعة. يفتح عينيه، أحياناً، وينظر إلينا برهة من عالم لا أستطيع أن أتبيّنه.

بدأ الطفل يبكي. غطّتْ داميانا صدرها بشالها وبدأت تُرضعه. وفجأة،

رفعت نسمة من الهواء الشالَ، فكشفت عن نهدين ورديين مليئين مخدّدين بأوردة زرق، مبلّلين بالحليب. سال لعابي. نقمتُ على ذلك الطفل المريض الذي يفرّط بتلك الثروة ويزهد في ذلك النعيم.

– ما به؟

رفّت جفونُها بعد أن فاجأها السؤال. إلى جانبها، جلسَتْ امرأة عجوز تحرّك الهواء بمروحة من الخوص، خيطت عليها صورة لقلب يسوع.

– ما به؟

«لا أدري» –غمغمت داميانا– «أنا ذاهبة به إلى الطبيب. نحن ذاهبون إلى أسونثيون».

«يا إلهي، كم هي بعيدة أسونثيون!» –غمغمت العجوز– «ربّما ليست به علّة. ربّما لا يحتاج أكثر من الأعشاب».

– جرّبنا ذلك، لكنّ النوبة عاودته.

– أيّ نوع من النوبة؟

– نوبة تأتيه فينتفض جسمه ويزبد فمه.

– نعم. نعم. أعرف هذا. اسمه الصرع. الموت وقوفاً. أعرف علاجاً له. ضعي لبّ السذاب مع حبّات الينسون وبذور الشبت في ماء مغلي، ثمّ برّديه.

– جرّبنا ذلك.

نظرت العجوزُ إلى الطفل وقد فتح عينيه على النصف، فتجعّد ما فوق أنفه الأفطس. حرفت فمها قليلاً لتثبّت فيه السيجارة، فتحرّكت فوق شفتها شامة مكتنزة نبتت عليها شعرة طويلة بيضاء. كان قلب يسوع يستقرّ على الخوص. أبت العجوز الاستسلام.

– عليك أن تعطيه حليب أتان على الريق!

– أعطيناه حليب معزاة.

– ليسا سواءً. يجب أن يكون حليب أتان. للحيوانات أيضاً طالعها. كالنصارى. كنتُ سأشفيه. يا خسارة! فالمسكين جميل جدّاً. ليته يشفى! لكنّ أطباء أسونثيون مقرفون وبخلاء. لا يهمّهم غير المال.لا أدري ما الذي يجعلك تحملينه كلّ هذه المسافة. إذا كنت ذاهبة لهذا الغرض، ففي بيّاريكا أطباء جيّدون أيضاً.

– لا أذهب إلى أسونثيون لأجل هذا فقط. أنا ذاهبة أيضا لأرى زوجي.

– هل يعمل هناك؟

– إنّه في السجن.

– آي، يا إلهي! لا بدّ أنّه قتل أحداً، أليس كذلك؟

– لا. بل أخذه المدنيون، في الثورة الأخيرة.

«مسكين! سياسي، إذاً!» -غمغمت العجوز، وراحت تحرّك مروحة قلب يسوع بسرعة أشدّ- «متى يتعلّم رجالنا ألّا يتدخلوا في ما لا يعنيهم!».

– لقد أخذوا ثيريلو ظلماً. لم يرَ ابنه. لذلك آخذه إليه. ليراه.

– ها.. حسناً إذاً!

كان الغرينغو يستمع، أو بدا أنّه كان يستمع، إلى الحوار الرتيب الذي كانت العجوز تواصله، وهي تحرّك مروحتها المزركشة.

.5

في بورخا أيضاً، صعد، في ما يبدو، العجوز صاحب الغيتار. يجرّه صبيّ بائس بسلسلة.

جلس العجوزُ على حافة مصطبة، وراح يعزف، مقوّس الظهر، منهكاً، نحيلاً. تظهر أطلال «مسيونيس» من بين الأشجار، المبطّنة بالطحالب والذباب. وسرعان ما تذكّرتُ غاسپار مورا ومكاريو فرانسيا.

يعلو صوتُ الغيتار، المحزوز في عدّة أجزاء، مثل أزيز الدبّور، بينما راح رأسه الأشعث، الحادب على الصندوق، يضبط إيقاعاً لا يعرفه غيرُه. وبينما كان العجوز يعزف، كان الصبيّ يلمّع القروش بأسماله، بعد أن يمرّر لسانه عليها.

«هكذا يعيش هؤلاء الفقراء!» - قال كويّار.

«ما عاد في مقدور الواحد أن يسافر بهدوء» -اشتكى صاحب المزرعة- «القطارات باتت مرتعاً للشحّاذين واللصوص» - حرّك يده فحرّك بحجر خاتمه عيون الجميع.

«صحيح» -أيّد نونيث صاحبه- «بل بات وجودهم ضرورياً. وخصوصاً كبارَ اللصوص وعتاة المجرمين. إنّهم هم من يحكم الآن ويتحكّم».

أبدى البدين إيماءة استياء. أراد أن يقول شيئاً، لكنّه سكت.

«أنا أعرف من يكون ذلك العجوز» - قال كويّار، ليحسم الموضوع.

- هل تعرفه؟

- لا.

«إذاً؟» - قال صاحب المزرعة.

- هل تسمع عزفه؟ قطعة من «غابوتا» سوسا أسكالاذا[25]. ما زلتُ قادراً على تمييزها.

---

(25) Gustavo Sosa Escalada (1877-1943): عازف غيتار ومؤلّف موسيقي وكاتب من الپاراغواي. يعدّ أبا مدرسة العزف على الغيتار في بلاده.

«أنا لا أميّز اليولكا[26] إلّا بصعوبة» -قال المدني- «وبصعوبة. أكثر ما أفهم فيه هو معسكر ثيرّو ليون، وبوق النهوض أوري كوير\[=نحن]، الذي هو نشيد حزبي».

من بين ضجيج العجلات، يعلو صوت موسيقا العجوز، الجالس في نهاية العربة. رأسه ساقط على صدره، والسلسلة المربوطة إلى مقبض الغيتار.

«الجميع انتهوا هكذا» -قال كويّار- «مات جميع كبار عازفي الغيتار في الباراغواي، أو اختفوا بسبب مصيبة أصابتهم أو بسبب الشراب. الفقر والنسيان. غاسپار مورا اختبأ في الجبل، بعد أن أصيب بالجذام. وترك المسيح. واضطرّ أغوسطين باريوس إلى أن يقدّم كونشيرته الأخير في ساحة عامة وهرب، ولا أحد يعلم بمكانه. وحدث لأميليو بيّالبا الشيء نفسه. يقال إنّه صار يعزف في مقاهي بوينوس آيريس، وقد قُطع لسانه. أمّا كارلوس يالابيرا فقد انتحر. ارتدى ملابس الأحد، ونام على السرير وراح ينظر إلى السماء من خلال عريشة عنب. حشر فوهة المسدس في فمه ووضع حدّاً لحياته. لقد كتبتُ مقالاً عن البؤس الذي يعيشه فنانونا في الوطن، فألقوا بي في السجن».

«ليس الفنانون وحدهم» -قال نونيث- «هذا بلدُ الأرض من دون رجال والرجال من دون أرض، كما قال أحدهم».

«لكنّ حالة الموسيقيين هي الأدعى إلى الحزن» -قال كويّار- «آخرُ لم أذكره هو غابرييل برميخو. حكوا لي، من سنوات، أنّه أصيب بالعمى، وصار يتنقّل، سكران، من بلدة إلى بلدة».

---

(26) Polka: موسيقا شعبيّة من الپاراغواي.

«وهل تظنّ حضرتك أنّه هذا؟!» - أشار المدني.

- لا أدري.. وماذا نستطيع أن نعرف عنه!

انتهى العجوز من العزف، فتناول الصبيّ الغيتار، وهو بحجمه، وجرَّ السلسلة التي تربطه إلى خصر العجوز، فنهض هذا، وتقدّم متعثّراً في الممرّ، وراء الصبيّ، الذي مدَّ قبّعته إلى الركّاب، وهو يحضن الغيتار. حين مرَّ من جنبنا، وضع كويّار يده على كتف العجوز.

- حضرتك غابرييل برميخو، أليس كذلك؟!

نظر إليه العجوز بحدقتيه البيضاوين. انقبض فمه الأدرد، وبدا وكأنّه يصفّر باللحن الذي كان يعزفه. ولكن لم يُبدِ ما يدلّ على أنّه فهم. ما كان يُسمع غيرُ ضرب السلسلة على المصطبة. توقّف الصبيّ أيضاً، وهو يشير إلى أذنيه وعينيه.

- جدّي لا يسمع ولا يرى. إنّه أعمى وأصمّ.

وأبدى صانعُ خنادق الورق إيماءة أخرى كان لها أن تكون بلا معنى أو ساخرة، لو لم نقرأ تعابير وجهه. أخرج من جيبه ورقة نقدية ومدَّ بها للصبيّ. فقال له هذا مرتاباً: «هذه نقود ورقيّة. أعطني نقوداً من النيكل، سيّدي!».

ضحك الآخرون من ردّ الغلام. كان التراب يرسم على يده عروقاً تصلّبت فوق بقع البرتقال. يداه يدا عجوز، لكنّ عينيه الصغيرتين القاسيتين كانتا تمسكان الأشياء بقوة باز صغير.

ألقى له الجميع بقطع النيكل في القبّعة. حتّى صاحب المزرعة، الذي ألقى له بقطعة النيكل على مضض. أمّا أنا، فقد خبّأتُ حذائي الجديد تحت المصطبة.

عبر الأعمى والغلام إلى عربة أخرى. وحمل اهتزاز العجلات رنين السلسلة.

.6

– متى أصابه المرض؟

– بعد ولادته بقليل.

– فالصرعُ، إذاً، ربّما جاءه من أبيه. الرجال دائماً هم الأكثر عرضةً للمرض.

همّت داميانا أن تردّ. لكنّها لم تستطع. لاحظتُ استياءها بادياً على ارتجاف يديها. فالعجوز صارت تتدخّل في كلّ موضوع، تنقّر وتنقّر، كما تفعل الدجاجة في كومة الزبل.

بدا أن داميانا تعاني من مضايقة العجوز، وقد استبدّ بها النعاس، لكنّ السخط هو ما أبقى عليها صاحية، وذلك الصوت الملعون الذي يئزّ مثل دبّور محبوس في صفيحة.

بحَثَتْ، لشراء سكوتها، تحت المصطبة، وأخرجت سلة الزاد. وأخرجت أيضاً سلة الدجاجة المشويّة. رأيتُ كلّ ذلك، لكنّي لم أعترض.

«سأنزل في بيّاريكا» – قالت العجوز، وهي تأخذ الهديّة.

تنفّست داميانا الصعداء. ما كان يهمّها الزاد، وما كان يهمّني. المهم هو أن تتركنا العجوز في أمان. مَن كان يثير اهتمامي هم الآخرون، الذين كانوا يتهامسون ويكتمون ضحكاتهم، لكنّي لم أكن أستطيع سماعهم بسبب ثرثرة العجوز.

- سأزور كنّتي، فهي توشك أن تضع مولوداً. المسكينة لا تستطيع أن تفعل ذلك من دوني. لقد حضرتُ ولادة أبنائها الثلاثة، وأعنتُها. وهذا سيكون الرابع. أنا شاطرة في هذه الأمور. اسمي إنوثنيا روميرو. مع السلامة، سيّدتي!

.7

جميع المحطات متشابهة. الناس هم هم، على الرصيف. وجوه أرضٍ عطشى. البيوت والحقول تلفّ وتدور وترجع إلى الوراء. مشهد متكرّر، وكأنّ الزمن لا يتحرّك من فوق الخذروف الكبير البطيء.

في إحدى المحطات، صعد رجلٌ وامرأة. كانا في مقتبل العمر. بدا عليهما أنّهما عريسان. جلسا في نهاية العربة تقريباً، وانغمسا في عناق وقُبل، دون أن يبلغا مدّ الأيدي.

كان النعاسُ والحرّ والغبارُ يدفعنا دفعاً إلى خشب المصطبة. نمتُ وأنا أهتزّ. بدأ طفل داميانا بالبكاء ثانية. دثّرته بشالها. رفض الرضاعة. سخطتُ ثانية على الصغير، وامتلأ فمي، من جديد، بلعاب الرغبة. بين نعاس وعطش وجوع، تصوّرتُ ثديي داميانا يقطران عصيرها الحلو في فمي، مثل مطاطة المامون[27]. تخيّلتُ أنّي عضضت حلمتيها بشراهة. واستيقظتُ وبي خجل، مع علمي باستحالة أن تكون خمّنتْ ما رأيتُ في منامي.

رأيتُ الغرينغو يمدّ ذراعَه ويقول شيئاً غيرَ مفهوم. اقتربَتْ يداه

---

(27) نبتة من فصيلة الصابونيات. لثمرتها مذاق حامض حلو وهي بطيئة الذوبان في الفم.

متّحدتين، ترسمان تجويفاً في راحتيهما، مثل سرير يهتزّ ببطء، جاهزاً للاستقبال.

تراجعت داميانا نحو مسندها القاسي، فانحنى الغرينغو إلى الأمام، وراح يداعب رأس الطفل. توقّف الطفل عن البكاء. اعتدل في حضن أمّه وراح ينظر إلى الغرينغو، بهدوء وصمت. كان الرجل يتأمّل الطفل أيضاً. وارتسم شيء يشبه الابتسامة على وجه الأجنبي، وعلى فمِه الدقيق وعينيه الزرقاوين، بينما راحت أرنبتا أنفه تدفعان بشدة الهواءَ المثقلَ بالغبار والدخان.

نظرتُ بطرف عينيّ إلى داميانا. رأيتُ الخوفَ يعتادها فيشعرها بالجبن. بل أسفت لأنّ العجوزَ ما عادت إلى جانبها. كان صمتُ الغرينغو يخيفها أكثر من ثرثرة القابلة.

استندتُ قبالتها لتشعر بقربي منها.

رأيتُ صورتها تهتزّ. كما في النهر، حين كان خيالها يسقط على رمل القاع، فتعبث به أسماك البلودفين، بزعانفها وخياشيمها، كقطرات من الدم، وهي تنقر رغوة الصابون. أنظر إلى ركبتيها وفخذيها المدوّرتين، وأنا مستلقٍ قريباً من النهر. أتأمّلُ الأم بشيء من الخجل، فكأني أفعلُ منكراً. وفجأة، تحوّلت داميانا في عيني إلى لاغريما غونثالِث. نططتُ. كفّتْ لاغريما عن غسل الملابس، وخلعت ملابسَها، مرّة واحدة، ثمّ ألقت بنفسها إلى الماء عارية.

.8

كنا نوشك على الوصول إلى سابوكاي. الوقت وقت الغروب.

من بعيد لاحت المحطة والبيوت التي هدمتها القنابل، والحفرة الكبيرة التي قطّعت الطرق.

«ها هي ذي آثارُ الثورة!» – هتف صاحبُ الأرض، وهو يبسط ذراعه من النافذة.

أيقظني صوته.

كان يروي حادثة القطار الثوري، الذي كان متوجّهاً ليباغت أعوانَ الحكومة، لكنّ هؤلاء فجّروا قاطرة وجّهوها نحوه، من پاراغواري.

كلّنا نعرف ذلك، لكنّ البدين كان يعجبه أن يثرثر ويتفاخر.

– علينا أن نبيتَ في ساپوكاي، وسنواصل السفر فجراً. لا أدري لماذا لا تجري التحويلة عند الوصول. على الأقل، إلى حين ينتهون من إصلاح السدّة الترابية. لن يكلّفهم شيئاً. ما أعجبهم! هكذا هم، منذ أكثر من مئة سنة. منذ أن حدث ذلك الثقب هناك. ما أشدّ استمتاعهم باختبار صبر الناس!

«تحدّثْ بذلك أيضاً مع مسؤولي الحكومة» –قال له أوثونا– «أوَلستم أعوانهم؟».

لم ينتبه صاحب المزرعة إلى أنّه مشمول بالكلام.

«حتّى هذه الساعة» –قال– «العمّال يواصلون إخراج عظام الناس من الحفرة».

هنا، سمعتُ داميانا تصرخ. رأيتها وقد أخرجت نصفَ جسمها من النافذة، بينما عبثت الريح بشعرها. كانت تصرخ كالمجنونة.

– سرق ولدي، سرق ولدي!

تحمل العجلات والريح صراخها. ضجّ الركّاب. لم يفهم أحدٌ ما الذي جرى.

في تلك اللحظة، دخل الغرينغو وهو يحمل الطفل بين ذراعيه. دخل ساكتاً، وكأنّه يطفو على سطح عاصفة.

كان هدوء عينيه الزرقاوين هو الهدوء الوحيد الذي يبدو في لجّة الغضب والصخب.

انقضّتْ عليه داميانا، وقد نطّت عيناها من رأسها، وانتزعت ولدَها من بين ذراعيه. لم تكن اللحظة لحظة تفاهم أو استفهام. فما كان من صاحب المزرعة، وكان يحمل مسدّساً، إلّا أن طرحه أرضاً بضربة من عقب المسدس.

حين توقّف القطار عند الخرائب، أخرجوه من العربة دفعاً وركلاً. سقط جاثياً فوق الرصيف، ينزف من أنفه ومن فمه، بينما ملأت الكدمات وجهَه، وتمزّق قميصه من كثرة ما سحبوه وجرجروه. ألقى أحدهم له بكيسه وبدفتره الأزرق. تناولهما وهو مغمض العينين، نهض، سار خطوات، كالسكران. لكنّهم عادوا وطرحوه. عندئذٍ ظلّ ساكناً، مطروحاً على صدره، فوق التراب الأحمر، إلى أن جاءت الشرطة، فشدّوا وثاقه بسوط الجلد المضفور.

من بين الحشد الذي تجمّع عند نوافذ القطار والناس الذين تجمهروا على الرصيف، رأيناه يبتعد، طويلاً، منحنياً، وقد أحاط به الحرس ورُبطتْ يداه إلى ظهره.

لم تنظر داميانا. كانت ما زالت ترتجف وتحضن الطفل الذي نام بين ذراعيها. أحاطت بها نسوة ورحن يتجمّعن حولها صاخباتٍ ضاجّات، بينما بدأ الركاب الباقون ينزلون.

راقت لي فكرة المبيت في سايوكاي. كنت أريد أن أرى، عن قرب، البلدة التي شهدت تلك الفظاعة التي ظلّوا يتكلّمون عنها طوال الطريق.

تطلّعت مجموعة من الركّاب إلى آثار التفجير. نزلتُ أنا أيضاً وانحشرتُ بينهم. رأينا العربات مدمّرة. كانت إحداها على بعد أكثر من ألف ذراع من المحطة، في واحدة من التحويلات، مهجورة، فكأنّها طارت لتسقط في ذلك المكان، كاملة تقريباً.

كان أهل البلدة يسيرون كالموتى. هذا ما بدا لي، على الأقل.

حين عدتُ، كان صاحب المزرعة يحاول إقناع داميانا لتصاحبه إلى النُّزل. اقتربتُ من الخلف، وسمعتُه يقول لها: «أنتِ شابة جميلة وتحتاجين إلى من يصاحبك».

- لا. شكراً. لديّ من يصاحبني.

«من؟ هذا الطفل؟» - اهتزّ كرشه بضحكة لم تبلغ وجهه. مرّر يده على نطاق الخراطيش حيث يحمل نقوده. كان يهمّ بمعاودة الكرّة حين أدارت له ظهرها فرأتني أمامها.

اقتربت منّي وقالت: «علينا أن نُنزل أغراضنا!».

.9

رتّبنا وضعنا في عربة الدرجة الثانية بين الأغراض.

كان الجوّ حارّاً. فرشنا المتاع القليل ورقدنا فوق بطانيّة أخرجتها داميانا من صرّتها. جنبنا، وفي الخلف منّا، تمدّد العريسان.

بدا لي أنّي ما زلتُ أشمّ رائحة البارود، ملتصقة بالحشائش والطابوق والأرض.

في الطرف الآخر من الستارة، تواصل عناقُ العريسين وتواصلت

قبلاتهما. ومن حين إلى حين، كنتُ أسمعها تشكو بهمس، فكأنّ مداعبات العريس تؤلمها. كنتُ أسمع ضحكاتهما أيضاً. لذلك لم أستطع أن أنام.

في مكانٍ آخر، علا صوتٌ مرتعشٌ لعجوز، قد يكون أحد سكّان البلدة يقصّ على أحد المسافرين تفاصيل الكارثة.

عند سقوطي في أولى الغفوات، رأيتُ ومض الانفجار وسمعتُ دويّه. رأيت أشخاصاً كثيرين مقطوعي الرأس، غارقين في دمائهم، والنار تشتعل في ملابسهم. استيقظتُ فرأيتُ نفسي جنبَ داميانا، لصيقاً بها. رأيتُ داميانا تحاول جاهدة أن ترضع طفلها، فعاودني الشعورُ بجوع شديد.

حاولتُ أن أستأنف نومي، لكنّي لم أحظَ إلّا بإغفاءة مضطربة جعلتني أخلط بين الأشياء.

عادت داميانا إلى هدوئها. ربّما نامت. حين صحوتُ، وجدتُ نفسي أبحث بفمي عن الحلمة النديّة. تذوّقتُ علكة الحليب الحلوة. لكنّي تذوّقتها هذه المرّة حقيقة. تذوّقتُها قليلاً أولاً، من دون أن أبالغ في ضغط شفتي، خوفاً من أن تحرم داميانا فمي من صبّيرة التين الهندي المكوّرة والطرية تلك. لكنّها لم تتحرّك. ما كان في مقدور أحدٍ أن يرانا على تلك الحال. لن يسخر أحد منّي لأنّي رضعتُ في الظلمة مع طفل عمره أشهر. لا أدري لماذا خطرت ببالي في تلك اللحظة ذكرى لاغريما غونثالِث. لم أشأ أن أفكّر فيها. وعندئذٍ شفطتُ بقوّة، ضاغطاً على الثدي بيدي، حتّى أفرغته من حليبه.

عادت داميانا لترقد على جنبها وهي تطلق زفرة خفيفة.

ونمتُ من دون أن أحلم بشيء آخر.

.10

فجراً، أيقظنا صفيرُ قطارٍ كان يناور في تحويلة. ظلال ورديّة باتت تتحرّك بسرعة عند حواف المعبر لتصعد إلى العربات الواقفة في الناحية الأخرى.

لم أعثر على إحدى فردتي حذائي. لا بدّ أن كلباً جائعاً أخذها. وهكذا وفّرتُ على نفسي نصف المجهود الذي بذلته مع قدميّ في اليوم السابق.

ظلّت داميانا تبحث بين الحشائش، والطفل بين ذراعيها. لكنّ القطار كان يستعجلنا. هرولنا بين كِسر الحجارة والصخور، وأنا في الخلف، مع حقيبتي وكيس داميانا.

وبقدم حافية، بدأتُ أطأ أرض الكارثة.

.11

لا أذكر من تلك السفرة، من لقاء الفجر ذاك فوق الحفرة المترامية، من كلّ ما جرى هناك، قدرَ ما أذكر وصولي إلى أسونثيون.

كان الناس يحتشدون بين أعمدة بضخامة رجل. شعرَتْ داميانا بالدوخة، فأمسكت بذراعي.

بلغنا الأروقة بصعوبة. الأعمدة، هناك، أكثر سمكاً وارتفاعاً. كلّ أربعة منها تحمل أقواساً ثلّمتها قذائف المدفعيّة. على سقف المحطة البيضاء الواسعة، حديقة أُحيطت بأقواس صغيرة، كأنّها معمولة من دانتيل. صدمنا عطرُ الياسمين، الذي غلب على رائحة الدخان.

شاهدنا البيوتَ العالية والشوارع المرصوفة والعربات التي تجرّها الجياد، وعربات الترام يجرّها زوجان من البغال لهما لون واحد، وهي تتقدّم بين صياح الحوذيين.

في الجهة المقابلة ساحة مشجّرة. وبين مسافة ومسافة، تمجّ المواسير دفقات من الماء. تركتُ داميانا عند الدرابزين، وحشرتُ نفسي بين أحواض الزرع. انحنيتُ، وأنا شديدُ العطش، لأشرب من إحدى المواسير. في تلك اللحظة، لمحتُ، ووجهي إلى السماء، شيئاً غير متوقّع جعلني أغصّ بالماء.

في ركن من الأركان، بين النباتات، وقفت امرأة طويلة بيضاء، وضعت إحدى قدميها على السلّم. كانت تأكل العصافيرَ، من دون أن تتحرّك. كانت العصافير تحطّ ثمّ تدخل، مزقزقة بفرح، في فم المرأة المحطّم. بدا لي أنّي شعرتُ بصرير عظامها.

الفصل الرابع

الهروب

.1

يتقدّمان ببطء بين أحراج الجبل. لا يمكنهما السير أسرع. ينسابان، بين الوقت والآخر، مدفوعَيْن بالعجلة وبالخوف، الخوف الذي بات بهيمياً. وبين الحين والآخر، يندفعان عشوائياً، فتصدّهما الأحراج وتردّهما. وعندئذٍ يتقدّم اليأسُ، يسبقهما، ويتركهما وراءه. يعمل الرجل بحربته ضرباً وقطعاً، وقد استبدّ به الغضب، للّحاق به، لكيلا يشعر بأنّهما يوشكان على أن يموتا، ولكي يشقّ طريقاً بين الحشائش الملتفّة والفروع الشائكة التي تسدّ عليهما الطريق، وتشلّ جسميهما، حتى يصبحا مثل كتلة من النشا في غربال، وهما الهزيلان المتعبان الضعيفان.

تحمل المرأة وليدَها. تميل برأسها لتوازن حملها. شعرها الأشعث. والتعب الذي يثني هامتها. ما عادت تحسّ بذراعيها اللتين تخشّبتا، وهما تنوءان بحمل هذا الجسم الصغير الذي ينبض بينهما.

يمضي الثلاثة شبه عراة، يعلوهم رملٌ أسود. ما عادوا كائنات بشريّة،

بل دمى من طين مطبوخ تتحرّك بين الأشجار. من تحت القشرة المتصدّعة، ينبعث الدخان من أجسامهم، في فرن الغابة الرطب، الغابة التي راحت تمتصّ آخر ما تبقّى من نسغهم، وهم يهربون، هائمين على غير هدى.

تميل الشمسُ إلى الغروب. تتضاءل الأحراجُ وتخفّ، تنزع خضرتَها الصارخة، بعد أن اصطبغت بالأحمر. وأخيراً يخرجان إلى درب مهجور في الغابة. قطعا مسافة، ثمّ بلغ سمعهما صوتُ النهر. ارتسمت على وجه الرجل المترب إيماءة غامضة. توقّف والتفت إلى المرأة. ها هو ذا، أخيراً، يكلّمها، للمرة الأولى منذ الله أعلم متى.

«هل سمعتِ، ناتي؟» - قال الصوت الذي بُحّ من العطش.

«نعم» - تمتم الوجه المترب الآخر، الذي ما كان يتحرّك منه غير العينين.

- ربّما هو المونداي[28]!

- ربّما.. يا ريت!

«قطعنا مسافة طويلة...» - قال الرجل، بما تبقّى من كبريائه التي ما زالت تصارع خوفه وتغالبه. ثم أضاف: «مسافة أخرى ونكون في مأمن!».

واصلا طريقهما، وقد استجمعا طاقتهما، عبر دربٍ غزته الأحراج. تأوّهت المرأة.

- هل تسمع، كاسيانو؟

يعاودان التوقّف. يُسمع من خلفهما وقعُ خيلٍ يعلو على صوت الماء.

«يا إلهي.. إنّهم يلحقون بنا!» - تأوّهت المرأة من جديد.

وشحب وجهُ الرجل الذي ملأته التجاعيد.

(28) Monday نهر في الباراغواي.

– لنختبئ في الجبل!

يهرولان نحو الأجمة.

«كنتُ أعلم أنّهم سيصلون إلينا!» – غمغم الرجل. لم تسمع المرأة ما غمغم به.

تسلّلا، وقد حنيا رأسيهما وقلّصا جسميهما، واندفعا بالخوف الذي لم يمنحهما إلّا قسطاً قليلاً من الراحة. تصبّب من الرجل سائلٌ أسود، وهرولت المرأة حادبةً على الطفل، تغطّيه برأسها. بدَوَا، من جديد، حيواناتٍ مطارَدة، وقعت في فخّ ليس له مخرج.

.2

لم يفلح أيٌّ من الـ«خويدو»[29] في عبور أدغال «تاروكو-پوكو» حيّاً.

هذه الحقيقة، هذه الأسطورة، التي تجري في دماء «المينسو»[30] وفي خيالهم، شأنها شأن مستنقعات الملاريا في الهور، تتراءى لكلّ من يمنّي نفسه بالهرب، ويعلّق عليه آماله العقيمة. وما أقلّ من يمنّي نفسه بذلك! حتّى إذا اجتهد مجتهدٌ لتحقيق حلمه، سقط في منتصف الطريق. وهكذا تكبر الأسطورة مع كلّ هارب جديد، مزّقته الكلاب بأنيابها أو جندلته بنادق الزبانية.

لم يفلح أحدٌ في الهرب.

---

(29) تطلق الكلمة Juido على الهاربين أو الفارّين من وجه العدالة أو السلطة.

(30) Mensú تطلق على القرويين الذين يعملون في مزارع المتّة، في نظام يقرب من نظام العبوديّة.

وقد يعود أحدُهم، أحياناً، يسير، شبه ميتٍ، تتبعه الخيلُ والكلاب، نادماً تائباً، لينتهي به الأمر مربوطاً إلى الأوتاد، أمام رعب الآخرين وعجزهم.

لم ينجُ حتّى الأطفال من الرصاص والسكاكين والحبال.

فـ«تاروكو-پوكو» كانت، إذاً، مدينةً في بلد وهميّ، مسوّرٍ بغابات «ألتو پارانا» العظيمة، وبطوق الأهوار الموبوءة بالأفاعي والوحوش، وبمساقط الحجر الرملي العالية؛ وبالنهر العريض الهادر، وبالطوفان المفاجئ الذي يُغرق الغابة والمستنقعات، في لحظة، بسيولٍ قانية الحمرة. لكنّها محميّة، وعلى نحو خاص، بإرادة المفوّضين وحصانتهم. هم هناك لهذا الغرض. يحملون تفويضاً للسهر على مصالح الشركات تطبيقاً لقانون أصدره الرئيس روزفلت، بُعيد الحرب العظيمة، «من أجل أن تزدهر أحوال المنتفعين من المتّة، ومن فروع أخرى من فروع الصناعة القوميّة، وتتقدّم...». وهكذا، فهم يعملون تحت غطاء قانوني، وبخبث كبير ينطوي عليه القانون المذكور نفسه. تنصّ المادة الثالثة منه على أنّ «العامل الذي يترك عمله من دون موافقة ربّ العمل أو من ينوب عنه، يُساق إلى موقع العمل مقيّداً، إذا كان ذلك هو ما يطلبه هؤلاء، على أن يتحمّل العاملُ نفسه تكاليف الإبراء وسواها من الإجراءات المترتبة عن الحالة».

لذلك لم يكن يغامر بتحمّل تكاليف ذلك «الإبراء» إلا القليلون.

أمّا ما استطاع أن يفلت من «تاكورو-پوكو» فعلاً، فهي أبيات من الشعر تحكي، على أنغام غيتار الفلّاحين، بؤسَ واحدٍ من هؤلاء «المينسو»، دُفن حيّاً في سراديب مزارع المتّة.

تتكلّم القصيدة، التي كتبها مؤلّفها المجهول بلغتين، عن هؤلاء الرجال الذين يعملون تحت لسع السياط وفرقعة الكرابيج، طوالَ السنة، لا يذوقون

طعمَ الراحة إلّا يوم الجمعة العظيمة[31]، حين ينزلونهم من عذابات صليبهم، ليوم واحد فقط، لا يُبعثون بعده ولا يقومون، كما بُعث المسيح وقام، فهم المسيحُ الحافي الأسود، الذي يموت حقاً، فلا يفتديه أحدٌ ولا يذكره أحد. ليس في مزارع «أندوستريال باراغواي» وحسب، بل في بقيّة الإقطاعات. قابعين كالسرطان في أحشاء غابة الجمهوريّة، يديمون، بعد ثلاثة قرون، ملذّات الإمبراطوريّة اليسوعيّة، ويستحضرون ملذّاتها ورعايتها الأبويّة.

يعلو صوت المينسو شاكياً:

كفاك، يا رفيقي، كفاك
أن تحطّم قلوبنا وتقسو عليها!

لم تفلح، لا الكلابُ ولا الزبانية. لا الجبالُ ولا المستنقعات في أن توقف غناء المينسو.

فهو الوحيدُ الذي استطاع الهرب من المزرعة.

.3

وصل كاسيانو خارا وامرأته ناتيفيداد إلى «تاروكو-پوكو» في إحدى موجات النزوح التي أحدثها أعوان «أندوستريال»، بُعيد سحق ثورة عام 1912، مستغلّين تشتّت الثائرين ونزوح السكّان المدنيين.

تعرّف كاسيانو على الفتاة في «بيّاريكا». وتزوّجا، قبل وقت قريب، في سابوكاي.

كان كاسيانو من بين جنود النقيب أليزاردو ديّاث الذين انضمّوا إلى

---

(31) أو جمعة الآلام. وهو أحد أيام عيد القيامة.

قطار الثوّار في سعيهم للانقضاض على العاصمة. أمّا ناتي فكانت تقف، في تلك الليلة الفظيعة من شهر آذار، مع الناس الذين تجمهروا في المحطّة لوداع الجنود، على هتافات أرض وحرّيّة! غير أنّ وشاية عامل التلغراف أفسدت الخطة، بعد أن وجّه الحكوميون قاطرة مشحونة بالقنابل فجّرت قطارَ الثائرين.

لكنّ من أفلت من الانفجار لم يفلت من المجزرة ومن الإعدامات التي أعقبت ذلك. ونجا كاسيانو وناتي بأعجوبة. وهام أبناءُ الثورة المهزومون على وجوههم أياماً في جبال «غوايارا»، يائسين جائعين. هربوا صوب الجنوب، سائرين مع سكّة القطار، باحثين عن الحدود مع الأرجنتين، ولكن من بعيد، لكي لا يقعوا في قبضة اللجان العسكريّة.

وصلتهم، وهم في «بيّارّيكا»، أخبارٌ عن أنّ حدّة القمع خفّت، وأنّ أعوان «أندوستريال» بدؤوا يأخذون أفراداً للعمل في «تاروكو-پوكو».

وانضمّ كاسيانو وزوجته، وكلّ أفراد المجموعة تقريباً، إلى الطابور، ليكونوا وقوداً لأتون تلك المزارع. كانوا مسرورين وسعيدين أن عثروا على فرصة بدت لهم مناسبة لمواجهة المصاعب.

ثمّ إنّهم قبضوا مقدّمَ أجورهم نقوداً لها صوتٌ ورنين.

«إنّها مصيدة تنصبها لكم الشركة!» -قال أحدهم محذّراً- «فلا تنخدعوا!».

لم يعره أحدٌ بالاً. فقد كانوا في نشوة وذهول.

اشترى كاسيانو، بنقوده، ملابسَ لزوجته، من متجر «لا غوايرينيا» الكبير. وراحت هي تخلع هذا الفستان وتلبس ذاك، في حجرة خلفيّة من المكتب. حين رفعت أذيال فستانها لتلبس السروال الداخلي الطويل،

لاحظ كاسيانو فخذي زوجته المشدودتين السمراوين. اشترى لها عقداً من الخرز، ومشطاً مُطعّماً، وقارورة عطر. وأخرجها من المتجر مزيّنة كالعذراء في الموكب. أمّا هو، فقد اشترى لنفسه حذاءً ودثاراً وسكّيناً ومنديلاً بمربّعات سود وبيض وقبّعة من اللبّاد.

في مرآة ملطّخة في المكتب ظهرت صورتان: رجلٌ وامرأة أنيقان، مزيّنان، وكأنهما ذاهبان إلى احتفال قدّيس شفيع. خرجا وهما غير اللذين دخلا.

بما تبقّى لهما من القروش، أكلا في إحدى حانات وسط المدينة. كانت الوجبة المتواضعة الأولى بعد أشهر لم يأكلا فيها غير الأعشاب والبطيخ التالف الذي يأخذونه من المزارع الخربة.

كانت تلك أيضاً وجبتهما الأخيرة. ولكن، أنّى لهما أن يعرفا ذلك؟! فقد أعماهما اندفاعهما إلى حياتهما الجديدة.

«ناتي، ربّما ليست الأمور هناك على السوء الذي يصفون» – قال كاسيانو، راضياً، وهو ينظر إلى الشارع من خلال قضبان النافذة.

«يا ليت، سيّدي!» – غمغمت ناتي، وقد حنت رأسها صوب الطبق الفارغ، وكأنها تقول «آمين».

.4

تحرّك طابور العمّال فجراً، لقطع خمسين فرسخاً تفصلهم عن المزرعة، عبر جبال «كاغواسو».

وبعد أقلّ من أسبوع وصلوا، يقودهم رعاة الماشية وناظرو المزرعة، الذين كانوا يسمحون لهم، من على ظهور الخيل، بالاستراحة ساعات

قليلة ليلاً. وسرعان ما أكلوا مؤونتهم. كانوا يشربون الماء حين يعبرون الجداول، كما تفعل خيولُ من يسوقهم.

قبل أن يدخلوا الغابة، اجتازوا نهرَ مونداي، من مخاضة، هي بمنزلة البوّابة التي يدخل منها الماء الذي يروي مزارع المتّة. كان بعضهم ما يزال يمتلك حسّ المزاح.

- موندااا...ي! يا ماءَ اللصوص! تمضمضوا، أيّها الفتيان!

أراد الرجالُ الاستحمام، فلم يُسمح لهم بذلك. إنّهم في عجلة من أمرهم.

بات هندام ناتي الرخيص أسمالاً. وكذلك أناقة كاسيانو والآخرين. فالغابة توحّد الجميع، وتنزع عن الجميع كلّ جلدٍ مستعار، وكلّ أمل. وراحت أطرافُ الكرابيج المجدّلة والقاسية كالسلك، ولسعاتُ القراد والبعوض، ولدغاتُ الأفاعي والعقارب، وبدايةُ رعشات الحمّى، ومطالع رجفات الخوف، توقظهم على واقع بدأ يبتلعهم بطيئاً، ولكن حثيثاً.

تخلّف البعضُ. جرّب المراقبون كرابيجهم، لكنّ القيء الأسود، سمّ الأفاعي، كان أقوى. تركوهم، ولكن بعد أن أودعوا رصاصة في رأس كلّ واحد منهم، فليس لأحدٍ أن يلعب بذيله. هكذا، من البداية.

من حينٍ إلى آخر، يسمع السائرون في المقدّمة دويّ رصاصة خلفهم: رفيقٌ يخرّ على الأرض، شهيدٌ يرتقي إلى السماء، عربون يسقط في القليل من الروث الآدمي.

بدؤوا يفهمون الوضع، ولكن، بعد فوات الأوان.

«لقد أخطأنا، ناتي!» -قال كاسيانو أثناء سيرهم- «سقطنا من المقلاة إلى النار!».

- ما أفظع هذا، سيّدي!

- لا عليك.. لن نبقى هنا طويلاً!

كانت عيناها الخضراوان معكّرتين. ورقتان مجعّدتان، كتلك التي راحت خيول المراقبين تدوسها على التراب الأسود الذي يكسو درب الغابة، في الطريق إلى «تاروكو-پوكو».

.5

مزرعة واسعة شاسعة. لا قدرة لأحدٍ على تصوّر حدودها. أيّ طرفٍ من أطرافها يمكن أن يكون مركزها. أمّا قبضة الپاترون آغيليو كورونيل الحديديّة فتصل إلى كلّ الإقطاعيّة، عن طريق وكلاء وناظرين ومساعدين، على امتداد النهر ونهايات مسالك الغابة والمواقع الأبعد.

على الضفة الأخرى من نهر پارانا، تبدأ مزارع محافظة «ميسيونيس» الأرجنتينيّة. كان هاربو پاراغواي يحنّون إلى تلك المزارع ويرون فيها ما يراه سكنة جهنّم في المَطهر.

يظهر آغيليو كورونيل فجأة في فسحة الجبل الجرداء، وجهٌ عابسٌ، تحت خوذة بيضاء، منتصباً على حصانه الرمادي، يرقب مرورَ عمّال المناجم، عبر الغابة، في طريق قد تمتدّ أكثر من فرسخ ونصف. يمرّون، وقد انحنت ظهورهم تحت وطأة حملهم من أوراق الثمانية أرباع[32]، الأطول مرّتين والأكبر عشر مرات من فضلة الجلد والعظم التي تلهث من تحتها وتنوء بحملها.

(32) Arroba وحدة وزن تعادل اثني عشر كيلوغراماً ونصف الكيلو.

لطالما أشرف على وزن أوراق المتّة، وهو على حصانه، يصحبه خوان كروث چاپارّو، مأمور الشركة، وكان أيضاً مأمور «تاروكو-پوكو». كان چاپارّو، الأعور الجسيم المجدّر، هو ظلّ الپاترون المقيت، وربّما كان مكروهاً أكثر منه. كانوا يلقّبونه بـ«خوان كوروسو»، أو كوروسو، لأنّه كان مثل خيال الصليب الذي يعاقبون به العمّال. ولأنّ نهاية كرباجه تلسع وتقتل مثل أفعى الصليب.

كانت طقوس الوزن هي المناسبة التي يستعرض آغيليو كورونيل فيها سُلُطته. أمّا أهميتها فتكمن في أنّها مناسبة يُوزنُ فيها العرق الذي تصبّب ويُقوّم الجهد الذي بُذل، لحمل تلك الأرباع الثمانية من المتّة، ونقلها، مسافة فراسخ، في باقة مربوطة إلى الجبهة بسيرٍ من جلدٍ غير مدبوغ.

حين تبلغ إبرة القبّان أقصاها، يمطّ الپاترون فمَه فتلمع سنُّه الذهبيّة. الأرطال الزائدة لا تُحسب. أمّا إذا نقص رطلٌ واحد، فإنّ كورونيل يأمر بردّ الحمولة، ويطلق صرخاتٍ يتردّد صداها في الرقعة الجرداء من الجبل، وفي ظهور المتعبين وعظام العاجزين، وتدوّي مع أصداء كرابيج چاپارّو.

كان يوماً ضائعاً. على العمّال أن يحفروا وينقّبوا في المزرعة ليمضوا الساعات الثماني المطلوبة. لذلك كانوا يفرحون، في نهاية يوم العمل، حين يرون البريق الذهبي الصغير، الذي تشعله إبرة القبّان، مرسوماً على مطّة فم الپاترون.

- مضبوط، سيّدي!

ويندفع الجميعُ لأخذ الأرطال الزائدة، تلك الغنيمة، التي لم تُسجّل في الاستمارة.

في الليل يرتسم، جالساً مقابل نار البارباكيو، صغيراً وقصيراً، ينظر إلى

العمّال وهم يحمّون أيديهم في شعلة النار، بينما يطلّ ظلّ چاپارّو الطويل من الخلف.

حتّى مراقب العمل كان يتأمّلهم، من مكانه، فوق الفرن المستعر، مسحوراً، مثل طائرٍ أو حيّةٍ برأسين، لاهياً عن مهمّته في مراقبة أوراق المتّة وهي تُجفّف وتُحمّص.

حتّى هذا المراقب ما كان ينجو من سياط چاپارّو. ذات ليلة، انزلق واحد من المراقبين، وسقط في النار، أثناء جدل احتدم بينه وبين المأمور. لم يحاول أحد إنقاذه، فقد جندله چاپارّو بطلقة من مسدسه، أصابته في الرأس، أثناء سقوطه. وبينما كان المراقب يتلوّى مشويّاً في النار، راح كوروسو يصرخ بأنّ التعيس، ابن الألف قحبة، حاول أن ينقضّ بالحربة على الپاترون. ويشهد الجميع أنّ المراقب، القابع في مرقبه، لا يمتلك حربة.

أسكته آغيليو كورونيل بإشارة منه. وأحسّ الجميع، في الصمت الذي أعقب الحادث، بشرر أوراق تتطاير، وشهيق نار تستعر، ورائحة لحم يحترق، وعلا دخان أخضر وحامض تسيل له الدموع من الأخيلة المنحنية. مقابل لهيب الباريباكيو، كانت عين چاپارّو العوراء تلمع زرقاء من فوق كتف الپاترون، تتجسّس على حشد الأشباح الجامدة المرتعبة التي راحت تسكب دمعها في الدخان.

يحدّق آغيليو كورونيل في النار. يتطلع إلى المراقب وهو يحترق ويتقلّب بين الأوراق. سيأتون بغيره. فهناك آخر على الدوام. ما كان لأحد هناك أن يشيخ. ما كان لأحد هناك أن يهرب.

.6

مع ذلك، لم تكن الأمورُ، في البداية، سيئة. فقد عملَتْ ناتي في أحد مخازن القصب في البلدة، وقد عاملها صاحبا المخزن، البرازيلي سلفيرا وزوجته، معاملة حسنة. ولطالما بكت على كتف نيا إرميليندا، التي كانت تواسيها بصوتها الرجولي الخشن. كانا يعاملانها وكأنّها واحدة منهم، فتردّ هي الجميل بأن تجدّ في عملها، في معمل التقطير أو على طاولة الخدمة.

أمّا كاسيانو، فقد كلّفوه بتقطيع أوراق المتّة في أحد المخازن، وأثبت جدارته أيضاً وتفوّقه على أقرانه، وإن لم يبلغ شأو ناتي. يقطّع الورقَ المحمّص قبل طحنه، طوال النهار، ولطالما امتدّ عمله حتّى منتصف الليل، فضلاً عن تكليفه، أحياناً، بالصعود إلى فوهة الفرن ليحلّ محلّ الپاترون في مراقبة أوراق المتّة وهي تجفّ وتتحمّص. رأى ذلك المراقب وهو يسقط في النار، بعد أن أصيب بالرصاصة التي أطلقها چاپارّو. وهكذا، فقد كان يعرف ما الذي عليه أن يفعل، وإلى ماذا عليه أن ينتبه. فالأمر لا يحتمل هفوات.

كان عليه أن يعمل بما يُرضي الناظر، في العمل وفي المراقبة. لذلك نفرَ العمّالُ منه في البداية. لكنّه انكبّ على عمله ولم يدّخر جهداً، غير عابئ بعمل يمتدّ أربع عشرة ساعة أو ست عشرة ساعة يومياً، فلديه وقتٌ يسرقه من الليل أو من الفجر، بعد أن يقطع أكثر من فرسخ، يرقد أثناءه جنب ناتي، في مخزن الحانوت، بين براميل النبيذ، قريباً من مرفأ القوارب.

تنهض هي لتسخّن له عصيدة الذرة والبطاطا، التي غطّتها طبقة من الشحم، أو لتشوي له، على الفحم المتقد، شرائح اللحم، أو لتحمّص له ساقاً من الذرة. يأكل كاسيانو، دونما رغبة، فقد أفقدته رائحة الدخان التي

استنشقها توازنَه، وطحنه التعب الذي تراكم في عضلاته، فجعله يرتجف من رأسه حتى قدميه في نوباتٍ من الحمّى. وربّما كانت الملاريا، ببيوضها الخبيثة، هي ما يفسد دمه.

تمرّر ناتي يدها على شعره الدبق. على ضوء الجمر المتقد، تتخاطب العيون، وأقلّ من ذلك، الكلمات، أمّا حين العتمة، فتكفيهما الصحبة والخلوة. ما كانا في حاجة إلى الكلام ليتفاهما، فكلّ الكلام بين الرجل والمرأة قد قيل، منذ أن خُلق الكون. يلتقيان ويعوّلان على ذلك التفاهم المتواضع البسيط، تفاهم النباتات والحيوانات، تفاهم الكائنات التي طهّرتها المصيبة وعمّدتها. قد تتحطّم حياة كلّ منهما معاً، لكنّهما لن تتفرّقا. ذلك، ربّما، هو ما كان حبهما يجعلهما يؤمنان به.

يستلقيان متلاصقين فوق الحصيرة، فيشعران بنبض الماء بين الحجر، بين جسديهما، حتّى يغرقا في النوم. يمتزجان، ثمّ يغوصان، كالحجر، إلى القاع. هكذا مضت السنة الأولى عليهما. سنة تعادل قرناً. لكنّهما كانا أثناءها معاً، وذلك هو المهمّ.

.7

بداية الصيف، وصل إلى «تاروكو-پوكو» واحد من أصحاب الشركة، في زيارة تفتيشيّة.

علم المينسو[30] بالخبر حين رأوا المركب الأبيض الرشيق، الذي كانوا شاهدوه يمخر في مياه النهر، مثل طائر بلشون فَرَدَ جناحيه الرماديّين. خفَّ الپاترون والمأمور وسلسلة الناظرين والمراقبين والمساعدين،

على طول المزرعة وعرضها. دبَّ النشاط فيهم، وباتوا أكثر قسوة وحثاً على العمل. وما أوضحَ ذلك دليلاً على وصول الباترون الكبير!

لم يروه. لكنّ اسم الغرينغو سرى مسرى النار في الهشيم، بدءاً من الإدارة إلى أبعد مزارع المتّة. وجرى على ألسنة العمّال اسمُ شفيع المزرعة المقدّس، الذي ترك بصمة قدمه العميقة في غارة تلّة باراغواري، حين مرَّ بها، ووضع بذور تلك النبتة المعجزة، النبتة التي تأكل لحم البشر، وتمتصّ عرق الإنسان ودمه.

– ها هو ذا سانتو توماس!

– يأتي الرفيق زوميه!

يتهامس عمّالُ المزرعة، من تحتِ حُزم المتّة، بما تبقّى من السخرية في أعماق الخوف الشديد الذي يشيعه حضورُ الزعيم الأجنبي الغريب. فصاحب النبتة الأسطوري ومالك المزرعة كان له الاسم ذاتُه.

عاد يخت مستر توماس يمخر عباب المياه نزولاً، متعدّياً الصخور، وكأنّه يطير من فوقها.

.8

ما إن تلاشى خطّ سير اليخت في الماء، حتى أمر آغيليو كورونيل بأن تؤول مخازن القصب الخاصة إلى سلطة الإدارة. فليس لمكتب غير مكتب الإدارة من مكان.

قاوم بعضُهم، ومن بينهم سيلفيرا، الذي ظنّ نفسه، وهو ابن «ساو باولو»، قادراً على التملّص من الأمر.

ظنّ أنّ القرار نزوة من نزوات كورونيل التي لن تلبث أن تمرّ.

«هذا من عمل الغرينغو» -قالت نيا أرميليندا- «فكورونيل لا يفعل شيئاً من دون أمرٍ يصدر له من المستر».

«سأبقى هنا [بالبرتغالية]» - قال سلفيرا بلسانه الذي يمزج البرتغاليّة بالغوارانيّة.

«لن يتركوك، ألفونسو» -حذّرته امرأتُه بصوتٍ منذرٍ- «هم يريدون الاستيلاء على كلّ شيء!».

- سأبقى هنا.. وإن علّقوني رأساً على عقب! [بالبرتغاليّة]

وقتلوه بالرصاص، ذات ليلة، بينما كان يغلق باب حانوته. بقي، ولكن برأس على عقب. قتلوه كما يُقتل أولئك الذين لم يكونوا أجانب، وكانوا يتنادون لتحدّي سلطة كورونيل.

حكت ناتي، بالسرّ، لكاسيانو أنّها رأت چاپارّو يقف وراء شجرة ويطلق النار على البرازيلي، كما حين قتل بدم بارد ذلك المراقب في الباراباكيو. ثمّ إنّ بصمات المسدس، من عيار 45، ما كانت تقبل الشك، بل إنّ ثمّة من يؤمن بأنّ عين المأمور كوروسو، اليسرى والزرقاء، تمنحه مهارته الشيطانيّة في التصويب.

«إنّه ليس بحاجة إلى تصويب» -قال واحدٌ من المينسو. وسرعان ما باتت تلك العبارة مثلاً سائراً- «العين المسحورة أقوى نظراً من عين البوم».

وفرّت عوائل البلدة الأخرى بسبب موجة العنف التي أثارها مقدم الطائر الأبيض.

وأدخل إطلاقُ نارٍ ليليٌّ، وحرائقُ «عرَضيّة» في بيوت قاوم أصحابها

وأرادوا البقاء، الرعبَ في قلوب الآخرين، فاضطرّوا إلى بيع ممتلكاتهم بسعر التراب، وانطلقوا، مثل نبتة الكامالوت، نزولاً مع مجرى النهر.

وهكذا استولى آغيليو كورونيل، مجاناً تقريباً، على معاملَ للعرق ودنانٍ وأكداسٍ من المؤونة وأكوامٍ من شرائح اللحم الموبوء بالدود، وحملها إلى مخازنه. كان من الممكن مشاهدته من شبّاك الإدارة وهو يتأمّل النزوح بزهو المنتصر، بينما سنّ الذهب تلمع في العتمة.

أمّا أرملة البرازيلي، فقد خرجت مع آخر مجموعة من العوائل التي اجتازت النهر وتوجّهت صوب «فوث دي إيغواسو».

.9

كان كاسيانو وناتي يرمقان النازحين بنظرة الحسد. فهما غير قادرَيْن على الرحيل. فليس لديهما ما يبيعانه غير عرق الجبين. وكان الدَّيْن يمتصّ أجرَ كاسيانو اليومي كاملاً. وهو دَيْن ما من سبيل لتقليصه أو تصفيته. كان ذلك همّ الجميع. مهما فعلوا، فلن يكسبوا أكثر من طعامٍ يسدّون به رمقهم وعرقٍ ينسون به همومهم. أمّا الملابس، فتكلّف عشرة أضعاف سعرها الحقيقي. لذلك كان دين السلفة يراوح في مكانه. يربط العاملَ الأجير نيرٌ لا يعتقه، ولا يستطيع هو التحرّر منه، إلا وقد بات تحت التراب.

باتوا يعرفون ذلك، ولكن بعد فوات الأوان.

وأقام كاسيانو وناتي سقيفة من سعف النخيل. وبدأت هي تعمل في مخزن التموين.

دخل هو، ذات ليلة، فبادرته القول: «أنا حامل!».

ظلَّ كاسيانو متردّداً بين أن يفرح أو أن يضيف إلى حزنه حزناً. ها هو ذا أخيراً يجد وجهاً فَرِحاً لحزنه.

«طيّب» - قال.

نسي قدرته على أن يكون أباً. وما أنسبَ الساعة التي وصله فيه الخبر! مع ذلك، فلا شكّ أنّ الأبوّة شيء جميل. فالدم يقول له ذلك، والغصّة التي عقدت لسانه تقول له ذلك.

لا بدّ أنّ الأبوّة شيء جميل، وإن كانت في «تاكورو-پوكو»، حيث ما من شيء يؤشّر إلى الطُّرق غير الصلبان. من فوق الفحم، يرى عيني ناتي السوداوين محتارتين بذلك اللغز الذي يتصوّر في داخلها ويتخلّق، الشيء الأزلي الوحيد الذي في مقدور رجل وامرأة أن يفعلاه على الأرض، حتّى لو كانت أرضَ مقبرة.

- علينا أن نكافح من أجله.

«نعم» - قالت ناتي.

- إن كان ذكراً فسنسمّيه كريستوبال. على اسم جدّه.

بدا وكأنّ الرجلَ العجوز، ذا اللحية البيضاء، الذي أسّس، مع مزارعين آخرين، بلدة سايپوكاي، في سنة المذنّب المرعب، مرَّ من أمام حاجز السعف المهلهل، وابتسم لهما في العتمة. تشابكت أيديهما فأحسّت ناتي بيدي كاسيانو رطبتين نديتين. وقد اعتادت عينا المينسو أيضاً أن تُلقيا بنداهما فوق الأحزان، عرقاً يتصبّب على الروح، لتدفعه من داخله، ولتبقي على بصيص الأمل ذاك، المربوط إلى القلب بخيوط من ذلك السير. ذلك الأمل الأصعب والأثقل من حزمة أوراق المتّة.

نعم، هذه هي الحياة، سواء نظرتَ إليها وأنتَ متراجع عنها أم وأنتَ

متقدّم عليها، حتّى لو نظرت إليها من حاضرك الأعمى. شعلة عنيدة في بارباكيو العظام، اضطرارٌ لتجاوز الطاقة، للمقاومة حتى النهاية، لعبور خطٍّ، لاجتياز حدٍّ، للمواصلة، إلى ما يتعدّى أيّ يأس وأيّ تسليم.

صار كاسينو وناتي يدركان ذلك من دون كلام، بين عجوز ميتٍ وطفل لم يولد بعد. باتا يدركان أيضاً لماذا تسمّى بلدتهما النائية «غريتو» [= صرخة]، باللغة الغوارانيّة. يتذكّران المرة الأخيرة التي شاهدا فيها سابوكاي، وقد غربلتها القنابل.

إنّهما يقظان صاحيان. ريح الليل تخمش جدران السعف. ومياه النهر تصارع الجرف.

– ربّما استطعنا الوصول في الوقت المناسب لكي يصيبك الإحباط هناك.

لذلك كان كاسيانو يعمل بمثابرة.

جعلتُ من جسدي ذراعاً ويداً وقبضة. فكّر. أعيشُ وأنا أعضّ على النواجذ. أقاوم. أسعى إلى أن يتغلّب مكسبي على دَيْني. فربما استطعتُ أن أسدّد سلفة الثلاثمئة باتاكون تلك، وربّما استطعنا الفرار والعودة، من دون شيء، غير هذا الطفل الذي لم يولد بعد.

«سيكون جميلاً، سيّدي!» – همهمت ناتي، كتلك المرّة في النُّزل، وقد حنت رأسها فوق الصحن الفارغ، وإن لم تكن هذه المرة بتلك الثقة، لكيلا يتعذّب كاسيانو.

– لا بدّ أنّهم نسوا الآن ما جرى.

– ربّما. لقد مرّت سنتان، كاسيانو.

– سأعود ثانية إلى عملي في المعمل. وإذا لم يكن ذلك ممكناً،

فسأعمل في الزرع. لا بدّ أنّ الأرض تجود هناك بالقطن وبالذرة. أستطيع أيضاً أن أجرّب زراعة الرزّ في المستنقع.

– نعم.

يحاولان خداع نفسيهما، فكأنّهما يحلمان في يقظتهما. لكنّ دويّ القنابل يسبقهما، فيبتلع تلك الأرض المليئة بالأعشاب أو التي صادرتها خزينة الدولة، بكلّ تأكيد، مع كلّ ما غرسه فيها وزرعه الخنزير الثوري كاسيانو خارا.

ولا تتوقّف خيبة أملهما هنا. بل يمكن أن يقال إنها بدأت للتوّ هنا.

.10

لم يبقَ في البلدة المهجورة سوى بضع نساء. بين مومسات شخن وهرمن، وأرامل مات أزواجهنّ وامتهنّ هنّ البغاء ليكسبن قوتهنّ.

ظهرت ناتي بينهنّ، شابّة جسيمة قويّة، أكسبتها الأمومة المرتقبة نضارة على نضارتها.

نظر إليها خوان چاپارّو بعينه العوراء.

لم يكن كوروسو متهوّراً، بل كان صبوراً. يأخذ وقته كافياً. فإذا كان انتظر ما يقرب من عامين ليعثر على زوجة الساپوكي بين حشد النساء، فما الضير في أن يطيل الانتظار قليلاً. فما زالت خدمته في «تاكورو–پوكو» أمامه.

ثمّ إنّ تلك الأنثى، القويّة المتمرّدة العصيّة، كانت هي مطلبه ومبتغاه في حشد النساء الخانع ذاك. إنّه لقادر على ترويضها كما تُروَّض الفرس،

ولكن ببطء، ومن دون لفت نظر أو انتباه، وهكذا لا يوقظ نهم كورونيل، المتربّص دائماً، ولا يفتح عينيه على الفريسة.

وحدث أنّهم كلّفوا كاسيانو بجلب الحطب المُعدّ للأفران، وهو أشقّ الأعمال في المزرعة وأقساها؛ بل هو أقسى من حمل حزم أوراق المتّة. صحيح أنّ وزن الحمولة يقرب أيضاً من ثمانية أرباع، ولكن شتّان بين حزم من أوراق مخمليّة، وجذوع تدمي ظهره طوال الطريق الذي يقطعه عبر مسالك الغابة وسواقيها.

ما عاد كاسيانو يستطيع العودة ليلاً ليرقد جنب ناتي، تحت سقيفة السعف. بل صار يبني من الفروع والأغصان، ملاجئ صغيرة يلوذ بها، حيثما داهمه سوادُ الليل أو وابلُ المطر. وقد يعود، أحياناً، وقد استبدّت به الحمّى وتقرّحت كتفاه وسُحق لوحاهما، وأكله لسع الذباب وخمش القراد.

لم يكن يعرف سبباً لما كان يقع له: إنّه حظّه الذي انقلب عليه. وهو ما كان يخشاه دائماً.

«كان لا بدّ له أن يحدث. فقد عشنا هانئين طويلاً» - قال، معزّياً زوجته ومعزّياً نفسه.

أمّا هي، فكانت تعرف السبب. لم تكن ترى، وهي تداوي ظهره المتقرّح بالأعشاب، وتدهنه بلبخة خالية من الملح، آثار جذوع، بل علامات مهمازَي چاپارّو، الذي كان يضاعف عليه الحمل، وإن سمح له بسير بطيء كسير سلحفاة الماتاماتا، التي تتلذّذ بترنّح ضحيتها، بينما تربطها وتشلّ حركتها بخيوطٍ من لعابها.

.11

خرج ذات عصر إلى الجبل للقاء كاسيانو. كان على وشك أن يصدمه بصدر حصانه. بادره بالقول: «خارا. امرأتك تروق لي. أعطيكَ ثلاثمئة پاتاكون مقابلها!».

كان لعينه الوحيدة لونُ الرماد. انتفض كاسيانو، الذي قوّس الحطبُ ظهره.

«وربّما أسمح لك أيضاً بالخروج من هنا» -أضاف المأمور بنبرة ودّ- «إذا سدّدت دينك».

بدا وكأن ما يرتجف الآن من الملاريا هو حملُه من الحطب. أمّا هو، فقد بدا، من تحته، مكمّمَ الفم، تصرّ أسنانه، وكأنّه يلوك تراباً.

- ماذا قلت؟ ألا يعجبك العرض؟!

«لا.. لا!» - همهم كاسيانو، بصوت كان من البعد والضعف أنّ چاپارّو التفت ظنّاً منّه أنّ الصوت يصدر من شخصٍ آخرَ، من مكانٍ آخر.

- لماذا؟

«لأنّها.. امرأتي!» - ترجرج الفم المتخشّب.

- يا لك من غبّي! أعرف ذلك. لذلك أعرض عليك الپاتاكون الثلاثمئة.. عدّاً ونقداً. دينك في الإدارة. تستطيع أن تسدّده وتعود إلى بلدتك. لم يظفر أحدٌ في «تاكورو-پوكو» بفرصة كهذه. على الأقل، منذ أن أصبحتُ مسؤولاً هنا.

- لا...

- عليك أن تستغلّ الفرصة! وما هي إلّا عشيقتك!

- ليست عشيقتي.. إنّها زوجتي.

أطلق چاپارّو ضحكة.

- زوجتك؟! هاااا لا فرق، أيّها الأبله! عشيقة أو زوجة، لا فرق. المهم أنّها امرأة. ثقبٌ بين ساقين. هذا هو كلّ ما لديها، إذا كانت جميلة!

- لكنها...

- لكنّها ماذا؟

«حبلى!» - ارتجف الصوتُ من تحت حمله الثقيل.

كان اعترافاً غريباً مثيراً للضحك، نتج عن ضعف في مشاعر قلبٍ محكومٍ بالموت. مع ذلك، فقد فعل مفعوله؛ مفعول غريب ومضحك.

- حبلى؟!

- نعم.. هي حامل في شهرها الرابع.

- فمعنى هذا أنّني أعور في العينين، إلى درجة أنّي لا أرى.

بدت دردشة نسوانٍ على باب كنيسة.

- سننتظر، إذاً، بعض الوقت.

وسار الاثنان في طريق الغابة. چاپارّو في الأمام، وساقه معلّقة بمقدّمة السرج. وخلفه، حزمة الجذوع، قريبة من مستوى الأرض، تسير على قدمي صرصار.

.12

«يجب أن نهرب!» - قال لها تلك الليلة ذاتَها.

وكرّر القول، وهو يهتزّ فَرَقاً. ظنّته يهذي من الحمّى.

لكنّه كرّر ما قال بصوت مخنوق: «علينا أن نهرب، وفي أسرع وقت!».

- كيف؟!

- لا أدري.. ولكن علينا أن نهرب!

على فم ذلك الوجه الترابي الشاحب، راحت تتردّد تلك العبارة وتتكرّر.

«مستحيل!» - همهمت ناتي، الجاثية فوق الحصيرة، بالقرب من زوجها، الذي نتأت عظامُه.

بدأتْ تفهم. إنّها تسمع كاسيانو يقول، وكأنّه يردّد صدى ما يجول في رأسها:

- كوروسو كلّمني...

بدت العيون راجعة من رحلة بعيدة: ملأ الخجل عينيها، بينما ملأ يأسُ العاجز عينيه.

- لقد راودني عنك! عرض عليّ ثلاثمئة باتاكون!

قهقهت من غيظ ومن قلة حيلة.

- مقدّمة الدفع! ثمن ما علينا من دين!

ضحك كالمجنون، وأزبد فمه. تثنّى وتلوّى، في نوبة جديدة من الحمّى، حتّى مال رأسه، وقد بلّله العرق. وظلّ هامداً، إلّا من تأوّهٍ يحزّ حنجرته حزّاً.

هدّأته. مسحَتْ له جسمه بالخلّ، ودثّرته بدثار من صوف بالٍ وبطانيات أشدّ هلهلةً من عباءة كانت اشترتها من حوانيت «غوايرا».

راحت عيناها تنظر إلى الأمام، من فوق كاسيانو، الذي كان يتنفّس متعباً، يغطّ في نوم يفوق في ثقله غابة بكاملها. تأمّلت صمتَ المزرعة وعتمتها. ولكن، لا شيء أشدّ صمتاً وعتمة من بلواهما.

حدّقت في جوف الليل، حتّى أحسّت وكأنّ قلبها ما عاد ينبض، وكأنّها هي ما عادت تشعر بشيء.

لا شيء إلّا رفسات صغيرة واهنة تضرب، من حينٍ إلى حين، على أحشائها.

.13

استحكمت فكرة الهرب في رأس كاسيانو، كما استحكمت الحمّى في بدنه. وسرت عدواها إلى ناتي. صارا يريان فيها، عند لحظات لقائهما القليلة، مرضاً صامتاً قد يكون أشدّ فتكاً من الآخر وأمرّ، لكنّه مرض يرتجى الشفاء منه. فهو، على الأقل، غير مصحوبٍ بتشنّجٍ عضليٍ، ولا بتعرّقٍ بارد، ولا بوهنٍ عظمي، يطحن كاسيانو ويسومه عذاب الملاريا.

هذهِ الحمّى الأخرى خفيّة على الأقل. أمّا تلك فترفع الحرارة، وتقود إلى الجنون، وتحرق حوض العينين، وتخيط الفم، وتخرج مع الزفير.

حاولا إقناع آخرين. لكنّ الآخرين خافوا وتردّدوا. فشكوكهم الأوليّة في كاسيانو لم تنحسر، وتحفّظاتهم عليه لم تتراجع. ألم يكن يتمتّع بامتيازات خاصّة؟ ألم ينقلب من زعيم ثورة في معامل الآجر في كوستا دولثي، إلى مراقبٍ وحارس على أفران تحميص أوراق المتّة؟ في تلك المزارع، لا يُعرف متى ينهار أشجعُ الرجال ويتراجع ويخضع.

«أضعفته امرأته» – قال بعض أبناء بلدته، وراء ظهره.

لم يسمعوا شيئاً عن الموضوع. يا له من جنون! حاول أصدقاؤهما المقرّبون ردعهما وثنيهما. لذلك قرّر كاسيانو وناتي أن يغامرا منفردين، من أجل الطفل.

«لا أريد أن يولد هنا» - فكّر كاسيانو وقال.

كانا متفقين على هذا أيضاً.

أمّا خوان كروث چاپارّو، فقد بدا مصرّاً على الانتظار. قالها للعامل في الجبل. يتأمّل ناتي بهدوء وهي تمتلئ، من وسطها نزولاً. ينظر إليها، وحسب. وترتسم على وجهه أحياناً ابتسامة ساخرة؛ ابتسامة من يتسلّى وحيداً بما يجول في خاطره. وقد يبدو عليه أحياناً وكأنّه نسيها تماماً. وربّما شتمها في المخزن، عند برميل الجعة، فكأنّ تجهّم وجهها يضايقه، قدرَ ما تضايقه العاهرات أو أكثر، وكان يشتمهنّ أيضاً بأقذع الألفاظ حين يصادفهنّ في الطريق.

رسم كاسيانو وناتي خطة الهرب بدقّة. درسا تحرّكات المراقبين، وسكنات الحرّاس، والطرق الممكنة، والسبل المتاحة، ونقاط ضعف الحراسات، ودرسا أيضاً وضعهما هما. فإذا لم يستطع رجال أشدّاء الإفلات من الشرك الكبير الذي تنصبه الأنهار والجبال والخلجان، فأنّى لرجل أفتته الملاريا وامرأة حامل أن يفلتا منه؟

جال خيالهما، طوال ليالٍ، في تلك المتاهة التي ما كان أحدٌ غيرهما يمتلك مغاليق أسرارها. مع ذلك، فقد كان رأس الخيط يضيع أحياناً منهما، فيسقطان في أشدّ حالات اليأس، ويتخيّلان نفسيهما وقد ضلّا الطريق في الغابة، ووقعا بين كلاب أمامهما ومياه وراءهما، قبل أن يصطادهما المطارِدون كما يصطادون البطّ.

مرّت أربعة أشهر على لقاء كاسيانو وچاپارّو في طريق الغابة.

وبدا أنّ اللحظة المناسبة حلّت، حين نزل آغيليو كورونيل إلى «بيّا إنكرناثيون» لقضاء أمور لا أحد يعرف ماهيّتها، وذهب خوان كروث

چاپارّو إلى «فوز دي إيغواسو» ليراقب، مع رئيس الحرس، عمليات تهريب المتّة التي تجري هناك، من حينٍ إلى آخر.

فإن فوّتا على نفسيهما تلك الفرصة، فلن يحظيا بمثلها إلا بعد وقت لا يعلم إلا الله مبلغه. كانت فرصة لم يحلم بها كاسيانو وناتي. فرصة العمر. فكأنّها من عمل الشيطان. فلا أحد في «تاكورو- پوكو» يذكر أنّ الپاترون والمأمور طوال سنوات غابا معاً. فعادةً ما يظلّ أحدهما إن غاب الآخر. بل لقد ذهب بهما فكرهما إلى أنّ الأمر قد يكون كميناً دُبِّر لهما.

في تلك الليلة، هرب كاسيانو وناتي.

.14

لاحظ ناظر الحمّالين فجراً غياب الساپوكيني. فكّر في نوبةِ الملاريا، وإن لم يكن اليوم يومها. وأبلغ، من باب الاحتياط، مراقبي الكوميساريّة.

ومن باب الاحتياط انطلقت المجاميع بحثاً عنه.

لم يطُل بهم تتبّعُ أثره. فبعد فراسخ قليلة من العمار، وجدوه في قطعة مكشوفة من الجبل، جاثياً بالقرب من ناتي، التي كانت تتلوّى من آلام المخاض.

لم يروا المرأة في البداية. وراح كاسيانو، ووجهه إلى الشمس، يحرّك يديه متوسّلاً متضرّعاً أمام الخيول السود، وإلى جانبه فأسه. ما كان بالقرب منه زادٌ ولا أيّ شيء يدلّ على رحلة طويلة. عدا تلك المرأة، التي كانت تتلوّى على الحشائش، وقد صكّت أسنانها، فما عادت تنساب من بينها إلّا تأوّهات وصراخ.

وقع الحرسُ في حيرة. فليس في ما رأوه ما يدلّ على هرب. فلا داعي، إذاً، لإطلاق النار عليهما. مع ذلك، تركوا واحداً منهم لمراقبتهما. وعاد الباقون، وهم يضحكون من غرابة ما توهّموه. وللحظة، نسجت تلك الضحكات المبتعدة، مع أنين المخاض وصراخه، طباقاً موسيقيّاً في فتحة الجبل تلك.

عند انتصاف النهار وصلَتْ عربة. لم يصدّق كاسيانو ما رأته عيناه، وكاد يبكي من تلك اللفتة الإنسانيّة.

ساعد الحوذي، وهو مينسو مثله، على حمل ناتي، التي ظلّت تتلوّى وتئنّ، ووضعها على السطح، ثمّ عادوا. كان الحارس يجلس إلى الخلف يراقب.

وعلى وقع اهتزاز العربة وُلد الطفل. مزّق كاسيانو قميصه المتعرّق ولفَّ به الطفل الوليد.

- كريستوبال، ناتي!

وعلا صراخ الطفل قويّاً.

- يا إلهي.. ولدي!

وارتسمَتْ مسحة إنسانيّة غريبة على محيّا الحارس، الذي جلس بساقين مفتوحتين على ظهر الحصان، بينما كان ظلّه يسقط على المهد الدارج.

رُبط كاسيانو إلى لوحتي القيد في الكوميساريّة. من باب الاحتياط، إلى حين وصول الباترون والمأمور، فثمّة شكوكٌ تحوم حول مسلك المينسو.

أثناء الحبس، طحنت نوباتُ الحمّى عظامَه ثلاث مرات. مع ذلك، لم يُخلوا سبيله. ولم يدعوه يرى زوجته ولا ابنه.

بين رعشة وأخرى، كان يظهر چاپارّو. لكنّ الپاترون لم يصل إلا بعد عشرة أيام. وصل في لنش يسحب قارباً مسقّفاً تكدّست فيه وجبة جديدة من عمّال المينسو العالقين في موانئ الجنوب.

.15

دخل المطبق جسمٌ يلتفع عباءة الراهب. بقعة سوداءُ تتحسّس، في العتمة، مكانَ السجين.

«أين أنتَ، يا بنيّ؟» - تمتم صوتٌ هامسٌ.

تعثّرت قدماه بلوحة القيد الثقيلة. صدرَتْ منه كلمةٌ نابية كتمها بورع. واستندت يدا الجسم الغريب، تفادياً للسقوط، على جسم السجين القريب. قرفص بالقرب من الرائحة النتنة. تحسّس الجسدَ الموثق. كان الرأس المحشور بين لوحتي القيد يتنفّس من فمه، الذي مزّقته ركلة من المأمور أثناء جلسة الاستجواب الأولى.

انحنى بالقرب منه.

«أنا الراهب إنكارناثيون، يا بُنيّ» -همس الصوتُ بنبرة ورع مبالغ فيه- «لقد استدعوني لأستمع إلى اعترافك».

انتظر برهة. ظلّ السجين بلا حراك. كان يتنفّس بصعوبة.

«سيعدمونك فجراً لأنّك حاولتَ الهرب. حاولتُ أن أنقذكَ، أن أدافع عنك. ولكن ما من فائدة. هم ساخطون عليك وغاضبون منك» -قطع كلامه ثانية- «سنموت كلّنا يوماً ما، يا بُنيّ. لا أحد يموت إلّا في اليوم الذي حدّده له الربّ. فعليك أن تجهّز نفسَك. ستقصّ عليّ كلّ ذنوبك

ومعاصيك، وبكلّ ثقة. لكي أستطيع أن أمنحك المغفرة وأصلّي معكَ من أجل خلاص روحك.. سيعذّبونك، سيربطونك إلى أوتاد ممدودة فوق النمل لكي يأكلك حيّاً. إن أخبرتني بمن كان يخطط للهرب معك، فأنا أعدكَ أنّي سأتدخل لديهم ليكفّوا عن فعلهم القاسي. وربّما سيعفون عنك إن قصصت عليّ الحقيقة كاملة».

كان السجين عاجزاً إلّا عن أن يلقي في وجه الآخر بزفيره النتن، المنبعث من فمه المهشّم. تنحّى الراهب جانباً وبصق بتقزّز.

«ألا تتكلّم؟ ألا تعترف؟!» - استدرك فوراً.

بدأ السجين يتفوّه بكلمات تنثال غزيرة، وهو يتململ في قيده. مقاطع طويلة غير مترابطة، صرخات آمرة، عبارات توديع مجمّعة. ردّد اسمَ ناتي. وكرّر العبارات الآمرة الهستيريّة، وكأنّه يعدّ العدّة لهجوم. كانت رقبته تنتفخ من أثر الجهد الذي يبذله في فتحة القيد، حتى ليوشك أن يطبق عليها ويشنقه. كلمات تموت في تشنّجات وحشرجات.

نهض الآخرُ وخرج، لا غاضباً ولا مستاءً، بل ضجراً، تاركاً السجين يصبّ سيلاً آخر من هذيانه المجنون.

في الخارج، ينتظر چاپارّو.

«أطلِقوا سراحَه!» -أمرَ الپاترون، وهو ينزع عباءة الراهب، ويتصبّب عرقاً- «هذا أكثر جنوناً من جدّتي. لا تضيّعوا وقتكم معه!».

«أرى أن نتخلّص منه الآن» -اقترح المأمور- «ما عدنا نحتاجه. يرتعش أكثر ممّا يشتغل. وسيسوء الأمر إذا ما فقد عقله. ولا شكّ أنّ موته في القيد سيكون خيرَ مثلٍ وعِبرة».

«لا» -قال كورونيل- «لا يصحّ ضرب المثل بتعيسٍ بائس».

«بل هو انتهاز لفرصة وحسب» - ألحّ.

«قلتُ أطلِقوا سراحه!» - قال كورونيل حازماً. كانت شفتاه الغليظتان ترتجفان من الغيظ.

بدا الرجالُ مستغربين.

وبعد برهة، خرج كاسيانو خارا من الكوميساريّة يترنّح، وقد تخشّب جسمه، بعد خمسة عشر يوماً من القيد، واحترقت رقبته من الطوق الخشبي. ثمّ راح يقلّب عينيه اللتين كواهما الضياء.

.16

يخطر على بال كورونيل، أحياناً، أن يضرب على أوتار الغيتار ويدندن ببعض أغاني البولكا ليتذكّر «ما مضى».

في تلك الليلة نزل عليه الوحي. راح يعصر غيتاره وتعتصر ذاكرته لإخراج أغنية جديدة، بدا عليه أنّه غير متأكّدٍ منها.

واجتمع چاپارّو وبقيّة المساعدين للاحتفال بعودة الپاترون، وراحوا يستمعون إلى دندنته، بين متملّق ومتندّر. بدأ چاپارّو يجترّ، مازحاً، حادث الراهب والمينسو الذي فقد صوابه في محبسه، مسربلاً بأغلاله. كان واضحاً سعيُه إلى تجاوز مرارة ما وقع له عصراً، وتطبيع علاقته بالپاترون. لكنّ هذا كان في شغلٍ عنه، يغالب غيتاره.

وراحت قارورة العرق تدور في حلقة الشاربين الذكوريّة، عند الرواق.

في الخارج، اهتزّت العتمة من أثر وابلٍ من المطر.

قال كورونيل:

- اسمعوا هذه الأغنية، أيّها الفتية! أغنية جديدة تعلّمتها في بيّا إنكارناثيون. جديدة. إنّهم يغنّونها هناك. وهي تتكلّم عنّا.. أنشودة المينسو. لم أحفظها بعد جيّداً، لكنّي سأجرّب، فربّما تذكّرتُ شيئاً منها:

...كفاك، يا رفيقي، كفاك
أن تحطّم قلوبنا وتقسو عليها...

تمتم الصوتُ المخمور، مثقلاً بالحزن. فهل تذكّر المُنشد أيامَ شبابه؟ هل شعر بموته في حياته؟ هل أحسّ بأنّ في حياته من الموت والضياع ما يفوق ما في حياة المينسو منهما؟ لقد ظلّ يعود إلى قفل الأغنية، المرّة تلو المرة، كتلميذ كسلان يراجع درسه، فيمزج الكلمات الناقصة أو الزائدة في ثنايا لحنه.

«إنّهم يروّجون لنا!» -قال چاپارّو- «لتشجيع السياحة إلى مزارع المتّة!».

ضحكوا مقهقهين. كان كورونيل يتصبّب عرقاً ويصرخ من فوق مقبض الغيتار، باحثاً عن وزن أنشودة المينسو، بين تجهّم وزفرات، فكأنّه يهمّ بالبكاء.

ثمّة امرأة تتأمّل الجالسين، وقد أسندت كوعها على النافذة. تستمتع بالغناء. شعرها الطويل ينساب على كتفيها، ووجهها غير ظاهر. يرسل أحد المصابيح بظلّها حتى يصل إلى أقدام الرجال، الذين كانوا ينظرون إليها، من حين إلى آخر، بطرف العين، دون أن يجرؤوا على ما هو أكثر.

اختفت.

وضاع الغناء المهلهل في الظلمة التي شابها المطر.

أن تحطّم قلوبنا وتقسو عليها...

جثا كاسيانو، تحت ظلّة السعف، وحمل الطفل. اعترته رعشة وهو يضمّ فلذة كبده النابضة النائمة إلى صدره. تلك الفلذة التي أجهضت محاولته الأولى للهرب وحشرت رقبته حشراً في الأغلال. «لم أرد أن يولد هنا».. لكنّه وُلد هنا، في أعماق مزرعة المتّة، مثل تلك الأغنية التي أفلحت في الهرب، لكنّها تتردّد من جديد على لسانٍ فاحش بذيء.

بدأ الطفل يبكي. شدّت ناتي رزمة الأغراض استعداداً للرحيل. ربطت الرزمة ببطء، فكأنّ شعورين متضاربين يتنازعانها.

«هيّا بنا!» – قال كاسيانو يستعجلها.

– والمطر، سيّدي؟

– لا يهمّ! هيّا!

– لكنّ كريستوبال ما زال طفلاً صغيراً!

– سنحمله.. سنخرجه من هنا!

حنت المرأة رأسَها، وقد أصابتها عدوى حمّى أخرى تتأجّج في عيني زوجها الذابلتين بقوة تكاد تكون خارقة.

خرجا، واحداً بعد الآخر، كان هو يحمل الطفل بين ذراعيه، تتبعه هي ببطء. لفَّ ظلّهما المحدودب الحَذِر ودار طويلاً حتّى اختفى في الجبل. وبقي وراءهما صوتٌ ثملٌ يدندن:

نحن أيضاً لنا أمّهاتٌ
ويلدٌ على أرضه ولدنا!

.18

«كفى موسيقا وغناءً!» - قال كورونيل وهو ينهض.

نهض الآخرون أيضاً.

«سأعزف الآن على قيثارتي الأخرى» -أضاف الپاترون، وهو يتأمّل الواقفين أمامه، وعلى وجهه تلك الإيماءة التي تختلط فيها الساديّة بالبؤس، والتي تسمح لسنّ الذهب الذي في فمه بالإطلالة منها- «تعالوا، سأريكم البنت التي أتيتُ بها من إنكارناثيون!».

دخل، وبقي چاپارّو والآخرون عند الباب ينتظرون.

«فلابيانا!» - نادى.

خرجت، من الغرفة المجاورة، امرأة.

تقدّمت تتهادى بخطواتها. فستانها المورّد يلتصقُ بجسمها. شعرها الطويل الأسود يصوّرها أطول قامة وأضخم بدناً.

«فلابيانا، أريد أن يراكِ رفاقي. تقرّبي إلى هنا!» - أشار إلى مصباح تدلّى من السقف.

تقدّمت نحو الدائرة المضيئة، والبسمة ترتسمُ على فمها الكبير المكتنز، الخلاسيّ تقريباً. عينان سوداوان ما كانا يبينان من شدّة سوادهما.

«أمّا هذه فلا أخطئ فيها!» -تفاخر الپاترون- «فمفاتيحها حريريّة! وهي مدوزنة دائماً! أليس كذلك، فلابيانا؟» - لاطفها ومسّها بكرشه مداعباً.

«لا أدري» - قالت، وأبدت حركة تموّج لها شعرُها. كان صوتها يشبهها: دافئاً غزيراً مثيراً.

ظلّ الرجال المتجمّعون عند الباب بلا حراك.

– لنرَ. اخلعي ملابسك قليلاً! أريد أن يتأملوا محاسنك جيداً.

بدت جادّة. لم تُبدِ حركة. ظنّتْ أنّ الپاترون يمزح.

«اخلعي ملابسك، قلتُ لكِ!» -أمرها صوتُه المدوّي- «إنّهم موضع ثقتي. اخلعي ثوبك!».

شدّها بقوّة فانقطعت حمّالة ثوبها. نطّ نهداها من موضعيهما. انحنت الفتاة وقد غطّى شعرُها وجهها. سقط الثوبُ على طول جسمها حتّى توقّف عند وركيها العريضتين. وبهزّة سريعة وصل إلى الأرض حتّى غطّى القدمين الحافيتين. كانت، من تحت ثوبها، عارية تماماً.

.19

سار الاثنان طوالَ الليل بخطاً حثيثة.

كلّما سقط كاسيانو أعانته ناتي على النهوض، وشدّت من أزره، ودفعته دفعاً في تلك المسيرة المجنونة واليائسة، التي كانت تفتح طريقها في الغابة بين مسالكَ وبقعٍ جرداء.

راح ضياءُ الفجر يبتلع سوادَ الظلام، ويوقظ الأشجارَ النديّة، ويلوّن كِسَفاً من السماء حيث توجد سماء، ويفضح ذينك الخيالين، اللذين كانا يهربان يطاردهما الضياءُ الوليد، ويخوضان في الجداول الحمر التي خلّفتها الأمطار.

وبلغا فضاءً مفتوحاً، فسمعا صياح الديكة. تبادلا نظراتٍ امتزج فيها الأمل بالخوف.

– هل تسمع، كاسيانو؟

- نعم.. أسمع صياحها منذ حين، لكنّي لم أكن متأكّداً.

- من المؤكّد أنّنا قريبان من إحدى البلدات.

- كلا.. بقي الكثير أمامنا.

- وهذه الديكة؟

- لا أدري.

طأطأ كاسيانو رأسه، وقد أوشك أن ينهار. وأدركت ناتي حجم المصيبة. لقد اكتشفا، بعدما ظنّا أنّهما ابتعدا كثيراً، أنّهما كانا يلفّان ويدوران، طوال الوقت، غير بعيدٍ عن «تاكورو-پوكو»، فكأنهما رُبطا إلى مغزل خفيّ. وكأنّ سحراً مشؤوماً يشدّهما إليها شدّاً. وها هما يفهمان لماذا كان نباحُ الكلاب يختفي أثناء المطر ليعاود الظهور، بين الحين والحين، هنا وهناك. ومثل النباح هديرُ مياه النهر. وذلك الإحساس الغريب بأنّ الأرض هي ما كان يسير تحت الماء، وبأنّها تدور حول نفسها وتتمطّى، لكنّها لا تؤدّي إلى أيّ مكان.

كانت تلك هي الجزئيّة الوحيدة التي لم يستحضروها ساعة التخطيط، والشيء الوحيد الذي لم يخطر على بالهم أو يروه في أحلامهم.

وربّما كان في ذلك خلاصُهم، لأنّ ملاحقيهم سيفكّرون في مكان أبعد، مكانٍ يتجاوز الفرسخ، في رقعة لن يجرؤ «خويدو» هاربٌ على المكوث فيها. ولكن هناك الكلاب، والكلاب لا تُخدع بسهولة.

واصلا الجري على غير هدى ولا اتجاه، مخلّفين وراءهما الضياء المتصاعد والأصوات، مديرين ظهريهما إلى أصوات الأبواق المشؤومة التي تعلن للهاربين فجرَ نهايتهما.

غاصا في غديرٍ زاد مطرُ البارحة الغزيرُ من منسوب مياهه.

كانت المياه الموحلة تضطرب في الأخاديد الحمر التي خلّفها السيل.

تقدّم الهاربان صوب الجبل، وغاصا حتى رُكبهما في الوحل، وضيّقت المستنقعات عليهما الخناق، فما عادا قادرين حتّى على الاحتماء من لسع الحشرات التي كانت تطفو وفيرةً بين أبخرة الانبعاثات الأرجوانيّة. كانت ناتي تحمل الطفل ملفوفاً في عباءتها المهلهلة المنقوعة، بينما راح كاسيانو يسير أمامها ليفتح لها بحربته الطريق بين القصب والنجيل.

«إنّه مستنقع!» - قالت ناتي شاكية، وهي تتنبأ بغور لن يلبث أن يبتلعهم ثلاثتهم.

«لا.. هناك رمل تحت» - كذب عليها وهو عالم بالحقيقة، ليطمئنها.

توقّفا ليستجمعا أنفاسهما، بالقرب من جزيرة، برزت من بين أحراجها شجيراتٌ وأعشاب. راحت ناتي تجتثّ بعضها. نظر إليها كاسيانو مستغرباً، وهو غارق حتّى خصره في ماء المستنقع المُنتن الراكد.

«هيّا بنا!» - قال.

- هذه جيّدة لعلاج جروحك.

من بين أحراج الجزيرة الصغيرة، صدر صوتٌ شبيهٌ بصوت حلقاتٍ عظميّةٍ تتحرّك في غلافٍ من قرون. نظر كاسيانو وناتي كلٌّ إلى الآخر.

«أفعى الجرس!» - تمتما معاً.

اقشعرّ بدناهُما من طقطقة الثعبان التي جلدتهما بسياط الخوف. عافا استراحتهما المؤقّتة، ورفعت ناتي طفلها، لا شعوريّاً، لتحميه من لدغة الأفعى. إنّهما يشاهدانها تنطّ عليهما في الهواء. حاول كاسيانو أن يرفع قدميه من مصيدة الوحل، لكنّه تزحلق وسقط واختفى.

لم ترَ ناتي، للحظة بدت لها دهراً، منه غير فقاعة أو فقاعتين، سرعان ما

انبجستا ضعيفتين واهنتين. تقدّمت خطواتٍ وخاضت في الماء الهلامي، محاولةً ألّا يصل الماء إلى الطفل، وظهر كاسيانو مترنّحاً، وقد علاه الوحل الداكن، وراح ينفث الطين الأسود من أنفه ومن فمه.

«هيّا! هيّا!» – همهم، بين تهوّعاته.

ابتعدا صوبَ طرف الجبل، خائضين في الماء الأسود، يطردان بخارَ المستنقع الأحمر الثقيل، الذي راح يطمس معالمهما بضربات فرشاة رماديّة.

انغلقت المياه، شيئاً فشيئاً، على مسبحة الفقاعات التي تفجّرت بهدوء فوق الوحل. لم يبقَ بالقرب من الجزيرة الصغيرة غير فسائل لسان الحمل التي باتت عصفاً مأكولاً.



20.

راحت الكلاب تدورُ حول حطام السقيفة. تهرّ، وهي مربوطة بالأرسان، وتشمّ وتنهش بقايا المنزل الصغير الذي هدّته أعقابُ البنادق والركلات.

لقد بدت أقربَ إلى خنازيرَ هزيلةٍ جائعة تبحث في بقايا وليمة اكتشفت أنها خادعة، فانقلبت إلى كلابٍ شرسة تنطلق وراء طريدةٍ لن يخطئها شمّها، فسرعان ما ستملأ رائحتُها أرجاء المزارع. دعكَتْ أنوفها الممغنطة بالأسمال والخروق المتناثرة على الحصيرة، التي استخدماها مهداً للطفل، وشمّت صحناً فخارياً هنا، وقدراً مثلوماً هناك، بينما هي تهرّ وتشمّ آثاراً راحلة وأجساماً غائبة، ممدودة هناك كالأوتاد، تتجسّد من جديد، أمام

شراهة تلك الأحداق العنبريّة التي تطلق شررها المتعرّج فوق تلك الأرض السوداء النديّة.

فوق سلاسل الأرسان، التي تورّمت منها أيدي المساعدين وازرقّت، بدت الوجوه متورّمة ومزرقّة أيضاً. خصوصاً وجه الپاترون، الذي قلّتْ ساعاتُ نومه، وطالَتْ ساعاتُ شرابه وعربدته. لقد جنّ جنونه إذ علم بفرار ذلك المينسو الذي كان هو من أمر بإخراجه من الحبس، ومنحَه فرصة أخرى للحياة.

نظر إليه خوان كروث چاپارّو بطرف عينيه، في إيماءة تشفٍّ وتعالٍ.

بعد أن تعب من الصراخ لاعناً رجاله شاتماً، ظلَّ آغيليو كورونيل واقفاً على ساقيه القصيرتين، في صمت غاضبٍ لا يبرحه إلّا لقذف بصقةٍ صفراءَ على أطلال السقيفة المهجورة. يبصق أيضاً في الهواء وهو يتطلّع في ما حوله. بريق سنّه الذهبيّة لا ينطفئ. يكشف عنها، متعمّداً، لتجفّ في الهواء بمطّة غامضة من فمه. فقد اعتاد القولَ، حين يكون رائق المزاج، إنّه يستطيع، حين يشاء، أن يبثّ، من على غطاء سنّه الذهبيّ، إشاراتٍ تشبه إشارات التلغراف. لكنّ مزاجه الآن غير رائق، مع ذلك، يلاحظ عليه أنّه ينتظر أن تصدر إشارة ما على مورس نابه.

«ماذا تنتظرون أيّها السفلة؟!» – صرخ فجأة صرخة مدوّية.

هبَّ المساعدون يجرّون كلابهم. وأصدر لهم أوامره العاجلة، بين كلابٍ تنبح وأخرى تهرّ: «تعقّبوا آثارهم باتجاه الجنوب! على امتداد ضفة النهر! مؤكّد أنّهما سيحاولان عبوره! وليذهب أحدكم إلى مورومبي ليبلّغ جميعَ مراكز الداخل! أنتَ، لوبيرا! هيّا.. انطلقوا!».

– أمرك سيّدي!

ركض الرجال صوب الكوميساريّة، حيث الخيول مسرجة وجاهزة.

«ليغي!» - صاح چاپارّو.

توقّف رجلٌ يعتمر قبّعة كبيرة فجأة، واستدار نحو مصدر الأمر.

- نحن سنذهب ناحية معبر مونداي!

«أمرك، سيّدي!» - ردَّ ذو القبّعة، فخوراً بما اعتبره امتيازاً له. تلفّظ كلماته بصعوبة، لأنه مشقوق الشفتين.

«سأعلمكَ لاحقاً، سيّدي!» - تمتم چاپارّو، وهو يمرّ من أمام الپاترون.

لم يردّ عليه هذا، وعاد ببطء نحو الإدارة.

وما هي إلا برهة حتّى كانت نواحي «تاكورو-پوكو» كلّها تهتزّ تحت سنابك الخيل ورصاص البنادق ونباح الكلاب.

في الكوميساريّة، كانت عنق أحد الحرّاس مغلولة بين لوحتين. فقد ترك حراسته وتقرّب سرّاً من الإدارة ليتطلّع، من خلال النافذة، إلى فتاة «إنكارناثيون» العارية.

وها هي ذي الآن تخرج إلى الممرّ، منتفخة العينين، تتمايل كالسكرى، وقد غطّى شعرها المتشابك وجهها، بعد أن أيقظها الضجيج الذي ما كانت تعرف سببه.

.21

لكنّ الكلاب لم تتجه صوب الجنوب، بل اتجهت صوب الشمال، تتعقّب خُطا الهاربين التي أضاعاها وهما يدوران، كما يدور الأعمى، حول البلدة.

ظلّ الحرسُ مشوّشين حائرين. فكلّ شيء يسير على غير ما كانوا ينتظرون. شيء ما يحرف الكلابَ عن مسارها. وصلت الكلابُ حتى هور المياه الموحلة، التي زاد المطر من منسوبها. هناك ضاع أثرُ الهاربين بين روائح الأبخرة النتنة. عاودوا الكرّة. بل ضربوا الكلاب بالسياط ليقودوها جنوباً ويواصلوا البحث في مناطق أبعد وأبعد، وصولاً إلى الجبال والمستنقعات.

لم يعثروا للهاربين على أثر في أيّ ناحية.

.22

داخل تلك الأجمة، كان النهرُ ينتهي في جدول صغير. قطعه كاسيانو وناتي سيراً، لكنهما لم يعثرا على أيّ مكانٍ آمن. وفي النهاية، توقّفا في منعرج من نباتات مائيّة متشابكة، فقد تمكّن الإعياء من كاسيانو، بعد المجهود الخارق الذي بذله.

جلسا على كومة من جذور شجرة الإنغا، دون أن يُخرجا قدميهما من الماء المحجوز بين الضفتين الطينيّتين. كانت كأس الشجرة المنحنية تنشر فوقهما قبّةً من أوراقٍ تصبّ عليهما قطرات الماء. بدأ الطفل بالبكاء، فكأنّ بكاءه يصدر من بئر، فبدأت ناتي ترضعه، وهي ما زالت تلهث.

في تلك اللحظة، سمعا نباحاً قادماً من بعيد، من الطرف الآخر من الهور. بين الجذور السود الدبقة ومجسّات ثعبان الأناكوندا، راح كاسيانو يرتعش ويهذي، وقد صكّ أسنانه، تحت غيمة من بعوضٍ وذبابٍ، كانت ناتي تجاهد في طردها. حتّى الطفل كان ينظر إليه ساكناً، فكأنّه يشفق عليه.

- سيمسكون بنا!

«إنّهم ينصرفون، سيّدي!» - تمتمت هي، مضطربة.

- سيمسكون بنا.. آجلاً أم عاجلاً.

بدأ النباح يبتعد. سمعاه مرتين متباعدتين، صادراً من اتجاه واحد. كانت الكلاب تواصل بحثها. ثمّ لم يُسمع نباحٌ غير الذي صوّره له هذيانه وهو يتلوّى من برد نوباته وحرقة ارتعاشه.

- الكلاب! سمعتُ نباح الكلاب! ما أفظعه!

ضمّت ناتي طفلها إلى صدرها، وضمّت زوجها، وهي تحاول أن تمنحه الدفء في عقر مغارة الأوراق الرطبة تلك، التي ألهبتها شمسُ منتصف النهار التي ما زالت محجوبة عنهما، فقد كان البخار المتموّج يطفو على العتمة.

حين فارقته الحُمّى، أحسّ كاسيانو بالجوع. أخرجَتْ ناتي من زوّادتها شريحة من اللحم المملّح وناولته إيّاها. أبعدَ يدَها عنه، في حركة نفور غريزيّة، وفرك معصميه مرتعباً.

- إنّها شريحة لحم مقدّد وحسب، سيّدي!

تناول قطعة اللحم اليابس، وبدأ يلوكها، غير راغبٍ، أوّلاً، ثمّ برغبة وشهيّة، على الرغم من شفتيه المشقوقتين المتورّمتين. ثمّ أكلا كلاهما من ثمر الإنغا حتّى شبعا.

انحنى كاسيانو، وقد استردّ بعض قوّته، على الماء الموحل. ظنّت أنّه يريدُ الشرب، لكنّه أخرج من العمق حفنة من الرمل، وطلب من ناتي أن تمرّخ بها جروح ظهره، التي راح البعوض يعتاش عليها. لطّخ جسمَه كلّه، من رأسه حتّى قدميه، بطبقة منفّرة من ذلك الطين. ثمّ أخذ الطفل

منها لتستطيع هي أيضاً أن تلطّخ بدنها بالوحل. لكنّها هزّت رأسها قائلة: «ملابسي تكفي».

«لا أفعل هذا لطرد البعوض وحسب» -قال- «فالطين جيّد أيضاً لطرد الكلاب.. فهكذا لن تشمّ رائحتنا».

بدا وكأنّه تعافى من تلك النوبات التي كانت تغيّبه، بين الحين والحين.

عندئذٍ انحنت ناتي فوق الماء وأخرجت الطين المنتن، وراحت تنشره على ملابسها ووجهها وذراعيها وساقيها، وكأنّها تردم بالطوب جداراً مبنيّاً بالعصيّ. لم تترك من جسمها إلا ثدييها.

بدوَا زنجيّين متنكرين للمشاركة في مهرجان «سان بلتازار». أسودان، ذكر وأنثى، متنكّران، ومعهما طفلٌ أبيض، سرقاه لأجل المهرجان.

«علينا أن نواصل المسير» - قال وهو يعيد الطفل إلى ناتي.

«ولكن، إلى أين؟!» - سألت كالمصدومة.

ولم يكن كاسيانو هو الآخر يعرف. فقد كان يجهل تماماً موضعهما. ذلك الجدول ربّما هو أحد روافد «بارانا». لكنّه قد ينتهي في بحيرة أو مستنقع أو أيّ مكان.

أبعد كاسيانو حاجز الأوراق، ونظر إلى اتجاه الشمس، فرفَّ جفناه لسطوعها.

«الشمس تميل إلى تلك الجهة» -تمتم وهو يشير إلى الاتجاه المعاكس للجدول- «سنواصل الطريق غرباً. فقد يقودنا إلى مونداي. فضفة بارانا تخضع لمراقبة شديدة. لنذهب عبر الجبل».

اختنق صوته. مع الضياء، عاوده خوفٌ ضيّقَ على صدره وكتم على أنفاسه.

«هيّا!» – تمتم.

برحا الملاذ وتوغّلا في الغابة. شخصان يثيران الشفقة، يغطّي وجهيهما قناعٌ من طين نتن، يحرّكان بياض عيونهما في كلّ اتجاه، بحثاً عن ثغرة ينفذان منها. رجلٌ يسير مترنحاً في المقدّمة، وفي يده حربة طويلة يحرّكها، وامرأة تسير خلفه، تحمل بين ذراعيها فأرة آدميّة، ساكنة ساكتة.

.23

فكانا، إذاً، رجلاً يجاهد لحمل حربته وامرأة تجاهد لحمل طفلها، يحاولان للمرة الثانية المستحيل، ويسعيان سعياً صوب مغرب الشمس.

لم تكن الأحراجُ ما يعطّل سيرَهما، ولا التعبُ ولا الجوعُ ولا العطشُ ولا الهزالُ ولا الإحباط تلو الإحباط. ما كان يصعّب عليهما الهربَ ويثقل خطواتهما هو الخوف، ذلك الخوف الذي له عيون حادّة تبصر وآذان مرهفة تسمع، الخوفُ الذي ينمو في داخلهما ويفيض عليهما. كانا يخوضان في مياه هور مليء بالهواء الخانق، وبالجزر الصغيرة المسكونة بأفاعٍ لذنَبها العظمي هسٌّ وجرس. يغذّان السير عبثاً للتخلّص من أفخاخ المستنقعات. الخوف. خوفهما هما هو ما يريانه محيطاً بهما؛ صورُ خوفهما. يسيران بعيون يقظة مفتوحة، لكنّهما يعيشان كابوساً. تظهر صورة الباترون أمامهما فجأة، على حصانه الرمادي. تظهر وتختفي، مع تمايل الأعشاب واهتزازها، بسنّ الذهب تلك، الوحيدة الفظيعة، التي تبرق من تحت قبّعته. وقد يتصوّران المأمور كوروسو، راكباً على ظهر حصانه الأشهب. أو المساعدين، وهم يحلّقون بخيولهم فوق المياه الداكنة، أو

يعبرون الجبال بين رصاص المسدّسات أو خراطيش البنادق. قد تختلف تهيّؤات الاثنين وتتباين، لكنّ الرعب هو نفسه، وكذلك المصير.

تتبعه المرأة، وبين ذراعيها لفافة يصدرُ منها، بين الحين والحين، صراخ. وبين الحين والحين يجلسان على الأحراج. يستجمعان أنفاسهما، وكلٌّ منهما يتحاشى النظرَ إلى عيني الآخر، لأنّ الفزع، هكذا، سيتضاعف، والخوف سيزداد. ثمّ ينهضان ويواصلان مسيرهما، الذي لا تبدو له نهاية.

ساعات وساعات، طوال يومين وليلتين، انقضت منذ أن انطلقا يجرجران ذلك الكابوس. لكنّهما ما عادا يذكران البداية والمنطلق. فربما بدأ هربهما منذ الأزل. وما عادا يعرفان ما إن كانا يبتعدان حقاً أم إنّهما ما زالا يلفّان ويدوران، كما يفعل الأعمى، حول البلدة الميّتة، حول فوهة بركان تغطّيها الغابة، مع تلك الديكة التي تبدأ فجأة بالصياح. ديك فوق كلّ قبر.

.24

تقدّم خوان كروث چاپارّو بخطاً سريعة، يتبعه المساعد ذو القبّعة الكبيرة. مشّطت عينُ الأعور الأعشاب التي تغطّي دربَ الغابة.

«لا بدّ أنّهما اجتازا الپارانا» -قال الحارس ليغي، مستاءً- «لن يفكّر أحدٌ بالمجيء إلى هنا. لماذا لا نتجه نحو لاس پالماس، سيّدي؟».

«لا تستعجل، يا رفيقي!» -تمتم المأمور، من دون أن يبعد نظره عن الأوراق المتعفّنة التي تغطّي أرض ذلك الدرب- «يبدو أنّ هناك آثاراً جديدة».

«لا أرى شيئاً» - قال المساعد.

- فعليك النظر، إذاً، أيّها البائس!

- كان علينا، على الأقل، أن نُحضر معنا ليون.

ها هم أولاء يسمعون ولولة مكتومة. تبادل الرجال النظرات وأصغوا.

«يبدو بكاء طفل» - قال ليغي، وهو يقذف برشقة من اللعاب من بين شدقيه.

ولكن، ومع سماع الولولة تقريباً، سُمع زئيرُ فهدٍ صفيري، فكأنّه جاء من المصدر ذاته ليغطّي على الولولة ويطيلها بجرس شديد متوحّش.

«فهد! هو فهد، إذاً!» - هتف المأمور، وهو يخرج مسدّسه من قرابه ويتجه نحو مصدر الزئير.

.25

من مكمنهما بين الأشواك، كان الرجل والمرأة، بوجهيهما المعفّرين، المضطربين المرعوبين، يسمعان أصواتَ مطارديهم وزئيرَ الفهد.

كمّمَتْ ناتي بثديها فمَ الطفل. فها هما ذان يستطيعان، من مكمنهما، رؤية الفهد متربّصاً على فرع شجرة إنغا، يهرّ ويكشّر عن أنيابه، مستعداً للانقضاض عليهما في أيّ لحظة.

إنّهما واقعان بين نارين، بين وحشين، وإن فضّلا، لو خُيّرا، أن يموتا بين فكّي الفهد.

تبرق العيونُ في ظلمة الأوراق المتشابكة. تنتفخُ خاصرتا الوحش وتنخفضان بعصبيّة، والوحش يهشّ عليهما بذيله القصير ذي الحلقات.

تنتقل الحدقتان الفوسفوريتان لتركّزا نظراتهما، التي تضمر الشرّ، في الفرسان. ويكتشف المأمور الفهد، فيتحرّك بحصانه، فيرتاع هذا بعد أن شمّ رائحة الوحش.

«هيّا، أيّها البائس!» - همهم المأمور وغرز مهمازه في بطن حصانه.

سحب مسدّسه. صوّب بعينه الرمادية، التي بدا أنّها تقرّب له الأجسام. حين خرج الفهد من مكمنه، أطلق النار عليه. سقط على بعد خطواتٍ من حصان المأمور، بعد أن أصابته الرصاصة في رأسه. رفس رفسةً أخيرة ثمّ سكن جثة هامدة، بينما ظلّت مخالبه ترتجف، متشبّثة بالهواء.

«يا إلهي!» -هتف ليغي مستحسناً، وهو يقترب ويبصق على الفهد الميّت- «لو أنّك أخطأتَ لانقضّ علينا ومزّقنا!».

«أنا لا أخطئ أبداً.. اربطه: سنأخذه معنا!» - أمر چاپارّو، وهو ينفخ في فوهة مسدّسه مزهوّاً. لقد غنم فهداً، على الأقل.

تترجّل القبّعة الكبيرة ببطء، والرجلُ النحيف من تحتها. يقترب من الفهد ويمسّه مسّاً، فكأنّه جمرة يخشى أن تكويه، وهو في غفلة عنها.

«يا لك من جبان، أمسكْ به!» - صرخ به المأمور.

خفَّ المساعد، فكأنّه ضُرب بسوط. سحب الوحش، الذي تلطّخت قوائمه بالدم، ورفعه، وربطه إلى رأس السرج. سقطت العارضة، فربطه بالحبل. ربط الفهدَ، بغضب، عدة مرّات، وهو يضربه، تنفيساً عن إهانة المأمور التي أصابته في الصميم. وهكذا علّق جثة الفهد إلى جانب الحصان، مثل قطعة نقانق كبيرة، لا يتحرّك منها غير الرأس.

«هيا، ليغي!» - صاح به چاپارّو ثانية، وهو يستدير نحو مكان المأثرة السهلة ويعود إلى درب الغابة المتعرّج، الذي ينتهي في الجبل.

امتطى المساعد حصانه وهمزه، فنطّ المسكين في قفزة عكست غضباً مكتوماً في فارسه. بينما راح رأس الفهد المزروع بالأنياب يتمايل، وهو يقطر دماً على عجز الحصان.

.26

ظلَّ كاسيانو وناتي في مكمنهما، مشدوهين ذاهلين من لعبة القدر الغريبة تلك. قدرهما. لقد اختبر كلٌّ من الفهد والمأمور قوة الآخر وتقاتلا لينجوا هما. هذا ما شغل بال ناتي وهي تُبعدُ يدها التي كانت تكمّمُ فمَ الطفل فتوشك أن تخنقه. لكنّ بكاء الطفل أعادها إلى الواقع. عادت هي إلى الواقع، أمّا هو، فبدا وكأنّه عاد إلى الشرود، فقد راح يهذي بكلام يخرج غزيراً من فمه. أمّا عيناه فكانتا تبرقان، وقد كدّرهما لون التراب لا الحمّى. نظرت إليه، مشفقةً عليه، وهي تُرضع طفلها. فكّرت أنّ ما به لن يلبث أن ينقضي. إنّه رماد الموت الذي سقط على روحه.

«هيّا، ناتي، عجّلي!» – تمتم، وفي عينيه ذلك الضوء المنطفئ.

– ماذا تقول، سيّدي؟

– سيتحرّك القطار!

«أيّ قطار؟» – قالت بصوت مرتعش ملؤه الحزن.

– غداً تسقط أسونثيون!

– كاسيانو!

«سنهاجم بكلّ قوتنا!» – واصل الصوتُ الأجشُّ المجنون الصادر من بين الشفتين المهشّمتين.

«نعم» – لم تجرؤ على مجادلته.

– سنقاتل من أجل قطعة صغيرة من الأرض! من أجل أرضنا!

– نعم...

«لكي لا يواصلوا العبث بمقدراتنا!» –كان حماسُه يهزّه هزّاً– «ها هم قادتهم! فلنسحقهم!».

اقتربت ناتي من كاسيانو وضمّت وجهه الترابي البائس، فانهار على كتفها.

.27

عند منتصف الليل، بلغا النهر. ألقيا بنفسيهما على الضفة وراحا يعبّان الماء عبّاً، وكأنّهما حيوانان. تعرّفت ناتي على المنطقة الضحلة من «المونداي»، وكانوا قد اجتازوها نهاراً صوب المزرعة. تذكّرت كلمات كاسيانو. لن نبقى هنا طويلاً... وما زالت لا تدري ما إن كان أصاب.

أذاب الماءُ قناعَ الوحل. راح الوجهان الميّتان يستعيدان مسحتهما الإنسانيّة. حمّمت ناتي طفلها، في المكان ذاته الذي مُنعا هما فيه قبلُ من الاستحمام.

ها هو ذا كاسيانو يتأمّل ولده صامتاً. ينظر إلى الطفل ولا يقول شيئاً.

أوقدت ناتي النار بعد أن جاهدَتْ طويلاً مع أعواد الثقاب المبلولة. أخرجت علبة من صُرّتها، وعملت لبخة لعلاج جروح كاسيانو. كانا في أحد أطراف المنحدر، لكنّها كانت تتحرّك وكأنّها في مطبخ كوخها. تناولت الحربة وخاضت في الماء حتّى وصلت إلى نبتات من ذرة الماء.

أكلا بصيلات الزنبق، ثمّ نام الثلاثة متلاصقين، تحت سقيفة من أغصان صنعتها ناتي.

.28

عند الفجر، استيقظَتْ مفزوعةً على صوت ارتطام حديد بحديد.

ظنّتها سروجَ الخيل. نظرَتْ من خلال الأغصان، فرأت ثيران عربة تشرب من المخاضة. كانت نقرة المنخس تتحرّك فوق النير فتحرّك الأطواق.

نهضت ناتي واتجهت إلى الحوذي، وطلبت منه أن يحملهم معه، إن كانت وجهته إحدى البلدات. لم ترَ وجهه للوهلة الأولى، فقد كان جالساً في مقدّمة العربة الفارغة، شبه نائم، وقد غرس ذقنه في صدره. كان عجوزاً مجعّد الوجه ثقيل السمع، حتّى لقد اضطرّت إلى أن ترفع صوتها لكي يسمعها: «أين وجهتك، يا والدي؟».

فهمت من العجوز أنّه ذاهبٌ إلى «إيتاكوروفي». نطَّ قلبُها من صدرها. إنّها في الجبل، ليس بعيداً عن سابوكاي. ولكن، ربّما ذكر العجوزُ لها اسماً آخر. فكلماته غير مفهومة، وصوته يبدو أكبر سنّاً منه. كان يبدو أقرب إلى قرقرة ريح أو بقبقة ماء في كهف في الجبل.

«نحن اثنان.. أنا وزوجي.. وولدنا الصغير.. هل يمكنك حملنا؟» – سألته بالصراخ.

هزَّ العجوز رأسَه بلطف. نظرت إلى عينيه، فوجدتهما طافحتين بحيويّةٍ لا تناسب تلك التجاعيد، ولا ذلك الصوت الذي بدا صادراً من حفرة، ولا

ذلك الخمول الذي بدا مقيماً في أعضائه منذ مئة عام. لم تحفل ناتي بتلك التفاصيل، المهم أنّ العجوز ترك في نفسها انطباعاً حسناً، إذ لم يكن يحمل وسم المزرعة، وكان ذلك حسبها.

عادت لتوقظ كاسيو، الذي كان ينتظرها جاثياً، خلف السقيفة.

- هيا بنا، سيّدي!

حملت الطفلَ، وتبعها كاسيانو، وديعاً طائعاً، وهو ما يزال يترنّح. ساعدته على الصعود. ثمّ عادت لتأتي بالحربة. فكّكت السقيفة وحملت معها حزمة الفروع التي صنعت منها فراشاً لكاسيانو.

في تلك الأثناء، كان العجوز قد فرش جلد بقرة فوق الأوتاد ليكون بمنزلة مظلّة. لم تره ناتي وهو يفعل ذلك، فحسبت أنّه فرشه حين كانت هي تهدّ خيمتهما الصغيرة. وربّما كان الجلد هناك منذ البداية ولم تره. إذ لم يبدُ على العجوز أنّه تحرّك من مكانه.

.29

تسلّقت العربة المنحدر، فعَلا صريرٌ حادّ من عصيّ المحور. كان الثوران هزيلين. أحدهما مبقّع مرقّش، والآخر داكن غامق. يتحرّكان بخطا وئيدة، ولكن بنشاط، فتنساب الحقولُ والجبالُ والسهولُ من تحت قوائمهما. غيّرت عصيّ المحور من نبرة صريرها عند الصعود حتّى باتت صياح صقور.

درجت العربة ثلاثة أيام على الطرقات، وهي تعزف نعيق الطير الجارح ذاك، في المحور، والطنطنة، في الطوق الذي لم يهمز متن أيّ من الثورين.

ما كانت العربة تتوقّف إلا لكي يشرب الراكبون والحيوانات من النهر، ويقيلوا تحت الأشجار، وينال هؤلاء وأولئك قسطاً من الراحة، بين منتصف الليل حتّى الفجر. لكنّ العجوز لم يكن يبدي ما يدلّ على نعاس أو جوع أو تعب. بل لم يكن يتكلّم. لم تسمع ناتي صوته طوالَ الرحلة. كانت تنظر إليه، من حينٍ إلى آخر، فتجده قريبَ الشبه بالجد المرحوم، ربّما لأنّها كانت تنظر إليه بعيني كاسيانو. فقد كان انجذابها إليه وفتنتها به في ازدياد.

وهكذا باتت تلك الرحلة في نظرها حلماً آخر، فقد أمضت معظم الوقت غافية، تهدهدها العربة، بين ذينك الصوتين الرتيبين المختلفين، وذينك الصمتين الغريبين المتباينين: صمتِ العجوز الجالس في المقدّمة، وصمتِ كاسيانو المنكفئ على وجهه فوق الأغصان، يتأمّل الأرض التي تمرّ من تحته، من خلال فرجات الألواح.

من جوانبِ جلد البقرة، كانت تتأمّل مسارَ السماء، صافيةً أو ملبّدة، وهي تغيّر لونها مع تغيّر الضياء. فتتصوّر نفسها، أحياناً، والثلاثة الآخرين معها، موتى محشورين في صندوق العربة. يبكي الطفل من الجوع فتعطيه ثديها، دون أن ترفع رأسها، ودون أن تكفّ عن التطلّع إلى تلك السماء التي تسير فوقهم، تتأرجح بين انبساط الطريق أو اهتزاز العربة.

صعدوا وهبطوا، في تلال «الكاغواسو» الحمر. وفي فجر اليوم الرابع، مدَّ العجوزُ ذراعَه، ونهض كاسيانو وناتي. فقد بدت لهم، من بعيد، طلائعُ وادي سابوكاي، والربوة الخضراء في وسطه. لمحوا البلدة على طرف خط السكّة. ورأوا أنقاض الخرائب وقد اسودّ لونها، وحطام القاطرة الثوريّة، والثغرة التي أحدثتها القنابل، يتحرّك فوقها رجالٌ صغارُ الحجم كالنمل.

أشار إليهما العجوز أن يترجلا، فبدت ناتي وكاسيانو متلهّفين لتقديم الشكر له.

واصلت العربة مسيرها واختفت في منعرجٍ من الطريق.

نزلا إلى البلدة. سار كاسيانو في المقدّمة كالمذهول، والشمسُ تلسع ظهرَه المزروع بالجروح. لم يلبثا أن بلغا البيوت. كان الناس ينظرون إليهما بعيون مرتابة، وهما يمرّان من أمامهم.

«نحن ذاهبان إلى كوستا دولتي.. إلى بيتنا!» - قالت ناتي، موضحة.

لم يبدُ على كاسيانو أنّه سمعها. كان يسير، وقد تخشّبت ساقاه، وأرهقه هاجسٌ انحشر في رأسه كشظيّة قنبلة. هاجسٌ بدأ يفعل فعله في آخر أيامه في المزرعة.

أمّا ناتي، فكانت تتطلّع إلى البريق الشارد في عينيه. تبعته طائعة. في نهاية طريق مقطوعة، بين أشجارٍ حصدتها رشقاتُ الرشّاشات وأحرقتها، توقّفت عربة قطار لم يصبها ضررٌ جسيم كالأخريات.

صوبَ تلك العربة توجّها.

الفصل الخامس

البيت

.1

بعد مسيرة طويلة على الطريق المترّب المُحفّر، الذي يتلوّى بين مزارع القطن والقصب، وعلى مبعدة ثلاثة فراسخ تقريباً من البلدة، استدارت الشاحنة، على غير انتظار، لتدخل في طريق يؤدي إلى الأجمة، حيث معامل الآجر. كان ذلك بعد وقت قصير من اجتياز مصحّ الجذام. أطلّت وجوهٌ شاحبة من أطر أبواب الأكواخ الخالية من الأبواب، أو رفعت من الأرض رؤوسها المكسورة، تحت الأشجار، تصيح، مع مرورنا، بصوت خشن أجشّ: «أهلاً، كيريتو!».

لوّح كريستوبال خارا بيده لهم ردّاً على تحيّتهم.

«من هؤلاء؟» - سألتُه.

لم يردّ على سؤالي. بل لم يبدُ عليه أنّه سمعني. التفتُّ. رأيتُ عدداً من الصبية العراة، عظيمي البطون، يركضون خلفَ الشاحنة يغنّون ويصخبون بزقزقات عصافير مريضة.

راح الرجل القصير البدين، الجالس في مؤخّرة الشاحنة، يردّ عليهم بحركاتٍ مضحكة. ثمّ أخرج من الخُرج قطعاً من البسكوت، وراح يلقي بها إليهم الواحدة بعد الأخرى.

- خذوا، خذوا، أيّها الفتية!

ألقى الفتية المبطِنون بأنفسِهم على الأرض، جانب الشاحنة، وراحوا يتمرّغون في التراب، ويتنازعون قطعَ البسكوت.

بين الأكواخ، رأيتُ كوخَ الجذوع المدوّر الذي بناه، من سنين كثيرة، الطبيبُ الروسي الذي أقام مصحّ الجذام، قبل وقتٍ من هروبه الغامض. تخيّلتُه، من جديدٍ، وهو يتلقّى ضربَ الركّاب الغاضبين وركلاتِهم، قبل أن يلقوا به من القطار فيسقط على رصيف محطة سابوكاي الترابي الأحمر، بعد أن اتهموه بمحاولة خطف طفل صغير.

هناك منزله، الذي لم يمسّه أحد. ربّما اسودّ لونه من مرور الزمن على الخشب. لم يبقَ غير البيت، أمّا هو، فقد اختفى، ولا أحدَ يعلمُ شيئاً عنه. وربّما ظلَّ الأحياء من الناس، وبعد سنوات كثيرة، ينتظرونه ويتشوّقون لعودة ذلك الرجل المُحسن. آثار غيابِه ومظاهرُ انتظارهم عودته، تبدو واضحة في الحرمان الذي يعانونه، وفي الأطفال الذين يولدون ويكبرون بين بثور ودمامل، وفي بلدة البؤس، كوستا دولثي، التي راحت تنمو، خلف سابوكاي، مثل حدبة متورّمة بين أسمال الجبل.

أكاد أجزم أنّ في كلّ كوخٍ من تلك الأكواخ تمثالاً من تلك التي حطّمها الدكتور بالفأس قبل أن يرحل خفيةً، كما وصل.

اهتزّت الشاحنة، فردّني اهتزازُها إلى الواقع.

- يقولون إنّ المجذومين يذهبون أحياناً إلى احتفالات البلدة. فهل هذا صحيح؟

تجاهلني مرافقي مرّة أخرى. لم يسمعني.

قبل مصحّ المجذومين، المقبرة. رأينا امرأة منشغلة بقلع الحشائش من بين الصلبان. يساعدها فتى أشقر أزرقُ العينين.

صاح الرجل القصير البدين أيضاً: «مرحبا، ماريّا ريغالادا!».

واصلت الشاحنة سيرها الصاخب المتعثّر.

وأخيراً وصلنا إلى أرض مكشوفة بين أشجار جوز الهند. يبدو أنها موضعُ توقّف الشاحنة الاعتيادي، لأنّ الأرض كانت مُعلّمة، في جميع الاتجاهات، بآثار إطاراتٍ قديمة وجديدة. من الطرف الآخر من الجزيرة، رأيتُ خصّ القش، المسطّح والطويل، معملَ الآجر القديم، ورأيتُ الفرن الذي يُجفّف فيه الآجر، والرحى التي يُطحن فيها الرمل ويُنعّم. من حين إلى آخر ترتفع كتلُ الطين المتحجّر والمتشقق. أفزع وصولُ الشاحنة سرباً من البواشق التي كانت تقف عليها. تفرّقت، فعَلا صوتُ الهواء وهو يرتطم بخفق أجنحتها الواهن.

ما من دخانٍ ولا نارٍ ولا ضجيج. فقد باتت معامل الآجرّ في كوستا دولثي مهجورة من أثر الجفاف.

أطفأ المحرّك وترجّل بقفزة واحدة. أمّا الآخر فقد تدلّى كما يتدلى اليسروع من الورقة. غمز له كريستوبال خارا آمراً. وأفهمني، بالإشارة، أنّ علينا أن نواصل سيرنا على الأقدام.

«هذه نهاية الطريق؟» - سألتُ وأنا أشير إلى الشاحنة، وأتهيّب الحرّ.

«هذا هو نهر الكانيابيه» -أوضح الرجل القصير البدين- «ولا يمكن المرور».

انطلق دليلي. أخذتُ حزامي، وفيه مسدّسي، وكان قد أخذه منّي أثناء

الطريق. نظر الرجل القصير البدين إليّ بفضول. سألتُه، بينما كنتُ أربط الحزام: «وأنتَ؟ ألا تذهب؟».

«سأبقى.. للحراسة» - ارتدّ، فكأنّه ندم على أنّه نطق بما لم يرد؛ كان طبعه المندفع أقوى منه.

- تحرس ماذا؟

«أحرس.. الشاحنة!» - قال متلعثماً.

انطلقتُ في أثر الدليل ولحقتُ به، بعد أن عجّلتُ في خطاي. كانت تشقّقات الأرض الصلصاليّة، التي باتت بيضاء من طبقة ملح أحرقتها الانعكاسات والحشائش القاسية المتكسّرة بالغبار العالق فيها، تشير إلى قرب الماء وغيابه، في المساحة المائيّة المتبخّرة.

راح ظلّانا يتقلّصان تحت شمس منتصف النهار الخانقة، حتّى اختفيا تحت قدمينا: كانت قدماه حافيتين، أمّا قدماي فقد كانتا محشورتين في بسطال عسكري.

.2

كان قليل الكلام. وإن تكلّم، فعلى مضض. وأسوأ ما في ذلك هو الكلام بالقشتاليّة[3]. يردّ بمقاطع قصيرة، من دون أن تكفّ عيناه، المشغولتان دائماً بالنظر إلى أمام، عن التطلّع من خلال جفنيه اللذين خاطهما الضوء مثل ندبة كبيرة.

ما كنت أعرفُ عنه إلّا اسمه وشيئاً من حكايته الغريبة التي حكوها لي عن مسيرة عجيبة لقطارٍ دمّرت القنابل نصفه.

أثناء رحلتنا في شاحنة معمل الآجر، حاولت، بين المطبّ والمطبّ، أن أستدرجه في الكلام. أن أكسب ودّه بتلك الوسائل الصغيرة التي طالما نجحَتْ وأثمرت عن إقامة خطّ للاتصال بين البشر: طبطبة مجاملة، عبارة تودّد، سؤال غير مباشر. إلى أن تمكّنتُ من أن أسقيه من زمزميتي جرعاتٍ من الجعة. ولكن بدا أنّه يحتفظ بتعاونه لغرضٍ آخر. ما كان يفعل أكثر من أن يرسم، من حين إلى آخر، إيماءة طفيفة على فمه. لم تكن إيماءة سخرية، وإن كانت تبدو كذلك، بل ابتسامة مصدرها الصمت المتراكم فيه، الصمت الذي كان يجهله، وإن تغلغل فيه وغمره.

أقصى ما استطعتُ التوصّل إليه، حين قِلنا تحت ظلّ شجرة التابوبيا، عند ضفة الجدول، معلومةٌ عن القضبان الخشبيّة التي استُعملت لتحريك الماكينة المفكّكة، ماكينة الحديد والخشب. ضمّ يديه الهزيلتين وحرّكهما على الأرض، ببطء، ومن دون أن يفتحهما. بطء مقصود، يبعث على الضجر. فكّرتُ في شيء شبيه بالقطع النقّالة من الجسور العائمة. ذكّرتني تلك الجزئيّة برسوبي في امتحان اللوجستيّة، في سنتي الأخيرة في الكليّة العسكريّة. كان ربطاً غريباً في تلك اللحظة، بعد كلّ ما مضى من الوقت.

لكنّ تلك الإشارة إلى القضبان الخشبيّة قد تكون تفسيراً ابتدعتُه أنا. فحركاته كانت غامضة، وإيحاءاته مبهمة. كان، عند الكلام، يسند ذقنه على ركبتيه، وينظر دائماً بعيداً، إلى الضوء الخافت، الذي يتراقص فوق الأحراج.

«كيف؟» – حثثتُه.

«شيئاً فشيئاً» – قال؛ وبصعوبة انفرجت شفتاه.

– قبل كم من الوقت؟

نظر إلى أصابع يديه يعدّها. أتراه أراد أن يقول خمسة أشهر أم عشرة، خمسة أعوام أم عشرة، على طريقة الهنود في حساب الوقت، أم أراد أن يشير إلى حجم ما تتسع له يدا الإنسان من جهد وتضحيات؟

– وهل هذا هو المكان الذين نقلوه إليه؟

ظلَّ صامتاً، منكمشاً، يحكّ بأظافره باطن قدمه المنتفخ. ما من سبيل لسؤاله عمّا هو أكثر ممّا قال؛ وربّما لم يكن يعرف أكثر، بعد أن قال كلّ شيء.

بدا لي الجدول، حتّى من دون ماء، مانعاً لا يمكن عبوره: ولكن ليس بالنسبة إلى الشاحنة، ولا، بالطبع، بالنسبة إلى عربة القطار، ربّما حاولت عبوره من دون جسر من منطقة ضحلة.

– هل يجفّ الكانيابيه في العادة؟

– في مجراه الرئيس، لا. أمّا هذا فهو فرع من فروعه، ليس غير.

– لقد طال وقت الجفاف.

– فعلاً.

– ولهذا توقّفت معاملُ الآجر.

– فعلاً.

فوق السرير الرملي تتلألأ كِسرٌ من أحجار، وعظامُ سمك يغطّيها النمل.

فكّرتُ في مصير ذلك الجدول.

من مياه نهر كانيابيه يشرب المجذومون، وفي مياهه يستحمّون ويعومون. فهو علاج قروحهم الوحيد. هو المرآة الوحيدة التي يتطلّعون فيها إلى قبح وجوههم. والآن جفّ ماؤه؛ لكنّه لم يكن هكذا دائماً. يبحث

الرافد عن مجرى الماء الرئيس. ثمّ ينزل الجدول بهدوء صوب بلدات أخرى. في متعرّجاته ومنعطفاته، يشرب منه أيضاً الأصحّاء ويسبحون، وتغسل غاسلات «أكاهاي» و«كاراييغوا» أكوام الملابس.

ولا بدّ أن عربة القطار مرّت بالهدوء نفسه، غير مبالية بأحياء ولا بأموات. نظرتُ فجأةً إلى كريستوبال خارا. لكنّه بدا وكأنّه كان يفكّر في شيء آخر. لا في الجدول، ولا في عربة القطار. لكنّه لم يكن يتكلّم، ربما كان ينتظر اللحظة المناسبة.

في تلك الأثناء، أطلّ مُدرّعٌ[33] بأنفه من أحد ثقوب الجُرف. انتظرتُ أن يُخرج رأسه كاملاً. أخرجتُ المسدّس وأطلقتُ النار عليه. تكوّر المدرّع وظلّ هامداً. أخذتُ صيدي، وكان يقطر دماً، وحشرتُه في جرابي.

نهض، وانطلق يمشي من جديد، وحراشفُ قدمه تكشط الأرض، كلّ حرشفة منها تشبه مُدرّعاً جاسئاً مسطّحاً، كهذا الذي يقطر دماً في جرابي. اكتفيتُ بمتابعته. كان ظهره، المليء بالبثور والندوب، مزيّتاً بالعرق، من تحت ثيابه المهلهلة. لم يكن يبلغ العشرين، لكنّه بدا، من الخلف، عجوزاً. فهل هي الندوب؟ أم هو الصمت، الذي يجعله، حتى من الخلف، صامتاً ومنغلقاً، ثقيلاً ومرناً، في الوقت نفسه.

لساعات وساعات، تنقّلنا عبر أحراج تغصّ بالذباب وتغرق في أشعة الشمس، فضاءات مجهولة بين مزرعة وأخرى من مزارع جوز الهند، بين أجمة وأخرى، مسافات يصعب تمييزها بالذهاب والإياب. لا عربة، لا أحدَ، بل لا أثرَ لدرب ممحوٍّ بين أشجار الأكاسيا واليوكا المجعّدة. لا

---

(33) Armadillo: حيوان صغير يعيش في الحفر وتغطّي جسمه دروع مكوّنة من صفائح عظمية صغيرة تشبه الدرع. يقتات على الحشرات.

شيء. لا شيء غير البريق الأبيض الثقيل الذي يرتدّ على الأرض السفلى السوداء، فيحجب شاطئ الجبل.

عبثاً كان يمدّ عينيه. لا يمكن أن يكون بعيداً.

ما عدتُ أتبيّن من أيّ جهة من الأفق تركنا البلدة. ولم أستطع أن أتذكّر موضع كوخ المجذومين، ولا معامل الآجر، ولا مجرى الجدول. فكّرتُ أنّ الدليل يلفّ بي ويدور. ربّما ليقودني إلى الطريق الخطأ؛ أو ربّما ليزيد من قيمة جهده. الله أعلم لماذا كان يفعل ذلك.

وربّما كان ذلك هو الطريق فعلاً.

.3

كان من الصعب عليّ تصوّرُ رحلة عربة القطار في تلك الأرض المنبسطة الجافّة المشقّقة، تلك الأرض التي حوّلها مطرُ الشتاء وفيضانُ الجدول إلى مستنقع. يصعب عليّ تصوّرها وهي تدرج على سكّة معمولة من الخشب، لا تندفع، صعوداً، بقوة زوج من الثيران أو زوجين أو ثلاثة، أو حتّى أربعة، قدر ما تندفع بعناد رجلٍ وإرادته الجهنميّة، رجل لم يشأ أن يتوقّف إلّا وقد حرّك العربة وأخفاها، بل غرزها، في قلب الغابة.

أمّا الآن، فنعم. فأنا، وأنا أسير خلف الدليل الشارد البارد، لا أنظرُ إلى شيء آخر غير ندوب ظهره وندوب الأرض والسماء الملبّدة من فوقنا، كلوحة أسبست[34] حقيقيّة، أستطيع أن أتصوّر عربة القطار العجيبة، وهي تدرج على سطح السهل؛ بلا اتجاه واضح ولا نهاية مفهومة، على الأقل.

(34) الأسبست: معدن يتكوّن على شكل ألياف مرنة ولامعة وناعمة.

بات في مقدوري أن أتصوّر الرجل وهو يختارُ الأرض، ويضعُ عوارض السكّة وألواحَ الأشجار الثقيلة، ويعيدُ ربط أزواج الثيران، التي رُبطت عشوائياً في الحقل أو في المرعى؛ وبات في مقدوري أن أراه ينخس تلك الحيوانات الهزيلة، ويحثّها على أن تقطع، في الباقي من ساعات الليل، مسافة أخرى قصيرة، فوق ألواحٍ خشبيّة تصرّ وتئنّ. أراه، بصوته المنطفئ الأجشّ، وبالقنوط الهادئ في عينيه الشاردتين. هكذا دائماً، تحت شمس الصيف اللاهبة، أو تحت أمطار الشتاء وثلوجه، لا يهدّه تعبٌ، منكبّاً على عمله، مهووساً به. وتلك المرأة بالقرب منه، مريضة بمرضه، منقادة إلى القوّة الجبّارة التي تنبع منه فضيلةً شبيهة بالشجاعة أو الإيمان اللاواعي بالقضاء والقدر، وعينها على تفاصيل الرحلة الكثيرة، وبالها مشغول أيضاً برعاية الرجل والعناية بالطفل ذي الأشهر، ذلك اليرقة البشرية الصغيرة الذي وُلد في المزرعة وانتُزع من المزرعة، والذي راحت عجلات عربة القطار، بإيقاعها البطيء الرتيب، ترسم إيقاع أيامه. ذلك الرضيع، الذي صار، بين فرسخ وفرسخ، ومن سنة إلى سنة، طفلاً، ثمّ صبيّاً، ثمّ رجلاً، كان يساعدهم أيضاً، بقواه الأولى، على دفع الصندوق المتدحرج والمحطّم، محصّناً من جنون الوالد، كما أبناء البلدة، مجذومين أو أصحاء، الذين لم يصابوا ضرورة بالعدوى، لأنّ دفاعات الكائن البشري لا تنفد، بل تكفي، أحياناً، لمحو سِماتٍ وتغيير وصماتٍ لا علاج لها في الظاهر.

استطعتُ أن أفهم ذلك كلّه بجرعة إضافية من الخيال.

كنتُ أعرفُ القصّة؛ أقصد، الحدّ الأدنى الذي يمكن للواحد معرفته من قصّة لم يعشها.

ما لا أستطيع فهمه هو أن يسرقا عربة القطار وينطلقا بها –الحدثان

مترابطان- من دون أن يشعر بهما أحدٌ. فكيف لم تسترعِ تلك الرحلة البطيئة والطويلة الانتباه؟ لِمَ لم ينقل جنونه -كما فعل مع المرأة- إلى ناس راح عددهم يزداد ويزداد؟ أليس من الغريب المستغرب أن تستطيع عربة القطار أن تتقدّم أو تهرب بهدوء، قاطعةً الحقول، من دون أن يُقدم أحدٌ على إيقافها؟ لا الحاكم السياسي ولا القاضي ولا الراهب، كلّ واحد منهم ضمن اختصاصه وصلاحيته، فعلوا شيئاً. حتّى وصل الأمر إلى أنّ الناس تكلّموا عن سحر. ألم تكن وشاية عاملٍ تلغرافٍ بسيط كافية لإجهاض خطّة الثوّار ووقوع الكارثة؟ فما بالهم صمتوا على سرقة عربة القطار؟ لا مدير المحطّة، ولا مفتّشو السكك الحديديّة، ولا مراقبو العمّال. كان يكفي أن يطلق أيّ واحدٍ منهم، أقلّهم شأناً، تحذيراً. لكنّ ذلك لم يحدث. تجاهلٌ أثار، على مدى السنين، شكوكاً بحدوث تواطؤ، أو على الأقل، إيحاء جماعي، إذا ما استبعدنا حدوث توافقٍ ضمني، غريبٍ غرابة الرحلة نفسها. صحيح أنّ عربة القطار ما عادت تنفع في شيء؛ وما عادت غير كومة من حديد صدئ وخشب متعفّن، لكنّ الغريب هو أنّها سارت وابتعدت واختفت، خلافاً لكلّ قوانين الملكيّة والجاذبيّة والمنطق.

لقد خلّف الرعبُ والنزوحُ وأعدادُ الموتى الذين سقطوا في الانفجار والحفرةُ التي أحدثها، لوقتٍ طويل، ضعفاً يؤدي إلى النسيان، أحدثَ فراغاً من الرعب أو من اللامبالاة، لن يمتلئ إلّا شيئاً فشيئاً من روح الناس، كما تمتلئ الحفرة بالتراب.

هكذا فقط يمكن تفسير كيف أنّ أحداً لم يلحظ انطلاق الرحلة، أو يهتمّ بذلك الحدث، التافه في حدّ ذاته، الكبير في مدياته ومعناه. أقام ليلُ الكارثة أكثرَ من سنتين، وكان له أن يقيم أكثر، في ذاكرة سايوكاي، في نوع

من العمى البطيء والمؤلم وغير المفهوم، من الذهول الناقم الذي تلوذ به امرأة مغتصبة.

هكذا فقط يمكن تفسير أن يستطيع الرجل والمرأة والطفل، بعد عودتهم من المزرعة وهروبهم غير المعقول عبر دروب الآلام والموت، اللجوءَ، أولاً، إلى عربة القطار، التي باتت منزلهم وسكنهم، ثمّ دفعَها ببطء عبر الحقل من دون أن يشعر بهم أحد.

يبدو أنّ الرجل والمرأة عملا، في البداية، تحت جنح ظلام مزدوج: ظلام الفراغ الذاهل الساحق، وظلام الليالي التي غاب عنها القمر. ولا شكّ أنّهما عملا حتّى في الليالي العاصفة، ليالي المطر والبرد القارس. فقد تكشّفت بعض التفاصيل، أو بات من الممكن تصوّرها.

بالشمع البرّي كانا يلصقان خنافس النار على حواشي الإطارات، لوضعها فوق العوّامات الخشبيّة. إنّي لأتصوّر ابتسامة الرجل القاسية وهو يرى العجلات تدرج والرموش ترفّ من أثر ومض اليراعات الفوسفوريّة. ويبدو أنّ القول بأنّ عربة القطار كانت مسحورة جاء من تلك العجلات المطليّة بوهج المستنقعات.

أمّا في النهار، فكانت العربة تبدو وكأنّها لا تتحرّك. ما كان يتحرّك، أو ما بدا لأعين الآخرين أنّه يتحرّك، فهو الأرض، كما حين تتآكل ضفاف الأنهار ببطء.

وانتهى الأمر بالعربة أن اختفت.

ظلّ الإيحاء بوجودها، مع ذلك، قائماً في المجال الذي راح يتوسّع نحو الحقل. سراب. خيال. الله أعلم ما هو. وقد تكون، بالنظر إلى شكلها ودرجتها، ظاهرة شبيهة بظاهرة النجوم الميّتة، التي يشعّ ضياؤها في منظومة

الكون آلاف السنين بعد انطفائها. هكذا اعتادوا، في ما يبدو، أن يروا عربة القطار، من دون أن يروها، باقية بوجودها الوهمي من دون وجود. إلا إذا كان الانفجار هو ما جعلها تطير لتكون هناك، على بعد فراسخ وفراسخ من السكة الميّتة. لكنّ عربة القطار لم تطر. ابتعدت ببطء، في مسيرة طفيفة وحثيثة، فوق سكّة من الخشب. وسارا هما في الأرض القفر الموحشة، يتسكّعان ويهيمان على وجهيهما، منبوذين هاربين. يبدو أنّ الجميع، حتّى مجذومي الجمعيّة التي أسّسها الطبيب الروسي، ساعدوا الرجلَ والمرأة والطفل في دفع العربة، ليكونوا، للحظة، شركاء في ذلك البيت الذي كان يتقدّم عبر السهل أو يتراجع نحو الماضي، بلا وجهة، ولا نهاية، بل ناقلاً جوّ أمان منتصرٍ ساكنٍ موحشٍ عجيب، جوّ شجاعة، غموض. ذلك هو ما جعلهم جميعاً يحفظون السرّ ويتكتّمون عليه.

حكاياتٌ، رواياتٌ، قصص. ربّما كانت الأحداث أبسط من ذلك. ولكن، ما من سبيل إلى معرفتها. لا نعرف إلّا أنّها بدأت قبل عشرين سنة. ولم يبقَ منها إلّا ظلالٌ وشهاداتٌ غير مترابطة. وما عربة القطار التي أتوجّه إليها الآن، سائراً خلف الدليل الوحيد الذي يعرف مكانها، إلّا شاهداً لم أتوقّع العثور عليه؛ بل لم أؤمن بوجوده، على قصّة خياليّة، على بقيّة أسطورة أو حكاية دفنها أحدهم في الغابة.

.4

كان الهواءُ الدافئ يثقل على رقبتي، بينما يثقلُ المُدرّعُ على ذراعي. أحمله في جرابي، فتنزل قطرات من دمه ومن عرقي. سحبته من قدميه

القصيرتين المحرشفتين، ومرّرته من فوق رأسي لأرمي به بعيداً. سقط بين شجيرات، فعلَتْ منه آنّةٌ مكتومة كتلك التي يطلقها الحطّابون حين يهوون بفؤوسهم على الجذع. أدار كريستوبال خارا وجهه الغامض، ونظر إليّ من شقّ جفنيه، بتلك الإيماءة التي لا يُعرف ما إن كانت إيماءة تفهّم أم إيماءة استهزاء.

بلغنا طريق الغابة. كان الوقت قريباً من المغرب، لكنّ الحرّ ما يزال يتغلغل بين الأشجار.

توقّفتُ لحظة لأتبيّن وجهتي. حرّكتُ قراب المسدس نحو إليتي، ليكون في متناول يدي. التفت الدليلُ إليّ. ربّما ظنّ أنّ الطريق أخافني أو حرّك الشكّ في قلبي من ناحيته. كان وجهه الترابي صورة مصغّرة عن المنظر، حتّى في آثار لحيته. باتت إيماءة السخرية والتباعد المرسومة على أحد جانبي فمه أوضح. ربّما لم يكن ذلك قصده؛ ربّما هو الملل واستعجال الوصول والانتهاء من ذلك الفرض.

فقد كانت وظيفته الحقيقيّة، عدا وظيفة السائق في معمل الآجر، هي هذه. كان يستغلّ سفراته إلى معامل كوستا دولثي ليحمل، بين الحين والآخر، وبعد أخذ موافقة صاحب العمل، غندوراً متأنّقاً استبدّ به الفضول فأراد أن يصل إلى الجبل ليعاين عربة القطار المحشورة هناك. كان صاحب معمل الآجر هو من يرتّب لسائقه تلك الجولات السياحيّة، بعد أن بات يمضي جلّ وقته، بسبب الجفاف، بين الحانة والحانوت، حيث ينفق دراهمه الأخيرة.

كان كريستوبال خارا، البارد، اللامبالي، كما في كلّ شيء، يؤدي وظيفة الدليل للغريب، غير واعٍ، ربّما، إلى أنّه يتاجر بشيء كان خلّفه في الجبل،

مثل حارسٍ ميّت، حلمٌ طائش متهوّر: أو ربّما كان يعي ذلك، على طريقته، ويفخر بإطلاع الآخرين على تلك الحاجة العقيمة المقدّسة، التي تتعلّق بأصله ودمه، كما علمتُ بذلك لاحقاً.

توقّعتُ ذلك، صباحَ ذهبوا للبحث عنّي في مكان سكني، الخان الذي يقع على ضفة النهر، حيث كانت صاحبته الضخمة الثرثارة، نيالولي، تمارس على الناس الذين يعرّجون على ساپوكاي ضرباً من الأمومة الأبديّة.

لم يمضِ وقت طويل على وصوله إلى البلدة. لا أذكر أنّي رتّبتُ معه أمرَ الرحلة. دخل الرجل القصير البدين إلى حجرتي وأيقظني. لمحته، في الظلمة، برأسه الكبير المنتفخ، وهو يتحرّك متحمّساً حول سريري. اقترب وهمس في أذني: «هيّا، كيريتو ينتظرك!».

ذهب إلى المطبخ ليجلب لي المتّة. سمعتُ فتيات الخدمة يمزحن معه في الممرّ. بعضهنّ يدعونه «غامارّا»؛ بينما تدعوه أخريات مديو مترو [= نصف متر]، وهو لقب يمثّله خيرَ تمثيل. أفزع صراخ نيالولي، المنبعث من حجرتها، الفتيات الثرثارات. وبعد وقت قصير دخل مديو مترو يحمل المتّة. ارتديتُ ملابسي، وارتشفت المتّة، ومذاق فمي ما زال مرّاً من الجعة، ورأسي مشوّشاً ممّا شربتُ البارحة في الحانوت مع روّاده، الذين لا أعرفهم. لذلك لم أشأ أن أسأل القصير شيئاً.

في الخارج وقفت الشاحنة، سيارة فورد مقلقلة. تحمل لافتة بدائيّة كُتب عليها اسم معمل الآجر واسم المالك. عند حافة السقف كُتب، بقلم أخضر، مَثَلٌ باللغة الغوارنيّة، خُطَّ بحروف طفوليّة وأشدّ بدائيّة.

صعدتُ إلى جانب السائق وانطلقنا. تركتُ في مديريّة الشرطة خبراً

عن سفرتي المفاجئة المستعجلة؛ كي لا يظنّوا أنّي هربتُ بعد وقت قصير من وصولي.

أنعشني هواء الفجر البارد. شعرتُ وكأنّي أرى البلدة للمرة الأولى. ما زالت سابوكاي تمارس تأثيرَها الغريب عليّ، كما في ليلة طفولتي البعيدة تلك، حين نمنا وسط ركام المحطّة التي دمّرتها القنابل.

«أين كانت المحطّة القديمة؟» - سألتُ الدليل.

مدَّ ذراعه نحو قطعة أرض كانت بين المحطّة الجديدة وورشة السكك الحديديّة. ما زالت تُشاهد بعض الأحجار المسودّة. هناك، قبل عشرين سنة، وفي رحلتي الأولى إلى العاصمة، نمتُ بين الأحجار، جنب داميانا دابالوس، أنتظر، مع المسافرين الآخرين، تبديل قطار الفجر. ما زالت تلك الليلة البعيدة حيّةً فيّ، على حافة الخرائب التي خلّفتها القنابل، من حيث أخرجت كلّ عتمتها الثقيلة. بزغ القمر برهة، لكنّ الحفرة السوداء عادت فابتلعته.

صَعُب عليّ النوم وأنا أرقد بين الحجارة التي دفّأتها شمسُ العصر، بالقرب من الغسّالة، التي كانت نصفَ نائمة مع الطفل المريض الذي في حضنها. التصقتُ بها، فرأيتُ أنها ما زالت نصف نائمة. كان جسدها الغضّ الطريّ يثير مراهقتي الوليدة. في مكانٍ ما، كان صوت رجلٍ عجوزٍ يتلعثم طوال الوقت بسرد تفاصيل الانفجار. حين صمت العجوز، علت، في الجانب الآخر من الجدار، همساتٌ وضحكاتٌ وآناتٌ مكتومة، صادرة عن شريكين شابّين راحت ركبتاهما ترتطمان ارتطاماً بالجدار. ما من سبيل إلى النوم. كانت داميانا دابالوس تتنهّد أيضاً وتتقلّب، من حين إلى آخر، تحت يديّ، اللتين راحتا تتحسّسان وتتلمّسان. في تلك اللحظة، وأنا

بين الموت وذكرى الرعب، بين الجوع والنعاس، بين كلّ ما كنت أجهله وأحسّ بقرب وقوعه، مصصتُ ثديها في الظلمة وسرقتُ حليبَ طفلها المريض، الذي كان ينام محشوراً بين ذراعيها، وخنتُ، مناصفة، الزوجَ الذي كان قابعاً في السجن. هكذا اكتشفتُ الحبّ الحزين، في الظلمة، بالقرب من الخرائب والأطلال، وكأنّي مدنّسٌ يهتك حرمة مقدّسات أو لصٌّ يسرق تحت جنح الظلام.

في تلك اللحظة نفسها، وفي سقيفة بعيدة، معمولة من سعف النخيل، في مزارع المتّة، ربّما كان كريستوبال خارا، هذا الذي يسير الآن إلى جانبي، رجلاً كاملاً، يبحث، بصرخات ولادته الأولى، عن حليب أمّه، بينما يضيّق القيدُ الخناق على رقبة أبيه المحجوز في الكوميساريّة. والآن، وبعد عشرين سنة من تلك الليلة، وبعد دورة طويلة، أسير في طريقي لتأمّل بقيّة حكاية لم أعشها إلّا في أحلامي، لكنّي ما زلتُ، مع ذلك، طرفاً فيها.

بصق التبغَ من فمه وتوغّل في الأحراج التي غزاها الطريق القديم. وراح، بين الحين والحين، يوزّع ضرباتٍ سديدة من حربته على الأطراف، ليفسح لي الطريق.

.5

حين سُحقت ثورة عام 1912 الفلاحيّة، تمركز الثائرون، بعد انسحاب مأساويّ متعثّر، وتحصّنوا في سابوكاي، التي كانت أُنشِئَتْ حديثاً، والتي كانت ولادتُها قد أضاءت نارَ المذنّب المشؤومة. وها هي ذي سابوكاي تستعدّ لتلقّي تعميدها بالدم والنار.

تولّى النقيب أليزاردو دياث قيادة الثائرين، بعد أن انشقّ بحاميته عن الجيش ليدعم تمرّد الفلّاحين في باراغواري. سيطر الثوّار على المحطّة وكان فيها قطارٌ بحالة سليمة، فما عاد لديهم من وسيلة غير السكة الحديديّة لشنّ هجومٍ أخير على العاصمة. في خطة مجنونة ويائسة كتلك، كانت احتمالات النجاح، إن كان هناك من احتمالات للنجاح، مرهونة بعامل المفاجأة؛ فقد تفعل المفاجأة فعلها وينجح الهجوم المباغت في أن يشيع الاضطراب في صفوف قوّات الحكومة، وربّما الإيقاع بها في الأسر. احتمالات بعيدة وصعبة المنال، ولكن، أيّ خيارٍ أمام الثوّار، وقد كان موتهم شبه مؤكّد؟

أمر النقيب دياث بأن ينطلق القطار مساء ذلك اليوم، الأوّل من مارس، حاملاً قواته كاملة، بكامل عدّتها وعديدها، فضلاً عن الفلّاحين المتطوّعين، الذين جُهّزوا على جناح السرعة.

خطب قائد المتمرّدين في جنوده، وذكر لهم المارشال لوبيث، الذي سقط في موقعة «ثيرّو كورا»، نهاية الحرب العظيمة، دفاعاً عن الأرض، فأصبح أرفع نموذجٍ للشجاعة والبطولة.

«ونحن أيضاً» -قال لهم- «سنخوض المعركة وشعارنا: النصر أو الموت!».

دعا كاسيانو خارا عمّال معامل الآجر في كوستا دولثي للانضمام إلى الثورة. مئة رجل تقريباً، معظمهم ممّن أدّوا خدمتهم العسكريّة في خطوط النار. كان قد تزوّج حديثاً من ناتيفيداد إسبينوزا، وكانت لديهما مزرعتهما تقوم على أرض حكوميّة، بالقرب من معامل الآجر. ناتي ترعى الزرع، وكاسيانو يعمل في قطع الآجر ووضعه في الفرن. مع ذلك، لم

يتردّد لحظة في الانضمام إلى الثائرين في حربهم على سياسيي العاصمة ورجال الشرطة، الذين نهبوا البلد وامتصّوا خيراته. لذلك لم يجد صعوبة في إقناع العمّال، الذين اصطفّوا وانتظموا في طابور، أمام ذلك العسكري الشجاع، الذي يختلف كثيراً عن الآخرين، والذي لم يتردّد في الخروج دفاعاً عن المحرومين والمقهورين. استقبلهم دياث، لا استقبال القائد، بل استقبال الأخ، ووزّعهم على مهمّات القتال، ونصّب الشابّ القويّ، الذي يشعّ نشاطاً وعنفواناً، عريفاً على فصيل معامل الآجر، ليكون، بهذا، ذراعه اليمنى.

جرت التحضيرات للعمليّة الانتحاريّة بسرعة.

في تلك الأثناء، وجد عامل التلغراف أتاناسيو غالبان، فجأةً، طريقةً للإبلاغ بالشفرة عن المحاولة التي يجري الإعداد لها، مع ذكر الساعة التي سينطلق فيها القطار. وسرعان ما اتخذت القيادة الموالية للحكومة إجراءاتها. في محطة باراغواري، حمّلوا قاطرة ومقطورة بقنابل شديدة الانفجار، وأطلقوها في الساعة المعلومة، وبكلّ سرعتها، على السكة الوحيدة الممدودة أسفل التلال، لكي يقع الاصطدام القاتل في منتصف الطريق، بعد مسافة قليلة من مغادرته محطة أسكوبار.

لكنّ حدثاً مفاجئاً وقع في اللحظة الأخيرة تسبّب في وقوع أعظم كارثة. انشقّ سائق القطار عن الثوّار وهرب، فتأخّر موعد الانطلاق. وفي ليلة غاب عنها القمر، خرج الناسُ بجمعهم إلى المحطة لتوديع المقاتلين. كانت المحطة ومحيطها يغصّان بظلالٍ وأخيلة ممتزجة في صخب الوداع المحموم. فتياتٌ يقبّلن الجنود. عجائزُ يوزّعن عليهم زمزميات الماء وأرغفة الچيبا والتبغ وعذوق الموز والبرتقال. أناشيد حربيّة وصرخات

حماسيّة تعلو على طول القطار. وطن وحريّة! كان هو المقطع الذي صدحت به آلاف الحناجر في ليلة آذار الهادئة تلك.

وفجأةً، علا دويّ الوحش اللاهث المنطلق بكلّ سرعته، والشررُ يتطاير منه، على كلّ صوت.

عمَّ صمتٌ مطبق، التهمه هديرُ القاطرة المتصاعد. وما هي إلّا ثوانٍ قليلة، حتّى هتك لهيبُ الانفجار ودويّه سكونَ الليل وغطّاه بعمودٍ شاهق من النار.

وهكذا، كان يجب طمر تلك الحفرة بشكلٍ من الأشكال. طوال عشرين عاماً، طُمرت تلك الحفرة بلحمٍ جديد، بناسٍ آخرين، بأحداثٍ أخرى وقعت. الحياة شرهةٌ نهمة وسريعة النسيان. عادت القطارات تمرّ بـ سابوكاي فلا تثير صافراتها ذلك الرعب المشؤوم في أمسيات المحطة الصاخبة، حيث المهرجان الأسبوعي الوحيد الذي يجد فيه ناس البلدة متعتهم.

.6

لكنّ الناس لم ينسوا. لم يستطعْ أحدٌ النسيان.

عقب سنتين من تلك الليلة المدمّرة، عاد كاسيانو خارا وزوجته ناتيفيداد من مزرعة المتّة مع ولدهم الصغير، ليُنهيا دورةً من الهروب المستمر. منذ ذلك الحين ومسكنهم هو عربة القطار تلك التي قذف بها الانفجار إلى نهاية سكة ميّتة، قذفها بقوّة واصلت العربة معها الاندفاع بهم، بل الطيران، بحسب ما روى الناس. وهكذا ظلَّ اسم كاسيانو خارا يظهر في القوائم

الرسميّة، حتّى بعد سنتين من الحادث، ميتاً، ليس من القنابل، بل لأنّ قلم عريفٍ شاردٍ، أو ضَجِر، شطبه من الوجود، حتّى إذا نُفِخ في روحه وعاد إلى الحياة، بدأ رحلة ستستمرّ عامين، ترافقه زوجته وولده: ثلاثُ نملات صغيرة تجاهد مع كتلة الخشب والحديد تلك، وتجرّها على السهل الذي تشقّق من الظمأ.

أسيرُ خلف آخر الثلاثة. أرى ظهرَه الذي شقّقته الندوب. لكنّي أراه يتحرّك أمام عيني، كائناً من لحم وعظم، لكنّ الحكاية ما زالت حكاية أشباح، غريبة، لا تصدّق. ربّما لأنّها لم تنتهِ بعد.

.7

والأدهى هو أنّ عربة القطار ظهرت فجأة في منطقة مكشوفة من الجبل. ظهرت حيث لم يكن أحدٌ يتوقّع ظهورها.

في الضوء المتعرّج، الذي كان يتسلّل من بين الأوراق، تقدّمَتْ بطيئة نحونا، وحيدة تثير العجب. رأيتُ أوّل ما رأيتُ العجلات الغارقة بين الأعشاب، ألواح أشجار المازاريه الكبيرة التي تبلغ المحاور، فتمنعها من أن تغوصَ في التربة. ونمت طبقة مأروضة من أسفل إلى فوق، مغطّاة باللبلاب والطحالب. كان احتضان الغابة للعربة شديداً عنيداً، كما هي إرادة الرقيب حين نقلها حتّى هناك. من ثقوب الخشب، نما القرّاصُ بأوراقه العريضة المسنّنة. رأيتُ منصّات الصعود وقد أكلها الصدأ، والدرابزينات البرونزيّة وقد أصابها جذام الطحالب، وفجوات الكوّات وقد نسجت عليها المتسلّقات والعناكب خيوطها. وما زال ممكناً رؤية

الكتابة المطموسة التي حفرت برأس السكين، بحروف كبيرة وبدائية، في إحدى زوايا ألواح الخشب المرصوصة:

الرقيب كاسيانو أمويتيه - الفصيل الأول
معركة أسونثيون

اسم تغيّر نصفه، وكأنّ طحالب النسيان أكلته هو الآخر، فلقب «أمويتيه»، الذي حلَّ محلّ «خارا»، يشير، في لغة الهنود، إلى ما هو بعيد، لا البعد المعروف المفهوم، بل البعد الذي وراء خط النظر والإرادة في المكان والزمان[35].

كان ذلك كلّ ما بقي من المحارب الذي شاخ ومات هناك، وهو يحلم بتلك المعركة التي لم يخضها، أو التي لم يستطع، على الأقلّ، أن يخوضها.

تسلّقتُ دكّة الصعود، فأثرتُ سحابة من الغبار. أحسستُ بخيوط العنكبوت على وجهي. لم أجد بدّاً من الولوج في الظلمة المخضرّة. من بين الحطام تدلّت بيوت دبابير حمر، لها طنينٌ وأزيز في أجواء تخيّم فيها تلك الرائحة الحادّة الدبقة. فوق بقايا نقش خشبي، رأيتُ مشط امرأة. فضلة من شمعةٍ اسودّت فوق صفيحة كيروسين؛ تحيط بها بِركةٌ من شحمٍ اسودّ أيضاً من السخام. يبدو أن الرقيب أمويتيه، الذي باتت ذكراه تتلاشى وتبتعد، رسم هناك خطط فصيله الذي قاده بلا كلل. كان الصمتُ الحار يلفّ كلّ شيء. كنتُ غارقاً في ذلك الصمت، حين سمعتُ صوته. جفلت:

– إنّهم ينتظرونك. يريدون الكلام معك.

«من هم؟» – ملأ الفزعُ فمي بطعم مرّ.

لم يردّ عليّ. نظر إليّ ببرود. وراح يهوّي نفسه بقبّعته. كانت المرّة

---

(35) Amoité تعني في الغوارانيّة «الأبعد».

الأولى التي أتطلّع فيها إلى وجهه. بدت لي عيناه باهتتين، لهما لون تلك الطحالب التي تغطّي عربة القطار. إنّهما عينا أمّه، فكّرتُ. سرتُ خلفه، ويدي على مقبض المسدّس، ونزلت من عكس الجهة التي اخترتها للصعود.

رأيتُ نحو خمسين رجلاً واقفين في شبه حلقة، ينتظرون بين الأعشاب. رأوني، فألقوا إليّ بالتحيّة، وعلا بينهم همس. رفعتُ يدي بهدوء إلى طرف قبّعتي، وكأني أقف أمام طابور.

تقدّم أحدهم، وكان الأطول بينهم والأعظم جسماً، وقال لي، بصوت ودود وثابت: «أنا سلفستري أكينو. هؤلاء رفاقي. جاؤوا من شتّى فصائل هذه البلدة. لقد طلبنا من كريستوبال خارا أن يأتي بحضرتك إلى هنا. نريد أن تساعدنا».

وقفتُ أمامهم مرتبكاً، فكأني أقف أمام قضاة يوجّهون إليّ تهمة بجريمة أجهل كنهها أو لم أرتكبها بعد.

– بماذا تريدون أن أساعدكم؟

لم يردّ سلفستري أكينو بسرعة.

– نعلمُ أنّ حضرتك عسكري.

«صحيح» – رددتُ غير متحمّس.

– وأنّهم أرسلوا بك إلى سابوكاي منفياً.

– نعم.

– نعرف أيضاً أنّهم كانوا على وشك أن يعدموك حين انكشف أمر مؤامرة المدرسة الحربيّة.

نظرتُ إلى الوجوه، واحداً تلوَ الآخر، فوجدتها وجوهَ قرويين، نحيلة

صارمة، وجوهَ رجال كدّ وعمل، أمّيين في غالبيتهم، لكنهم واثقون ممّا يطلبونه، وجوهاً يعلوها نورٌ ينبع من داخل الرجال.

كانوا يعرفون كلّ ما يحتاجون معرفته عنّي. لذلك كانت أجوبتي لا تزيدهم معرفة بي.

- كنتَ قادراً على أن تذهب إلى منفاك، لكنّكَ اخترتَ المجيء إلى هنا.

ربّما فاتهم معرفة سبب اختياري المجيء إلى هنا. لكنّي أنا أيضاً لا أعرف السبب.

«البلد على وشك ثورة شاملة» -قال سلفستري أكينو- «نحن سنثور هنا. ونريد أن تكون قائدنا.. موجّهنا ومدرّبنا» - صحّح فوراً.

«لكنّ إدارة الشرطة تراقبني» -قلتُ- «وأعتقد أنّكم تعرفون ذلك أيضاً».

- لكنّك تستطيع أن تأتي للصيد، ولن يرفضوا السماح لك بذلك. وخارا سيأتي بكَ في الشاحنة.

ساد صمتٌ طويل. مئة عينٍ كانت ترنو إليّ.

- هل معكم سلاح؟

- ما يكفي للبدء. وحين تكون الفرصة مواتية سنهجم على الإدارة.

توتّرت القبضات وتقلّصت السيقان. كُرات من الطين اليابس. كان لها، شأن الوجوه، لون الهور الطيني.

«ماذا قلتَ؟» - سأله بجرأة مَن كان يدّعي أنّ اسمه سلفستري أكينو.

- لا أدري. دعوني أفكّرْ في الأمر!

لكنّي كنتُ أعلمُ، في تلك اللحظة، أنّي سأوافق، آجلاً أم عاجلاً. فها

هي ذي الدورة تبدأ من جديد، ومن جديد تجذبني. كان ينتابني هاجسٌ غامض، نبوءة غامضة، ضربٌ من الانقياد المسبق. ألم يكن من الممكن أن أقف متفرّجاً؟

التفتُّ إلى كريستوبال خارا. كان متكئاً على جدار العربة المحطّم والمغطّى بالطحالب. شابٌّ في العشرين. أو في المئة. حدّق فيّ. كانت الدبابير الحمر تطنّ فوق رأسه، وسط رائحة الورنيش الساخنة. وكانت العتمة تسقط على الجبل، في موجاتٍ تكبر وتكبر.

نزلتُ من المنصّة وقلتُ له: «هيّا!».

الفصل السادس

حفلة

.1

فكَّ الصبيّ السلسلة، ودفع باب المقبرة الصغير ببطء، فكأنّه لم يجرّبْ ذلك من قبل، أو كأنّه أراد الدخول بلا ضوضاء. أفزعه صريرُ الباب. ظلَّ ساكناً ويده على الرافدة. نظر بعينيه المتوقّدتين الزرقاوين نحو جميع الاتجاهات. في وقت القيلولة الساكن ذاك، حتّى شجيرات الكزوارينا كانت تنام، وقد أمالت انعكاسات الشمس رؤوسها. الحيوانات تستظلّ بالجبل، والطريق إلى البلدة خالية. نظر الصبيّ ناحية الكوخ، الذي موّهته أشجارُ البرتقال. أطلّت امرأة من تحت السقيفة، وأشارت إليه بأن يدفع الباب. تشجّع الصبيّ ونفخ على خصلة الشعر التي كانت تغطّي إحدى عينيه، وواصل فتح الباب. فتحه ببطء، فعَلا صريره، ثمّ خمد. تناول صرّته ومجرفته، ودخل.

سار مسافة بين القبور، وهو يوزّع الضربات بالمجرفة على الأحراج هنا وهناك. وفي منعطف تغطّيه الشجيرات والأدغال، كفّ عن الإيحاء بأنّه

يعمل، وتوجّه نحو الزاوية الأبعد من المقبرة، ليملأ رئتيه من عطر أزهار الشيح الزيتيّة.

كان الرجل مستلقياً بين الصلبان، تحت شجرة غار وارفة الظلّ. تقرّب الفتى منه وراح ينظر إليه، دون أن يجرؤ على إيقاظه، ربّما لأنّه رآه أقربَ إلى ميّتٍ أُخرج من قبره، أو ميّتٍ ينتظر الدفن. ناداه همساً، كما ينادى على الميّت.

– كيريتووو!

نادى عليه مرتين، بعد أن رفع صوته. أفاق الرجل فجأة من نومه. رفّت عيناه الخضراوان خضرة الطحالب، وحدّقتا، متلهفتين، في الصبيّ.

– ماذا، أليخو؟

– بعثَتْ لك أمّي بطعام.

ناوله الصرّة: صحنٌ لُفَّ بخرقة، رُبطت من فوق بعقدتين، وبخارٌ يتسرّب من الجانبين.

أبدى الرجل إيماءة اعتراض.

«إنّه قليل من اليوپارا[36]، لا أكثر» – قال الصبي.

– لماذا جئتني به؟ وماذا لو اكتشفوا أمرك؟ لن يصدّق أحدٌ أنّك تأتي بطعامٍ للموتى.

كسا الحزنُ عينَي الصبي. طأطأ رأسه، وراح يدفع بقدمه نبتة القرّاص.

– لم تظنّ أمّي...

– قلتُ لها ألّا تبعثَ لي بشيء. يكفيها أنّها سمحت لي بالبقاء هنا.

– عليك أن تأكل شيئاً، كيريتو. منذ يومين وأنتَ بلا طعام.

(36) Yopará طبق قوامه البصل والذرة والفاصولياء وشيء من اللحم.

ناوله الصرّة ثانية، فأخذها الرجل، ثمّ أخرجَ من جيبه برتقالتين وناوله إياهما.

فكَّ الرجلُ عقدة الصرّة. من صحن الصفيح الممتلئ ينبعث بخارُ طبيخ الفاصولياء باللحم المقدّد. وجد ملعقة من الصفيح وقطعة من الكاسافا. بدأ يأكل بشراهة. سأله وقد ملأ الطعام فمه: «هل من أخبار؟».

– أرسلوا بسلفستري وبالأسرى الآخرين في القطار هذا المساء مكبّلين.

– ألا تعرف إلى أين؟

– لا. إلى باراغواري بالتأكيد. الحرسُ من فصيل جاء من هناك.

– وهل ذهبوا جميعهم؟

– ما عدا الذين ماتوا...

نظر إليه الرجل ملياً. اصطدمت الملعقة بأسنانه.

– حمل الناسُ لهم الطعام، لكنّ الجنود لم يسمحوا لهم بالاقتراب. لا يريدون أن يتكلّم أحد معهم.

اختلط نهمُ الرجل بشعور لا واعٍ بالخجل.

«ذهبتُ مع أمّي إلى المحطّة» –واصل الصبي كلامه بنبرة زهوٍ بريئة– «رأيتُ الأسرى. كان سلفستري ينزف من ساقه، ويبدو أنّهم كبّلوه. كان مكبّلاً مع غامارّا. رميتُ له ببرتقالة، فسقطت بين ساقيه. وحين تحرّك القطار، كان كلّ منهما يأكل نصف البرتقالة».

«وماذا علمتَ أيضاً؟» – سأله وهو يبتلع الطعام، من دون مضغ تقريباً.

– قال إنّهم يبحثون عنك في الجبل.. أمس أحرقوا عربة القطار. وما زال الدخان يُشاهد من ناحية الجدول. قال إنّهم قبل حرق العربة حفروا محيطها. بالتأكيد ليروا ما إن كان هناك سلاح مدفون.

حرّك الرجل رمشيه، في تردّد غير ملحوظ، وترك الملعقة، للحظة، ساكنة. اسودّ وجهه بعد تلك الحركة، وكأنّ دخان حريق العربة غمره فجأة. إنّه البخار الكثيف الصاعد من آنية الطعام.

- ما عادوا يبحثون عنك في البلدة. فتّشوها بيتاً بيتاً. قتلوا كليتو روداس بالخطأ. كان مختبئاً في البئر. قتلوه في البئر. حسبوه أنت. نادوا عليه مرات كثيرة... «سلّم نفسك، كريستوبال خارا، لا مفرّ أمامك!» ثمّ أخرجوه ميتاً، فوجدوا أنّهم قتلوا شخصاً آخر.

«ماذا تعرف بعد؟» - استعجله الرجل بالكلام وقد بدا عليه نفادُ الصبر.

- تقول أمّي إنّهم ما زالوا يقيمون الحراسة حول أكواخ المجذومين.

«ليتني أستطيع أن أخفيَ نفسي بينهم!» -قال الرجل، وهو يكلّم نفسه تقريباً- «على الأقل، لحين انصراف هؤلاء!».

- حملت أمّي الطعام لهم هذا الصباح. تقول إنّها شاهدت دوريّة للحرس تتحرّك من بعيد في محيط الأكواخ.

- طبعاً، لأنّهم لا يتجرّؤون على التقرّب منها.

- لكنّهم لن يدعوك تدخل إليها. فوجهك ما يزال معروفاً، كيريتو. سيكتشفونك في الحال.

- هل طريق البلدة مراقبة؟

«ما عادت مراقبة. فتّشوا كلّ مكان في هذه الناحية. ولم يبقَ إلا هذا» -أشار برأسه إلى المقبرة- «لكنّهم لن يفكّروا».

«هل لديك أخبار أخرى؟» - تمتم الرجل، وهو يحكّ الصحن بالملعقة.

- تقول أمّي إنّ البلديّة ستقيم حفلة رقص.

- حفلة رقص؟

تقلّص الوجه الحزين من جديد، وبرقت الحبّتان الخضراوان.

- على شرف ضباط الوحدة.

«ومتى ستقام؟» - سأل الرجل بعد لحظة، باهتمام مفاجئ.

- السبت مساءً.

- غداً؟

- غداً.

أطرق الرجل. وراح الصبيّ ينظر إليه بفضول، دون أن يتجرأ على انتهاك صمته.

- أليخو، قل لأمّك أن تحصل لي على ملابس. سأذهب إلى تلك الحفلة.

«حفلة الجنود؟» - سأل الصبي مستغرباً، وهو لا يدري ما إن كان في مقدوره أن يضحك.

- لمَ لا؟

- ذلك خطير ![بالغوارانيّة]

- لا تخبر بذلك أحداً غير أمّك. وسنرى في ما بعد. يجب أن أخرج من هنا.

نطّ الصبي، الذي كان ينظر شارداً من بين أعواد الخيزران.

- انظر، كيريتو!

نظرَتْ عينا الهارب، القاسيتان الحساستان، في الاتجاه الذي أشار إليه الصبي. عبر الطريق، كان يتقدّم ثلاثة فرسان، على وقع مسير خيلهم، وقد علّقوا بنادقهم على صدورهم، متقاطعة بين الكتف والورك. بدا أنّهم

يتحادثون ويتمازحون. بين الحين والحين، يسمع ضحكهم، بل صوتُ سيوفهم، وهي تصطدم بالرِّكاب.

راح الرجلُ والصبيّ يراقبان المشهد ساكنين، من مكمنهما المموّه بالشجيرات والأدغال. لن يراهم أحدٌ من بعيد، لكنّهما كان يجهلان اتجاه الدورية ويجهلان وجهتها. دفن الرجلُ أدوات الطعام مع ما تبقّى من الأكل، وانبطح، من جديد، بين الحشائش، التي كانت تنمو في منخفض القبر القديم، إلى أن تختفي تماماً، وكأنّ الأرض تعاود ابتلاعها. بدأ الصبيّ بتنظيف الأرض، وراح يبتعد، رويداً رويداً، ليموّه على الناظر إليه.

مرَّ الجنودُ بالمقبرة دون أن يلتفتوا إليها.

.2

على بعد فرسخين من ذلك المكان، ثمّة رجلٌ آخرُ مستلقٍ على الأرض، في نظارة الكوميساريّة. كان بابُ المطبق الموارب يرسم على صدره عموداً مغبرّاً من أشعّة الشمس يشطر بدنه شطرين معتمين. وجهه متجهٌ، لاصق تقريباً، إلى الحائط؛ لا يظهر منه غير شعره المنفوش الدبق. لا يبدو على قدميه الحافيتين أنّهما قدما فلّاح. حزمة أشعّة الشمس المسلّطة على قبضة يده المشدودة إلى صدره تكشف عن سلامياتٍ نحيلة وعن ظاهر يد معرّق بأوردة زرق. يراقبه رجلان متوتّران، أحدهما يرتدي بدلة ميدان عسكريّة، وقد أدارا ظهرَيهما إلى الشمس. تحرّكَ زوجُ الجزمة العسكريّة المغطّاة بالطين اليابس والشقوق، وانتقل بخطا واسعة عصبيّة. أمّا الجزمات المدنيّة فكانت تنتظر في الخلف. عاد العسكريّ يرفع صوته، عصبيّاً ومدوّياً، قاصداً التعبير عن غضبه.

- أكرّر للمرة الأخيرة، ولمصلحتك. أنتَ تغامر بحياتك. اعترف لكي ننتهي من هذه القصّة.

لم يتحرّك شطرا الرجل المرميّ على الأرض. ما كان يتحرّك منه غير قبضته المتشنجة التي كانت تعلو وتنخفض مع تنفّسه.

«مُلازم فيرا!» -صرخ به الضابط- «هل سمعتني؟!» - ركله بمقدّمة جزمته.

«أنا لا أعرف شيئاً» - قال من دون أن يدير رأسَه المنفوش؛ كان صوته غامضاً، يرتفع لا من الخوف ولا من التعب، بل من عدم اكتراثٍ مطلق، يقربُ من درجة اليأس.

«أنت تعرف جيّداً عمّ أسألك. لن ينفعك سكوتك. لقد رويت بنفسك كلّ ما حدث تلك الليلة» -التفت نحو الرجل المدني- «أليس كذلك، سيّدي؟».

«بالطبع، أيّها النقيب! لا أفهم لماذا يرفض إعطاء التفاصيل» -انحنى عليه- «تلك الليلة، في حانوت ماتياس سوسا، كنتَ سكران، لكنّك أخبرتني بما هو أساس».

«كلام السكران لا يُعتدّ به» - زاد الصوتُ الخافت خفوتاً بفعل جدار الآجر.

«مع ذلك، فقد نطقتَ بالحقيقة!» -تمتم النقيب- «هل تريد أن تقول إنّك وأنتَ سكران أوعى منك وأنت صاحٍ؟ أنتَ كنتَ محبوساً هنا بتهمة مقاومة النظام. وكنتَ قد أقسمتَ بشرفك أن تحترم القانون. حضرتك، ميغيل فيرا، ضابط من ضبّاط المدرسة الحربيّة!» -بدأ الكابتن يحتدّ- «أبهذا ينصحك شرفُ المواطن والجنديّ؟! تتورّط مع هؤلاء القتلة الذين

يريدون زرع الموت والخراب بين هذا الشعب المسالم؟» -أمسك نفسه بعد جهد- «من حسن حظنا أنّكَ كشفتَ عن نفسك بنفسك».

«أنا لم أبلّغ عن هؤلاء الرجال» - قال الصوتُ الرتيب الذي بدا وكأنه صادر من الطرف الآخر من الحائط.

«لا، أنت قدّمتَ شكوى بحقّهم. لم تفعل غير أداءِ الواجب» - قال الضابط، وكأنّه يعينه.

- كنتُ سكران!

«لاااااا!» -صرخ- «السكران يكذب! أمّا ما قلتَه فكان صحيحاً. رجال العصابات موجودون.. أنتَ تطوّعتَ لتدريبهم، علّمتهم مبادئ القتال، بل علّمتهم صنع المتفجّرات! فيا لها من جريمة!».

تدخّل الحاكم السياسي من جديد:

- ذهبتَ إلى الجبل بذريعة الصيد، لتخدعني، وكنتُ أثق بولائك! لحسن الحظ أنّك وأنتَ سكران...

«لا» -قاطعه الضابط، وهو ينظر إليه نظرة لها دلالة- «أنت لم تكن سكران، ولم تشِ. أفضّل أن أرى أنّك أردتَ أن تعيد الاعتبار لنفسك أمام ضميرك».

صعدَ من الأرضيّة شيء لم يسمعوه، همس غير مفهوم.

- ماذا؟ ماذا تقول؟

لم يكرّر، ولم يحاول التوضيح، ولا إن كان ما قاله شيئاً مهمّاً. سقطت قبضته على جانبه. مع اهتزاز صدره، على ضوء الشمس، برزت الضلوع ناتئة من تحت القميص المبقّع غير المزرّر.

- لا أدري كيف أنّك لا تنتبه إلى أنّي أحاول مساعدتك، لأنّك رفيقنا.

علينا أن نجد ما يخفّف من خطئك ويحسّن موقفك قبل فوات الأوان. وإلّا، فلا أظنّ أنّ مجلساً للحرب سيخفّف عنك الحكم.

علا الهمسُ من جديد، لكنّ شطريِ الرجل ظلّا جامدين، إلا من ذلك التأرجح البطيء تحت خط الشمس، حيث يحرّك الزفيرُ دوّاماتٍ من جزيئات مضيئة.

«من مصلحتك أن تتكلّم، ملازم فيرا» -قال الحاكم السياسي داعماً كلام النقيب- «الثقة تقتل الرجل. حضرتك سلّمتَ لنا رأس الأفعى، فلا تحتفظ بذنبها في جيبك».

- نريد أن نعرف فروع تلك البؤرة الثائرة. حضرتك درّبتهم، ومؤكّد أنّك تعرف الكثير عنهم.

- لا أعرف شيئاً.

- لا بدّ أنك تعرف، على الأقل، مكان اختباء الهارب. لا يمكن أن يكون هرب من الجيب. لقد رآه رجالي آخر مرّة متمترساً خلف حصان ميّت، في محاولة لتغطية هروب جماعته. أعطني خيطاً. كريستوبال خارا كان يثق بك. فقل لي أين هو.

«لا أعرف شيئاً.. اتركوني!» - كرّر الصوت الباهت، وعليه أثر المرارة والنفور.

«يا لك من بائس!» -دمدم النقيب- «سأسلّمك إلى العدالة العسكريّة! وسنرى كيف ستدافع عن نفسك!».

خرج وجزمتاه تئزّان، يتبعه الحاكم السياسي.

أغلق الحارس باب المطبق وعاد شاغلُه ليعيش في الظلمة.

.3

واصلوا المطاردة بلا هوادة. قبل ثلاثة أيام، كانوا ألقوا القبض على آخر المجموعات، بعد أن قاومت في أحد الأفران حتى نفد العتاد لديها. اصطادوهم بالرصاص. من بين الذين وقعوا في الأسر سلفستري أكينو، زعيم الثائرين، بعد أن اخترقت رصاصة فخذه. عذّبوه بوحشيّة؛ بل لقد صوّروا له أنّهم سيعدمونه، لكنّهم لم يخرجوا منه بنتيجة تُذكر.

منذ ذلك الحين وعناصر فرقة الفرسان لا يفتؤون يجوبون مستنقعات كانيابيه وغاباتها، في محيط عدة فراسخ حول حطام عربة القطار، التي كانت مخبأ المتمرّدين. ظلَّ الدخان ينبعث من الأشلاء المتفحّمة وسط الجبل. أمام هيكل الحديد، وقف حارس، وأحاطت نقاط التفتيش بالمستنقعات، بين مسافة ومسافة، بينما كانت الدوريّات تمشّط الأنحاء، من على ظهور الخيل.

فتّشوا أكواخ كوستا دولثي. فتّشوها واحداً واحداً، لكنّهم توقّفوا عن التفتيش حين بلغوا أكواخ المجذومين، واكتفى الضبّاط بالنظر إليها بالمناظير من مواقع الحراسة التي تحيط بها.

حُمِّلَتْ شحنة اللحم المتمرّد في عربة قطار، لكنّهم واصلوا البحث عن الرجل الوحيد الذي لم يقع في قبضتهم، والذي أهان بمآثره كبرياء سلاح الخيّالة في باراغواري.

استجوبوا المسنّين والنساء والأطفال، في معامل الآجر ومزارع الرز، هدّدوهم بقطع المؤونة، أغروهم بالمال، ولكن، ما من أحد يعرف شيئاً، لم يفتح أحد فمه، فقد أغلقت الكراهية التي ولّدتها فظاعاتُهم أفواهَ الجميع، وأجّج قمعُهم الحقدَ الدفين في ذاكرة البالغين، قمع لا يناظره إلّا ذلك

الذي وقع عام 1912، حين سُحقت ثورة الفلّاحين، فأفرغ الهورَ من رجاله، كما أفرغه ذاك، آنذاك.

دخلوا بيوت البلدة. فتّشوها. قلبوا عاليَها سافلها.

فتّشوا الكنيسة والزرائب، وعاينوا الآبار، حتّى آخر بئرٍ منها. بدوا، في وقت من الأوقات، وكأنّهم يبحثون عن صيد ثمين، تآمر الجميع على إخفائه، لا عن سائق شاحنة مقلقلة، لمعمل من معامل الآجر. حتّى صاحب المعمل، لا يعلم عن المطلوب شيئاً، فقد أقبل دون برونو مينوريه على الشرب، وصار يمضي يومه كلّه جالساً، وقد باعد ما بين ساقيه، على أحد الكراسي في حانوت ماتيّاس سوسا، يشكو حجم ما أضرّت ثورة العمّال بمصالحه. لم يسمع قائدُ الفصيل منه إلا كلاماً مجروراً مكروراً.

«اسمع، جنرال!» – كرّر عليه الكتلانيّ العبارة بلاثه المفخّمة.

«نقيب، نقيب ماريكو» – صحّح له الآخر مستاءً.

«لا تزعل، فقد منحتك رتبتين زيادة.. لن تلبث أن تنالهما، على أيّ حال. بصحتك!» –رفع كأساً موهومة– «حسناً. اسمع، أيّها النقيب... كريستوبال خارا هذا كان فتىً طيباً. عاملاً لا نظير له. يؤدي واجبه على أحسن ما يكون. لا أفهم كيف ضلّ الطريق. كان، من حين إلى آخر، يأخذ السياح والمتأنّقين ليعاينوا عربة القطار المحشورة في الجبل، ولكن بعد أن يستأذنني، ليكسب بعض القروش. فما أدراني أنا بما يفعل؟! تلك العربة التي نقلها، قبل عشرين سنة، كاسيانو خارا، والد كريستوبال، ترتبط بذكرى ثورة أخرى. كنتَ حضرتك صبيّاً حينذاك، لكنّك لا بدّ سمعتَهم يتكلّمون عنها، تمام؟ تلك العربة هي أغرب ما في المكان.. لا أحد يعرف كيف استطاع ذلك المجنون إيصالها إلى هناك من دون سكّة. الغرباء يدفعون

النقودَ ليشاهدوا العربة، والولدُ يمتلئ زهواً وهو يفرّجهم عليها. أنا بالطبع لم أكن أستطيع أن أمنعه من فعل ذلك.

«سألتُك ما إن كان يرافق أيضاً ذلك الضابط المنفيّ» - قاطعه النقيبُ الشابّ ذو الشفتين الغليظتين والوجه الذابل، الذي احمرّت عيناه من الأرق والتوتّر، فبدا محتدّاً، غارقاً في سلطته، مزهوّاً بسلطاته.

- كان يحمله، نعم.. أظنّ أنّه كان يحمله، بعد أن يأخذ رخصة من الحاكم السياسي. لا أدري. الملازم نفسه حكى هنا ما كان الشبابُ يعدّون له العدّة في المستنقع. لماذا لا تسألونه؟ الحاكم سمع ذلك أيضاً.. ولذلك فحضراتكم هنا، أليس ذلك؟ أنا لا أعرف شيئاً.. ما أدراني أنا بهذه الأمور؟! أنا رجل عمل.. لم أعمل في السياسة قطّ!

نهض النقيب وخرج من الحانوت، وفي ظنّه أنّ الكتلانيّ اعتصم بسُكر مصطنع ليزوغ منه. امتطى صهوة فرسه، وانطلق يطوف بنقاط المراقبة.

.4

تقف الشاحنة الصغيرة فارغة، بالقرب من الأفران، حيث تركوها عشيّة الهجوم. على أحد جوانب قمرتها لافتة بدائيّة، كُتب عليها:

معمل طابوق لا إسپيرانثا

سابوكاي

في حافة السقف، كُتب، بحروف أشدّ بدائيّة، فكأنّه خُطّ بالإصبع، شعار يقول:

لا شيء يستعجلني.. لا شيء يؤخّرني

كان ذلك الاسمُ وذلك المثلُ، المكتوبان على الحطام المهجور، بين أكواخ القش وعجلات الرفع المتروكة، وسط منظر الهور، بارتفاعاته من الطين اليابس وحفره الشبيهة بفوهات القمر، يوحيان بمزحة، بمفاجأة أو لعبة صبية صغار. بين لحظة وأخرى، قد ينطّ السائق، من وراء التلال، وهو يضحك. لكنّ منظرَ حارسَي نقطة المراقبة، اللذين غفوَا على مقعديهما، وبندقية كلٌّ منهما بين ساقيه، يعكّر ذلك الانطباع، فيحيله كئيباً. خيلٌ غيرُ مسرجة، مربوطة إلى شجرة جوافة، تأكل علفها القليل، وتنفخ، في كلّ حين، لتطرد البقّ الذي يدخل فتحتي أنفها.

«لا أدري حتّى متى ستُبقي القيادة علينا هنا!» -قال أحدُ المجنّدين، وهو يهرش تحت برنيطته. مع حركته، يصطدم سيفه الطويل، الذي يتدلى من جانبه، بصفيح الشاحنة- «هنا لا نستطيع حتّى الاستحمام في الجدول، بسبب المجذومين!».

«ما يجنّن النقيب هو أن يطير ذلك العامل» -أجاب الثاني- «لا بدّ أنّه طار فعلاً، لأنّه لم يترك أيّ أثر وراءه».

يكشف القميص الممزّق عن صدره الأملط.

- وماذا عنّا نحن؟!

- لقد رُقّي مؤخّراً وهو يريد أن يثبت جدارته.

- لكنّنا أمسكنا بالجميع. فماذا يريد أكثر؟

- ذلك الذي هرب ينغّص عليه عيشته. ثمّ إنّه كالعفريت!

- رجل واحدٌ يكلّفنا أكثر ممّا كلّفنا الإمساك بتسعين رجلاً أحياء.

تهرش أظافر الإبهام والسبّابة في الشعر الأسود القاسي؛ أمّا في الأسفل، فكان السيفُ يواصل ضرباته الخفيفة.

– لا بدّ أنّه يوشك على بلوغ أعالي النهر، حيث الكثير من الثائرين ينتظرون اللحظة المناسبة لكي يهبّوا هبّة واحدة.

– ولكن، هناك جنودٌ كثيرون يتتبّعون آثارهم. ألا تذكر أنّهم بعثوا إلى الجنوب بفوج آخر من حاميتنا لتعزيز القوّات؟

«سيقع هناك، إذاً» –قال صاحب السترة العسكرية الممزّقة، غير مقتنع– «سيمسكون به هناك، بلا شكّ. فلماذا العجلة؟!».

– لكنّ فصيلنا هو الأفضل في باراغواري. لذلك فإنّ النقيب غاضب. إنّه يريد أن نمسك به نحن. ألم تسمع ما قاله أمس؟ فكيف لعامل بائس أن يفلت من أيدينا!

– النقيب ماريكو متعلّم وابن أصول. لذلك فهو معتدّ بنفسه.

«له أن يكون معتدّاً بنفسه، لكنّ مؤخّرتي تمزّقت من ثقل العدّة التي أحملها. تبّاً!» – قال من كان يهرش تحت برنيطته، باحثاً عن قمل في رأسه، ليحزّ بأسنانه ما يصطاده منها.

ضحك الآخر. ثم صمت الاثنان، وراحا يتأملان توهّج شمس العصر بين أشجار جوز الهند، تلك الشمس التي بدت وكأنّها تملأ السماء الفسيحة الصافية.

من بعيد، ومن فوق الجبل، ارتفع عمود من الدخان.

«عجباً! ما أكثر ما تأخّرت تلك العربة في أن تحترق كاملة!» –قال أصغرهم سنّاً– «ألا تظنّون أنّها مسحورة فعلاً؟».

«أرى، خواندي، أن ما من امرأة شابّة هنا في سابوكاي؟» – قال صائد القمل، ليغيّر الموضوع.

– لا بدّ من وجودهنّ. لكنّهن خائفات. يبدون جميعُهنّ عجائز.

- أو إنّهن يختبئن خوفاً منّا.

- قتلنا عشرة من عمّال معامل الآجر. حيث يموتُ الرجال، تشيخ النساءُ سريعاً. في الثورة الأخيرة حدث الشيء نفسُه في بلدتنا. كنتُ صبياً، لكنّي لاحظتُ ذلك. حين قتلوا أبي، شاب شعرُ أمي.

لكنّ الآخر أصرّ على المضيّ في الكلام عن موضوعه.

«أتمنّى لو أحظى بابنة خمسة عشر عاماً لأستمتع قليلاً، نعم» -ألقى بالبرنيطة على عينيه وارتدّ بكرسيه بعد أن وضع بندقيته بين ساقيه- «يقولون إنّ بين المجذومين معلّمة من كارابيغوا، وهي ابنة فرنسي. يبدو أنّها ما زالت تحتفظ بجمالها. رآها بعضهم في الأكواخ، تنزل إلى الجدول. كنّا نحن ندفن الجثث».

حلَّ صمتٌ أطول من سابقيه، لم يسمع أثناءه إلا صريرُ أسنان الخيل. كان الذباب يطنّ ويضايقها.

«أنا لا أعرف لماذا جئنا لقتل هؤلاء الناس» -قال ذو الصدر الأملط، مكلّماً نفسه تقريباً- «اقتلْ بلا رحمة! وهم الذين لم يفعلوا شيئاً بعد».

«الأوامرُ أوامر» -ردَّ الآخر، الذي بدا نائماً تحت برنيطته- «نحن نخدم الوطن وانتهى. فلماذا هذا الكلام الفارغ؟!».

- لا أفهم هذا، لوجي. خدمة الوطن معناها، إذاً، أن يقتل بعضُنا بعضاً؟

- هؤلاء أرادوا الثورة على الحكومة.

- لأنّ الحكومة تضغط من فوق.

- لذلك هي حكومة.

- لكنّها لا تضغط على أعوانها.

- تضغط مازحة! أبي ليبرالي وجدّي كان ليبرالياً أيضاً. لكنّهما لم

يتخلّصا من الفقر قطّ. أمّا مزرعتنا الصغيرة في ليمپو فقد راحت تصغر بعد أن ازداد عددنا، بينما ما عادت الأرض تنمو.

– أمّا أبي فلم يكن ليبرالياً ولا أحمر. مع ذلك قتلوه. لأنّه أراد أن يخفي حصانه عن عيون أتباع الحكومة، كما نحن الآن.

– يخفي حصانه؟

– حصان أشهبُ سريع العدو لا نظير له في كاغواسو. حين وصل الجنود فجأة، أدخله في الحجرة، كما نفعل هنا الآن. اختبأ مع الحصان في الحجرة الخلفيّة. وظلّ هناك معه ثلاثة أيام بانتظار أن ينصرف الجنود. لكنّ الأشهب صهل، فدخل الجنود وأرادوا اقتياد الاثنين. احتجّ أبي عليهم فأطلقوا النار عليه وأخذوا الحصان. ما زلت أذكر مشهد أمّي وهي تبكي وتنوح فوق الجسد المسجّى وتتحدّى الجنود. كان أبي مفتوح العينين، ينظر إلى الخارج. ظننتُ أنّه ينظر إلى الرقيب وهو يستدير بالحصان ويأخذه، دون أن يستطيع هو أن يتفوّه بشيء. لكنّه كان، لحظة ذاك، قد مات، وراح الذباب يتجمّع على دمه المراق في الأرض.

– لو أنّه كان ليبرالياً، خواندي، لما قتلوه، على الأقل.

«كلّا، لوچي. لا ليبرالي ولا أحمر! هناك فقط مهندمون وحفاة. ناس فوق وناس تحت. هذا هو الموجود» – كان الصدر الأجردُ يهتزّ تحت القميص الممزّق.

«وماذا سنصلح نحن؟!» – تمتم الصوتُ من تحت البرنيطة.

– يعطونك بندقية ماوزر ويأمرونك: أطلق النار! وعليك أن تطلق النار على مناهضي الحكومة. حتّى لو كان أبوك بينهم!

– لأجل ذلك نحن في الجيش، أيّها الغبيّ!

- نعم، الأوامر أوامر. وما نحن إلّا جنود.

حدّقت عينا الفتى البنّيتان فبعثت الحماس قليلاً في روح الرفيق النعسان؛ وبعد فترة، أضاف، بين متكتّم ومرتاب: «أأحكي لك شيئاً، لوچي؟!».

- ماذا؟

«أنا أطلقتُ النار في الهور» -قال وهو يشير إلى البريق الخفي الذي كان يتراقص بين الحشائش- «أطلقتُ النار، نعم، ولكن ليس عليهم».

عدّل الآخر جلسته، وهو يفرك عينيه.

- على من إذاً؟!

- أطلقتُ كلّ رصاصاتي نحو الأعلى. لم يلاحظ ذلك أحد.

«ولكن...» -لم يجد، بين غضب وخوف، الكلمات المناسبة للتعبير عن استغرابه- «ولماذا فعلتَ ذلك؟!».

- تخيّلتُ أنّ أبي سيظهر، من أيّ ناحية، فجأة، على صهوة حصانه الأشهب. فزحفتُ بين شجيرات اليوكا لكيلا أراه. كنتُ أعلم أنّي لو فتحت عيني لرأيتُه ينظر إليّ بعينيه الهامدتين وصدره المضرّج بالدم. لذلك أطلقتُ النار وفوهة البندقيّة نحو الأعلى، لكي لا يصيبه!

«أنت مجنون، خواندي!» -قال الآخر- «إن علم النقيب بذلك فلن يسامحك!».

- لكَ أن تحكي له ذلك. ما عاد ذلك يهمّني.

- لن أحكي له شيئاً. ولكن ماذا تقول لو كان رآك؟ على أيّ حال، فنحن بين أن نَقتل أو أن نُقتل. فقد كان من المحتمل أن يقتلك الثوّار.

- ولماذا نأتي نحن لنقتلهم؟ نحن حفاة مثلهم!

«ما عدنا حفاة» -قاطعه لوجي- «نحن نلبس بساطيل الجيش».

ظلَّ خواندي ينظر إلى الأفق المتلألئ، فلا يجد مكاناً يريح فيه عينيه.

.5

سيق الأسرى مكدّسين مكبّلين في عربة شحنٍ أُغلقت أبوابها بالسيور والأقفال. في ظلمة كثيفة من الغبار وضاجّة بصرير العجلات، يصعب رؤية الوجوه. كان معظم الأسرى منكفئين على الأرضيّة، يحاولون النوم مرهقين؛ بينما جلس آخرون محدودبين، مستندين على ألواح الحديد والخشب القاسية، تهدهدهم تلك الزنزانة التي تحملهم صوب جهة مجهولة. يتحرّكون فيسمعون صوتَ السلاسل التي ربطتهم أزواجاً أزواجاً، ثمّ رُبطت أطرافها إلى القضبان. كانت تلك الأغلال، التي جرى لحامها في ورشة محطة السكك الحديدية، تغني عن السيور والأقفال، التي ما عاد الغرض منها غير وقاية السجناء من عدوى خارجيّة.

منذ الليلة الماضية وهم في عربة القطار، محتجزون بلا طعام ولا شراب. حشروهم أزواجاً. وبينما كان سبّاكو الورشة الألمان يلحمون الأغلال، تحت إشراف مارثيو، راح الحراس يسقونهم الماء من زيت المكائن الذي كانوا يطفئون به مواضع التلحيم بالقرب من كعوب الأقدام، فيعلو أزيز الماء الساقط على المعدن المتوقّد. استغرقت العملية العصرَ كلّه. منذ ذلك الحين لم يدخل جوفَ الأسرى غيرُ الغضب العاجز، الذي يجري في أفواههم مع الريق الذي راح يجفّ شيئاً فشيئاً. كان جوّ العربة الخانق، المشبع برائحة العرق والبول، يضاعف الشعورَ بالعطش. أمّا الغبار فكان لا يكفّ عن التسرّب، فيترك أفواههم جافة وحناجرهم مشقّقة،

ويوقع نوباتٍ حادّة من السعال بينهم، حتّى باتوا حمولة من مرضى الربو والسلّ. ويئنّ الجرحى، لا ليخفّفوا من معاناتهم، بل ليسهّلوا على أنفسهم جرّ الأنفاس.

حين وصلوا إلى أسكوبار، وهي المحطة التي تلي ساپوكاي، اكتشفوا أنّهم محصورون في مؤخّرة قطار للركّاب. توقّف القطار للحظات. سمع الأسرى لغط الناس القليلين الواقفين عند الرصيف، وسمعوا صياح بائعات الألوخا، فبدا لهم أنه قادم من بُعدٍ سحيق.

راح دفق الغبار يتغربل فيصبغ الوصلات والمفاصل بالحمرة. حلّ المساء. من بين الأجسام المرصوصة يبرز أحدها. كان يحدّق، ومن ورائه زاوية من الزوايا، في فتحات الخشب. وجهه الملتحي منغرس في الصدر. ليس في عينيه استسلام ولا خوف، ربّما قليل من الحزن المتشنّج العاجز الذي يعتمل في صدر أسرى يجهلون مصيرهم؛ ليس فيهما إلا شيء من الوحشيّة الهادئة، الساخرة تقريباً، فكأنّه يحسب على انفراد الجانب المسلّي من الإخفاق. بدا رجلاً طويلاً وجسيماً، بالحكم على صدره. ساقه دبقة على مستوى الركبة، تحت الخرق التي تلفّها. إلى جانبه يقف رفيق «قيده»، بالغ القصر، بالغ البدانة، يدعكُ ببطء كاحله المحتقن من أثر القيد.

«إلى أين يأخذوننا؟!» – قال فجأة، لكنّ صوته ضاع بين صخب العجلات.

واصل ذو اللحية التحديق، ذاهلاً، في ثقب مضيء في مكان الماسِك، من حيث سقط أحد مساميره. بعد انقضاء بعض الوقت، بدا فيه وكأنّ النسيان طوى الموضوع، التفت الرجل الصغير المكوّر نحو الآخر وسأله ثانية: «إلى أين، حسب رأيك، سلفستري؟».

«لا أعلم» -قال له دون أن ينظر إليه- «سبق لي أن قلتُ لك، يا مديو مترو، أنّي لا أعلم. لا تستعجل.علينا الانتظار لنرى!».

- أرى أنّهم سيأخذوننا إلى پاراغواري. يقولون إنّ في ثكنة الخيّالة زنزاناتٍ جيّدة.

«لكانوا أتوا بنا سيراً. فليس بين ساپوكاي وپاراغواري أكثر من عشرة فراسخ. ولما اضطرّوا إلى تقييدنا» - قال سلفستري، وهو يطوي قدمه السليمة ويحرّك السلسلة التي تربطها.

- ليتهم أنزلونا في پاراغواري!

- وما الفرق! هل أنتَ ذاهب إلى مهرجان؟ كلما طالت الرحلة أفضل. المهم ألّا تدفع التذكرة.

- أنا عطشان!

- في پاراغواري لن يدعوك إلى جعة.

- أنا قلق أيضاً على ساقك.

- لا تقلق عليّ!

لزم الرجل المدعوّ مديو مترو الصمت، وقد عقد ذراعيه على صدره. شيء ما كان يتحرّك في فمه نصف المفتوح؛ كان لسانه يلوك لعابه. مصّ أسنانه بقوّة.

«أفكّر في كيريتو» -قال، دون أن يفتح عينيه- «ماذا صار من أمره؟ من المؤكّد أنّهم أمسكوا به».

«لن يمسكوا به» - قال ذو اللحية.

«إنّه قرد!» - هتف القصير البدين مُعجباً.

- ثكنة الخيّالة عنده كأكل المكسرات. وقد فرَّ ممّا هو أسوأ. إنّه يعيش

في هروب دائم منذ أن وُلد. لن يمسك به هؤلاء الكلاب الذين يرتدون الخاكي. عليهم أن يكونوا قروداً أكثر منه.

– وأنا الذي فكّرتُ أن أحتال عليهم حين هدّدوني بالإعدام! سأريكَ، سيّدي النقيب، أين اختبأ خارا!، صرخت به، وأنا أضغط بكلّ قوّتي على إليتي، بعد أن شفيتُ من الإمساك. هذا ما أدين لهم به، على الأقل.

التفتت رؤوسٌ أخرى وراحت تتنصّت. بل كان بعضها يبتسم في الظلمة التي ظهرت عليها خيوط من الدخان.

«هل تذكرون شجرة التيمبو التي سقطت عليها صاعقة فأحرقتها، تلك الشجرة القريبة من منحدرات كاماچوكوي؟» -استمرّ في تعديل جلسته حين رأى أن هناك من يصغي إليه، وراح يبحث عن عيون مستمعيه- «تلك الشجرة كانت جوفاء».

«نعرف ذلك، غامارّا» – قال أحدهم.

«إلى هناك ذهبنا. رافقتُ الدورية وكنتُ دليلها. بالحربة التي زوّدوني بها، نظّفتُ المجرى الذي سدّته الأعشاب. هنا اختبأ، قلتُ له، من أجل أن أقول شيئاً. لم يصدّقني ذلك النقيب الصغير. هل تسخر منّا، أيّها الأحمق؟! قال لي بأنياب الخنزير الناتئة. شعرتُ بإليتي تترطّب ثانية بإسهال الخوف. لا، سيّدي النقيب! شاهدتُ خارا يدخل هنا!» -قال وهو يقلّد حركات قائد الفصيل وصوته- «كيف له أن يدخل في هذا الثقب؟ يدخل. يكفي، سيّدي! قلت له. خارا قادر على أن يحشر نفسه حتّى في ثقب فَرْج! فرج أختك، بلا شك!، قال لي. شعرتُ أنّي لن أتمكّن من إقناعه، وأنّه قد يأمر هذه المرة بإعدامي. ليس عندي أخت، سيّدي! خارا اختبأ هنا، ثمّ لم أره! ركلني النقيب. ادخل أنتَ أيضاً إذاً!، قال لي، وظلّ يسدّد لي الركلات، والآخرون يضحكون، فكأنّه أراد أن يحشرني حشراً في ثقب الشجرة».

«ولكان تركك هناك محشوراً!» -تمتم سلفستري أكينو، من دون أن يضحك، ومدَّ فجأة ساقه المربوطة إلى ساق القصير البدين، بعد أن جرّ السلسلة بقوّة- «لأنّك قوّاد واشٍ!».

- لا، سلفستري. أنا كذبتُ على النقيب: لكي أضلّله.

«أنت لم تكذب عليه» -قاطعه ذو اللحية- «فقد اختبأ كيريتو هناك مساء، حين كنّا جميعاً جاهزين».

«لاااا!» - قال غامارّا، وقد فتح عينيه إلى أقصاها.

- لو أمسكوا به، لكنتَ أنتَ السبب.

- أنا ظننتُ...

تمتم سلفستري، بنبرة فيها شيء من التقزّز: «كان عليهم أن يضعوا اللوح في عنقك مع الملازم فيرا. هو لا يعبأ بتسليم رفاقه!».

- لكنّهم اعتقلوه أيضاً.

- للتغطية عليه! أنيق في زيّ ثوري! كان عليّ ألّا أثق به منذ البداية.

«سلفستري!» -قال الرجل القصير البدين- «أيبدو لك حقّاً أنّه باعنا؟ ألم يكن على وشك أن يُعدم بتهمة التآمر؟!».

لم يردّ ذو اللحية. حدّق من جديد في ثقب المسمار، الذي كان ينفث، نحو الداخل، دفقة من دخان راح يزداد شحوباً. كان الآخرون صامتين. أرعدت العربة، فجأة، وهي تمرّ فوق قنطرة.

بعد قليل، خفّفت العربة من سرعتها. ثمّ توقّفت، مع تصادم امتدّ إلى صفّ العربات كلّه. في الخارج، كانت همهمة الناس تعلو على الرصيف مجدّداً. كان صياح بائعات الچيبا والألوخا أقرب، هذه المرة. نهضت الأجسامُ في العتمة الكثيبة، واختلطت السلاسل باللعنات. ألصقت اللهفة

وجوهَهم بالشقوق. راح غامارّا يتجسّس جاثياً أمام ثقب المسمار. كان يبدو رجلاً مشوّهاً، من الخصر نزولاً. رأى الثكنة الكبيرة المنبسطة عند ظلال التلّ البنفسجيّة.

«سلفستري، ها قد وصلنا إلى باراغواري!» -قال دون أن يرفع بصره- «يبدو أنّهم لن ينزلونا هنا. لكانوا فتحوا الباب».

غمز ذو اللحية بحركة غير مفهومة، وأصدر أنّة مكتومة.

«يااااه، طاسة الألوخا تلك، صديقي!» -هتف غامارّا، وهو يبلّل شفتيه بلسانه- «أتمنّى لو شربتها بجرعة واحدة!».

حبا جسم آخر ليزيحه عن الثقب. كانت ظلمة المكان تغلي بتلك الأجساد والوجوه المتطلّعة الملتصقة بالألواح. ينظرون إلى بائعات الچيپا والألوخا يمررن قريباً منهم. يمدّون أيديهم نحوهنّ. يخمش بعضهم جدران العربة ويضرب عليها ويطلق صراخاً وحشيّاً.

في لحظة صمتٍ، سمعوا أحد جنود الحراسة، يقول للبائعات، متبجّحاً أمامهنّ، وهو يلوك قطعة من الچيپا قدّمنها إليه: «سنستعرض بهم في أهوار كانيابيه. سيتعفّنون في سجن أسونثيون. أو سيرسلون بهم إلى الحرب، لكيلا يثوروا مرّة أخرى!» - لم يسمعوا جيّداً كلماته الأخيرة.

«ولماذا تسوقونهم هكذا وكأنّهم حيوانات!» - احتجّت واحدة منهنّ.

«إنّهم مجرمون!» - قال الحارس.

«من يثور ليس مجرماً، سيّدي!» - قالت المرأة.

لم يروها، لكنّهم أحسّوا بوجودها. حاولوا تحديد مكانها عبر الشقوق بلا طائل. لكنّهم لاحظوا أنّ عددَ الناس الذين يحيطون بالعربة يزداد، عدد يتجاوز حدود الفضول. بدا لهم أنّ صوت تلك المرأة، كائناً من كانت،

يعكس مساندة الجميع لهم. لم يحاول الحرس تفريق الناس، لأنّهم كانوا يلوكون بشراهة وبروح تفيض عجرفة.

«إنّهم بشر، رجال مثلكم!» – واصلت المرأة القول.

«أرجو ألا يسمعكِ سيّدي الكولونيل راميريث!» – تمتم الحارس، بين جادٍّ ومازح، وهو يشير برأسه إلى الثكنة.

«إن سيّدك الكولونيل راميريث صديق مقرّب من أصدقائي!» –ردّت المرأة– «زوجته لا تشرب متّها الحلوة من دون خبز الچيپا الذي تشتريه منّي!».

«سنعتقلك أنتِ أيضاً!» – تدخّل العريف الحارس، وهو يرى الحماس الذي عمَّ المكان.

تغيّرت النبرة؛ وبات الحوارُ صراخاً بين البائعة الساخرة والحرّاس.

– ولماذا تعتقلني؟ وكيف ستأكل خبزي مجاناً؟!

اقتربت من عربة القطار، وبرزت من بين الجمهور الذي تزايد عدده. كانت فلّاحة عظيمة الجسم، غير محدّدة السنّ. يسقط ضياءُ الغروب على وجهها الأسمر المخدّد. على رأسها السلة الكبيرة التي من تحتها كانت عيناها تطلق الشرر، بين حينٍ وآخر، بسخريّة ظريفة ولاذعة، وفي إحدى يديها الطاسة مليئة بالألوخا. اقتربت من عربة القطار ببطء.

«يقولون إنّ أهل پارانا توجّهوا البارحة إلى بيّا إنكارناثيون وكاي پويته.. هل صحيح أنّ الجنوب كلّه ثار؟» – سألت متصنّعة براءة واستياءً يثيران الضحك.

تبادل الأسرى النظرات، وتوقّفوا برهة عن الضرب بقبضاتهم على الألواح.

«اسمعوا، أيّها الشباب!» - قال غامارّا، وهو جاثٍ أمام الفتحة التي علاها الغبار.

ساد توقّفٌ متوتّر، رنّت أثناءه الأغلالُ وتطاير الغبار. التصقت الوجوه من جديد بالشقوق. رأوا العريفَ يقترب من المرأة.

«خيرٌ لك أن تصمتي. أعطيني جرّة من شرابك!» - سمعوه يقول لها.

- سأعطيك. ولكن عليك أن تسمح لي أن أسقي السجناء!

كان العريف على وشك أن يسدّد لها ضربة من عقب بندقيته، لكنّه أمسك بعد ما رأى من هدوئها ونظرات وجهها النحاسي.

- عجباً! كيف لفتى طيّبٍ أن يغضب هكذا! افتح باب العربة! سيّدي!

أومأ سلفستري أكينو إلى جماعته. اشتدّ الصياح والضرب واللكم في الداخل، في صخبٍ مجنون. بدؤوا يضربون بالسلاسل وبقطع الحديد. وراحت الوجوه المحتقنة تنازع شقوق الألواح. رأوا الحرس والبائعات يومئون في هرج ومرج. وتشكّل حشدٌ صغير متراصّ. وصل ضابط من سلاح الفرسان، وشقّ طريقه بحصانه. خفَّ العريف نحوه ليبلغه الأخبار بإشارات مضطربة. كانت البائعات، ومعهنّ سلالهنّ وطاساتهنّ، يقفن مقابل العربة، بينما وقف الناس، وغالبيتهم نساء، في الخلف، ينتظرون. اقتربت بائعة الألوخا من الضابط. شاهدوها تومئ ثانية، في حركات محسوبة لكنّها صارمة، مليئة بالظرف وبالقوة. كانوا قادرين على تخمين ما كانت تقوله له، بينما الضابط يتلفّت، وهو على حصانه، إلى هذه الناحية وتلك، حائراً ونافخاً صدره. إنّه يرى أنّ المرأة الواقفة تحته تفرض كلمتها عليه، كما فرضتها على العريف.

وأخيراً وجّه أمره للعريف، بإشارة واضحة، فأخرج هذا، مطأطئ

الرأس، المفاتيح من نطاقه، وسار، على مضض، نحو العربة، التي ظلّت في مكانها، مثل تابوت كبير مغلق على مئة من الموتى العائدين إلى الحياة، يئنّون بعد أن استبدّ بهم العطش. خُلعت بعض الألواح وتشقّقت، تحت ضربات القضبان التي تحوّلت في أيديهم إلى معاول.

صمتوا حين حشر العريف المفتاح في القفل. اصطفّ الحراس إلى جانبه ليشكّلوا طوقاً. خيّم الصمتُ حتّى سُمع صريخ المزلاج ثم صرير الباب الثقيل، الذي أغلق الترابُ سكّته. صعُب عليهم تحريكها. وأخيراً فُتح البابُ، فصدر منه صريرٌ طويل، فكأنّه كان يئنّ، كما يئنّون، من العطش.

سقط ضياءُ الغروب الهادئ فجأة على الأجسام الضامرة فأضاءها، فكأنّه أضرم فيها النار. تدافعوا نحو الفراغ، في فوضى من السلاسل، بعيون ترفّ وتتلهّف. أوقفهم الجنود وأجبروهم على التراجع دفعاً بأعقاب البنادق، لكنّ بائعات الألوخا تدخّلن برمي طاساتهنّ على سطح العربة. تسلّق عدد من الفتية كالقردة للمساعدة، وصعد جنديان أو ثلاثة لفرض النظام. حينئذٍ شوهدوا وهم يعبّون الشراب، فكأنّهم يشربون للمرة الأولى في حياتهم. بل عضّ بعضهم على حافة الطاسة فراح الشراب يبلّل الوجوه المرهقة المتورّمة.

بعد برهة، باتت أرضيّة العربة دبقة زلقة. وصارت رشقات الشراب تسقط من بين الفواصل، على العشب. أراد سلفستري أكينو أن يكون آخر الشاربين. أمسك له غامارّا بالطاسة وراح يصبّ في جوفه ما تبقّى من الشراب. في تلك الأثناء، كانت النسوة يوزّعن عليهم أرغفة الخبز الشهيّة المحمّصة التي راحوا يلتهمونها التهاماً. أمّا الوجه الأسمر الجسور لتلك المرأة التي سهّلت فتح العربة فقد كان طوال الوقت يطلّ من فرجة الباب،

كانت تحمّسهم بعباراتها الظريفة اللاذعة، وكأنّهم ليسوا أسرى مصفّدين بالأغلال، بل جمعاً صاخباً في خيمة من تلك التي تُنصب في المهرجانات والأعياد. وراح الفتية ينزلون مخلّفين السلال والطاسات فارغة.

من بوّابة الثكنة، كان عسكريٌّ بدينٌ يسلّط منظاره على عربة القطار. إنّه قائد الحامية. إلى جانبه، وقف الضابط الذي كان قد أعطى الأوامر. بعد برهة، أُغلق باب العربة من جديد. دخل القائد. أدّى الحرس له التحية العسكرية بالسلاح.

وواصل قطار المسافرين مسيره، بعد أن تأخر بسبب الحادث العرضي، وراح يبتعد ويتسلّق، بكلّ طاقته، طلعة «ثيرّو ليون»، التي كان الليل يرخي سدوله عليها.

.6

لم يخضع المجذومون للاستجواب، فكان ذلك امتيازاً ردَّ إليهم قليلاً من الاعتبار. إنّهم يُمضون نهارهم خارج الأكواخ، يستعرضون، نصف عراة، إنسانيّتهم التي شابها الداء، الذي هو، في الوقت عينه، رخصة مرورهم. يستعرضون كمن يتعمّد الاستعراض.

في المَراقب، يرصد الحرسُ المرضى، القابعين تحت الأشجار، أو المغمورين بالماء في الجدول. يرصدونهم بمظهر القوي وسخرية المتعافي.

ما عادوا يبحثون بين تلك الأجسام المنتفخة عن جسم كريستوبال خارا الفتيّ القوي، ولا بين الوجوه المريضة عن وجهه النحيل الصحيح. تقرّب النواظير الوجوه من عيون الضبّاط، الذين يعلمون مقدّماً أنّهم لن

يجدوا وجهه بينها. بل يمكن القول إنّهم نسوا موضوع الهارب المطلوب. مع ذلك واصلوا النظر -ولا سيّما العرفاء والجنود، بتدقيق خاص-، نحو الأكواخ، علّهم يرون ثانية تلك المرأة الشقراء، التي بدت لهم، من بعيد، شابة فاتنة.

رأوها، أوّلَ عهدهم بالمكان، ساعة الغروب، وهي في طريقها إلى الجدول. ولكن، سرعان ما اختفى أثرها في الدرب المؤدي إلى الجبل. استكشف الجنود المكان سرّاً وبصمت. لم يروا غير مرضى يستحمّون لغسل قروحهم. ما من أثرٍ لها. لكنَ صورتها الخاطفة ظلّت مطبوعة في عيونهم؛ وما كان لقوام ممشوق كقوامها، ولا لشعر حريري كشعرها، أن يكونا قوام مجذومة أو شعرها. وهكذا كانت أسطورة إيريس، ابنة الفرنسي، ومعلّمة «كاراپيغوا» السابقة، التي تركها أهلها القساة هناك، موضوعَ حديث الحرس في المراقب. وتكفّل الخيال بالبقيّة. كانت الوحدة والضجرُ وأجواءُ الموت الخانقة، التي تجنّن الطباع، تحرقُ أعصابَ الجنود. في الليل، يتأمّلون القمر، بالحفر الخضر على وجهه، فيتصوّرونه مريضاً كتلك المرأة. لكنّهم لم يروها ثانية.

حين حُشر الأسرى، عصراً، في عربة الشحن، كان النقيب ماريكو يقف في أحد المراقب. حدث هرجٌ ومرجٌ بين الرجال. أرسل العريف بإشارة إلى رئيسه.

- انظر سيّدي. إنّها تلك!

استدار ماريكو بسرعة فوق حصانه. رأوا المرأة تخرج من أحد الأكواخ وتسير، بخطاً وئيدة، بين أشجار جوز الهند. تسمّر الجنود. وانحسرت إيماءة الامتعاض التي ارتسمت على وجه الضابط، وحلَّ محلّها ذهولُ الجنود، فلا شكّ أنّه كان ينتظر رؤية شيء آخر.

كانت تلك المرأة، وشمسُ المغرب من خلفها، قد تحوّلت، من بُعد المسافة وطولِ الانتظار، إلى طيفٍ يمكن أن يتلاشى ثانية ومعه لغزه. مشيتها تنقل حركة إيقاعيّة إلى أطرافها. يحرّك الهواءُ شعرَها الذي يغطّي ظهرها. أسمالها ترسم تفاصيل جسمها، فخذان مكتنزان، وخصرٌ أهيف ميّاس. تلقي أشجار جوز الهند عليها بظلال كؤوسها، فتعود هيئتها، بين الفينة والفينة، ضبابيّة، حتّى ليظنّ الناظر إليها أنّ الحلمَ والواقع يتنازعان لرسم صورتها.

عندئذٍ، دلفت المرأة إلى عطفة في الطريق؛ استدارت لتكون في مواجهتهم. وراحت، خطوةً خطوة، تنعش فيهم الآمال وتزيد من الترقّب والتشوّق. ظهرت لهم صورٌ أخرى بالقرب من الأكواخ، لكنّ العيون كانت مسمّرة في تلك المرأة، التي كانت تمرّ أمامَهم مختالة متبخترة، وقد طأطأت قليلاً رأسها. ها هم أولاء يرون صورتها جانبيّة، لن يلبثوا أن يروا وجهها، قبل أن تدخل في الأيكة.

ركّز النقيب منظارَه، من على صهوة حصانه، وعدّل الزاوية. بدأتْ شفتاه المكتنزتان ترتجفان، وأرنبتا أنفه المعقوف ترتفعان وتنخفضان بين أسطوانتي المنظار. ترك المنظارَ يسقط على صدره باستياء شديد، وأطلق كلمة نابية. خفَّ الرجالُ، وقد أذهلتهم رؤيتها، وأدّى العريف التحيّة، بعد أن ظنّ أنّ الضابط وجّه لهم أمراً.

اختفت المرأة، فعادوا يستنشقون تلك الرائحة المقرفة التي يحملها النسيم من صوب الأكواخ.

همز النقيب حصانه وابتعد، حزيناً، عن المَرقب، صوب البلدة، يحفّ به حرّاسه.

حلَّ الظلام، بينما كان يمرّ بالمقبرة، منتصفَ الطريق بين المستنقعات

والبلدة. لكنّه استطاع أن يميّز، في غمرة غضبه، جسماً أثار ريبته. أوقف حصانَه وسحب مسدّسَه وصرخ: «قف!». انسحب الجسم بحذر. أطلق النقيبُ النار عليه، لكنّه أخطأه، في ما يبدو، لأنّ الجسم قفز بين الأحراج وابتعد عبر الحقل، متسلّلاً بسرعة البرق، ومنحنياً ليحرم مُلاحِقَه من أيّ قدرة على إصابة هدفه. في غمرة عصبيّته وهيجانه، أفرغ النقيبُ رصاصَ مسدّسِه في ذلك الشبح، ولكن بدا أنّه لم يصبه. حتّى استطاع أخيراً أن يجندله، قريباً من الأسلاك المحيطة بالمقبرة. خفَّ إلى المكان. كان الشبحُ ما يزال يرفس، من تشنّجات الاحتضار. أجهز الحراس، الذين وصلوا في جمع، على الشبح.

«وأخيراً سقط البائس التعيس!» - صرخ النقيب بصوت مضطرب.

كان الجميع يعرفون إلى من كان يشير. مع ذلك، فقد ظلّوا برهة حائرين. في تلك العتمة، لم يكن حجم الجسم يوحي بأنّه جسمُ رجل، على الأقل، الرجل الذي يبحثون عنه. ربّما اعتقدوا أنّه انكمش من صوت الرصاص ليبدو كالعباءة التي تغطّي بدنَه كاملاً.

«هيّا انزلوا واكشفوا عليه!» - صاح بهم النقيب.

ترجّل حارسان، وكشفا على الجثّة. ظهرت الساقان النحيفتان المكسورتان، ثمّ البطن المتفخة، وأخيراً، بان الرأسُ المدبّبُ بلحيته، ملطّخاً بخيط من الدم.

«إنّه جَدْي، سيّدي!» - تمتم أحد الجنود، وهو يحمل قائمة الصوف الملطّخ.

اختنق قائد الفصيل بغضبه. كانت المرّة الأولى التي يراه جنوده يفقد أعصابه. وراحت جزمته تبحث عن موضع تنحشر فيه، فيعلو صوتُ حديد ويضطرب الحصان خوفاً.

«هذا الحيوان لي» - ارتفع من خلفهم صوت امرأة. استدار النقيب.

- من أنتِ؟

- أنا ماريّا ريغالادا كاثريه.

كان الجسم الغامض الصغير يقف جريئاً بين الخيل والفرسان.

«أردتِ أن تسخري منّا؟!» - تمتم النقيب القاسي.

«كلّا. الجدي لي» - كرّرت بصوت قويّ ثابت.

- وكيف تعرفين أنّه لكِ؟

- من الكيس.

- لماذا غطّيتِه؟هل خشيتِ أن نسرقه منك؟!

«كان خائفاً من الرصاص» -قالت ماريا ريغالادا، بعد أن فكّرت قليلاً- «لذلك غطّيتُه وحبسته».

- ثمّ أطلقتِه في طريقي، لتسخري منّي!

- أبداً. كلّ ما في الأمر أنّه فرَّ منّي. انطلق من الكيس وفرّ.

«أين تسكنين؟» - هدأ صوت النقيب.

- هناك.

- في المقبرة؟

- بالقرب منها.

- ألا تخافين؟

- لا. لقد ولدت هناك.أنا حفّارة القبور.

«عجباً! امرأة مُشعرة الصدر!» - قهقه النقيب، فوجد الجنود أنفسهم مجبرين على مجاراته.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«صحيح، سيّدي» -أكّد أحد الحرّاس- «إنّها حفّارة القبور».

- وهل ستدفنين الجدي؟

- أستطيع أن أقطّعه وأقدّد لحمه.

- ألا يبدو لك أنّه سيكون مؤونة كثيرة على شخص واحد؟

- أنا أعتني بالمرضى أيضاً. في هذه الأنحاء يعزّ اللحم. فالفقر هنا كثير. وسيصبح الآن أكثر.

مع الصمت، علا سكونُ الجبل وصمته. على شجرة قريبة، مزّق بومٌ نسيجَ صراخه. وراح القمرُ يحلّق بوجهه المجذوم فوق المستنقع.

«احملوا الجدي إلى بيتها!» - أمر الكابتن جنوده، وانطلق هو بحصانه.

بعد نصف ساعة، وصل إلى البلدة. حين مرَّ من أمام البلديّة، لاحظ حركة غير معهودة. رأى مجموعة من النساء يضعن اللمسات الأخيرة على زينة الصالة، التي مُلئت بأعلام ملوّنة وباقات من الكاڤو. من السقف ومن عرائش الكروم في الباحة، تتدلّى أعلام وقناديل لم توقد بعد.

حين لاحظت الصبايا مرورَ النقيب، ازددنَ نشاطاً، على الرغم من أنّ كلّ شيء كان جاهزاً. تدافعن، من دون وجهة ولا هدف، وأسرفن في إيماءات الدلال والغنج.

خرج الحاكم السياسي للقائه.

- كيف حالك، سيّدي النقيب؟!

تمتم ماريكو، عابساً، بالتحيّة.

- قبل لحظات سمعنا إطلاق نار من ناحية المقبرة. هل من جديد؟

- لا. لا شيء. إنذار كاذب.

أشار الحاكم إلى البناء الذي كانت النسوة النشيطات قد زيّنّه.

- هل رأيت، حضرة النقيب، الحماس كبير في التحضير لحفلة هذه الليلة؟

«حفلة؟» - كرّر لا إرادياً.

- طبعاً! هل نسيت؟ التكريم الذي أعدّه أهل سابوكاي للاحتفاء بكم!

- ها!

- لقد عملَتْ سيّدات لجنة دعم الهيكل والمعلّمات بجدّ. يطلبن رضا حضرتك. الشابات منهنّ يعلّقن آمالهن على ضبّاطك. فالنساء، كما تعلم، لا يضيّعن فرصة كهذه! ستأتي حتّى نساء الرهبانيّة الثالثة!

ضحك بخبث، وهو يسير جنب الحصان، ويضرب ببراجمه على جزمة النقيب.

«هلّا رافقتني إلى الحانوت؟!» -قال النقيب- «أشعر بالحاجة إلى شرب لتر من عرق الأعشاب».

- لم لا!

شاهدت الفتياتُ، محبطاتٍ، بطلَ الهور يبتعد في الشارع وهو منحنٍ على حصانه.

.7

راحت ماريا ريغالادا تطيّب أضلاع الجدي على شرر القنديل المركون تحت سقيفة الكوخ. وجلس ابنها القرفصاء، على جانبٍ، أمام صينيّة، وهو يفتح الأحشاء وينظّفها.

وفجأة ارتسمت على وجه الصبي إيماءة دهشة، بينما كان ينظّف بسكينه كبد الحيوان.

«رصاصة أخرى!» - أخرجها وألقى بها بعيداً.

راحت ماريا ريغالادا تقطّع اللحم بمهارة. رفع الصبيّ عينيه نحوها، باحثاً عن اتصال أكثر مباشرة، فقد كان الصمتُ والعتمة يثقلان عليه ويضيّقان الخناق.

- ظننتُ، في البداية، أنّهم أمسكوا به. بدا الرصاص وكأنّه يُطلق داخل المقبرة.

أومأت إليه أمّه: «قد يسمعوننا، قد قلتُ لكَ ذلك، أليخو!» - همست.

تطلّع الصبيّ إلى ما حوله، ثم واصل كلامه بصوتٍ قريب من الهمس.

- كنتُ قادماً من المدرسة مع أصحابي. سمعتُ صوتَ الرصاص، كدتُ أهتف باسم كيريتو. ركض أصحابي وبقيتُ وحدي. حين جئتُ عبرَ المقبرة، أردتُ الدخول، لكنّي رأيتُ الخيل قربَ السياج. اقتربت ببطء في الظلمة ورأيتك تتكلّمين معهم. ألم تشعري بالخوف، أمّي؟!

- كلّا.

- ألم يكن في إمكانهم أن يعتقلوك؟

- ولماذا يعتقلونني؟

- الجنود يعتقلون من يشاؤون.

بدت عينا الصبي الزرقاوان في العتمة بقعتين مائيتين، تتوهّجان إعجاباً بأمّه.

- لو لم أذهب لوقع المحظور.

- لماذا؟

- كانوا سيبحثون عن صاحب الجدي. كانوا سيفتّشون المكان كلّه ثانية. وربّما عثروا هذه المرّة على كيريتو. ذهبتُ إليهم لكي ينصرفوا.

- بل لقد أعطوكِ الجدي.

- الجديُ جديُنا.

- صحيح، لكنّ العسكريّ كان غاضباً. أنا سمعته حين قال لكِ إنّك تسخرين منه. كان من الممكن أن يأخذوه.

- ساعدوني في حمله إلى هنا. ولم يقع لكيريتو سوء.

راح الصبيّ يفرّغ المصارين، التي امتلأت دماً وقذارة.

«لا أفهم كيف لم يعثروا عليه إلى الآن» -قال الفتى متسائلاً- «لم يبقَ لهم إلا أن يفتّشوا هنا!».

- إنّه يعرف ماذا يفعل.

- يعرف أنّهم لن يبحثوا عنه هناك؟

- يعرف. حين وجدتُه ذلك الصباح بين الأحراج، شعرتُ بالخوف. ظننتُ أنّ ميّتاً فتح قبرَه وخرج. فلا مطر سقط ولا شيء. حينئذٍ قال لي: لا تخافي، ماريا ريغالادا. إن أبقيتِني هنا، فلن يعثروا عليّ. هم يبحثون عن رجل حيّ، وهنا لا يسكن إلا الموتى، قال لي.. وكان يبدو ميّتاً حقّاً في أرض الموتى. لذلك فهم لا يبحثون عنه هناك.

كان يصعب على رأس الفتى الصغير فهم ذلك التكتيك الشيطاني المعقّد.

أخرجت ماريا ريغالادا من أحد الفخذين شرائح لعمل الچاركي[37]، وكانت تجيد استخراجها رقيقة مثل قشور البرتقال، وإن كان عليها أن

(37) Charque أو Charqui نوع من اللحم المقدّد.

تضاعف انتباهها لأنّ لحم الجدي رقيق كالرغوة، فضلاً عن تلك الثقوب المحترقة التي تقطع الشريحة، بين الحين والحين.

ملأت رائحة الجدي النتنة الباحة الظليلة، حيث تشابكت أشجارُ البرتقال. ذهب أليخو لرمي الفضلات. صمت برهة. سمعته أمّه يبول في الحفرة. ثمّ عاد وهو يجرجر قدميه، وقد كسا ضياء القمر شعره بالزرقة، والتصق النمش مثل دانتيل من مسحوق التالك على خدّيه، وعلت وجهَه مسحةُ الغموض التي تكسو وجوه الأطفال الساهرين حين يكون عليهم أن يكونوا نياماً.

واصلا العمل حتّى استدار القمر إلى الجانب الآخر من السماء واختفى، كما كان يعرف أليخو، في جوف بحيرة إيبوا، وراء الجبال البعيدة. من حين إلى آخر، يُسمع، من ناحية الهور، رصاصٌ متفرّق يُطلق في المراقب، ويُشاهَد ومضُه المتقطّع، صغيراً مثل شرر عود الكبريت.

ذهبت ماريا ريغالادا لمعاينة الفرن الذي أوقدته على نار هادئة. حملت بعض الجمرات في قرميدة لتُحمّي فوقها قطعة من حديد مصقول لها مقبض من خشب.

حينئذٍ دخلا. كان في حجرة الكوخ منحوتة كبيرة لسان إغناثيو، يُقاس عُمرُها بالشقوق التي على خشبها الأسود. منحوتات أخرى، أصغر حجماً، قضمتها الفأس، بصمات ذلك الرجل، ذلك الطبيب الأجنبي الذي أنشأ جماعة المجذومين، ثمّ اختفى، مخلّفاً طيفَ جنونِه المعطاء وحضورَه المندفع وذكراه الباقية في المرأة. ظلّت ماريا ريغالادا، بلا شك، تنتظر ألكسي دبروفسكي. وتشهد أعقابُ الشموع، وتشهد خشبة الرفّ المليئة بالشحم، لا على تعلّقٍ وشوقٍ وصبر وحسب، بل على أمل وطيد

يحمل، نحو مستقبل مجهول، حقيقة إيمان هو أقوى من أيّ عائق، لأنّ هدفه إنسانيّ بسيط. وماذا كان الأمل في نظر ماريا ريغالادا غير «ذكرى ما لم تنله ولم تمتلكه»؟ ذكرى تجسّدت في ذلك الطفل الذي راح يكبر جنبها، وينتظر، كما تنتظر، أباه الذي لا يعرفه.

قلّبت ماريا ريغالادا في صندوق من الجلد وأخرجت ملابسَ رجاليّة. رفعت من على الجمر قطعة الحديد المحمّاة، لتكوي بها تلك الملابس وتزيل عنها طيّاتها وثناياها. نظر إليها أليخو بحماسٍ مفاجئ أحيت قسمات وجهه النائمة.

– أهذه ملابس أبي؟

– لا. ملابس جدّك.

كان الصبيّ يجهل أيضاً أنّه سليل عائلة كاثيريه، التي عمل رجالها، منذ الحرب العظيمة، في حفر القبور في كوستا دولثي. أمّا ما صار يشغله الآن فأمور أخرى، إذ ما عادت المقبرة أرضاً للأموات، بل مخبأً لرجل من المستنقع، عليه أن يهرب من الموت بكلّ طريقة.

– أهذه لكيريتو؟

– نعم.

– وهل سيذهب بها إلى الحفلة؟

– نعم.

«لكنّ الحفلة للعسكر، أمّي!» -قال محتجّاً في داخله- «وقد يمسكون به!».

– هو يريد الذهاب. إنّه يعرف ما يفعله، وعلينا أن نساعده. هو لا يستطيع أن يظلّ في المقبرة طوال الوقت. فإن مات أحدٌ من البلدة فسيأتون

لدفنه. دون كليماكو كابانياس مريض، وقد يموت بين يومٍ وآخر. ولمّا كان هو قاضي الصلح، فجنازته ستكون كبيرة.

«وإن ذهب إلى الحفلة فسيمسكون به!» - كرّر الصبيّ، وقد بدا صوته من شدة قلقه وكأنّه شاخ.

- لن يبحثوا عنه هناك. طريق البلدة لا تخضع لمراقبتهم.

«وإن وقع له ما وقع للجدي؟» - قال، ليس ساخراً، بل مقتنعاً.

«هو يعرف ما يفعل» - كرّرَت الأم؛ وبدا أنّها كانت تريد أن تخرجه من الخطة الطائشة، التي تبدو، في معناها، شبيهة بلعب الأطفال.

- قال لي كيريتو أمس إنّه يتمنّى أن يختبئ عند المجذومين. على الأقل، لحين انصراف الجنود.

- لكنه لا يستطيع الدخول هناك. فثمّة حراسات. وهم لا يدعون أحداً غيري يذهب إلى الأكواخ.

«فإذاً...» -تثاءب الصبيّ كمن استسلم لما لا بدّ منه- «فمن المؤكّد أنّه يريد هذه الليلة أن يفوز بالتلال، تلال الجانب الآخر من الطرق».

- نعم، يا ولدي. عليه أن يعيش لينجز واجباته.

- وما هي واجباته أمّي؟

- الكفاح من أجل أن يتغيّر ما نحن فيه.. هيّا، حان وقت نومك!

نهض أليخو متثاقلاً وذهب إلى سريره.

نام في الحال. ثمّة شيء من البِشارة في ذلك الطفل، المحروس في وحدة نومه، فكأنّه يتحصّن بأرض حرام، أرض تمتزج فيها حدود الماضي بحدود المستقبل. مع ذلك، فقد أنجبه الذهول، ليقدّم الشهادة على براءة

عرقٍ بشري ونقائه، عرق لا يعرف الفساد، ففيه، وعن طريقه، يعود الزمن، كلّ الزمن، ليبدأ من جديد.

نظرت إليه أمّه لحظة. حين انتهت من كيّ القميص والبنطلون، فتحت الخزانة من جديد وأخرجت فستاناً بدأت تعدّل طيّاته، مُطرِقةً. بلّلت إصبعها بلعابها ومرّرته على صدغيها، بعد أن شعرت بأنّ الصمت يضغط عليهما. ثمّ جرّبت ذلك مع المكواة فلم تسمع لها أزيز.

خرجت في الظلمة للاغتسال. تميل صورة الكوخ بين أخيلة وظلال. ما عادت نيران المراقب تومض من بعيد. في الطريق، يُسمع صخبُ الجنود، الذاهبين إلى الحفلة. ترتدّ الضحكات ووقعُ الحوافر على حيطان الكوخ. بدأت ترتدي ملابسها. مشّطت شعرها، وهي تصغي بسمعها إلى الليل. وبعد أن دثّرت ولدها بالبطانية المتآكلة، حملت ملابسَ الرجل وأطفأت القنديل وخرجت، ثمّ أغلقت الباب بالمزلاج. نظرت من حولها، واتخذت طريقها صوب المقبرة.

.8

الحفلة في أوجها، والصالة والباحة تغصّان بالحضور.

أغلبية الحاضرين يرتدون الزيّ العسكري. بدا عليهم أنّهم لم يحلقوا لحاهم من أيام، وكسا ملابسَهم وجزماتهم الوحلُ اليابس، وفاحت منهم رائحة العرق: عرق خيولهم، وعرق أجسامهم، فضلاً عن رائحة الهور النتنة. لكنّهم كانوا جميعاً فرحين مزهوّين، فكأنّهم يتحرّكون مغمورين برائحة ذكيّة هي رائحة المعسكر، رائحة تضفي على الحفلة، ورغم كلّ

شيء، نكهة خاصة. فالحفلة تقام تكريماً لأبطال المستنقع، لذلك فإنّ تلك الرائحة الذكوريّة هي خير احتفال وخير احتفاء، فهي تثير النساء كما تثير رائحة الظربان أقنان الدجاج.

في الصالة، التي أنارتها مصابيح الكربيد، وقف الضبّاط وضبّاط الصفّ، تحيط بهم عِلْيةُ القوم وصفوة المجتمع: تجّار الماشية والمُلّاك وأعضاءُ المجلس البلدي. حتّى العاملون في السكك الحديديّة. والكاهن، بالطبع. كلّ هؤلاء كانوا يشكّلون، في صدر الصالة، نخبة تحيط بقائد الوحدة، الذي احتقنت عيناه وجفّ لسانُه.

تكفّلت سيّدات لجنة الاحتفال بمهمة التشريفات، ووقفن مستعدّات لخدمة البوفيه، تساعدهنّ المعلّمات والفتيات اللائي كنّ يتناوبن خدمة المدعوّين. أحاطت أغلب الفتيات بالضبّاط الشباب الثلاثة، ورحن يغدقن عليهم دلالاً وغنجاً، يتبسمن لهم، ويثرن أنظارهم ومشاعرهم بفساتين الأورغانزا، حتّى صرفنهم عن كلّ ما يحيط بهم وشغلنهم. أمّا الفتيات الأقل شباباً وجاذبيّة فقد اكتفين بضبّاط الصفّ، وكانوا أكثر عدداً وأسهل منالاً. أمّا فتيات البوفيه المناوبات فقد اندسسن بين مجاميع الراقصين من شبّان وشابّات، ينظرن إليهم بغيرة وحسد، ويبحثن عن اللحظة المواتية للانعتاق من أقداح الشراب أو أواني الكروكيت والحلوى، التي غُرست في كلّ واحدٍ منها نكّاشة أسنان تحمل علماً صغيراً.

لم يرقص النقيب ماريكو، وهو ما أثار استغراب الجميع، شباباً وشيوخاً. إنّه فتى شابّ، لكنّ الحياة أكسبته نضجاً قسرياً. إنّه شابّ يجد في نبرة أهل «الفوق» المتعالية ما يعوّضه عن صغر سنّه. اكتفى بمراقبة الحفلة والنظر، بنظرة العارف الخفيّة السريعة، بين دردشة ودردشة، إلى الفتيات

اللائي كنّ يرقصن، من دون أن يتوقّف عند واحدة بعينها. يعاودن صبّ الشراب في كأسه، فيشرب ويشرب، ولكن ما من أحد يستطيع أن يقول إنّ قائد الوحدة لم يكن رجل مجتمع.

كان صخب الحاضرين يخنق الموسيقا، التي كانت تصدح بها الفرقة الصغيرة المكوّنة من كمان وهارپ وثلاثة غيتارات منصوبة على منصّة: پولكا من بعد پولكا[26]، بلا توقّف؛ كان عازف الهارپ، الذي بدا أعمى، أكثرهم نشاطاً، فقد كان يواصل العزف حتّى في التوقّفات، وقد ألصق وجهه بالأوتار، فكأنّه أصمّ، فوق ما هو أعمى.

في الباحة، تجمّع المتفرّجون وناسُ الدرجة الثانية، ممّن حضروا لأسباب شتّى، وخصوصاً لرؤية رجال سلاح الفرسان. هناك يرقص الجنود؛ أكثر من مئة واحد منهم، بكامل جهازهم، وسيوفهم المعلّقة في حمّالاتها، يرقصون، في ظلّ العريشة المتقطّع، ملتصقين بالشابات الحافيات، وقد انعكست عليهم ألوان المصابيح. تصعد انبعاثات الغبار من الأرضيّة فتعلق أجسامهم المتراصّة، وتمحو وجوهاً ملتحية أو ملطاً، ووجوهاً غامضة للنساء اللائي كنّ يتحرّكن بين أذرع الجنود.

أمّا صوت الموسيقا، الذي كان يتسلّل بحياء إلى الصالة، فما كان يُسمع إلا بصعوبة، حتّى إنّ الجنود كانوا يرقصون على ما يحفظونه من تلك الموسيقا، وعلى وقع جوارحهم، بالأيادي التي تُطبق على الخاصرات أو التي تضغط فجأة على الأرداف، بينما تؤجّج الرغبة العيونَ البرّاقة. هناك، في تلك الساعة، كانت رائحة المعسكر تنبعث قويّة من بدلات العسكر المتعرّقة.

هناك، وفي تلك الساعة، لمح برونو مينوريه، وكان يتفرّج على ما كان

يدعوه بـ«عربدة العسكر»، أو ظنّ أنّه لمح، على بصيص القناديل الملوّنة، وجهاً يعرفه، الوجه الوحيد الذي لم يكن يتوقّع أن يراه هناك. تقرّب أكثر، فرأى ما أذهله. رأى سائقه يرقص مع حفّارة القبور، بين المدنيين القليلين الذين كانوا يرقصون حفاة وقد غطّت القبّعة وجوههم، حتّى لكأنّهم يشعرون بالخجل من وجودهم هناك.

ابتعد الكتلاني متعثّراً فكأنّه سكر فجأة، وهو ما لم يكن يثير استغراب من يعرفه. وسمعه البعض يتمتم، وهو ينصرف، بكلام غير مفهوم: «يا للمجنون.. يا للمجنون!».

قارب الوقت منتصف الليل، لأنّ الكاهن نهض في إحدى التوقّفات وودّع المحتفى به الرئيس.

– الحفلة رائعة، ولكن عليّ الانصراف لأقيم القدّاس غداً باكراً.

«أتفهّم. أشكر لك حضورك!» – قال النقيب.

«سأقيم القدّاس من أجل مساعيك» –صافحه بودّ– «ولكي يديم الربّ عليك بركته».

«شكراً جزيلاً، أبانا!» – أدى التحيّة العسكرية له.

خرج الكاهنُ، وخرجت وراءه، وعلى وجوههن علامات الورع والتقوى، راهبات الإخوانية الثلاثيّة، اللائي كنّ يثرثرن في إحدى الزوايا.

تقاطعن مع دون برونو، الذي دخل وهو يبحث كالمجنون عن النقيب. أفسح لنفسه الطريق بصعوبة، وأخيراً وصل إلى حيث كان النقيب. أخذه من ذراعه وانتحى به جانباً، في مشهد يجمع بين الغموض والخوف، أثار استغراب أعضاء المجلس البلدي والتجّار.

«سيّدي.. عرفتُ مكان الرجل!» – قال له من دون مقدّمات.

«أيّ رجل؟» - حدّقت عيناه الحمراوان في محدّثه، فكأنّه يحاول أن يرى بوضوح جسماً مشوّشاً.

- كريستوبال خارا، سائقي. الرجل الذي تبحثون عنه!

- أين هو؟

ارتاب الكتلاني. رفع عينيه إلى السماء، فكأنّه رأى صدعاً عميقاً متوهّجاً ينفتح فجأة. لا أحد يعلم بذلك، حتّى هو نفسه لا يعلم ما إن كان سيشي بكريستوبال خارا أم إنّه يحاول أن ينسج لصالحه كذبة مجنونة، أو عذراً مستحيلاً وغريباً، ربّما أكثر استحالة وغرابة من حضور ذلك الرجل إلى هناك، لكي يلحق بكلّ أعدائه، تلك الإهانة، بشجاعة شيطانية يائسة. ربّما أدرك الكتلاني فجأة عظم المغامرة وقرّر أن يخاطر بحياته ليدافع عنها، ويعمل على أن تنجح بعيداً عن الحدود المسموح بها.

لم يعلم بذلك أحد، ولن يعلم به أبداً، لأنّ هرجاً شديداً وقع في تلك اللحظة ملأ الصالة والباحة، وحتّى حشد المتفرّجين، بالصراخ والركض.

«المجذومون! المجذومون!» - سُمع صراخ النساء المفزوعات.

وقع هرجٌ شديدٌ وصل صداه إلى صفوف الموسيقيين والضبّاط والجنود. وظلّ عازف الهارپ يعزف، لا يرى شيئاً ولا يسمع. وظلّ النقيب ماريكو يقلّب عينيه مأخوذاً بذلك الهروب الجماعي. رأى، حينئذٍ، وكأنّه في كابوس كبير، عدداً من المجذومين، مقروحين منتفخي الأبدان، يرقصون في أزواج، على ضوء القناديل الشاحب.

في ظلمة العريشة، راح كريستوبال خارا وماريا ريغالادا يرقصان بين رؤوس السباع والأجسام المشوّهة. واختفت رائحة المعسكر النتنة، بعد أن ابتلعتها رائحة نتنة أخرى وحشية دبقة. تجمّعوا حوله. ربّما لمح

كريستوبال ابتسامة تواطؤ في الأقنعة المتقيّحة التي اقتربت منه، في حلقة راحت تضيق وتضيق. أمّا وجه ماريا ريغالادا فقد ارتسم عليه تعبير هادئ وغامض.

خرجا من دون عجلة، يحميهم حرسُ الأشباح المجسّدين أولئك، بينما استمرّ عازف الهارپ، في الصالة الخالية، يعزف، بحماس، قطعة من موسيقا غالوپا[38].

---

(38) Galopa misionera: موسيقا شعبية راقصة اشتهرت بها محافظة مسيونيس في پاراغواي.

الفصل السابع

سجناء

.1

1 كانون الثاني (1932)

عام جديد. هنا، في سجن «پينيا هيرموسا» العسكري، نكاد لا نشعر بمرور الوقت. تمرّ الأيام على السجناء الخمسين المنفيين إلى هذه الجزيرة الصغيرة رتيبة متشابهة. نرسو وسط تيار بطيء متناوب، يبلغ عرضه أكثر من كيلومتر، وتنبعث منه، بسبب انخفاض منسوبه، رائحة وحلٍ سخّنته الشمس. تنظر إليه في ساعات معيّنة، فيبدو لك راكداً، ساكناً، ميّتاً. وعندئذٍ يخامرك شعور بأنّ الجبل يصعد على النهر، بين المنحدرات المتلألئة البعيدة.

يصل «لَنْش» حرس الحدود في رحلته الشهريّة، حاملاً المؤونة والبريد. وربّما أتى بنزيل جديد. في الشهر الماضي حمل إلينا فاكوندو ميدينا، وهو زعيم جامعي، يدعونه ثوردو [= الأيسر] بسبب أفكاره اليساريّة. يبدو أنّه كان متورّطاً في أحداث تشرين الأول في أسونثيون، التي انتهت بإطلاق

النار على الطلبة أمام قصر الحكومة، بعد أن توجّهت حشودهم إلى هناك للمطالبة بالدفاع عن منطقة «چاكو» إزاء ابتلاع بوليفيا لأراضيها.

مع ثوردو ميدينا، بات عدد المعتقلين المدنيين ستة. إنّهم كالفائضين، لكنّ الفوارق بيننا لا تلاحظ، لأننا جميعا تقريباً نسير بسراويل قصيرة.

الليلة البارحة كان الطعام والشراب مبذولين للجميع. طبخوا الخراف الثلاثة التي اشتريناها بالمشاركة، وجاء بها المركب الأسبوع الماضي. وهكذا ائتلف شملنا، مسجونين وسجّانين، على مائدة واحدة. بل لقد أكل المديرُ معنا وشرب. بدأ بكلمة وطنيّة مملّة اختتمها بتمنّياته «للرفاق المسجونين الذين ينتظرون إعادة تأهيلهم...». ثمّ لم يلبث أن انقضّ على الوليمة كالآخرين. عند انتصاف الليل، أطفأ بطلقة من مسدّسه أحد القناديل، معطياً بذلك إشارة الهجوم على الخراف المشويّة. يروق للنقيب ثاياس أن يحكي لهم، مزهوّاً، أنّه بطل في الرماية؛ وقد أحيل إلى خدمة الاحتياط وكلّفوه بالإشراف على السجناء. أطلق الحرسُ النار أيضاً من بنادقهم، فأيقظوا الببغاء، التي لم يهدأ صراخها إلا بعد حين.

بعد وجبة الخراف المشويّة، عزف مينيو على أكورديونه، مدندناً بما تيسّر له من العزف، ورافقه أحد الجنود على غيتاره. پولكا وجِعة. ثمّ تشكّلت أزواج من الراقصين. محاكاة لحفلة راقصة فجّة بين رجال ذكور. كانت العيون الكدرة والأيدي المنفعلة تكشف، رغم أجواء الفرح والمرح، عن غياب المرأة. فهنا لا وجود حتّى للهنديات من قبيلة الچولوپي، اللائي يكثرن في «پويرتو كاسادو». ظلّ كرش ثاياس يهتزّ من الضحك، حتّى انسحب لينام، فتعاون على حمله العريف وجنديان.

كنتُ أتفرّج على الحفلة من الظلمة، وأنا أستندُ على شجرة. انسحبتُ كي لا أستمرّ في الشرب، فالجعة لا تناسبني، حتّى قبل أن أذوقها. ربّما

بسبب ما حدث. تقيّأتُ ما شربت، فشعرتُ بتحسّن. حين رأيت مبلغَ سكرهم، فكّرتُ في خطّة الهرب التي وضعتُها منذ زمن. بدت لي الفرصة مناسبة. فكلّ شيء يشجع على تنفيذها. فالتخلّص من الحرس سهل نسبيّاً، ويبدو أنّ جزءاً لا بأس به منهم، على الأقلّ الذين لا يجيدون السباحة، موجودون في قوارب السجن. لكنّ الداعين كانوا ثملين قدر ما كان الحرس، أو أكثر.

بالقرب منّي، أسمع، بين الأعشاب، أنيناً مكتوماً ومتواصلاً من فم ملتصق بالأرض. تهوّعات ثمّ آنات. لم أقترب. أعرف أنّه خيمينيث. ليس لحالته من علاج. لقد حُكم عليه بالحبس خمس سنين عن قتله جندياً، اكتشف أنّه متورّط مع زوجته. في بعض الليالي، يحلم بها بصوتٍ عالٍ، أو يشكو منها بصوتٍ منخفض، كما حدث الليلة البارحة. يكتب رسائل طويلة، لكنّه لا يرسلها. وبين حين وحين، تظهر في المرحاض قصاصات صغيرة من رسالة جديدة.

«ما أجمله من صندوق بريد لرسائل الحبّ تلك!» – قال نوغيرا ذات مرّة.

يتندّرون عليه في غيابه. لكنّهم لا يحتقرونه.

بينما كانوا يغطّون في نومهم كالموتى، نزلتُ لأستحمّ. سبحتُ حتى تعبتُ، وحتى أخرجتُ من فمي ذلك الطعم المرّ. الحارس يتابعني من مرقبه. لا أدري لماذا. فأنا لا أفكّر في الهرب. أنا مرتاح هنا. صرتُ أشعرَ بالراحة في أيّ مكان. في سابوكاي أو في پينيا هيرموسا، ما عاد من فرق. ما عدتُ أنتظر شيئاً، ولا أرغب في شيء. حسبي أن أحيا بليداً خاملاً. لا شكّ أنّ رائحتي باتت كرائحة الوحل، رائحة العرق.

لا نسمة من هواء. صمتٌ ثقيل، مطبق، يخرقه من حين إلى آخر صراخُ

طائر الآرا. يخامرني إحساس بأنّي أعيش في جزيرة مقفرة. أرى البخار الذي ينبعث من جسمي، بينما أسجّل هذه الكلمات في دفتري الصغير. لماذا أفعل ذلك؟ ربّما لأقرأه لاحقاً، بالمصادفة. سيكون لها، حينئذٍ، طعم الخيال المسلّي، فكأنّ من كتبها شخصٌ آخر. أعاود قراءتها بصوت مرتفع، فكأنّي أتحدث مع أحد، وكأنّ أحداً يقصّ عليّ أشياء أجهلها. مع ذلك، تتعبني حتّى الكتابة. لا أجد الرغبة في الكتابة دائماً.

خفّف الماءُ الباردُ الصداع، لكنّه زاد من ارتخاء جسمي. اليوم لا أستطيع حتّى أن أقرأ. لم ألمس، بعدُ، طردَ الكتب الذي أرسلوه إليّ من بيتي الشهر الماضي. من المريح أن تشعر بارتخاء جسمك إلى حدّ فقدان الإحساس به، كما كان يحدث حين كانوا يطرحونني على وجهي، وأنا صغير، على حافة نهر «تابيكواري» لأرى رذاذه الذي تثيره ريح الشمال.

لكنّ هذا النهر ليس نهرَ طفولتي، السريع، المتعرّج، المألوف، بضفته التي تمتلئ، في مثل هذه الأوقات، بغسّالات الملابس، والعربات التي تجتاز المناطق الضحلة، والحيوانات التي ترتوي، والصراخ، والأصوات، والصور التي تسير رافعة قدميها نحو السماء الملبّدة بدخان الحرائق.

هذا هو نهر «لاس كوروناس» الموقّر، الذي ألّهه الغوارانيون، ثمّ انتهى به المطاف حيوان حملٍ، وأطلق اسمه على الوطن[39]. انحسر الماء فترك الجزيرة الصغيرة مكشوفة. من بعيد، تحت الشمس البازغة، تلمع الضفاف البيض وكأنّها رُشّت بمسحوق «تالك» نقيّ. تطلق الجزيرة حبال رسوّها وتبدأ تعلو على النهر، بهدوء، وبلا عجلة.

(39) نهر التيجان Río de las Coronas كان هذا النهر مثار نزاعات في القرن الثامن عشر بين إسبانيا والبرتغال أولاً، ثم بين البرازيل وباراغواي. وقد سمّاه الغوارانيون نهر «باياغوا» وهو الاسم الذي حُرِّف إلى باراغواي وأطلق على البلد الذي يجري فيه.

6 كانون الثاني[40]

تتكرّر الأعمال العدوانية المجهولة المصدر. حين استيقظتُ وجدتُ أفعى ميّتة في فردة حذائي. ربّما كانت هدية من بابا نوئيل، نظراً إلى إشارتها الرمزيّة. قبل ذلك بأيام اختفَتْ ساعتي، ثمّ وجدتُها في فرجة بين الحجارة. الناموسيّة المقطّعة. الصحن الذي مُلِئ بالبول. يتصنّعون الجهلَ بكلّ شيء، لكنّي ألاحظ إشارات التآمر، التي أقتنصها وأنا أتصنّع الغفلة.

فتّشوا طردَ الكتب. إنّهم يحاولون أن يُشعروني بنفورهم، وأن يذلّوني سرّاً.

ثوردو هو الوحيد الذي يتقرّب منّي بشيء من العفويّة. يحاول كسبي إيديولوجيّاً. لكنّ قناعته بما يفعله تتضاءل، فكأنّه غير واثق منذ البداية.

«لا تكن عسكريّاً قاسياً!» -قال لي أمس، وهو يحاول التودّد- «هناك قديم يموت وجديد يولد. في داخلك نفسك».

هو يكلّمني، على الأقلّ. أعلم أنّهم ينتقدونه في ما بعد.

«لا تتعب نفسك، ثوردو! لن تجرّه إلى ثورتك الاجتماعيّة!» - قال له نوغيرا الأسود.

تلميذ المدرسة الحربية السابق أشدّ كرهاً لي من الآخرين. يتوارى خلف مزاحِه وظرفه. ألحظ إصبعه في أتفه أفعال الاستفزاز، وإن شمل قصده الجميع. مع ذلك، لا أستطيع أن أحمله على محمل السوء. فالجهل بالفاعل يفرض شيئاً من الاحترام. مهما بلغ الفراغ الذي يغطّونه به من ازدراء. ما داموا لم يصلوا إلى المواجهة المباشرة.

---

(40) هو آخر يوم من أيام الاحتفال بأعياد الميلاد ويقابل يوم سانتا كلوز حين توزّع الهدايا بمناسبة العام الجديد. ومن هنا الإشارة إلى الهدية.

10 كانون الثاني

اليوم، الأحد، فتحتُ طردَ الكتب. أعداد من صحف أسونثيون القديمة جداً، وفيها أخبار عن إطلاق النار على الطلبة. تقول إنّ حرّاس القصر اضطرّوا أن يطلقوا النار للسيطرة على الجموع المندفعة التي كانت تبيّت لقتل الرئيس ووزرائه، تحت قيادة عناصر إرهابية اندسّت بين صفوفهم. وضعتُ الصحفَ على سرير ثوردو. فهذه الأخبار تهمّه.

عددٌ من الروايات ومذكّرات الأب مائيث. لا شكّ أنّ زوج ديلمي هو من وضعها في الطرد، فهو من المناوئين للوپيث[41]. كتب تكفي للمطالعة لأشهر. أو لسنوات. قلّبتُ رواية الحرب والسلام تقليباً، وتذكّرتُ أوّلَ مرة قرأت فيها رواية تولستوي، في إيتاپيه، أثناء إحدى إجازاتي، أيامَ المدرسة العسكرية، وكنتُ وقتئذٍ أتعافى من الملاريا. كنتُ قد اشتريتها ظنّاً منّي أنّها تتحدث عن فنون العسكريّة. إنّها النسخة نفسها التي كتبتُ عليها تعليقاتٍ بخطّي. عادة سيئة. خطوط بالقلم الأحمر تحيط بأفكار آخرين، تنغرس في ما بعد في الواحد كالنباتات الطفيليّة.

لم أتذكّر إلا بعض المقاطع المتفرّقة. لكنّ اسم الكاتب الروسي ذكّرني بكلمات له، لا أدري أين قرأتُها، يتحدّث فيها عن قبيلة «أتزور» القديمة البائدة. وفجأة قال أحدُهم: «مات جميع أفرادها. ولكن لدينا هنا ببغاء تحفظ كلماتٍ من لغتهم...». إلى أيّ نوع من البقاء على قيد الحياة أراد تولستوي أن يشير؟ لا أدري لماذا تذكّرتُ ذلك. ربّما هو تواردٌ أوحى

---

(41) إشارة إلى رئيس الپاراغواي وقائد الجيش، المارشال فرانسيسكو سولانو لوپيث، الذي هُزم عام 1870 في معركة غير متكافئة وقعت في «ثيرّو-كورا» بين جيشه وجيوش التحالف الثلاثي (البرازيل والأوروغواي والأرجنتين). وأطلق فيها مقولته المشهورة «أموت مع وطني» أو «أموت من أجل وطني».

لي به صراخ ببغاء الآرا. أمضت الببغاء العصر، حتى غروب الشمس، تصيح وتكرّر بصوتها الأجشّ العبارات الوحيدة التي تعرفها: يايا-كي! يايا-بايتيكيه![النهرب! لنهرب جميعاً!]. وبين عبارة وأخرى، تطلق كلمة نابية، ثمّ تنظّف ريشها من القمل، وتتأرجح على السلك الصدئ. ببغاء زرقاء مشطّبة بالبرتقالي، من تلك التي تُسمّى في الغواراني «أراراكا»، أو «غصنٌ من السماء». يقال إنّها أقدمُ نزلاء السجن. فمن ذا الذي علّمها تلك العبارات الضاحكة التي تتمتم بها، فكأنّها تسخر وتستهزئ؟

17 كانون الثاني

حاصرنا وابلٌ من المطر لما تبقّى من العصر. راحت مجموعات منّا تلعب الورق، ويثيرون الصخب في أجواء ملبّدة بالدخان والحرّ والرطوبة، ويعبّون كؤوس التريريه[42] بلا انقطاع. وابل المطر ينزل مدراراً. ينتهز ثوردو الفرصة ليلقي بـ«دروسه» التثقيفيّة على الذين لا يلعبون ولا يتفرّجون. ارتجل مينيو، بمصاحبة أكورديونه، أغنية طويلة، زجّ فيها بأمثال شعبيّة وعبارات بذيئة وفوازير حول الحب. وصار أحياناً يقلّد صوت الببغاء ويتنافس معها في تلفّظ عباراتٍ بذيئة يقابلها المتفرّجون بالتصفيق ويحتفون بها على طريقتهم. وفجأة رفع مينيو عقيرته بصوت عجوز:

إن أردتَ أن تعيش طويلاً

فما عليك إلا أن تشيخ[43]

غطّت القهقهات والبصقات على صوت المغنّي. صرخت الببغاء مرعوبة وحشرت رأسها تحت جناحها، كما تفعل حين تنطق بكلمة نابية.

(42) Tereré هو شراب المتّة مخلوطاً بالأعشاب والثلج.

(43) بالغوارانيّة في الأصل.

أسجّلُ العبارة للمعمّرين الذين يشعرون بالإحراج. أمّا عنّي، فأنا لن أشيخ، يا أيّتها الشيخوخة، يا مرحلة المرض، المرض الوحيد الذي لا شفاء له!

في غمرة تلك الأفكار، حاولتُ عبثاً، وأنا مستلقٍ على سريري، أن أقرأ اعترافات فيديل مائيث القاسية والصريحة، التي يحاول فيها، وهو على أعتاب التسعين، أن يبرّر سلوكه في معسكرات لوپيث، أثناء الحرب العظيمة، ويشرح «مراحل» خضوعه المهين للمارشال، ثمّ خلافه معه وإدانته له.

كان يرى في لوپيث، أيام مجده وسطوته، «مسيح پاراغواي». لكنّه راح يصبّ عليه لعناته، بعد أن قتله البرازيليون في «ثيرّو-كورا»، ويدين «الوحش الدموي» الذي قاد شعبه إلى الخراب، مردّداً في النهاية مرثيّته الخدّاعة «أموتُ مع وطني!»، تلك المقولة التي قادت إلى جدل طويل حول ما إن كان المارشال هتف، وهو يتلقّى طعنة العريف البرازيلي چيكو دياڤو [الشيطان الصغير] «أموت مع وطني!» أم «أموت من أجل وطني!»؟[9]. مهما يكن من الأمر، فمعنى العبارة لا يكمن في حرف الجر، بل في أمرٍ أهمّ يتمثّل في موت زعيم أمّة قتيلاً، على يد الغزاة، من أجل الوطن ومع الوطن. يا للسخرية التي تحملها العبارات بعد الموت!

لوپيث ومائيث، وجهان لعملة واحدة. لوپيث قاد شعبه إلى انتحار جماعي، ومات كما يموت الأبطال، في مياه نهر «الأكيدابان»، بعد طعنة رمح خائنة سدّدها له عريف برازيلي. ونجا مائيث وتحمّل وحده، بحكم صفته الدينيّة ومنصب المدّعي العام الذي كان يشغله، الإرث المروّع لآلاف الرجال والنساء والأطفال الذين قُتلوا أو ماتوا تحت تعذيب المجالس العسكريّة والمحاكم الحربيّة. بطل مخالف للعرف بامتياز.

ما زلت أتخيّله، أراه وأسمعه، عصر جمعة آلام، من عشرين سنة خلت، وهو يفتتح كالباريو «إيتاپيه» بمسيح غاسپار مورا المجذوم. وما زالت الهالة المشؤومة تتوّج صورته المنتصبة. عصبيّته المتصلّبة ما زالت ترنّ حلوة في صوته الأبوي. كلماته، المفعمة بالرحمة المصطنعة والنسيان المفتعل، تسقط على المؤمنين بالمسيح الملحد، المتجمهرين عند أسفل التلّة. بدأ ببغاء الفصاحة المقدّس العجوز، الذي تزيّا بزيّ موكب الآلام الجنائزيّة، يقرأ عظة الكلمات السبع، من علياته المطلّ على الحقل الذي تلوّن بحمرة الغروب. وما كان لأحد أن يقول حينئذٍ إنّ الأب مائيث يُحرّم طقس إفساد الأناجيل على يد طبقات الشعب الدنيا. ألم يحاول، عقب الكارثة، الشيء نفسه تقريباً، ولكن بطريقة أخرى؟ ألم يحاول إنقاذاً مستحيلاً؟ ألم يحارب، وحده هذه المرة، وفي أتعس الأجواء وأصعب الظروف، قوّات الاحتلال وحكومات ريو دي جانيرو وبوينوس آيريس، وجيشَ الكابوشيّة الذين اختطفوا الكنيسة في پاراغواي، بل والفاتيكانَ، وانتهى بكسر شوكته؟ ثمّ، ألم تفرض حرب مائيث، التي خاضها وحيداً، نفسَها في النهاية، حين أعادته فلّاحاً منفيّاً إلى مسقط رأسه «أرّويوس أي أستيروس»، حيث كان في مقدوره، وقد ناهز المئة، أن يحرث حقله، ويعلّم الحروف الأولى في المدرسة الصغيرة التي أنشأها في بيت الراعي، حيث كان يسكن هو ومحظيّاته، التي من بينهنّ أرملة أخيه، وسربُ أولاده غير الشرعيين؟

في عصر «إيتاپيه» البعيد ذاك، أمام مسيح التلّة المجذوم، ارتبطت صورتُه في ذهني بصورة نبيّ المستضعفين. كان ذلك من أثر إعجابي، وأنا طفل صغير، به. قلتُ شيئاً أو فعلتُ شيئاً استحققتُ عليه توبيخ أبي، طالبِ المعهد الديني السابق، ثمّ الموظّف البسيط في مصنع السكّر. الآن، هنا

في السجن، بعد أن قرأتُ رواية تولستوي، يبدو لي أن الراهب العجوز والمدّعي العام السابق يردّد أيضاً، مثل ببغاء «أتزور»، كلماتٍ من لغةٍ ميّتة لشعبٍ ميّت. غلبني النعاس. ربّما نمتُ برهة. وفجأة عدتُ إلى سماع قطرات المطر تتساقط على سطح القشّ، بين هتافات اللاعبين وثنائي مينيو وببغاء الآرا. أشعر بالعطش. لم يتطوّع أحد لمناولتي قارورة التريريه. أحاول أن أغرق ثانية في عبارة «بذنبي»[44] الملتوية التي تخرج من فم الراهب مائيث، لكنّي أشعر بالعجز عن التركيز في أيّ شيء.

18 كانون الثاني

لا شيء استثنائياً غير صفيحة النار التي تُطبِق على الجزيرة الصغيرة. تنازع مينيو ونوغيرا هذا الصباح أثناء الفطور قطعَ البسكوت. وتضاربا. استمتع السجناء، من عسكريين ومدنيين، برهةً، بمشهد العراك وراحوا يحرّضون الخصمين ويلقون لهما بالبسكوت المبلّل بالمتّة. أراد الثوردو أن يتدخّل لفضّ العراك، لكنّ الأسود نوغيرا ركله على خصيتيه، فتركه يتلوّى، مثل دودة ضُربت برفش فانقسمت قسمين.

عاقب ثاياس الرجال الثلاثة بالحبس عشرة أيام في المطبق. تصالح نوغيرا ومائيث، قبل أن يُساقا، في مشهد مضحك، تخلّلته قبلاتُ مخنّثين وعناقُ متأنّثين، فتعالى التصفيق والضحك، وهتف أحدهم هتافاً وطنيّاً بحياة «سِباع الطبيخ».

وظللنا لوقت محرومين من مقالب نوغيرا وأمثال مينيو، التي كان يترنّم بها على أكورديونه المرقّع. خفّض ثاياس عقوبة ثوردو، ربّما بسبب حالته؛

(44) mea culpa: عبارة تتردّد في إحدى الصلوات في لوم الذات وتقريع النفس.

فقد كان يقضي ساعات في الماء يحمّم مقعده، على مرأى من الحارس الصابر المنتظر.

21 كانون الثاني

لا تنفكّ صورة فيديل مائيث تحوم حولي، بين الأبخرة المتصاعدة من النهر. يظهر لي أحياناً بين الانعكاسات في قفطانه الطويل. سان فيديل مائيث، بطرس كنيسة باراغواي المُستعادة الأوّل. يظهر لي وهو يسير على المياه التي تحيط بتلّة السجن! للذاكرة بلاغتها من الأقوال المتداولة وصور الطقوس في الخلفيّة -أو في التحتيّة- التي أورثنا إيّاها التثقيف التبشيري. أصداء العهد الجديد المشروطة تعمل بكلّ طاقتها في الطبقات الصلبة من الشعور الديني، الذي هو خميرة ثقافتنا المدجّنة. لقد «أُنجِلت» اللغة القشتاليّة والغوارانية، و«أُنجِل» خليطهما، فبقي أسيرَ الضريح المقدّس، بين مستنقعات الفداء والخلاص. ما من مفرّ.

22 كانون الثاني

أريد أن أتذكّر النسيان. كان أبي يردّد هذه العبارة، المنسوبة إلى سان أغوسطين، حين يتذكّر مرتبته الكنسية السابقة. أنا أيضاً أجاهد عبثاً لإخراج الراهب مائيث منّي. فلغزه لا ينفكّ يقضّ مضجعي.

ما الدوافعُ التي حملته على معارضة رئاسة سولانو لوپيث، الذي سطا على السلطة، حين وفاة دون كارلوس، ولمّا يبرد جثمان هذا؟ وصرّح مائيث في ما بعد، وهو يبرّر تصرّفه: عارضتُه لخوفي من أن يمسك بخناق البلد، ويدير شؤونه في حكم شموليّ دكتاتوريّ، يودي بإنجازات دون كارلوس،

بل بإنجازات الأعلى دي فرانسيا[1]. خوفي من أن يندفع بكلّ مجازفات الجنرال الشاب المتحمّس الذي وصل مأخوذاً برحلته إلى أوروبا وببهرجة الإمبراطوريّة الثانية[45]. لقد أعطته الأحداث الحقّ ثمّ سلبته إيّاه.

أمر لوبيث باعتقال معلّمه السابق، الذي كان يكبره ببضع سنوات. وأمر بأن يُصفّد بالأغلال. وأبقى عليه ستّ سنوات سجيناً. وبعد نشوب الحرب، التي شكّل مصيرها، بعد بداية نكبة «أوروغوايانا»[46]، نقطة سوداء في مسار لوبيث وجيشه، أمر هذا بإطلاق سراح الراهب المنشقّ. أمر بإحضاره من أسونثيون إلى مقرّه، وعيّنه كاهناً عاماً للجيش، تتجاوز صلاحيته صلاحية الأسقف بلاثيوس، المجرد آنذاك من كلّ صلاحيّة والمعتقل في «باسو-بوكو» بتهمة التآمر والتعاون مع العدو. أوكل لوبيث، وكان جيشه في حالة تقهقر، إلى الأب مايث تشكيل المحاكم الحربية وتنظيم عملها. فأقامها الراهبُ الصاعد والنائبُ العام على مبدأين: الاعتراف في حالة احتضار، في الجانب الروحي، وسلاسل «أوروغوايانا» والتعذيب، في الجانب البدني. تولّى شخصياً محاكمة الأسقف بلاثيوس وأمر بإعدامه، مع عدد آخر من كبار موظّفي لوبيث وأقاربه، بتهمة التآمر.

لقد أمر الراهب، طوال خمس سنوات، بتعذيب آلاف الأشخاص وإعدامهم، في أزمة المراسيم الملكيّة أو بصفتهم متآمرين مزعومين على

---

(45) يقصد بها الإمبراطوية المكسيكيّة الثانية التي أقامها نابليون الثالث عام 1864 عقب التدخّل الفرنسي الثاني في المكسيك بتشجيع من أصحاب النفوذ المحلّيين. وقد نصّب ماكسيمليان الأول إمبراطوراً. ودام حكمه حتى حزيران 1867 حين انتهى بإعدامه وقيام الجمهورية المكسيكية المُستعادة.

(46) يشير إلى حصار جيوش الحلف الثلاثي[14] في المرحلة الثانية من الحرب العظيمة لقوات الباراغواي بقيادة الرئيس لوبيث، الذي انتهى باستسلامها وفشل محاولتها للتغلغل في الأراضي البرازيليّة 1865.

لوپيث. عقب مصرع هذا في «ثيرّو كورا»، استرحم أسير الحرب فيديل ماثيث الكونتَ، قائدَ الجيوش الغازية، واسترحم، عن طريقه، دون پيدرو الثاني، إمبراطور البرازيل. ويمثّل الاسترحام الذي كتبه أغرب وثيقة قرأتُها في حياتي، وأكثرها إثارة للمشاعر. «سيّدي -كتب المدّعي العام النائب-: بصفتي التي أنا عليها، أسيرَ حرب سلاح البرازيل المنتصر المجيد (تشدّد يده المرتعشة على هذه العبارة) بقيادة سموّكم، أتوجّه بهذه العريضة، طالباً منكم، بالاحترام الواجب والتقدير، أن تتكرّم وتُبقي عليّ هذه الصفة (يعاود التشديد) وتأمر بأن أساق، بصفتي هذه، إلى إمبراطورية صاحب الجلالة، دون پيدرو الثاني، الذي لا أعلّق أملي إلّا على طيبته، ولا أبني مستقبلي إلّا على كرمه، كما أقرُّ وأعترف بأنّي لا أدين بحياتي إلا لرحمة سموّكم...».

في طلبه، يبدو ماثيث صادقاً وغامضاً إلى أبعد الحدود. ففي بدايته، بين عبارات مشدّدة، وأخرى بحروف كبيرة، وثالثة بأدوات تعجّب مصطنعة، توحي بالتواضع وتعترف بالخطأ، يكتب أو تفلت منه كلمة «عريضة». وهذا ما كان يفعله، طوال الوقت، ذلك الأسير الشريف الداهية: «عرض» محاكاة بائسةٍ تقودُ المبالغة فيها إلى نفيها. إن ماثيث يعرض، كما يفعل الممثّل المحترف، حالته التي هي حالة التعيس الخائف. إنّه يعبّر، بتواضع، عن طاعته المطلقة وخضوعه للسلاح البرازيلي المنتصر المجيد، تحت قيادة سمو الكونت دي أوو[47]، ويصرّح بأنّه مدين بحياته لمسامحته، ويتغنّى، وكأنّه يصلّي، بطيبة الإمبراطور التي لا تضارعها طيبة. فلماذا كلّ هذا؟ ألجبنٍ أم لخوفٍ أم لهوان؟ إنّه شيء أسوأ من الحكم على نوايا ماثيث وخططه الخفيّة، إنّه حكم مسبق عليها. أتراه كان ينتظر إنقاذ حياةٍ

(47) Gaston D'Orléans (1842-1922): قائد عسكري وسياسي فرنسي-برازيلي. شارك في الحرب العظيمة، قائداً عاماً للقوّات البرازيليّة.

هي حياته، من بين مئات «الأسرى الناحلين» (تقول حولياتُ الوطنيّة المزيّفة)، أم إنّ من الأفضل أن نقول الأسرى البدينين الثملين الباقين من جيش لوپيث المجيد؟ هل كان يأمل إنقاذ تلك الأرواح، وهو الذي لم يحرص على أيّ واحدة منها؟ لا شيء من هذا.

فما كان يدخل في حساباته، إذاً، ليس حرصَه الغريب على إنقاذ حياته، بل هو الحفاظ على شيء أهمّ من ذلك بكثير: المستقبل كما عبّر عنه بنفسه. مستقبل يكشف له القضيّة الحقيقيّة التي عليه أن يقاتل، من الآن فصاعداً، من أجلها. المستقبل، بمعنى مكانٍ من الزمن تتحقق فيه تلك القضيّة، يُقيمُه على كرم العدوّ المنتصر: يعمل على أن يمتلكه ذلك العدوّ. فهو، إذاً، من قبيل أن يطلب أن يغيّر العدوّ طبعَه وطبيعَتَه.

كان الاسترحام الذي تقدّم به مائيث تحدّياً لا سابقة له، إعلانَ حربٍ حقيقيّاً أطلقه من الزاوية التي حوصر فيها. يتشبّث المدعي العام السابق، حتّى النهاية، بترابطه وانسجامه وكرامته، وسط ما يبدو أنّه مهانة مدوّية. إنّه يعرض طلبه ويبرّره فلسفيّاً بإشارات بعيدة مأخوذة من الأب لاكوردير[48]. «وهكذا رأيتُ الوطنَ مجسّداً في ذلك الرجل... -يكتب أو ينشد أو يقسم، جاثياً أمام الكونت العظيم، على القطيعة مع لوپيث والبراءة منه- أمّا القول بخلاف ذلك، فهو وهم. أمّا عدم التمييز بين الأزمنة لتقويم الأفعال والحكم على الأفراد، فهو فضلة معرّضة لسوء الفهم والوقوع في الخطأ. إنّ الكرم الذي لا يتعدّى حدود حقيقة الأحداث يبني حكمه، في العادة، على انطباعات اللحظة، وينجرف مع موجة العواطف. بتواضع واستسلام -اختتم مائيث كلامه- أرجو أن تجود بنظرة عطفٍ على أسير مسكين يقبّل قدمَيْ سموّكم...».

---

(48) Lacordaire (1802–1861): سياسي وخطيب ورجل دين فرنسي.

ها هي ذي أسسُ العدالة الإنسانيّة، معروضة على يد مدّعٍ عام كان يعرف الكثير عن وظيفته واختصاصه. من الضروري أن يكتب أحدهم، يوماً ما، قصّة أشخاص من مثل مائيث، لأنّ المدّعين العامين المرعبين سيطالبون، ذات يوم، بحقّهم في محاكمة هذا الشعب والحكم عليه بصفته مجموعة من الحمقى وأبناء الزنى.

3 شباط

وصل «اللنش» بالبريد وبالمؤونة. رأيتهم يقرّبون وجوههم، ينحنون على الرسائل، وكأنّهم ينحنون على شيء حيّ، لا على قصاصات ورق ميّتة، انتهكت الرقابة حرمتَها. أنا لا أكتب ولا أتلقّى رسائل.

اشتريتُ من قائد اللنش قصبة جديدة تقريباً، تنتهي بسنّارة جيّدة. كان قد وضعها لكي تجفّ في مقدّمة المركب. تجادلنا حول السعر، لكنّه وافق في الأخير. أعطيتُه آخر پيسو في جيبي.

سمعتهم يتكلّمون عن اضطرابات جديدة في أسونثيون. اليوم تقام احتفالات بمناسبة عيد سان بلاس، شفيع پاراغواي. حين كنّا في إيتاپيه، اعتدنا أن نحيي المناسبة بلعبة الثور ذي القرنين المشتعلين والأقنعة التنكّريّة.

عند العصر نزل خيمينيث إلى حيث جلستُ لأصطاد. جلس على حجر وأنزل رجليه في الماء حتّى الركبتين، وراح يتأمّل النهر شارداً. بدا كسيحاً طفت أطرافه الهزيلة على سطح الماء. التفت إليّ، متردّداً، ليكلّمني. ظننتُ أنّه سيسرّني شيئاً. وأخيراً سأل: «ماذا وضعتَ طعماً؟».

– قطعة من اللحم المالح.

- بهذه لا يمكنك اصطياد سمك دورادو. هذه لا تصطاد إلّا سمك بيرانا، الذي يحبّ اللحم.

«أنا أصطاد للّهو وحسب» - قلتُ له، وأنا أشعر بالضيق، من دون أن أنظر إليه، وتذكّرتُ أنني في إيتاپيه لم أكن أميل إلى الصيد.

«آه!» - قال، وهو الذي يراقب تدحرج كلماتنا فوق الماء، الصافي مثل مرآة ملوّنة.

حطّم تلك المرآة بصقة كبيرة. وبعد برهة نادونا لتناول الطعام. كان صوت الطرق على قطعة الحديد يتردّد على المنحدرات البنفسجيّة، فكأنّها تنادينا من بعيد، من ضفة النهر الأخرى. صعدنا صامتين. أدار رأسه مرّات ومرّات وهو ينظر إلى الماء بعيني مجنون. كم هو هزيل وناحل! يقال إنّه ما من شيء يُغرق الرجل أكثر من امرأة تمسكُ به لا من ذكره بل من روحه.

5 شباط

اصطدتُ سمكة «سابالو»، فأكل بعضهم سمكاً مشويّاً على الجمر، بدلّا من طبيخ السجن المتفسّخ. أمّا أنا فقد كنتُ أرتجف في سريري من حمّى الملاريا التي تعتادني، وتشدّ، بين الحين والآخر، شراييني وأعصابي، قبل أن تتركني، برهةً، صافيَ الذهن، لأتذكّر أشياء، أو أراها بوضوح، بعد أن كنتُ نسيتها تماماً. وكان ذلك عيبها الوحيد.

7 شباط

أحدٌ ما استخدم في المرحاض صفحة من جريدة أتى بها الواصلون مؤخّراً. ما زال ممكناً قراءة جزء من مقالة صحفيّ ذهب للتحقّق من

الظاهرة الغريبة التي حدثت في ساپوكاي: ظهور امرأة يقال إنّها مرسلة من الربّ، تسمّي نفسها، أو يسمّونها: «نبيّة الرابية الخضراء».

على الرغم من مكان الصفحة غير المناسب، فقد كانت مقاطع من الخبر ما زالت فيها. تصعد المرأة، كلّ مساء، عقب غروب الشمس، إلى ما يشبه شرفة كائنة في الجانب الغربي. من تلك المنصّة التي حُوِّلت إلى بهو، إلى منبر طبيعي بين الأحجار، تتوجّه، وقد عقدت ذراعيها، بالكلام طوال الوقت إلى الزوّار الذين تجمّعوا عند الربوة. «قدموا من كلّ ناحية -كتب الصحفي- عدد الحجّاج في ازدياد. مسنّون ونساء وأطفال ومرضى ومقعدون محمولون في عربات، عجلات، على ظهور الخيل أو الحمير، يواصلون تدفّقهم بلا توقّف. صنعوا لأنفسهم مظلّات، بل أكواخاً صغيرة من الأوتاد، يعدّون طعامَهم، ويؤدّون صلواتِهم، ويستمعون، وهم جاثون، إلى مواعظ المساء التي تلقيها عليهم النبيّة. يمضي كلّ شيء في نظامٍ تامّ وفي أجواء من الورع النقي. بلدة جديدة تنهض في الوادي، تدير ظهرها لتلك التي دمّر الانفجارُ محطتها قبل عشرين سنة. تتوجّه النبيّة، معظم الوقت، بالغوارانيّة إلى زوّارها؛ وقد تخاطبهم بلغة ممزوجة أكثر نقاءً من لغة الخوپارا التي نستعملها في الحواضر[49]، وقد تلجأ، أحياناً، في الأخير دائماً تقريباً، إلى لغة مصحوبة بإيماءات عنيفة متشنّجة، يمكن أن تكون من مخلّفات اللاتينيّة -كما أظنّ- أو من لهجة قبائليّة ما. وينقلب الصوتُ الذكوري الجهوري عندها إلى صوت طفولي مرتعش تقريباً، يشبه صوت طفل يوشك على البكاء. ومع الغروب، تبهت صورة المرأة، وحين يحلّ الظلام، تختفي، لا يُعرف كيف ولا من أين، وسط صلوات الحجيج وأنّاتهم المكتومة. لا بدّ أنّ هناك صدعاً أو مغارة سريّة في جوف

---

(49) Jopará: اللغة الإسبانية المستخدمة في پاراغواي مخلوطة بالغوارانيّة.

الرابية. ذهبت أدراجَ الرياح كلّ جهودي للعثور عليها وإجراء مقابلة لها. لا تعرف الشرطة شيئاً عنها، ولا الكاهن، أو إنّهم لا يريدون الكلام عنها في الوقت الحاضر. ولا يعرف شيئاً عنها مفوّضُ الحكومة، الذي يلتزم أقصى درجات الصمت. لكنّي أعتقد أنّها، حتى لو عثرتُ عليها، سترفض التحدّث للصحافة. أفلحتُ فقط في أن ألتقط لها هذه الصورة عن بُعد...».

الصورة مقصوصة؛ لم يبقَ غير الفراغ الذي صنعته الأصابع التي لطّخت الورقة المدعوكة الملوّثة ببقع بنيّة اللون غامقة. عدّلتها قدرَ ما استطعت، ولصقتها على الباب لكي يتمكّن مستعملو المرحاض القادمون من قراءتها، وهم يجلسون القرفصاء. فهذا هو المكان الأنسب لـ تذكار التنبّؤ بنهاية العالم: المرحاض، وهنا يكتسب الـ تذكار شحنة وعظيّة أكبر وأعظم.

8 شباط

أحقّقُ في السر. أريد أن أعرف، أو أن أخمّن، مَن قصَّ صورة النبيّة. قادتني تحرّياتي إلى أنّ ثوردو هو من فعل ذلك. سألته ظهر هذا اليوم فجأةً، بين رشفة ورشفة من التريريه: «هل رأيتَ صورة النبيّة؟». نظر إليّ نظرة أطرش يبحث عن جوابٍ لا يناسب السؤال. عدتُ أسأله ما إن كان قرأ الخبر الملصق على باب المرحاض. قال لي: نعم، وقال، وقد بدا أنّه ثاب إلى نفسه واستعاد نبرة صوته، إنّ المكان الذي اختير للصق المنشور بدا له ممتازاً. هذا ليس منشوراً، قلتُ له، وأنا أحاول جرّه في الكلام. «كيف لا؟! -احتدّ متردّداً- إنّه منشور مناهض للحكومة أو لرجال الدين، لأنّهم هم من يروّج لحركات تهريجية عن أنبياء وأولياء، القصد منها إلهاء الناس.

لا شكّ أن بعض المتنفّذين يملكون أراضي في مستنقعات ساپوكاي ويحاولون رفع أسعارها».

مع ذلك، فقد يكون ثوردو محقاً. تذكّرتُ أتاناسيو غالبان، عامل التلغراف السابق الذي أدّت وشايته إلى كارثة ساپوكاي، وأوصلته إلى مفوّضيّة الحكومة في المنطقة، حتّى بات من الأثرياء.

ألقى ثوردو بعقب السيجارة وقال بهدوء: «الأنبياء والأولياء يخرجون دائماً من المراحيض ليتنبّؤوا باللحظة التي يكون فيها الخراءُ أثقل وأكبر». وكذلك ماركس؟ سألتُه. يقول سولِس إنّ ماركس هو النبي الحقيقي الوحيد الذي ظهر في السنوات المئة الأخيرة. «طبعاً، وماركس أيضاً» -قال من دون أن يغيّر نبرة صوته- «ماركس خرج من مرحاض الرأسماليّة ليتنبّأ بخرابها، يا للمهزلة!».

بحث في جيبه، وناولني قطعة من جريدة تحمل صورة مطويّة: «خذ، إن كان هذا ما تبحث عنه» -قال وهو يرسم ابتسامته الحزينة على أسنانه المصفرّة- «لن تنفعكَ ولا حتّى لإثارة متعتك!».

9 شباط

أضعُ قصبة الصيد بين أسناني، وأكتبُ في الدفتر الذي أسندتُه على الرمل. لماذا أكتبُ هذه الملاحظات؟ لا أحاولُ أن يكون لي دفترُ مذكّرات، كما يفعل اللوطيّون أو السحاقيّات المشهورات اللائي يتغنّجن مع فقرهنّ وبؤسهنّ.

عادة الكتابة عادة رذيلة قديمة. حلقة من الرذيلة تتحوّل، حين تنغلق نحو الخارج، إلى حلقة من الفضيلة. طريقة للهروب من اللامكان إلى

فضاء الطوالع المستقرّ؛ طريقة للبحث عن المكان الذي حمل مكانَنا إلى مكان آخر. أليس هذا هو المعنى الحقيقي للمدينة الفاضلة؟ للطوباويّة؟ طوباويّة الابن الضال الذي يعود إلى بيته الذي ما عاد موجوداً؛ طوباويّة المطرودين، المنفيين، المبعدين الذين يتشوّقون للعودة إلى المكان الذي انتزعوا منه، والذين يعلمون أنّهم، حتّى لو عادوا إليه، فلن يكون ملكهم. فالإنسان هو، إذاً، الطوباويّة الكاملة. وللهروب منها، نرحل، نسافر دائماً إلى أيّ مكان، نهرب نحو الخلف أو نحو الأمام، وفي كل مرّة إلى مكان أبعد. حتّى في الأحلام أو بين أربعة حيطان، هنا، في جزيرة سجن «پينيا هيرموسا» [= الصخرة الجميلة]، التي اخترع لها أحدهم اسماً كتبه بالفحم، على لوح من الخشب، فسماها «پينال الپارائيسو» [= سجن الجنّة]، بانتظار أن يعود المطر ليمحو ما كتب.

.2

20 شباط

حاول خيمينيث الهروب في القارب الصغير قبل الفجر. كانت محاولة غريبة. فالمركب كان متروكاً، والماء يتسرّب إليه من كلّ ناحية، وهو لا يجيد السباحة. غرق قبل أن يصل إلى كواسر الأمواج. انتشله خمسة جنود وحملوه إلى سطح القارب وعادوا به. كان مشهداً مضحكاً. لم يستطع البعض، مثل نوغيرا ومينيو، إمساك نفسيهما عن الضحك وإطلاق التعليقات اللاذعة، بينما راح ثاياس يلوّح بيديه ويصرخ كالمجنون، عند الضفة، وهو يوجّه عملية الإمساك بالهارب وإنقاذه.

عوقب خيمينيث بالحبس في المطبق ثلاثين يوماً. أمّا البقيّة، فما عاد

في مقدورنا، اعتباراً من اليوم، أن ننزل إلى الماء مجتمعين، إلا في ساعات معيّنة وتحت حراسة مشدّدة.

«هذه هي نتيجة الثقة!» - صاح ثاياس في الطابور.

لن أستمتع، بعد الآن، بالغوص صباحاً، ولا بجلسات الصيد عند العصر. لقد حرمنا خيمينيث بغبائه من التسلية الوحيدة التي كنّا نحظى بها.

29 شباط

أصبح خيمينيث ميّتاً. حين أصيب بالحمّى، أمر ثاياس بإخراجه من المطبق وإعادته إلى سريره في الزنزانة. أمضى الأيام الثلاثة الأخيرة غائباً عن الوعي، ينظر بعينين جامدتين إلى السقف. ولمّا كان المركبُ الصغير في التصليح، ولمّا لم يكن اللنش يأتي إلا أوّل الشهر، لم يستطيعوا نقله بسرعة، حين كان من الممكن فعل شيء، كما لم يستطيعوا حمل جثمانه، الذي سرعان ما بدأ يتفسّخ بسبب الحر.

قال نوغيرا إنّ خيمينيث أخطأ حتّى في يوم موته.

«لو أنّ السنة لم تكن كبيسة» -قال- «لصادف مناسبة عيد الأبطال...».

حتّى في دفنه وقع ما يبعث على الغرابة والضحك. صنعوا تابوته من بقايا ألواح الصناديق، فظهرت على غطائه ماركات صابون وكيروسين. واضطرّوا أن يحفروا مكانين أو ثلاثة لحين العثور على تربة رخوة في أرض الجزيرة الصغيرة المتحجّرة تلك. أراد ثاياس أن يرتجل بعض الكلمات، لكنّه توقّف عدة مرات، فقد كان صياح الببغاء يعلو في كلّ لحظة مكرّراً كلماتٍ سوقيّة نابية. واضطرّ أحد الجنود إلى الذهاب ليهشّها بعقب البندقية، لإسكاتها. وانتهى ذلك بمشهد مضحك.

يا لخيمينيث المسكين! بينما كانت طقطقة الألواح تصدر من التابوت، فكّرتُ في ما أراد أن يقوله لي تلك الأمسية. كنتُ أعرف أنّ قصده لم يكن الطعم ولا سمك البيرانا. ربّما كان في مقدوري أن أساعده. كان شبه مختنق، وفي حاجة ماسّة إلى شيء من قبيل التنفّس الاصطناعي. ربّ ابتسامة تعاطفٍ تنقذ حياة إنسان. لكن غباءه المستحكم كان يزعجني. خمّنتُ، من دون أن يقول لي شيئاً، لماذا كان يريد الهروب. ولو أنه أفلح في الهروب، لما تقدّم كثيراً في الصحراء المرعبة الحارقة. هكذا وجد، على الأقل، راحته.

غداً يبدأ التحقيق. سيتحدّثون بالطبع عن كلّ شيء إلا عن هذا. ثاياس لا يضمن أن تكون نتائج التحقيق لصالحه. لقد غيّر موقفه، بسبب شكوكه. لكنّه لا يعوّل على إفاداتنا لتحسين موقفه. هذه هي المرة الأولى التي يموت فيها رجلٌ في الجزيرة الصغيرة، منذ أن أهّلوها لتكون سجناً.

20 آذار

وصل مديرُ السجن الجديد، يرافقه قاضي التحقيق. استقبلهما ثاياس في رصيف المراكب، وقد بدا مكسوراً يتصنّع اللطف.

لم يضيّع النقيب كينيونيث الوقت. قام بجولة تفتيشيّة على السجناء، في إجراء أوّلي، وعلى الرغم من أنّ اليومَ أحد. فتّش كلّ شيء، الملابسَ والتجهيزات، حتّى الكتب والأوراق الشخصيّة.

أعرف كينيونيث منذ أيام المدرسة الحربيّة. هو كان من الدورة السابقة. ثمّ أصبحنا، بعد بضع سنوات، مسؤولين عن محطة الكهرباء هناك. أصبحنا صديقين، وصرنا نتخاطب بلا تكلّف ولا رسميات، ممّا سهّل الأمر على

كلينا. قبل المؤامرة بوقت قصير، نُقل كينيونيث، بطلب منه، إلى إحدى حاميات الشمال. ومن هناك أرسلوه إلى «پينيا هيرموسا»، ليحلّ محلّ المُقصّر ثاياس. عن كينيونيث، لا يمكن القول إنّه تدرّج في مواقعه، لكنّه لا يهتمّ لهذه الأمور، فهو رجل يحترم التعليمات والانضباط والمراتبيّة.

23 آذار

أعيد فتح التحقيق، أخذ القاضي إفادات الجميع. الوحيدة التي أفلتت هي الببغاء، مع أنّها استرعت انتباه المحقّق طوال الوقت بسخريتها المعهودة.

حصل حادثٌ مع ثوردو. قال، وقد غضب واهتاج حين أخذوا إفادته: «الملازم خيمينيث ضحيّة من ضحايا نظام السجون في بلدنا! وإذا كانت هذه هي الحال في سجن عسكري، فلك، سيّدي المحقق، أن تتصوّر الحال في السجون المدنيّة!» - كان وجه الحصان الهزيل الأسود ينظر إلى الموظّف الدقيق المدقّق بعينين تطلق شرراً، فكأنّه يحمّله، هو الآخر، مسؤولية ما يحدث.

كلّفته تلك النبرة العالية عدة أيام من الحبس في المطبق. وفوق هذا، باعدوا بين السجناء المدنيين، الذين صاروا يحتلّون، اعتباراً من اليوم، عنبراً منفصلاً. أوامر كينيونيث صارمة. يُمنع اختلاط السجناء المدنيين بسجناء الجيش إلّا أثناء ساعات الطعام والاستحمام.

3 نيسان

استدعاني كينيونيث هذا الصباح. كلّمني، لا بصفته الشخص الذي

أعرفه، أو الصديق الذي رافقته في أوقات أخرى، بل بصفته مدير السجن المستعدّ لمراجعة قضيّتي بروح إيجابيّة.

«درستُ إضبارتك» -بادرني القول، وقد ركّز عينيه البنّيتين الهادئتين فيّ- «أعتقد أنّ القضاة أثقلوا ميزانك وظلموك في قضيّة المدرسة الحربيّة تلك. بل أكثر من ذلك: أنا أعرف أنّ ليس لحضرتك ناقة في الأمر ولا جمل، على الرغم من القرائن التي تدينك».

واصل تحديقه فيّ، بينما مدَّ يده لي بسيجارة. وبعد وقفة قصيرة، تابع الكلام: «ولكن، ما حكاية سايوكاي تلك، التي يبدو أنّ حضرتك تعاونتَ فيها مع متمرّدي المستنقعات؟ أنا لا أحاول إعادة النظر في قضيّتك. فلستُ الشخص المكلّف بذلك. ولكن من المناسب أن يفهم كلٌّ منّا الآخر. أنا لا أصدّق أنّ حضرتك...».

لا بدّ أنّه أدركَ أنّي غير مرتاح لكلامه، لأنّه عاد ليقطع جملته. يغضبني أن يحاول أحدٌ تحريك ذلك الموضوع، مهما حسنت نيّته. ماذا أستطيع أن أقول له، تحت ضغط الإهانات الجسديّة والمعنويّة، أكثر ممّا قلتُ لغيره، أو أن أكتم عنه أكثر ممّا كتمت؟ وماذا أستطيع أن أقول له أو أن أكتم عنه أكثرَ ممّا قلته لنفسي أو كتمته أو نفيته طوال كلّ هذا الوقت؟ لقد أخذت المحاكمة جزئياً بالكلام عن أنّي وشيتُ بعمّال معامل الآجر، مقابل حريتي. حريّة، ما أغربها من كلمة! تلك الإشاعة كانت الشهادة الوحيدة، وتلك التهمة كانت ظرفي المخفّف الوحيد، وقد نفيتُ كلتيهما، جملةً وتفصيلاً. أيّ فائدة أجنيها من بيع بؤساء الهور أولئك؟ ربّما كان الذين فكّروا بهذه الطريقة على حقّ، لأنّ ما بلغته تلك الليلة من السكر يعدلُ الوشاية، على الأقل أمام ضميري. وهذا بالذات هو ما لا أستطيع أن أشرحه لأحد، وخصوصاً لكينيونيث، مرآةِ النزاهة، ومثالِ الحياد الإنساني

والمهنيّ. إنّه ليس عسكرياً مثلي، وهو لم يولد، وهو يحلم ببدلة التلميذ الحربي، مثلي.

«قبلتُ بالحكم» -قلتُ له وحسب- «وأنا هنا لأكمل محكوميتي، ولا أطمع في أيّ امتياز».

لم يردّ عليّ ولم يعلّق. سمح لي بالانصراف. مع ذلك فقد وضع اللقاءُ الإصبعَ على الجرح. ماذا فعلوا بأولئك الرجال الذين دفع بعضهم حياته ثمناً لتلك الوشاية المزعومة؟ إنّي لأراهم، كما في عصر ذلك اليوم، وأنا أقف على منصّة عربة القطار المدمّر، المحشور في جبال كوستا دولثي. أتمنّى أحياناً، كما الآن، لو أنّ ذلك لم يحدث. وعندئذٍ، في تلك اللحظة بالذات، تزداد نفسي انقباضاً.

.3

27 نيسان

فرض كينيونيث، بصرامة، نهجه، ولكن من دون ضجّة. بات من الصعب على ثوردو أن ينشر أفكاره الهدّامة في اللحظات القليلة التي يمضيها مع السجناء من عسكريين ومدنيين.

«يا خسارة!» -قال نوغيرا- «كان التفاهمُ بين الجيش والشعب يسير في الطريق الصحيحة، على الأقل في جزيرتنا الصغيرة».

مع ذلك، عاد التفكير من جديد في خطة الهروب. بل أعرفُ بعض تفاصيلها. قد يكون المركب البخاري، الذي وُضع الآن في خدمة السجن، نافعاً. بالطبع، هناك من يتحفّظ عليّ، بل إنّهم يأخذون حذرهم في الكلام حين أكون قريباً منهم.

14 أيار

قدّاسٌ في الهواء الطلق، رفعٌ للأعلام وأداءٌ للقسم، في ذكرى الاستقلال. استُدعي الكاهنُ خصيصاً من «پويرتو كاسادو». تكلّم، وتكلّم كينيونيث، كلٌّ حسب دورِه، عن حبّ الربّ وحبّ الوطن، وعن تكريم الأبطال والحريّة. احتفال يناسب طبيعة السجن وأجواءَه.

حرصوا، منذ عصر اليوم السابق، حين أخذ النقيب اعتراف الذين كانوا ينوون تناول القربان، على نقل الببغاء إلى المطبق، لكي لا تعكر صفوَ النظام وأجواء التقوى بكلامها الخبيث.

ذكّرني الكاهنُ بالراهب مائيث. لأنّه نقيضه. فمائيث، المخالف للعرف، يمثّل رفضاً لـ«روحنا البطوليّة» المعروفة، نموذجاً صارخاً معادياً لجميع أولئك الذين أعماهم التعصّبُ السياسي أو الديني، أو انساقوا وراء بعض الكلمات الخاوية الكبيرة، التي تُكتب دائماً بحروف كبيرة، وما زالوا يؤمنون، عن حسن طويّة أو عن سوء قصد، بأن التضحية وروح البطولة أو التسليم أفعالٌ مفيدة، وبأنّ التقسيم المانويّ بين خاسرين وفائزين، بين قضاة ومدانين، له معنى.

13 حزيران

أحتفظ في دفتري بصورة لأبي وأمّي، وعلى ظهرها إهداءٌ بخطّها وتمنّياتٌ وتهانٍ منهما كليهما، بمناسبة عيد ميلادي. تذكّرني تلك الصورة من جديدٍ بهذا التاريخ الذي أتمنّى نسيانه.

تأمّلتُ مطوّلاً عيني أمّي الضاحكتين، وعيني أبي الجادّتين الوقورتين، حتى وصلتُ إلى طفولتي وإلى ما قبلها وما بعدها. شعرتُ بحزن عميق،

لكنّي أحسستُ بشيء من الخجل حين تبيّن لي أنّ شعوري ذاك سرعان ما تحوّل إلى لامبالاة وابتعاد عن كلّ ما عشته. تكاد ذكرى طفولة سعيدة أن تكون شيئاً لا يُطاق.

17 حزيران

في طابور الانسحاب، أبلغنا كينيونيث بنبأ سقوط قلعة «پيتيانتوتا» في يد قوةٍ بوليفيّة تمكّنت من إبادة حراستها الصغيرة المكوّنة من عريف وخمسة جنود. هنا لدينا عشرون لحمايتنا.

خيّمت علينا أجواء الخوف والتوتّر. خلال تناول الطعام، كان لدى ثوردو الكثير مما يرويه.

«تأمّلوا النزعة السلميّة للحكومة!» -قال بصوتٍ عالٍ- «إنّهم يسمحون بأن يبيد البوليفيون في چاكو جنودنا، ويذبحون في أسونثيون شبابنا الذين يذهبون لطلب السلاح للدفاع عنها!».

«فأنتَ عسكري النزعة؟» – سأل بالديث ساخراً.

«لا!» -ردّ ثوردو- «ولكن إذا ما اندلعت الحرب فلن يقتصر القتال على العسكريين!».

«سنقاتل جميعاً» -قال جندي المدفعيّة مارتينيث، وهو في العادة منعزل وجدّي، وهو يدفع بالصحن الفارغ- «إنّها أرضنا، وعلينا أن ندافع عنها جميعنا!».

«البوليفيون يقولون إنّها أرضهم» – ردّ ثوردو.

«المسألة مسألة سندات» – قال بالديث.

«أو مسألة العثّ!» – أضاف نوغيرا، بنبرة ساخرة.

«أيّ عثّ؟» - سأل مينيو.

«عثّ مجلس چاركاس» -ردّ الأسود- «هل تذكرون دروس التاريخ؟ العثّ الذي أتى على أرشيف چوكيساكا وأسونثيون».

«لا أدري ما علاقة هذا بذاك! عثّ!» - علّق مارتينيث مستاءً.

- طبعاً! تلك الحشرات خرمت الوثائق الملكيّة. التهمت الحدود الأوليّة، خطّ العلامات، مبدأ الحدود الموروثة، شربَتْ مياه الأنهار. أتتْ على كلّ شيء. والآن ما عاد أحدٌ يفهم شيئاً.. لا دكاترتنا في رسم الحدود، ولا دكاترتهم. فقد اختلط الحابل بالنابل.

وانفجرت الفرحة المكتومة في قهقهة عامة.

«سنقاتل من أجل بعض السندات، نعم!» -حرّك ثوردو يده، وسط الهرج والمرج- «ولكن ليس من أجل السندات التي أكلها عثّ چاركاس وچوكيساكا، كما يقول نوغيرا...».

«من أجل أيّ سندات إذاً؟» - قاطعه نوغيرا.

- من أجل السندات والأسهم الجديدة المحفوظة في خزانات مُلّاك مزارع العفص. كلّ واحد منهم أقوى من حكومتنا، ومن بلدنا. ماذا تقولون عن كاسادو، مثلاً؟ نحن في وسط چاكو، لكنّنا في إقطاعاته. علينا الآن أن نطلب منه إذناً لكي نموت من أجل أرضه، أمّا الذين يذهبون بالقطار فعليهم أن يدفعوا له ثمن تذاكرهم.

«هذا ما لا أفهمه!» -قال أحد موظّفي الإدارة، وهو يومئ بيديه مثل قرد بدين- «ولماذا علينا أن نموتَ من أجل السيّد كاسادو ونحن أغلبية من العازبين؟!»[50].

---

(50) في العبارة لعب بكلمة «كاسادو» التي تعني «متزوّج».

هذه المرة كانت القهقهات من حصّته، بسبب لعبه الصبياني بالكلمات. انتظر ثوردو، ثم تدخّل، حين وجد الفرصة سانحة.

– ليس فقط من أجل سندات إقطاعيي هذا الجانب وأسهمهم. سنقاتل أيضاً ونموت من أجل سندات شركات بترول الجانب الآخر وأسهمها.

«سنقاتل ونموت من أجل الروح الوطنيّة!» – صرخ مارتينيث.

«لكنّها، في نهاية المطاف، ستكون روحاً وطنيّة تنبعث منها رائحة البترول» –ردّ ثوردو، وقد شدّد على كلماته– «للشركات الكبرى حاسة شمّ قويّة. تشمّ من بعيد بحرَ المعادن المطمور في چاكو».

«ولهذا علينا أن ندافع عنه!» –تمتم جندي المدفعيّة– «أم إنّ حضرتك تفضّل أن تسلّم الكيروسين إلى البوليفيين؟».

«ولن يكون لهم أيضاً» –ردّ ثوردو– «حتّى لو أخذوا كلّ چاكو. ولذلك يجب فضح الذين يصبّون النار على الزيت ويعدّون العدّة للحرب!» –أضاف رافعاً صوته وضارباً على اللوح– «هؤلاء وأولئك! ستاندارد وكاسادو، ومن لفّ لفّهم».

«هلّا بدّلتَ الأسطوانة، ثوردو!» – قال نوغيرا، وهو يغمز، مشيراً إلى اقتراب مدير السجن.

أنهى حضور كنيونيث الجدل. على الرغم من المزاح والنكات، بدأت احتمالات نشوب الحرب تلوح. حتّى بالنسبة إلينا. صحيح أنّها ما زالت مجرّدة وبعيدة، ولكن إلى حين.

3 آب

حين بدا أنّ خطة الهروب تبهتُ وتصبّ في قلق غامض، وصل

العفو والأمر بالنقل، للجميع. أُعلن النفيرُ العام. يبدو أنّ الحرب باتت حتميّة. في يوم 31 تموز سقط حصن «بوكيرون» في يد قوّة معادية. قرأ علينا كينيونيث بيان القيادة، الذي التقط في «كونثبثيون». لا يبدو الأمر، هذه المرة، مناوشات بسيطة. واضح أنّ هجوم البوليفيين يهدف إلى قطع نهر پاراغواي، خاصرتنا المائية الرخوة. فإن تمكّنوا من السيطرة عليه، فسينجحون في طيّ البلد طيّ المنديل وحمله في جيبهم.

أرسلوا بنا إلى چاكو. سنكون هناك أكثر نفعاً. توقّعات نوردو تتحقق. ولكن توقّعات الآخرين أيضاً. وهكذا تجاوزنا الاختلافات فجأة. ما عاد للجدل السياسي من مكان. لقد ائتلف شمل الكولورادوس الليبراليين وغير المنتمين. المناصرون للثوّار والمعادون لهم. بات الجميع على قلب رجل واحد، متحمّسين، فكأنّنا استرددنا حقّاً حريتنا. بل لقد عادوا يتوجّهون لي بالكلام. وصار كينيونيث يعاملنا من جديد معاملة الرفاق.

5 آب

جاءنا لنشٌ كبير. انطلقنا عند الغروب. لم يبقَ في السجن، الذي أُزيل عملياً وفُكّك، غير عريفٍ وجنديين. أمّا الببغاء فقد بُحّ صوتها من الصراخ، بعد أن أذهلتها الاستعدادات المحمومة للرحيل. ودّعها نوغيرا، في مداعبة أخيرة، بتقبيلها في منقارها المقوّس، وسط عاصفة من الضحك والهتاف. ردّت عليه ببذاءتها المعهودة، وهي تخفي رأسها، كعادتها، تحت جناحها. حين أصبح الجبل مقفراً من جديد، ظلّ الطائر وحده يندب على قبر خيمينيث.

استمرّت العربدة في اللنش. تأمّلتُ، وأنا في المؤخّرة، ابتعاده عن

الجزيرة وانسيابه سريعاً واثقاً. ظننتُ أنّي أرى، في السماء الحمراء، وللمرة الأخيرة، رفيف أجنحة زرق، بين الأشجار.

.4

13 آب

وصلنا منتصفَ الليل إلى الكيلومتر 145، بعد رحلة شاقة في قطار «بويرتو كاسادو». من هناك، ومن دون توقّف، واصلنا الرحلة، في عجلات مصادرة متهالكة، نحو قاعدة العمليات. تتحرّك مجموعات الرجال وأرتال عربات التجهيزات، بلا توقّف، على امتداد محطات الطريق، بأسمائها الشاعريّة الرقيقة: كاسانيّو، بوثو أثول [البئر الأزرق]، كامبو إسبيرانثا [حقل الرجاء]... التي تظهر وتختفي على ضوء المصابيح، بين أمواج الغبار. أكتبُ هذه الكلمات، وأنا أغالب النعاس، في محطات التوقّف.

عند الفجر، بان موقع «إيسلا بوي» العسكري من فوق كثيّبٍ رملي. تتلألأ البحيرة في الخلف، وقد انعكسَتْ على سطحها، بين النباتات القليلة، أخاديدُ من قشورٍ مضيئة.

واحة حقيقيّة في سهل ملتهب، تحوّل فجأة إلى بركان نشيط، تبتلع دوّاماته القوافل الرماديّة. هنا تجري الاستعدادات المحمومة للقيام بالهجوم المضاد.

14 آب

تفرّق رجالُ السجن. فرّقونا. أرسلوا بي إلى الفوج العاشر.. تحت التشكيل، ليكون في الحال وقودَ حرب، حسب روح لوائح القتال.

حشدٌ من الرجال، بزيٍّ عسكري مموّه، ينتشرون فوق قطعة الجبن الشاسعة، تلك الصحراء الرماديّة، مثل دودٍ نشأ عن تخمّرها. لكنّهم رجال. رجالٌ لم يولدوا في تلك الأرض المساميّة المثقّبة التي لا حدود لها. إنّهم يتحرّكون فوقها كما الأسرى المقودين إلى مصيرهم، وهم مصادرون كما العجلات وحيوانات الحمل.

20 آب

منذ اليوم، لديّ مساعدٌ، هو الجندي ناثيمينتو غونثالث، الذي يلقّبونه پيسيبري [= المذود]. وجدتُه في أحد مجاميع المجنّدين الذين أُرسلوا من معسكرات أسونثيون. شككتُ أنّه ابن لاغريما غونثالث. خمّنت ذلك حين رأيتُ اسمه في قائمة المسوقين. وتذكّرتُ أنّها قالَتْ لي ذات مرّة إنّها، إن صار لها ولد فستسمّيه «ناثيمينتو» [= ميلاد]. مزحة، نزوة، من تلك التي اعتادت لاغريما أن تتمنّاها. قبل وقت طويل. كم مضى على ذلك؟ حياة بأكملها.

قبيل المؤامرة، زرتُ لاغريما، ذات ليلة، في بناء كائن في شارع الجنرال دياث، وهو ماخور ملاصق تقريباً للمستشفى العسكري. حدّثني أحدُهم عنها. كنتُ خارجاً من إحدى جلسات العلاج من الملاريا. حين رأتني، بدأت بالارتعاش. دخلنا في حجرتها. وضعَتْ ملابسها بخجل خلف ستارة، وهي تطلق ضحكة عصبيّة، مفضوحة، تحاول تقليد ضحكة صبيّة. لكنّ ضحكتها كانت قد شاخت أيضاً. مكثت عندها ساعتين، جلسنا على السرير، مثل خطيبين خجولين محرجين. تكلّمنا عن إيتاپيه وعن المدرسة وعن الناس الذين نعرفهم، ورحنا نتقرّب كلٌّ منّا من الآخر،

نقرّب بما يجمعنا وما يفرّقنا، في آنٍ معاً. لم تسألني، إلّا في النهاية، ما إن كنتُ سأضاجعها. فقلتُ لها: لا. لكان سفاحَ قربى. أعطيتُها خاتماً كنتُ ورثته من جدّي، وخرجتُ إلى الشارع، أشعر بالمرارة، عاجزاً، عجوزاً.

يسيبري لا يعرفني، وأنا كنت أجهل أنّه موجود لولا أن رأيته. عيناه عينا أمّه ذاتها، داكنتان ضاحكتان. كان له أن يكون ابني. أمّا الآن فهو جندي يعمل تحت إمرتي. الحرب وضعته تحت رعايتي، بالمصادفة. واضح أنّ قوانين المصادفة الصارمة تختار ثنايا الفوضى لكي تصبح نافذة سارية، على الرغم من أنّ الأمر قد لا يعدو عن أن يكون مصادفة، وأنّ يسيبري، على افتراض أنّه ابن لاغريما غونثالث، ما هو إلّا لعبة أخرى من ألعاب خيالي.

25 آب

أطلّ طيرانُ العدو برأسه. حلّقتْ إحدى طائراته فوق القاعدة. رشقتها بالرصاص وألقت عليها عدداً من القنابل. لم تقع إصابات. تطلّع الجنودُ، مستمتعين، إلى تحليق طائرة الجونكير. كثيرون من جنود المصادفة الفلّاحين هؤلاء لم يروا طائرة في حياتهم. بعد نصف ساعة، ظهرت طائرتا پوتز، من سلاحنا الجوي. كانتا تنفثان بما ينبعث من أنبوبٍ عادمٍ ضاق نفسُه، ليزيدا الأجواء صخباً على صخب. لم تغب السخرية والمزاح مع وصول الطائرتين المتأخّرتين، اللتين سيطرتا على أجواء القاعدة، مثل ديكين روميين جبليين، بين دجاجات غبيّة.

إنّهم يبنون على عجل سقوفاً للملاجئ. خنادق كبيرة، مسقّفة بالجذوع.

31 آب

أثناء تدريب المجنّدين، مرَّ رتلٌ من صهاريج الماء. بين تلك الشاحنات المصادرة لصالح القيادة، بدا لي أنّي تعرفتُ على واحدة تعود ملكيتها إلى معمل الآجر في سابوكاي. ولكن، سرعان ما غطّتها سحابة من الغبار. على المقود كان يجلس، كما هو متوقّع، كريستوبال خارا، الهارب الوحيد من الهور. الجسم النحيل والناتئ العظام. لن يكون مستغرباً أيضاً أن يأتوا بسلفستري أكينو وعمّال الآجر الآخرين من سابوكاي إلى السجن، ويسوقوهم في الحملة الوطنية لاسترداد چاكو من براثن البوليفيين. فالحرب تنتشلهم هم أيضاً وتحوّلهم من «قذارة تخريبيّة» إلى سقاة وحمّالي ماء إلى جبهات القتال، حيث تُمحى الأدران التي لطّخت شرفَ الوطن.

غفلتُ، للحظة، عن تمرين للهجوم على خندق معادٍ، كنّا نمارسه قربَ البحيرة. أعادني صوتُ إطلاق الرصاص إلى الواقع. ألم شديد في يدي اليسرى راح ينتشر في أنحاء ذراعي. لقد أصبتُ نفسي بطلقة من مسدس البراونغ، حين كنتُ أصدرُ الأمر بالهجوم. يا للنحس الذي يلاحق أفضلَ رماة دُفْعته في السنة الأخيرة من المدرسة الحربية! وجدتُ نفسي أضحك مقهقهاً، بينما وقف المجنّدون، مستغربين مندهشين، غير عالمين بالذي جرى.

1 أيلول

في المستشفى الميداني، تولّت علاجي طبيبةٌ شابة. كلّمتْني تقريباً من دون سؤال، ولم تستغرب ذلك «الجرح الذاتي». لم تحاول أن تخفي أنّها جديدة، لكنّها حاولت جهدها أن تعمل بهدوء جرّاح محنّك. كان في زمّة

شفتيها وتقطيب جبينها ما يشي بالجهد الذي تبذله وهي تستعمل المبضع. لقد مزّق دخول الرصاصة حافة راحة اليد.

«يجب أن أفحصه غداً» -قالت لي عند خروجي- «سيشفى سريعاً، فمن حسن الحظ أنّ العظم سليم». تحت القلنسوة البيضاء، يشي وجهُها البيضوي بنضج مبكّر؛ ربّما هو انطباع أملَتْه الظروف وإرادة التميّز وإظهار الكفاءة، كما في جلسة الامتحان الأخير، مع فارق أنّني الآن أمام سيل ما سيقع. سألتُ الممرّضات عن اسمها. فأخبرتني إحداهنّ، بين ضحكاتهنّ، بأنّي أوّلُ جريح تعالجه الدكتورة مونثون.

عدتُ إلى التدريب وجرى كلّ شيء كالمعتاد.

3 أيلول

أثناء علاجي، بدت الدكتورة مونثون أكثر لطفاً؛ علّقتْ على من يجرحون أيديهم بأيديهم، وابتسمَتْ، وهي لا تقصد لومي. كنتُ على وشك أن أقول لها إنّي جرحتُ نفسي لأطّلعَ على جودة الخدمة في المستشفى الميداني، أو، إنّي ربّما فعلتُ ذلك لكي أكون أوّل جرحاها. لكنّي سكتُّ خوفاً من الزلل، ورحت أنظر إلى عملها. تلمع القفّازات الصفر والرطبة تحت الشمس التي كانت تدخل من الشبّاك. أغمضتُ عينيّ فسألتني ما إن كنتُ أشعر بألم. قلت لها لا. انتهت أصابعُها النحيفة الطويلة من تضميد الجرح. «عليك الانتباه مستقبلاً!»، قالت، وهي تنهض، فكأنّها تخاطب غيري. سلّمَتْ عليّ ببرود وخرجَتْ من دون عجلة، من بين صفوف الأسرّة، وهي تنظر إلى ما حولها. انضمّت إليها العريفة وممرّضتان ورحن يتكلّمن وكأنّهن في مسرح ما زال خالياً. خرجتُ بهدوء من الجهة الخلفيّة.

في الخارج، كانت القاعدة تموج بالحركة في الصباح البارد المشمس الذي تشيع فيه رائحة العشب النديّ والبنزين وعرق الخيل.

4 أيلول

بعد الانتهاء من العمل، عمَّ القاعدة نشاطٌ إضافيّ، استمرّ حتى ساعات متأخرة من الليل. في النادي، في مخازن العتاد، في الكابينات، في الملاجئ، راح الرجال يكتبون بحماس. شاعت حمّى الكتابة الجماعيّة بين مقاتلي المستقبل كما الملاريا، في مبادرة سُمّيت: إشبينة الحرب.

ضبّاط ومراتب وجنود يكتبون إلى إشبيناتهم، أمّا الذين ما زالوا بلا إشبينة، فراحوا يطلبونها من مدنهم وبلداتهم وقراهم البعيدة. على انعكاسات ضوء النار والمصابيح، تسافر الوجوه الحالمة عبر ما تخطّه الأيدي، منتشية حالمة؛ بينما تتحمّس أيدٍ أخرى في نشوة مندفعة؛ بعضها الآخر، في عجز واضح عن التعبير عمّا ترغب فيه أو تشعر به. شيء من قبيل علاقة محرّمة في موقف «ابن بالمعموديّة»: فهو يطلب خطيبة (أو يكتب إلى خطيبة) عن طريق امرأة بعيدة ستؤدي دور الأم والملاك الحارس. آلية معقّدة من التوكيلات والتفويضات.

فالرسائل الموجّهة إلى إشبينات الحرب مشاريعُ خطبة، زواج. هي صيحة اليتم الأزلي الذي يشعر به الرجل إزاء المرأة، المرأة الأم، والمرأة المحبوبة، يتحمّلها ابن المعمودية من دون جدوى ولا مردود.

الوقت الذي تستغرقه تلك الرسائل في الوصول إلى المرسلة إليهنّ وردودهنّ عليها لا يدخل في حساب أولئك الذين لن يلبثوا أن يخوضوا غمار «المهمّة الوحشيّة». فالرسالة التي «ترمى» لإشبينة الحرب هي من

قبيل بومرنغ[51] نافع مُعوّذ؛ لأنّه سيعود من المستقبل وقد بات تعويذة تقي من الوحدة بين الجمهور، ومن الخوف في الخنادق، ومن الموت نفسه.

هناك بالطبع الأشدّ شراهة، أولئك الذين لا يريدون إشبينة-خطيبة واحدة، بل كثيرات: حريماً حقيقياً من إشبينات الحرب، ولكلّ الأغراض والخدمات. يبعثون بالرسائل إلى الأنحاء كافة. ستثمر حبوبُ طلع الصحراء تلك؛ سترسل الإشبينات بردودهنّ، بأجسادهنّ، بأرواحهنّ. يريد المحاربُ أن يذهب مسلّحاً نحو اللامستقبل الذي ينتظره في الجبهة: أن يحمل في حقيبة عتاده حريماً من رسائل، يضمن له، على الأقل، معيشة كريمة، كما كان يفعل الموعودون بجنّة محمّد.

وهناك بالطبع أولئك الذين لا يجيدون القراءة ولا الكتابة؛ هؤلاء يُمْلون أشواقهم على رفيق يضع رسالتهم في الظرف ويغلقه، فيُشاركهم، هكذا، تلك المرأة المجهولة، بلطعة لسان أخيرة، في تلك الأعراس الغريبة التي يقيمها الرجل مع الموت.

5 أيلول

نادي الضبّاط ممتلئ عن آخره. أراد القائد أن يسلّم شخصياً على كوادر القوّات التي ستبدأ عملية استعادة چاكو. مهمّة تكاد تكون حلماً يتطلّع إلى تحقيقه. حلمٌ كان هو، حتى وقت قصير، يمطر الناس بالرصاص من أجل بلوغه. لا يحاول المقدّم إستيغاريبيا، الصغير والمحترس، فرضَ حضوره[52].

(51) Boomerang: سلاح قديم على شكل عصا معقوفة تعود إلى صاحبها إن لم تصب هدفها.

(52) José Félix Estigarribia (1888-1940): قائد قوّات باراغواي أثناء حرب چاكو (1932-1935)، ثمّ رئيس البلاد لحين وفاته عام 1940.

بدلته العسكريّة، بلا حمّالات، تبدو كبيرة عليه، فبدا وكأنّه رجل نما خارج ملابسه نموّاً منفّراً، وإن أفصح في جوهره عن أب عائلة طيّب.

«هذه الحرب ستكون حرب اتصالات» -قال تلميذ فوش السابق، فجأةً، بصوت هادئ أخنّ، وكأنّه يكلّم نفسه- «سيكون النصر حليف من يتمكّن من التحكّم في اتصالات العدوّ. وخصوصاً، الذي يستطيع أن يحمل الماء إلى خطوطه. لأنّ هذه الحرب ستكون حرب العطش[53]...» -أضاف بعد توقّف، وهو يشدّد على كلماته الأخيرة- «لنشربْ نخب انتصارنا!». ما أغربه من نخب! وما أغربها من استراتيجيّة! وما أغربه من قائد!

في الطرف الثاني، يقف المرتزق الألماني كوندت. مدرستان أوروبيّتان تتواجهان في صحراء أميركية قاحلة، تتسلّحان بموارد بدائيّة، وتقتتلان من أجل مصالح غير بدائيّة. طريقة أخرى من طرق السلوك الحضاري حول محيط غير متحضّر، محشور في تخلّف اليوم الأوّل من أيام التكوين.

ينظر إليّ المذود، وأنا أكتب، بينما راح ينقّب في أنفه. نظرتُ إليه فانصرف، بعد أن أدّى التحيّة بكعبَي قدميه. لو أنّي انصرفت ، بدل الكتابة، إلى الحديث معه وسؤاله عن بعض الأمور...

لكن التعليمات تأمر بعدم التقرّب من الجنود، لأنّ معنويات القوات المقاتلة تتغذّى على فقدان الثقة بها.

7 أيلول

فوجُنا هو جزءٌ من قوّة مؤلّفة من خمسة آلاف رجل، هدفها استعادة

---

(53) حرب چاكو أو حرب العطش: دارت بين پاراغواي وبوليفيا بين عامي 1932-1935 في منطقة شبه قاحلة، شمال چاكو، غنيّة بالنفط.

حصن «بوكيرون». لقد وضعتنا قيادة العمليات في التشكيل الأوّل (وهو عماد القوّة)، الذي سيتقدّم من ناحية «كامينو بيبخو». في اللحظة المناسبة، سننقضّ على الحصن في حركة كمّاشة ونقسمه كما نقسم جوزة الهند. فتّشتُ، فصيلاً فصيلاً، رجالَ وحدتي المئة والستة والثلاثين. صحيح أنّهم مستجدّون، لكنّ الحماس يملؤهم. أعطيتهم تعليمات قوّاد الفصائل. وبات كلّ شيء جاهزاً للتنفيذ.

مع أوّل ضياء النهار، بدأنا المسير. لم يبقَ أمامنا إلّا القليل. النهارُ يتكشّف. لم يكن ظهوراً للضياء قدرَ ما كان انحساراً للظلام. صخب القاعدة المكتوم، الذي لم يتوقّف طوال الليل، يرقد ساكناً في هدوء ثقيلٍ وجيز، بانتظار إشارة الانطلاق. تلوح السقائف، وأجسامُ الرجال والعُدد، وزُمرٌ من أخيلة باهتة، بين الغبار المؤرّق الدائم. وتلوح نار المخيّم حيث أواني الطبخ المُعدّ للجنود. استيقظ كثيرون منهم، بينما لم يغمض لكثيرين آخرين جفن، طوال الليل، وأنا واحد من هؤلاء. ينظرون إلى الأفق الليلكي المتحرّك الذي راح ينزع جلده شيئاً فشيئاً. لكنّهم ينظرون، خصوصاً، إلى النور الذي يتوهّج بين زهور القنّا وأوراق لسان الحمل، حيث البحيرة، بحيرة «إيسلا پوي»، التي عمّدوها باسم طموحهم وعزمهم: بحيرة النصر. ما من رقعة مائية أخرى في المنطقة كلّها. على ضفاف البحيرة، تتقاطع شاحنات نقل الماء، صغيرة ومعتمة، تحمل صهاريجها. ولادة الضياء لا تُشاهد في كبد السماء قدر ما تظهر فظيعة في السدّ الممتلئ على النصف بماء يمثّل وجودُه وعمرُه لغزاً من الألغاز. يربض هناك، عند أسفل بطن التلّ، مفترقُ الطريقين المؤدّيتين إلى ميدان المعركة. في عتمة الفجر، يشبه فَرْجاً بالغ الطراوة، يحفّ به زغب من نباتات مائيّة، يتخمّر في بقعة كبيرة من العفن، وتنبعث منه رائحة تكاد تكون جنسيّة. إنّها الإشارة الوحيدة

إلى وجود الحياة وسط السهل القاحل. تحلّق أسرابُ الشاشالاكا فوقها، تصيح من العطش، فكأنّها نذير شؤم. على ذلك الفَرْج المرتعش يعتمد مصير المعركة.

.5

9 أيلول (جبهة بوكيرون)

ما أكثر ما كلّفنا تعميدُ الدم ذلك من دم! ارتدّت حركة الكمّاشة علينا. واصطدمت هجماتنا المكثّفة المكشوفة بخطوط العدوّ الدفاعية الأولى، لكنّنا لن نفلح حتى في تحديد موضع الجيب المستحكم في الجبل. أمامنا، نحو الجنوب الشرقي، يمتدّ، على شكل هلال، دربٌ عرضه أكثر من ألف متر. منبسط وأجرد مثل ساحة عامة في بلدة. نتوءٌ يخرج من الغابة ويتقدّم فوق الحقل المنبسط نحو عنق الوادي. عاودت الوحدات هجماتها المتهوّرة، المرّة بعد المرّة، لكنّها شُتِّتَتْ، مثل عرانيس الذرة، بسيل الرصاص الذي تتقيّؤه المرابض المتشابكة. وخصوصاً، عند حافّة قمّة «لا بونتا برابا»، الملتهبة. ساهمت مدفعيّتُنا في المجزرة بقذائفها التي كانت تطلقها بالمقايسة. وفتحت رمّانات الهاون وقذائف المدفعيّة فراغاتٍ كبيرة في خطّ هجومنا، بدلاً من أن تسقط فوق مواقع العدو. وتشابكت أجنحة الأفواج وتراكبت وتدافعت، في هرجٍ ومرجٍ جهنّمي. وحُشرت كتيبتنا، وهي من قوّات الاحتياط، فأصبحت حشوةً بين الخطوط المضطربة. ولم تلبث الفوضى أن دبّت فيها، كسواها. لم نتمكّن، حتّى بإطلاق الرصاص، من إيقاف حالات الهروب بين جنودها. وأبيدت وحدتي في الهجوم الأول. وكان مساعدي من بين المفقودين.

عند انتصاف النهار توقّف الهجوم المباشر. فوق ساحة الوادي بقي حشدٌ من القتلى يمتدّ إلى حيث تبلغ النواظير مداها، ظلّت جثثهم تهتزّ طوال النهار تحت قذائف المدفعية الثقيلة البوليفيّة، فكأنّهم أصيبوا بحمّى الملاريا. جلتُ طويلاً بالمنظار بين تلك الجموع المطروحة في وضعيات غريبة. أكاد أجزم أنّ مساعدي لم يكن بين أولئك الموتى الذين يرتجفون تحت أشعة الشمس الحارقة.

إطلاقُ نار كثيفٌ بقصد المضايقة. واصلت مدفعيتنا العمياء ترعد في العتمة، دويّ شديد لكنّه فارغ وعقيم. واصل جنود الهاونات لقم هاوناتهم من نوع «ستوكس»، فواصلت هذه سعالها المتقطّع، بين لعلعة البنادق وهدير الرشّاشات. سدّت قوافلُ الجرحى الطرق في ارتداد موحشٍ دمويّ صوب معسكرات الإسناد الخلفيّة.

يهبط الليل. معنويات هابطة. تعب. عجز. سخط. سحبٌ من البعوض، كبير الحجم، كذباب الخيل، تهاجمنا بلا هوادة. ما من دفاعات في وجهها. أشعر في كوعي بالرصاصة التي أصابتني أثناء الانسحاب تكويني. لكنّ ما كان يكويني أكثر عطشٌ في حنجرتي وفي صدري. جرح حيّ في داخلي. لم يصل الماء إلى خطوط القتال. كان الواحد منّا يمصّ غباراً بانتظار وصول الماء.

10 أيلول

أصدرت القيادة قراراً شجاعاً، إذ أمرت بالقيام بمناورة التفاف. اندفعت القطعات، التي أعيد تنظيمها بسرعة، في صولة جديدة. تقدّمت بحذر أكبر، لكنّ النتيجة لم تتغيّر. مع ذلك، فقد كسبنا حماية إضافيّة: الجثث المكدّسة

في الممرّ الضيّق. تحت حماية الساتر المنتن، زحفنا ما في وسعنا، باحثين عن قلب الجيب المعادي، ونحن نتساءل عن مكانه.

أمام سور الأسلاك الشائكة الذي يحمي «بوكيرون»، وجدنا أنفسنا في ما يشبه لعبة الغمّيضة. رقصٌ ورقصٌ مقابل في «كانيادون دي لا مويرته» [= وادي الموت]، على وقع خلفيّة موسيقيّة مرعبة، تعمل فينا موجاتها، وهي مزيج من نار ورصاص، تمزيقاً وقتلاً. ومن فوق، كانت الطائرات، المميّزة بلونها الذهبي الأخضر، تلقي علينا حمم قنابلها وتصلينا بنيران رشّاشاتها، بينما تلقي على الحصن، في تخطيط طريف، بمظلّاتٍ صغيرة تحمل صناديق من الثلج تنقط ماءً للأفراد المتمترسين في الجيب شبه المحاصر. فالقيادة البوليفية تسهر على راحة جنودها. وحدث أن سقط واحدٌ من تلك الصناديق المبلولة، المعمولة من الخيش ونشارة الخشب، في خطوطنا، فكان للوح الثلج عاقبة مدمّرة كما لانفجار قنبلة

11 أيلول

حرّ خانق. كلّ ذرة غبار تبدو وكأنّها نفخت في وقودٍ حامٍ يسحقنا بلوحٍ ناريّ شفّاف. بل كانت هذه حال الهواء. يسير العطش، الموت الأبيض يداً بيد مع الآخر، الأحمر، المعفّر بالغبار. وكما عمّال النقّالات، كان السقاة: ينشطون، لكنّهم لا يسدّون الحاجة. عشر شاحنات لا غير، تنقل السائل الثمين لجنود الفرقتين. من قاعدة التجهيزات، ينطلق الموزّعون، عبر مسالك الغابة المتشابكة، بصفائح الماء، يحملونها على أكتافهم. يراق جزء كبيرٌ من ذلك الماء أو يتبخّر أو يُنهب. في ثمان وأربعين ساعة، تلقينا، نحن الضبّاط، نصفَ زمزميّة، أمّا الجنود فقد تلقّى كلّ واحدٍ منهم نصفَ جرّة

من ماء ساخن، قريبٍ من درجة الغليان. وكان لحم المؤونة المعلّب يزيد من العطش. هربت فصائل كاملة من خط النار، وانقضّ جنودها كالمجانين على عربات نقل الماء، أو على حمّالي الصفائح الأشدّاء. بل لقد قُتل اثنان منهم، غير بعيد عن موقعنا، طعناً بالحراب. وقد لزم إطلاقُ النار على اللصوص الذين كانوا ما زالوا جاثين بالقرب من العلب الفارغة، ينهلون من البركة التي تشكّلت من الهجوم. وهكذا بدأت مقولة إستيغاريبيا[50] تتحقّق بدقّة تثير الدهشة والإعجاب.

عند الليل، ظهر المذود. حكى، رابطَ الجأش، ما جرى له. قال إنّه سار، منذ البداية، هائماً على وجهه، تائهاً في الجبل، ثمّ تنقّل، على غير هدى، بين موقع وآخر حتّى عثر على موقعه. في عينيه الداكنتين، يبرق شعورٌ ذكيّ بالرضا. من الغريب أنّ متاهته بدت وكأنّها روت عطشه.

12 أيلول

استقرّت خطوطنا استقراراً قلقاً. أو، بالأحرى، في توازنٍ قلق. تراجعت حالاتُ هروب الجنود وسرقة الماء، عقب الإجراءات الصارمة التي اتُّخذت. ولكن ظهر أسلوبٌ جديد من التحايل والقرصنة: «جرح الذات»، للانتفاع من امتيازات المصابين الحقيقيين: الإخلاء أو الماء. فعوقب سارقو الماء والفارّون وأولئك الذين يتعمّدون جرح أنفسهم، بإخضاعهم لمحاكمات سريعة تنتهي بالحكم عليهم بالإعدام. وهكذا بدأ الانضباط يعود تدريجياً.

يبدو أنّ الحصار سيطول. هناك ما يدلّ على ذلك. فقد أمر قادة الوحدات، من مستوى كتيبة فصاعداً، بحفر خنادق فرديّة تحت الأرض

بعمق مترٍ واحد، معزّزة بالجذوع والتراب. جاءني المذود بكلام غريب مفاده أنّ آمرنا طلب أن يكون خندقه بعمق ثلاثة أمتار.

«احفروا، احفروا أكثر!» - قال إنّه طلب من مساعديه.

«لكنّ النفط يوشك أن يتدفّق، سيّدي!» - قال إنّ واحداً منهم قال له.

ليس هو مكر المذود وحدَه وحسّ الفكاهة الخبيث فيه. إنّها مستنقعات التدمير والانهزام التي تطفو على روحيّة الجنود: «النفط»، وليس الماء. وها هم أولاء جنود رتل «إيسلا پوي» الضامرين الهزيلين، يسيرون في «كامينو بيبخو»، وقد أثقلت عليهم تجهيزات الحرب، وعيونهم إلى الوراء، لا ينفكّون ينظرون إلى البحيرة الخضراء المتلألئة، التي باتت حلماً يداعب خيال المحاصِرين، قدر ما يداعبه حلمُ احتلال الحصن.

13 أيلول

دوريات استطلاع. حدّدَتْ قوّاتنا طريق «يوخرا» - طريق الدخول الأهمّ إلى الجيب. بات الاتصال بالجناح الشمالي وشيكاً. ولإتمام الطوق، فإنّ القيادة تحتاج إلى معرفة مكان الدفاعات وعمقها في قاطع قوّات الإسناد الخلفية المعادية ذاك. لكنّ البوليفيين ستروا مؤخّرة «بوكيرون» جيّداً. يمكن القول إنّهم بالغو الحياء.

زحفُ أفاعٍ بطيء، وسط لهيب جافٌ قوامه الحشائش والأحراج الشائكة التي تشيع في چاكو، على أكثر من كيلومتر من الأرض المتوهّجة. عشرون رجلاً منتخبون، لا يحتمون بغير ملابسهم الزيتونيّة المهترئة، يتقدّمونني، ممرّغين في زفت من عرق ورديّ يغلي.

لم نحقّق شيئاً كبيراً في جولة الاستطلاع تلك، لكنّنا اكتشفنا مظهراً

آخر فريداً من مأساة العطش. في جزيرة قائمة وسط مساحة من القصب، تقوم عين بئر هندي في الأرض الحرام، تدكّها المدفعية البوليفيّة ومدفعية أحد مواقعنا، في الوقت نفسه. رأيتُ بالمنظار، وأنا متخفٍّ بين الشجيرات، نموذج الطبيعة الصامتة ذاك.

تحت زاوية النار المتقاطعة، تراكمت الجثث حول البئر. تمكّن بعضهم من غرس وجهه في الحوض وظلّ هناك يعبّ الماء إلى الأبد. وتعانقت جثث آخرين، وبقيت هادئة مرتوية. بدلات خاكيّة وزيتونيّة ممتزجة، درزتها دماء قانية، وخاطتها أخوّة ما بعدها أخوّة.

14 أيلول

قُتل قائدُ الكتيبة. قبل موته بلحظات كنّا نتكلّم بصوتٍ عالٍ، بسبب شدّة إطلاق النار. كنّا، بالأحرى، نتجادل بحدّة. كنتُ جئتُه لأطلب منه الإذن بسحب جنودي من تلك المهمة الخطيرة. ردّ عليّ ردّاً قبيحاً. لم أفهم ما قاله. كان بالغ الغضب. ثمّ رأيتُه يفتح ذراعيه ويغمض عينيه، في حركة مائعة تشبه حركة الفتيات. انحنى مترنّحاً نحوي، وطوّق بذراعيه رقبتي. لم أفلح، وقد أربكني هذا التحوّل السريع في سلوكه، في فهم ما كان يجري. تحسّستُ بيديّ ظهره، فوجدته ملطّخاً بالدماء.

ولمّا كنتُ الضابط الأقدم والوحيد الذي لم يخرج من صفوف الاحتياط، فقد آل إليّ منصبه.

15 أيلول

دلائل على هبوط معنويات المحاصَرين. ما عادت الطائرات المطلية

بالأخضر والأصفر تلقي بألواح الثلج عن طريق المظلّات، بل صارت تلقي بأدوية ومؤونة، يسقط معظمها في خطوطنا.

16 أيلول

باتت آليّة الحصار المزدوج مُحكمة الإغلاق. فمع وصول تعزيزات كبيرة، يبلغ عددها الضعفين، سُدّت الثغرات الأخيرة. جنود لا يقلّ عددهم عن العشرة آلاف، مع انتشار واسع للمعدّات، يستعدّون لخنق الموقع المحاصَر، الذي بدا كالقطة بسبعة أرواح. لكنّا كنا نراه كنمر جائع عطشان، يقبع على قائمتيه الخلفيّتين، يلعق جراحه، مختبئاً داخل الجبل المشتعل، وإن كان ما يزال قادراً على النطّ من فوق الفخ الذي نصبناه له، لكي يفنى في نشوة العنف التي ترمي بالوحوش إلى ما هو أبعد من الموت.

أمرت القيادة بالهجوم على الموقع من الخلف. العملية الحاسمة ستحرّك المنظومة كلها، وهكذا ستبدأ بشدّ حلقاتها المتراكزة، مثل ثعبان يلتفّ على فريسته.

ستُرسل الكتيبة المقطّعة الأوصال التي أقودها إلى الجناح الأيسر لتعزيز السيطرة على طريق «يوخرا»، ضمن قاطع حصن «كورّاليس»، وتسيير دوريات في الطرق التي قد يتسلل إليها العدو في قطاع حصن «آرثه»، وهو قطاع مجهول بالنسبة إلينا. في المهمة شيء من الغموض في التعليمات. ثمّ إنّها تشمل هدفين مختلفين، لا قِبلَ لقوّاتي بهما. الأمر الشفوي غير واضح. أرسلتُ مساعدي لطلبه مكتوباً. كتيبتي مثل ورقة الجوكر، يستعملها الجميع على مزاجهم وهواهم. فتجدها، أحياناً، في الاحتياط، وتُستدعى، أحياناً، للمناورة، وربّما استعملوها للكنس والشطف أيضاً.

17 أيلول

ليس لمعركة «بوكيرون» من نهاية تلوح. لا يبدو ذلك واضحاً. فقد بدأ زخم الهجوم يتراجع وينكمش. فحصن بوكيرون عظمٌ قاسٍ يصعب قضمه وهضمه. حركة خطوطنا حركة تمعّجيّة، كحركة الأمعاء، لا تجدي في بلعه. هناك شيء من السحر في حفنة المدافعين المخفيّين، الذين يقاومون بعزيمة شيطانية في ذلك الحصن الحصين بغاباته. فكأنّنا نقاتل أشباحاً مشبعة بقوة محتضرة، مشؤومة إلى حدّ المرض، قوة تخطّت كلّ حدود التعب والموت واليأس.

حين كنتُ صغيراً، أمرني أبي، ذات يوم، بأن أقتل قطاً مريضاً عشّش بجسمه الدود. فما كان منّي، وقد شعرت بالتقزّز والنفور، إلا أن حشرته في كيس ورحتُ أطعنه بالسكين على غير هدى حتّى أحسستُ بخدر في ذراعيّ. تمزّق الكيس وخرج الحيوانُ ينطّ، مقطّعَ الأوصال، بينما وقفتُ مذهولاً، وقد آلمتني صرخاته الفظيعة.

.6

18 أيلول

مسيرة شاقة طوال الليل. عند الفجر اكتشفنا قوة معادية، كان من الواضح أنّها تريد أن تفتح طريقاً لها نحو بوكيرون. بعد مناوشات قصيرة، اختارت القوة الانسحاب مخلّفةً وراءها عدداً من القتلى وبغلة تحتضر. كنّا على وشك أن تلحق بنا كارثة. تراجعت القوّة المتقدّمة على نحو مضطرب بعد أن تعرضت للهجوم من الجانب، فهدّدت بجرّ القوّة كلّها أثناء هربها.

لكنّ انسحاب العدو سمح لنا، لحسن الحظ، أن نعيد تنظيم صفوفنا، حين كنّا قاب قوسين من الهروب. سقط منّا خمسة، بينهم قائد القوّة التي تعرّضت للهجوم. أرسلتُ مساعدي ليحلّ محلّه. المعنويات تتراجع منذ الليلة البارحة. فقد اصطدمت الدوريات المتقدّمة بحاجزٍ معادٍ، تعامل معها بأسلحة بعيدة المدى وإطلاقات كاشفة. أجبرنا هذا الحادث على تغيير اتجاهنا. لذلك وصلنا إلى هذا المكان، من دون أن نعرف على وجه التحديد أين نكون. وادٍ يقطعه طريق فُتح حديثاً، وسط غابة حرشيّة شائكة لم نرَ مثلها. نفترض أنّه أحد طرق اتصال محور «آرثه-پلاتانيّوس». من دويّ المدفعية البعيد، الصادر من جهة الشمال الشرقي، أقدّر أنّنا على بعد عشرين كيلومتراً من بوكيرون. رأينا أنّه طريق ذو أهمية عملياتيّة كبيرة، فقرّرنا البقاء فيه مؤقّتاً. أرسلنا دوريتين. واحدة للاستطلاع نحو يوخرا. والثانية، لحمل رسالة إلى القيادة في طلب تعليمات وماء. خصوصاً الماء، إن أرادوا أن نبقى هنا.

المجموعات التي تفرّقت، عادت إلى التجمّع. أمرتُ بدفن القتلى، قتلانا وقتلى العدو، في قبر حفرناه بالحراب، في الأرض الرمليّة، المرقّشة بخطوط الملح، التي بدت، مع ومض الانعكاسات، وكأنّها جليديّة. زمزميات القتلى، الفارغة تقريباً، أسعفت الجرحى بجرعة ماء. أمّا البقية، فقد اكتفينا بصحنٍ من لحم البغلة، بعد صيامٍ دام يومين.

19 أيلول

لم تعد الدوريتان. اجتماع جديد للضبّاط. مالت الآراء إلى أطروحة «زرع» الكتيبة، «بماء أو من دون ماء»، في الجزيرة الملتهبة. هتف أحدهم

بحياة الوطن بصوت مبحوح، وعينين كدرتين، فارغتين من الحماس القديم.

بعد استكشاف الأطراف، نظّمنا الدفاع عن الوادي في جبهتين، وحوّلناه إلى جيب جيّد التحصين. عزّزنا المداخلَ بمرابض للرشّاشات الثقيلة والخنادق الفرديّة. وأحطنا الخطوط بمواقع مراقبة متقدّمة ومَراقب مدرّجة. في الأطراف، نصبنا «هويسات» للإيقاع بالأسرى. أمام الخطر الآخر، تبدو الإجراءات الأمنية هذه مثيرة للضحك. ليس بعيداً عن الوادي، تقع الغابة التي تصبّ في منخفضٍ فيه بقايا انجراف طيني. خمّنّا أنّه سريرٌ قديم لنهر أو بحيرة، تبخّر، الله أعلم في أيّ حقبة جيولوجيّة. من ذلك المنخفض الجاف وصلنا الليلة قبل البارحة. فوق الأرض الرملية، البيضاء بياض العظم، يبرز طرف حجر له شكلُ الفطر ولونُ سبيكة من البرونز القديم، يبدو وكأنّه يمتصّ الضوء، إذ لا يصدر عنه أيّ بريق. في هذه الناحية من چاكو لا وجود للحجر. لا بدّ أنّه نيزك.

.7

20 أيلول

بدأ «زرع» الكتيبة في ذلك المنخفض القديم يؤتي ثماره. شُفي ثلاثة جرحى. ما عدتُ أحسبُ كم بقي من جنودي، ولا حجم الخسائر التي لحقت بوحدتي. ولكن لا يبدو أنّهم يتناقصون. إنّما هو الانتقال من حال إلى أخرى. إلّا إذا كان اليأس يشغل حيّزه بيننا أيضاً.

بنوا لي ملجأ أسفلَ شجرة «ساموهو»، خلف مربض المدفعيّة. من

خندقي أمتّع ناظري برؤية المدرّج الروماني المغبرّ، بشخوصه البيض، العراة تقريباً، وهم يرمون العظام إلى الخارج. رجال شاخوا، غطّت أبدانهم القشور والبثور. بدوا، وقد غطّتهم فروع الأشجار، العارية من الأوراق، أشباح كومبارس تترنّح مثل سكارى نسوا طريق عودتهم إلى بيوتهم، بعد انتهاء العرض. حين أجول بعيني بين الخطوط، لا أتعرّف عليهم. الوجوه متشابهة، ممتقعة، محترقة، لها لون الجلد القديم المليء بالصدف والقشور، حدقاتهم مغطّاة بماء الغبار، تحت خصل شعرهم الأشعث.

ما زال القصفُ يدكّ الأرض، من جهة الشمال. يبتعد أكثر فأكثر، يقلّد رعود مطر مستحيل. لا جديد عن الدوريّات. أرسلتُ دوريّة أخرى مهمّتها طلب المساعدة، وبأيّ ثمن. انطلق الرجالُ الثلاثة، تحت إمرة رقيب، زاحفين تقريباً، لكنّهم كانوا فرحين. أخرجتُ بوصلتي لأعطيهم إيّاها. لكنّ إبرتها لم تتحرّك، كانت ملتصقة بالقرص، ربّما فقدت مغناطيسها، وربّما كانت مربوطة بتأثير غامض. قرّروا أن يسترشدوا بنبض المدفع من تحت الأرض.

أعتقد أنّ ليون بينيلو[54] أكّد في كتابه، وبرهن ذلك، أنّ موقع جنّة الأرض هو هنا، وسط العالم الجديد، في قلب القارة الهنديّة، على شكل مكان «ماديّ واقعي حقيقي»، وأنّ الإنسان الأوّل خُلق هنا. أيّ واحدة من هذه الأشجار قد تكون شجرة الحياة وشجرة الخير والشر، وليس من الصعب أن يكون آدم وحوّاء استحمّا في مياه «إيسلا بوي»، وفُتنا بسحر الحديقة الأولى. فإذا أصاب عالمُ الكونيّات واللاهوت في «چوكيساكا»

---

(54) León Pinelo (1595–1660): مؤرّخ إسباني. أمضى جزءاً من طفولته وكلّ شبابه في أميركا. أمّا الكتاب الذي يشير إليه فهو «الجنّة في العالم الجديد» El paraíso en el Nuevo Mundo (مدريد 1656).

الحكمَ، فإنّ هذا الرماد هو رمادُ عدن، الذي نثره العقاب، والذي يحجّ الآن إليه أولاد قابيل وهم يرتدون الخاكي والزيتوني.

من تلك الأوحال خرجت هذه الأتربة.

21 أيلول

حاول العدوُّ ثانيةً السيطرة على المعبر، لكنّه دفع ضريبة محاولته الفاشلة تلك بعضَ القتلى، ووقع في هويسات القناة عددٌ لا بأس به من الأسرى. مساهمة بسيطة من أجل بقائنا على قيد الحياة. اندفع رجالي صوب هؤلاء وأولئك بشراسة كلاب تعاني من رُهاب الماء. كان من الواجب أيضاً أن نفرض النظام في تقاسم ماء زمزمياتهم. جرعة لكلّ رجل. وضاعت على البعض جرعته بسبب عجلته وقلّة صبره. أمّا الضيوف فلم يشربوا. سيبدؤون من الآن بتقليدنا في اقتصادنا وتقشّفنا.

فتحنا القبر الجماعيّ من جديد. بات أعمقَ وأعرض. أهيلت طبقة من التراب على القتلى. وما زال هناك متّسع. مدَّ الأسرى يدَ العون في هذه المهمة الصغيرة.

في معارك اليوم، خرج مساعدي علينا من جديد بواحدة من حركاته، التي تتراوح بين المجازفة والسخرية. حين اشتدّ هجوم العدو، سخنت الرشّاشة التي كانت بالقرب من ملجئي، والتي كانت تغطّي فتحة الدخول إلى الوادي، وحشرت. لم يدرِ الجندي ماذا يفعل. حينئذٍ خرج المذود من الخندق واقترب من الرشّاشة الثقيلة وبال على الماسورة الملتهبة، وهو يصرخ بها بين مازح وجاد: «سأبلّل فخذك، أيّتها العجوز القذرة! ولنرَ ما إن كنتِ ستبردين قليلاً!». [بالغوارانيّة].

قد تكون مصادفة، وقد لا تكون. المهم أنّ الرشّاشة عادت ترشّ. طبع فيه لا يقدر عليه.

هكذا بدأ الربيع في أعيننا، في حديقة المباهج الأرضيّة هذه. لا زهور غير زهرة صغيرة بنفسجيّة هنا وأخرى هناك، في رؤوس الصبّارة، بأوراقها الصلبة المسنّنة كالمنشار، تنتفخ وتتكوّر مثل شفاهٍ محتضرة. لا تعيش إلا سويعات. فالذباب يعتاش عليها، ثمّ ينشر شذا عبيرها.

22 أيلول

الطوقُ الناري يضيقُ علينا، بعد أن باتت السماءُ كلّها فوقنا. سماءٌ من ملح أجاج، ترشح، بلا رحمة، من بين الأغصان. ما من ظلٍّ نستظلّ به. وبانتظار الماء، راح الرجالُ يمضغون لحم التونة الليفي وبصلات البطاطا البريّة وجذور الصبّار العصيّة على الهضم، وهي بالطبع أشياء لا تشفي غليلاً ولا تروي عطشاً، بل تسبّب غثياناً وتقيّؤاً يتلفان غشاء المعدة. رأيتُ البعض يلتقطون الجذور التي مضغها الآخرون ليلوكوها بمتعة الأغبياء الذين يحسبون أنّهم ظفروا بغنيمة. وراح آخرون يجترّون قيئهم، مستعملين مخروطات أزهار الصبّار المخمليّة. مع بداية اليوم الرابع من الصيام، بدأ الذين استبدّ بهم الجوع أكثر من غيرهم بقرض الأجزاء الطريّة من السيور. وما أقلّ ما تغذّي السيور!

مكتبة
t.me/soramnqraa

23 أيلول

نسونا. حتّى العدو ما عاد يأتينا إلى الغابة ليهاجمنا، وليهدي لنا عدداً من القتلى، وعدداً من الزمزميات. أو ليسحقنا مرّةً واحدة وإلى الأبد. سيجد

المهمّة سهلة هذه المرّة. الموجودون هنا ما عادوا أعداء. فهم عراة، يعلو وجوههم شحوبُ الموتى، ولا يتميّزون في شيء عن جنودنا. حين رأيتُهم ينتظرون الموت، جنباً إلى جنب، تذكّرتُ عشّ الدبابير المنفرد، ساكناً فوق الأرض الحرام، على ضفة مساحة القصب تلك، في المعسكر الخلفي في «بوكيرون». ينتظرنا مصيرٌ مشابه. في هذه الأثناء، لدينا هنا نموذج مصغّر للحصار، مع فارق أنّنا هنا، جنود پاراغواي وجنود بوليفيا، محشورون في كيس واحد، ومربوطون بمصير محتّم واحد، نتساق صوب عدوّ بلا وجه، ولا يميّز بين أحد وأحد.

ما من دوريّة أخرى. فقدنا كلّ أملٍ في وصول الماء، وفقدنا الأمل أيضاً في الهروب من هذا الوادي الذي نستميت في الدفاع عنه. ما عاد في مقدور أشدّنا قوّة أن يسير مئة خطوة. امتصّت انبعاثات الرمل آخرَ قطرات العرق من أجسامنا، بل لقد سلبتنا دموعنا، وبات المحظوظ فينا من يستطيع حبسَ شيء من بوله في مثانته. يا لها من تجارة مزدهرة! زحف المذود، متنقّلاً بين الجنود، وبيده الجرّة، لكنّه لم يحصل على قطرة واحدة يقايضها بطعامٍ غريب أخرجه من كيس مؤونته: قطعتان مقضومتان من بسكويتٍ خالطه الحَجَر. رمى بهما بين الصبّارات، وجثا، وراح ينبش كالمجنون في الرمل. حشر رأسه في الحفرة وظلّ هكذا، وكأنّه مقطوع الرأس، ينتحب ويولول. رجعنا، في أيام قليلة، آلاف السنين. وما كان إلّا لمعجزة أن تنقذنا. ولكن، أنّى لمعجزةٍ أن تحدث في ركن الجنة الملعون هذا؟

باتت رائحة الأمونيا تنبعث من الذباب. إنّه ذباب أخضر وسريع الحركة، زئبقي. يعيننا على مغالبة النعاس العجيب الذي نغرق فيه. تدلّتْ، قبل قليل، ذبابة أمام عينيّ، تلمع مثل شمس مصغّرة. أمسكت بها وهي تطير، فإذا هي صليبُ سلسلتي الذهبي.

24 أيلول

الهواءُ ينفد. غبارُ چاكو الأبدي، أسيرُ الغابة، الشاحب، النعسان، يفضح تجاعيدَ الفراغ المساميّ الذي ما زالت رئاتنا تضخّه. إنّه صدأ هذا الضوء القديم الذي يتلوّى في الوادي نافثاً صرخات انعكاساته المكتومة. حواسنا تتلاشى خائرة منهكة. أطرافنا تذوب وتنبعج. نطفو ونغوص في هذا اللمعان الدوّار المُنتن المعتم. ما يستمرّ هي المعاناة. فللمعاناة حيويّة غريبة.

25 أيلول

أسلحة وأمتعة وأشياء متناثرة في كلّ ناحية. تختفي أحياناً عن ناظري ثمّ تعاود الظهور في أماكن مختلفة. ربّما لأنّي أفتح عينيّ وأغمضهما وأغيّر مكاني من دون أن أشعر. أسمع طنيناً في أذني. ما عاد لساني يجد متّسعاً له بين سقف الفم وفكّيّ المتخشّبين. أشعر بلساني مليئاً بالنمل. التهيّؤات تحاصرني. تظهر وتزول. لسعاتُ النار تثقب رقبتي وتتمكّن من دماغي. لسعة نار باردة تسري في أطرافي، التي بدت مدفونة على عمق كبير. تصوّرتُ قبل قليل أنّي رأيتُ شمعة كبيرة موقدة بين الأغصان. عجباً!، قلتُ في نفسي. فهو موتٌ مع صلاة على روح الميّت بكامل اللوازم! لم تكن شمعة. بل هي الشمس تتأجج في لهب معتم صلب في ماسورة الرشّاشة الأوتوماتيكيّة. لن أعاود التفكير بصوت مسموع. إنّه صوت غريب. صوت ميّت... وفجأة، بدأ الوادي يعكس الصور بضفافه المخضرة. إنّها بحيرة «إيسلا پوي». بدت لي، من بين الأشجار المقطوعة من نصفها والمنعكسة فيها، وكأنّها تستفزّني... على بعد خطوة من الملجأ! أزحف وأحشر رأسي في ذلك الفَرَج الدافئ الحيّ، أحاول أن أظلّ في أعماقه المظلمة الناعمة.

لكنّي لا ألبث أن أختنق وأعاود الخروج مدفوعاً، أبصق تراباً وقذارة، بينما البحيرة تنفجر في فقاعة صابون. أخلّف الوادي، أحياناً، وراء ظهري، وأرى نفسي في جزيرة السجن، أتحادث مع خيمينيث، بينما وقفت الببغاء على كتفه، ساترةً وجهها بجناحيها الزرقاوين. أو أعود إلى زمن طفولتي ومراهقتي. لحم التونة المطاطي يجدّد طعم حلمتَي داميانا دابالوس، اللتين عضّتهما شفتاي في تلك الليلة، بين الخرائب، أشرب من حليبها. أو هو مكاريو فرانسيا العجوز، الصغير المحدودب، يحمل لي الماء بكفّي يديه من نهر «تبيكواري»، قاطعاً الأرض المنبسطة. يسير ويسير.. ويصل إلى النهاية، أنحني لشرب الماء فلا أجد في راحة يديه الهزيلتين غير الثقب الأسود الذي خلّفته أونصة الذهب المسروقة.

26 أيلول

ما عاد من فارقٍ بين الأحياء والأموات سوى أنّ هؤلاء أكثر جموداً من أولئك وأكثر ثباتاً. في البداية، كنّا ندفن الجثث. لكنّ الدفن بات ترفاً وبطراً. ما عدنا نشعر بنتانة الموتى، لأنّها، على أيّ حال، نتانتنا. اليوم أصبح موتى ثلاثة آخرون. فمن سيقوى على سحبهم حتّى الحفرة وإهالة التراب عليهم؟ ينتفخون بين الأحراج، متحجّرين ساكنين. بالقرب من الملجأ، يرقد مساعدي وقد طُويَتْ شفتاه وازرقّتا وبدا مستعداً للقاء الموت. ما زال يمدّ لي جرّة الصفيح بأصابعه المتخشّبة، ويكشف عن أسنان يغطيها التراب. يدخل الذباب الأخضر ويخرج من منخريه. ومن وقت إلى آخر، تسقط واحدة، وتلفّ بسرعة من حولي، مستكشفة مستطلعة، لترى ما إن كنتُ نضجتُ. أظنّ أنّ حركتي البطيئة وصمودي يغضبانها. فأنا غير قادرٍ على قياس صبرها. الذباب يمتلك كلّ الوقت لإنجاز عمله. حطّتْ للتوّ

واحدة على ورقة الدفتر. تركَتْ خطّاً رطباً بين الأسطر، جفَّ في رمشة عين. ثمّ قفزَتْ على ظاهر يدي. عيناها المحفورتان بأشكال كثيرة تحدّق فيّ. أشعر أنّي لا أستطيع أن أخفي عنها شيئاً. إنّها تعرف عنّي أكثر ممّا أعرف عن نفسي. في قطرة الحجر البركاني هذه تستقر ذاكرة العالم كلّه. تراقبني، وهي تحرّك ببطء عينيها الواسعتين الموشوريتين المتعددة الأسطح، التي تملأ كلّ الوادي، بينما تحكّ أنفها بذراعيها الرفيعتين، التي في مقدور كلّ واحدة منها أن ترفعني بقوة تعادل قوة عشرة نمور. ولماذا أطردها؟! ستعود، ستلحّ، ستعاود الكرّة، المرّة تلو المرّة، مثل ظفر يلحّ على ندبة، إلى أن تسيل القطرة القانية. ليست هي وحدها. هناك ملايين. بل إنّ الوادي كلّه يطنّ، فكأنّه خليّة نحل.

27 أيلول

ليس عليّ، مع ذلك، أن أفقد صوابي. فأنا ما زلتُ قائد المجموعة، وعليّ أن أسهر، حتّى النهاية، على مصير رجالي. ألمح أجسامَهم الهزيلة، على ضوء الكتل اللمّاعة التي تنبجس في الظلمة العجيبة المتواصلة. من بين الطنين الذي يوشك أن يشقّ طبلة أذني، أسمعهم يخورون ويحشرجون. أسمع، أحياناً، أنينَ تلهّفٍ وشهوة، فكأنّه صادر عن هزّة جماع. أميل إلى الظنّ بأنّ شكواهم باتت خالية من المعاناة. فكلّ شيء صار خارج الواقع. أحافظ على قوايَ، وأتشبّث بومضة العقل الأخيرة هذه، ببقيّة القلم هذه. في كلّ مرة أشعر بالقلم أثقل، فكأنّي أكتب بهيكل شجرة متفحّم. أحياناً يسقط منّي وأستغرق وقتاً للعثور عليه.

28 أيلول

هذه المنيّة البيضاء عاهرة لا تشبع. لا تُرى، لكنّها موجودة، فاحشة وشفّافة. تنام معنا. تتربّص بنا، ثقيلة من حرّ ومن صمت. عينها، عين الرغبة الصفراء تهتزّ بين الأحراج. نشعر بها تمشي فوقنا، تتحسّسنا بأصابعها، أصابع الحمّى. تتنقّل زحفاً بيننا، من واحد إلى آخر، برائحة العرق المالحة. ما إن تنتهي مع واحد حتّى تبدأ مع آخر، أو مع آخرين، بينما عيناها، عينا الحيّة، تبحث وتختار العشيق اللاحق، للمضاجعة اللاحقة. تنوّمُه أوّلاً ثمّ تلفّه بأذرعها حتّى تكسر عمودَه الفقري. رفسات نوبات التشنّج تدوم لحظة، ثمّ ينطفئ الأنين الجنائزي بين الشفتين المحتقنتين المنفوختين. لا عفّة تقدر عليها ولا احتشام. هكذا تسلّلتْ إلى مساعدي، وهو بعدُ طفلٌ تقريباً. لكنّها لم تستطع أن تحوزه، لأنّي انتزعتُه منها برصاصة. طلب المذود منّي أن أطلق النار عليه. ما عاد يتحمّل المزيد. وقد بات يعرف ما يوجد في الطرف الآخر. فقد ارتسمت ضحكة على وجهه. يبدو أنّه رأى ما أبهجَه.

29 أيلول

أمّا هذا، فاحتضارُ جهنّم. أو ما هو أسوأ من جهنم. خيرٌ لنا أن ننتهي.. ولكن، ما أصعبَ الموت! عليّ أن أكون مخلّداً تقريباً. أخرجتُ المسدّس ونزعتُ السلسلة من رقبتي، ولففتها على ماسورته إلى أن لمع الصليب فوق المعدن المزرق. حين رفعتُه إلى صدغي، في حركة استغرقت دهراً، كنتُ ما أزال أسمع الأنين. جرجرتُ نفسي، بما استجمعتُه من قوّتي، إلى حيث الرشّاشة الثقيلة. أمسكتُ بالمقبض، وضغطتُ على الزناد ودرتُ بالماسورة فوق حاضنتها، وكنستُ الوادي برشقات، لأنظّفه من آنات

الآخرة. في الصمت الذي أعقب ذلك، سمعتُ لهاث شاحنة يقترب. ثمّ ظهرت العجلة في فتحة الطريق. إنّها شاحنة ماء.. أمّا هذه فظلّت تغويني.. تغريني. أحابيلها لا عدّ لها وسخريتها لا تُعرف لها حدود. في سحابة من الغبار، والدواليب تحترق، تقدّمت الشاحنة، في خطّ متعرّج عبر الوادي. أطلقتُ عليها رشقاتٍ من النار، أفرغتُ خرطوشاً كاملاً، لكنها لم تتوقّف، ولم أستطع القضاء على ذلك الوحش، وحش هوسي وجنوني. واصلت الشاحنة التقدّم، وصهريجها يتمايل، ودواليبها تحترق، محمّلة بشاراتِ ماءٍ حقيقيّة، إلى أن اصطدمت بشجرة. إنّها هناك.. إنها تناديني.

الفصل الثامن

مهمّة خاصّة

1.

- لماذا لم تأتِ بسرعة؟

لا يُسمع شيء تقريباً. فسقف القشّ وجدران الطوب لا تتحمّل الضجيج القادم من الخارج. كان البيت المنخفض الواسع، حيث أقاموا مقرّ القيادة، يضجّ بصخب المعسكر. فصلوا المخازن عن المكاتب بألواح عازلة، لكنّ النشاط في الداخل كان محموماً. تلفون يرنّ. وراديو يتنقّل بين الموجات ويصوّت، وضربات على مفاتيح الآلات الطابعة المحمولة. شحن وتفريغ. مواد تموين وعتاد. دخول وخروج. قصف المدفعيّة يأتي من الغرب، بعيداً عديمَ اللون رتيباً.

كان على آمر المعسكر، في مكتبه الصغير، أن يرفع صوته. ليس لعصبيته، بل بسبب الضجيج. يصرخ وهو يكلّم الرجل الجسيم الملتحي الذي يقف أمامه كالمتّهم، وقد ضمّد ذراعه.

- لماذا تأخّرتَ، رقيب أكينو؟

«كنتُ في المستشفى، سيّدي» - قال، وهو يعرض ضماده بزهو هادئ.

- أين جُرحتَ؟

- بالقرب من پوثو باليثيا.

- كيف؟

«و.. سيّدي...» - توقّفَ، وراح يهرش لحيته الكثّة، المعفّرة بالتراب، باحثاً عن الكلمات المناسبة.

يصعب على الرقيب التعبير بالقشتاليّة[3]. فهو يتوقّف بين الجملة والجملة، وكأنّه يترجم ذهنيّاً ما يريد أن يقوله.

- كيف جُرحتَ؟

«انقضّوا علينا» -تأتأ المُكلّف بمجموعة الماء- «فصيلٌ كامل. لم نستطع التخلّص منهم. كانوا جنوداً من خطوطنا. لا الطائرات البوليفيّة ولا جنود الغابات أخطر من جنودنا» - اختلطت كلماته حتّى ما عادت مفهومة.

من الجانب الآخر من الجدار، كان المساعدون يتجادلون بصوتٍ عالٍ. نطّ الآمرُ من مكتبه، واقترب من الفتحة وزمجر: «اسكتوا!».

توقّف الضجيج. ظلّ عاملُ المورس يضرب بلغة النقاط والخطوط ويعلو بضجيجه على ضجيج المعسكر. من خلال الفتحة التي كانت تقوم مقام النافذة، تُشاهد في العمق البحيرة ترسل وميضاً، فترتسم عليها بقع مضيئة. نظر الرجل الملتحي بطرف عينه إلى الشاحنات التي كانت تحمّل الماء على الضفة، وأدار لها ظهره. كان آمر المعسكر يقيس الغرفة بخطواته. كان أصغر بكثير من الرقيب، لكنّه يحمل في عينيه البنيّتين القلقتين طاقة كبيرة وحسّاً عالياً بالواجب. عاد إلى الجلوس. بدا وجهه الشاحب، المزيّن بصلع مبكر، وكأنّه هدأ. نظر في الأوراق. كان بعضها متسخاً ومكرمشاً..

بيانات وبلاغات عسكريّة من الجبهة. ضربها بظاهر يده، فكأنّه ينتهي من تنظيفها وتعديلها.

- استدعيتكَ لأنّي أريد أن أكلّفكَ بمهمة خاصة. لقد طلبوا منّي إرسال شاحنة ماء. بسرعة. عليها أن تخرج الآن.

- نحن نحمّل الرتل، سيّدي.

«نحتاج شاحنة واحدة فقط» -قاطعة بحدّة- «أحتاج أيضاً سائقاً جيّداً».

- و.. هذا يوجد.

- من ترشّح من رجالك؟

«أرشّح مساعدي، العريف كريستوبال خارا» - قال بلا تردّد.

- يجب أن يكون شخصاً فطناً وشجاعاً.

- يمكنك الوثوق به، سيّدي. نحن من بلدة واحدة. أعرفه جيداً. ولن يخيّب ظنّي.

- إنّها مهمة صعبة.

- أنا أتكفّل به.

- سيحمل ماءً ومساعداتٍ طبية إلى كتيبة محاصرة خلف بوكيرون. عليه أن يجتاز الخطوط. من سيذهب، عليه أن يكون مستعدّاً للموت. بل ربّما لن يستطيع حتى الوصول.

«أطلب منك أن تسمح لي أنا بالذهاب» - قال الرقيب.

- أنت قائد المجموعة. اذهب وابحثْ عمّن رشّحتَ. وسلّمْ هذا الأمر إلى المستشفى في طريقك. لكي يجهزوا في الحال شاحنة طبية.

- أمرُك!

أدّى التحيّة وخرج من المكتب.

.2

على السهل المتفحّم، تظهر تلّة إيسلا پوي، ومن خلفها سماءُ الغروب الحمراء، مثل بيت نملٍ أبيض داسته عجلة سيارة. أمّا هنا، فبدلاً من النمل، كانت أفواج الرجال تختلط بالشاحنات وقطع المدفعيّة والعربات والخيل والبغال والثيران، في خليط هادر من صراخ وأوامر وصهيل وزئير محرّكات، في هواء دبق خانق. تحت شجرة ساموهو، راحت جوقة موسيقيّة تعزف أو تتمرّن على مقاطع من مارشات عسكريّة. لا شيء أغرب من تلك البقيّة الباقية من الاستعراضات العسكريّة التي تحاول، وسط ذلك الهرج، أن تضبط مسير الجنود المتوجّهين إلى الجبهة. الأقدام الحافية كانت من تراب. وكذلك الوجوه. التراب يرتفع في أمواج ويلتهمهم. لم يكونوا أكثر من ذلك: نمل الحرب، البندقية على الكتف، والعتاد على الظهر، صوبَ الخطوط.

اتجه الرقيبُ نحو المستشفى. صدمته رائحة الفينول. حمّالات وأسرّة، نقّالات من فروع الشجر، تتناثر حول الباحة الكبيرة الممتلئة، التي ترفرف فوقها قطعة من قماشٍ أبيض تحمل شعار الصليب الأحمر، مربوطة إلى شجرة خيزران. جرحى ينامون على الأرض. وآخرون ينزلهم المُسعفون من سيارة شحن صغيرة لتوزيع الخبز حُوِّلت إلى سيارة إسعاف. بينما حُمل آخرون، كانوا ساكنين تحت البطّانيات، إلى أحد أطراف المعسكر.

دار الرقيب بين أكوام الأنين تلك. في صالة الخفارة، سلّم الأمرَ إلى أحد الممرّضين.

«شاحنة طبيّة.. من أين؟!» – تمتم، متنهّداً، بعد أن أعاد قراءة الأمر، بنبرة العارف.

«لدينا حالة مستعجلة» - قال الرقيب.

«ما ليس لدينا هو الشاحنة» -ردَّ الممرّض، وأضاف، وهو يشير إلى شاحنة توزيع الخبز التي كانوا ينزلون منها الجرحى- «هذه هي كلّ ما لدينا. أمّا البقية فكلّها في مهمات».

- يجب أن تجهّزوها في الحال.

- ستذهب، إذا كان ذلك ممكناً. لا أستطيع أن أضمن لك شيئاً.

- لدينا أوامر.

- تكلّم مع رئيس المصلحة.

نهض مستاءً وذهبَ لاستدعائه.

خرجت ممرّضة إلى الممرّ واقتربَتْ خلسةً من الرجل الملتحي.

«كيف حالُ ذراعك، سلفستري؟» - سألته بالغوارانيّة.

- على أحسن ما يرام.

- عمّ تبحث، إذاً؟

- سيارة إسعاف.

- ظننتُك تريد أمراً بالدخول إلى المستشفى.

ضحك الرقيب.

«أدخلُ إلى المستشفى بسبب خدش؟ لن يدخلوني إلى هنا ولو كنت ميّتاً! وإن كنتُ أتمنّى..» -قال وغيّر نبرته- «لكي أكون معكِ، سالوي.. أقصد، قويّاً ونشيطاً.. أليس كذلك؟».

تصنّعت الفتاة عدمَ الفهم. آثارُ شيخوخة مبكرة ترتسم على وجهها الصغير، ذي الخدّين المدوّرين، وتضفي عليه تعبيراً ينمّ عن تعبٍ وشرود. لكنّها تضحك فيستعيد وجهُها نضارته، الطفوليّة تقريباً. تغطّي صدريتها

بقعٌ قديمة وجديدة، فينشط عليها الذباب. وتربط على رأسها عصابة لا تقلّ قذارة عن الصدريّة. تسقط أطراف جدائلها السود على ظهرها، فيصدر منها بريقٌ معدني.

- ولماذا تريدُ سيارة الإسعاف؟

- مهمّة خاصة. ألا ترغبين في الذهاب، سالوي؟ نحتاج إلى متطوّعين.

هزّت كتفيها.

- هل تعلمين من أرسلوا لنا؟

«من؟» - قالت، دون أن تبدي فضولاً كبيراً.

- كيريتو.

تغيّرتْ تعابيرُ وجهها. واستدارت عيناها الكبيرتان ببطء نحوه.

«إلى أين؟» - سألَتْ وهي تتصنّع اللامبالاة.

«إلى خلف الخطوط.. جولة جميلة! بطاقة ذهاب بلا عودة!» - قال الرقيب، مازحاً.

- ولماذا يرسلون به؟

- لا بدّ أن يذهب أحد.

ظلّت الممرّضة مُطرقة. عاد الممرضُ بمدير المصلحة، الذي بدأ نقاشاً مع الرقيب.

انصرفَتْ كما جاءتْ، خلسةً.

.3

عند ضفة البحيرة، كان حمّالو الماء يملؤون الصهاريج المقامة على

هياكل شاحنات قديمة مُصادرة. كان ممكناً تخمينُ من أين صودرت تلك العربات. فبعضها يحتفظ بلوحته التي كان يحملها زمن السلم، أو أسماء أشخاص أو علامات تجاريّة أو دعايات، بينما يحمل بعضها الآخر ألقاباً غريبة أو أمثالاً طريفة.

صفٌّ من الجنود، شبه عراة، يتناقلون صفائحَ النفط المليئة بالماء، ليصبّها الأخير، من على الصهريج، في فتحة الخزّان. عشر شاحنات راح الحمّالون يتحرّكون بينها بمرونة وإيقاع. أجسادهم العارية الهزيلة تُظهر أضلاعهم. وتلمع صورهم المبلّلة تحت أشعّة الشمس. ينطلقون في تعليقات لاذعة وضحك، لكنّ رحلة الصفائح لا تتوقّف ولا تتعثّر. تصعد من الماء الأخضر وتنزل من جديد إليه، من يد إلى يد، منعكسة، مع مرورها، على الوجوه التي ظلّلتها شمسيّات القماش المبقّعة بالزيت.

في نهاية الصفّ، تقف سيارة فورد صغيرة قديمة، كُتب على لوحة تسجيلها: سابوكاي-1931. ارتقى رجلٌ الصهريج ليفرّغ الصفائح التي تأتيه من الآخرين. كان نحيفاً باديَ الأوردة، حادّ التقاسيم. يعمل بصمت، ولا يشارك الآخرين مزاحهم. وكانت الندوب تخدّد ظهره النحاسي المدبوغ.

ظهر الرقيب ينزل المنحدر، أسكت ظهوره الصخب، وراحت الصفائحُ تتحرّك بسرعة أكبر.

- العريف خارا.. يستدعونك في القيادة!

التفت الرجل، الذي كان على الصهريج، صوب الرقيب مرتاباً. استعجله هذا بإيماءة. فسلّم خارا الصفيحة إلى الرجل القصير البدين الذي كان يعاونه، قفز من المنصّة وتناول سترته وانصرف.

تسلّق الرجل القصير البدين الصهريج وحلَّ محلّه. بصق في راحتي يديه، وتناول الصفيحة الجديدة التي ناولوه إيّاها، وفرّغها بصعوبة.

«هيّا، غامارّا.. هيّا، مديو مترو!» – صاحوا به مستهزئين.

«سكوت!» – صرخ الرقيب، الذي نظر بطرف عينه إلى خارا، بينما راح هذا يبتعد صعوداً.

واصل صفُّ الحمّالين عملهم الإيقاعي في رحلة الصفائح والأجسام اللمّاعة.

.4

نظرا إلى الخرائط والمخططات الموضوعة على المنضدة. رسمَتْ يدُ الآمر بالقلم الأحمر صليباً على واحدة منها، وشدّدت على الخط.

«هنا!» –قال– «الوادي يجب أن يكون هنا. بعد طريق يوخرا. في هذا الشريط من الجبل».

نظر كريستوبال خارا بصمت إلى المخطط.

«جبلٌ وصحراء» –أضاف الآمر– «العدو يسيطر على القاطع كلّه، وهنا يدفع لإيصال التعزيزات إلى بوكيرون».

توقّف وسمّر عينيه الدقيقتين، ليسأله بصرامة:

– هل أنتَ مستعدّ للذهاب؟

– نعم، سيّدي.

«ممتاز» –لانَ صوتُه حتّى بات هادئاً مازحاً– «هذا يعني أنّ لدينا في ترانسپورتِس، على الأقل، رجالٌ فحول. رتّبْ أمرك! ستأخذ شاحنتك

وشاحنة طبيّة فيها أدوية ومؤونة. في قيادة الفرقة، في إيسلا ساموهو، سيعطونك التعليمات الأخيرة. من هنا ستحمل معك عنصرَ الدوريّة الذي استطاع الوصول إلينا».

هزّ كريستوبال خارا رأسه موافقاً.

- استعدّ للانطلاق في أسرع وقت، عبر «الكامينو بييخو». لا تطلبْ متطوّعين. من الأفضل ألا يعلم بالأمر أحد. اخترْ بنفسك مرافقيك. وانطلق. حظّاً سعيداً! آه.. خذ بالك من الشاحنات!

استأذنَ بالانصراف وانسحب. ألقى عليه الآمرُ نظرة ملؤها الإعجاب. صدرت منه حركة طفيفة، فكأنّه أراد أن يناديه من جديد، لكنّه عدل عن الفكرة وعاد إلى أوراقه.

.5

وضعت الممرّضة جردلَيْ الماء المغلي على الأرض، وأزاحَتْ قطعة الخيش، التي وُضعتْ في فتحة «صالة» العمليات لتكون بمنزلة ستارة. نظرَتْ من خلال الفتحة. على ضوء شمس الغروب، الداخل عبر النافذة، كان الجرّاح يواصل عملياته. رأتْ بريق أدوات الجراحة، والوجوه المتعرّقة التي نال منها التعب. تحت القفّازات، التي اصطبغت بالحمرة، راحت بطنٌ شُقّت بالطول، تتقلّص وتنبسط، مثل بطن دابّة قُطّعتْ حيّة. وعلى الطرف، رُكنت المصارينُ والأحشاء. الجرّاحون القليلون يعملون، منذ بداية الهجوم، بلا توقّف، ليل نهار. لقد سبّب حصارُ بوكيرون أن غزا عددٌ كبيرٌ من الجرحى مستشفى القاعدة، منقولين من وحدات الميدان

الطبيّة والمستوصفات التي تغصّ بهم. كان ذلك ميدانَ معركة آخر. يأتي عمّال النقّالات بوجبة جديدة ملطّخة بالدم والتراب.

تركت سالوي ستارة الخيش تسقط. ذهبَتْ إلى المطبخ. اقتربَتْ من امرأة أخرى كانت تتحرّك بين مواقد النار. لا بدّ أنّها كانت فلّاحة جميلة وقويّة، لكنّ قشور الدمامة والقذارة باتت تغطّيها.

«لا؟» - سألتها بعينين متلهفتين عن موجة الذين تمّ إخلاؤهم.

«لا» -ردّت عليها سالوي- «اسمه غير موجود في القوائم. هناك ما يقرب من مئتين».

«لا أدري ماذا جرى لي» -قالت، بين لهفة وهدوء- «أريد أن يكون كريسانتو بينهم ولا أريد. أحياناً أتمنّى أن يأتي، لكنّي، حين أرى كيف يأتون، لا أريد. أفضّل البقاء على الأمل والانتظار».

«أنا ذاهبة، خوانا روسا» - قالت لها بعد توقّف. وضعت يدها على كتفها، من دون أن تكفّ عن النظر هي أيضاً إلى المنحدر المؤدي إلى البحيرة.

- إلى أين، صديقتي؟

- سأحاول الذهابَ معه. لا أدري ما إن كنتُ سأستطيع. سأحاول. إنّهم يرسلون به إلى بعيد. أعلم أنّه لن يعود.. سأذهب متطوّعة. أتمنى عليك أن تحلّي محلّي، خوانا روسا. لقد أخبرتُ الطبيبة بذلك.

- نعم، سالوي.

- عليّ أن أذهب معه.

- هل كلّمتِه؟

- لم أكلّمه بعد.. أنتظر الفرصة.

– متى يرحل؟

– الآن.. أترك لك صرّة الملابس، فقد لا أراك ثانية. في الصرّة بعض الأغراض وقليل من الدراهم. اشتري بها ملابس لولدك حين تعودين إلى مسكنك.

وأخرجت خوانا روسا من بين الملابس شدّة من السجائر وقدّمته لها، وقد امتلأت عيناها دمعاً. أشعلت سالوي سيجارة منها وراحت تجرّ أنفاساً منها.

«سأصلّي من أجل أن تعثري على رجلك، خوانا روسا» – قالت وقد غطّى الدخان وجهها.

تودعتا مثل أختين شقيقتين. دخل عريف الإعاشة وبعض الجنود مع وعاء الطعام في صخب. مازح العريف المرأتين الشاردتين. خرجت سالوي من دون أن تتفوّه بكلمة، بينما كان كريستوبال خارا يمرّ بالمنحدر.

6.

«كريستوبال!» – قالت.

كان يسير صامتاً. بدا وكأنّه لا ينتبه لوجودها. حثَّ الخطا. وأسرعت سالوي في خطاها. كان يصعب عليها اللحاق به.

– أريدُ أن أتكلّم معك.

– لا وقت لديّ.

– أعرف أنّهم أرسلوك إلى مكان بعيد.

تشنّج وجهُ خارا، في بادرة رفض واعتراض.

- ... وستحتاج إلى مساعدين على النقّالات. ليس في المستشفى الكثير منهم. أريد الذهاب متطوّعة!

«لست بحاجة إلى متطوّعين» - قال، بحزم، وهو ينظر إليها من أعلى إلى أسفل، وأضاف: «وخصوصاً إذا كان المتطوّع.. امرأة» - حال تردُّدُه دون حدوث صدعٍ جارح، ربّما تجاوز قصده.

- أريد أن أذهب معك، كريستوبال!

«ليظلّ كلّ واحد في مكانه» - قال من دون أن يعود إلى النظر إليها.

- فإن طلبتُ منك أن تسمح لي بالذهاب معك؟

لا أحتاج إلى ما يثقل عليّ.

هكذا تركها معلّقة. رأته يبتعد بخطوات سريعة رشيقة، بينما وقفت هي كالمذهولة. ثمّ رأته، وقد بات قريباً من البحيرة، يعدو بسرعة، ورأت الجميع يعدون بسرعة. لم تفهم في البداية ما الذي يحدث. فقد باتت، في تلك اللحظة، بعيدة بعيدة، وصار بعدُها يزداد ويكبر، فكأنّ صدود كريستوبال عنها دفعها إلى الوراء، إلى زمن الصدود والمذلّة. ما عادت تشعر بالأرض من تحت قدميها. مع ذلك، تغيّرت ملامح وجهها، وارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيها، وومضت عيناها، بعد أن انفتحت كبيرة وثابتة، مع ذلك، لم ترَ النيازك الثلاثة التي كانت تعبر سماء القاعدة وهي تئزّ.

انتزعتها تلك اللحظة من نفسها في ما يشبه النبوءة.

لا أحدَ يعرف، على وجه الدقة، عنها شيئاً. حتّى هي، ربّما. فقد نسيَتْ كلّ ما تركته وراء ظهرها. حتى اسمها القديم، ماريا إنكارناثيون. شاعت قصص وحكايات عنها، باتت جزءاً من فولكلور القاعدة. يؤرّخ بعضهم

قدومها في التعبئة العامة الأولى عام 28، ضمن قافلة النساء اللائي لحقن بأزواجهنّ. لكن يبدو أنّها لم تكن حينذاك سوى فتاة في طور البلوغ. يقال أيضاً إنّ زوجة أحد الضبّاط أتت بها لخدمتها، ثمّ طردتها لأنّها.. طيّب، هنا تختلط الأمور. جاءتها سمعة الفتاة المغامِرة من وجودها الفائض غير النافع، فقد أُرسل بها إلى جانب من المعسكر، بكلّ ذلك الجمال، غير النافع أيضاً، والطفولي جداً، لكي تنحرف في أحد المواقع. حين كانت تسأل عن حالها هناك، كانت تقول: «أتيتُ لأشهد الحفلة، وبقيت...».

لكنّ الحربَ غيّرتْ جلدَها، كما يغيّر الصيفُ جلدَ الحيّة، يومَ ارتفع قمرُ الدم واجماً مكفهرّاً فوق أفق چاكو.مكتبة سُر مَن قرأ

قبل ذلك الوقت، حين كان «الحيّ» السفلي يتكوّن، بالقرب من البحيرة، احتالت للحصول على كوخ من السعف والطوب. أمّا في الطرف الآخر، في الجانب العلوي، فقد شُيّدت بيوتٌ لعوائل القادة والضبّاط. تخرجُ الزوجاتُ والقريبات وقت العصر للتنزّه في الساحة، حول سارية العلم. أمّا هي، فكانت تنظر، من الأسفل، إلى جمع النساء المحتشمات الأنيقات. وربّما تأمّلت الصبيّات، ومن خلفهنّ سماء رملية بنفسجيّة، يتحرّكن على موسيقا الجوقة. ربّما حسدتهنّ على كعوب أحذيتهنّ العالية، وملابسهنّ الملوّنة، اللصيقة بالخصر الضيّق، بل على كروش السيّدات الحوامل، وقد برزت بطونهنّ. وربّما تطلعت، في الليالي المقمرة، إلى النوافذ المضاءة في الأعالي، وسمعت موسيقا الدردشات العائليّة. لم تكن تمتلك أكثر من شعبيتها البذيئة وسمعتها المشينة، التي راحت تنمو في الكوخ الصغير، وقت العتمة، عند ضفاف الماء. تبرد ريح الصحراء، فتحرّك الحصيرة التي تقوم مقام الباب، وتخمشها بهمس الأصابع اليابسة. أخيلة تجلس القرفصاء، تنتظر دورها أمام الحصيرة، تحت القمر، تختبئ بين الأعشاب،

تتستر من الحارس الليلي. لكنّ الحارس الليلي يأتي أيضاً، يترجّل عن حصانه وينتظر كالآخرين، أو يستغلّ سلطته ليصبح في المقدّمة، لصيق جدار القصب، يسمع من الطرف الآخر الضجيجَ المكتوم ومداعبات الفحول وضحكات التندّر عليها، وصفعاتهم الخفيفة لها التي تسبق، أحياناً، فترات الصمت اللاهث وتسرّعها. وتخرج هي، من حين إلى آخر، لتتبرّد وتتهوّى، نصفَ عارية، بشعر منفوش، صغيرة الجسم، لكنّها كبيرة في عيون الرجال الذين حرّكهم ذلك المشهد وأثارهم، ببطنها وثدييها المنتفخين المدوّرين، تحت التنورة الداخليّة البالية، المبقّعة بالعرق. يقدّم لها أحدهم سيجارة. ويدفع لها آخرون مقدّماً «هدايا» مما يوزّعونه في البلديّة من بسكوت وأعشاب ودقيق وعلب اللحم المحفوظ وزجاجات الجعة. تأخذ القروش من دون أن تشكر، وكأنهم يدينون بها لها. وحين لا تكون رائقة المزاج، تطرد الزبائن وتعود إلى الداخل، وهي تتثاءب وتتكلّم بصوت مبحوح غير مفهوم. يأتون لها أحياناً بجوقة موسيقيّة من غيتارات وهازيات. لكنّها لا ترفع حاجز القصب لأحد. فالكوخ من دون باب عصيّ كمربض مدفعيّة.

حين بدأ بعض الذين كانوا يتردّدون عليها يمرضون، أطلقوا عليها، بين شرب وعربدة، أسهل لقب: سالوي [المداوية الصغيرة]، الذي كان يمثّلها خير تمثيل. لم تغضب لذلك. أعجبتها التسمية. أعجبها أن يستطيع الناس أن يغيّروا شيئاً، ولو مجرّد الاسم. لم تكن قد أصبحت بعدُ ممرضة. لم تكن آنذاك غير مسبّبة للمرض، جالبة له، كما اشتكى الذين عدّوا أنفسهم لاحقاً ضحاياها، وعادوا، ساخرين، إلى إطلاق لقب «المداوية الصغيرة» عليها. هي لم تكن تستجدي زياراتهم، بل كان يذهب إليها من أراد الذهاب، ولم يكونوا يدفعون لها أفضالها دائماً عيناً.

كان يمكنها أن تنسى كلّ شيء. كلّ ما حدث، حتّى وصوله، هو، إلى إيسلا پوي، بعد عام من ذلك. حتى تلك اللحظة، التي ستغيّر حياتها، كان في مقدورها أن تُخرج من رأسها تلك الذكريات كما تُخرج القمل. لتصبح نظيفةً، جديدة. شعرت ببقيّة المرأة فيها تبرعم من جديد، في إحساس شبيه بإحساس جرحى الحرب الذين يتمنّون أن يكون الطرف المبتور ما زال في مكانه، لاصقاً باللحم الممزّق. لا بدّ أنّها شعرَتْ، في أعمق أعماق انحطاطها، بانبعاث عذريتها مثل غدّة، تولد من جديد، تتطهّر، تحت ذلك الإحساس الجديد الجارف، الذي لم يتملّكها، مع ذلك، في لحظة انبهار.

أتت به التعبئة العامة وحملة مصادرة العربات، ضمن مجاميع معامل ساپوكاي. واستقبله المتمرّدون السابقون، الذين كانوا أُرسلوا إلى الموقع قبل ذلك الوقت، بالهتافات. رأته ينزل. لم يتغيّر. كان يحيّي رفاقه بابتسامة بسيطة. طويل، نحيل، صامت، أسود، تبدو عليه تلك الثقة الهادئة التي يترجمها المثلُ الذي كُتب بسرعة على حافة البرواز المقلقل، ساخراً ممن يريدون أن يحملوا الأمر على محمل الجدّ.

في البداية، ضحكت هي، كما ضحك آخرون، من كريستوبال خارا. لكنّها راحت، بعد ذلك، تطيل النظر إلى ذلك الساپوكيّ ذي الفم القوي النحيف والعينين الخضراوين، اللتين بدتا وكأنّ خيوطاً من الطحالب خطّطتهما.

بدأت تلاحقه. تجاهلها. كان الوحيد، من بين سائقي الشاحنات، الذي لم يجلس القرفصاء أمام سياج القصب. انتظرته كلّ ليلة. طلبت من سلفستري أكينو ومن الآخرين أن يأتوا به. لكنّه فضّل البقاء ليلعب في الجبل، عقب بوق الاستراحة، أو في مساكن الإدارة، أو الذهاب إلى خيام قبيلة «ماكا»، ليمضي ساعات من الحديث مع الشيخ كانايتي، بلغته

الصعبة. كان يتمنّع ويبدي صدوداً من دون أن يقصد التمنّع والصدود. أمّا هي، فكانت تفرغ غضبها في الآخرين، تنقم على نفسها وتغضب. ولكن إلى حين.

لم يكن احتقاراً. بل ما هو أسوأ: عدم اهتمام، لامبالاة... الله أعلم. كان يعذّبُها جهلها بحقيقة شعوره نحوها، عجزُها عن إلغاء تلك المسافة التي تفصلها عنه. وماذا تعرف هي عن الرجال، إن لم تكن عرفتهم إلا وهم في أشدّ حالاتهم بهيميّة؟ وماذا تعرف عن الرجال، إن لم تكن عرفت منهم إلّا من حوّلتهم عزلة المعسكر ووحشة الصحراء إلى رجال بليدين متوحّشين؟ عن أولئك الرجال المتشابهين، لا تعرف غير أخيلة تقرفص أمام بابها، أخيلة ثقيلة، عنيفة، من دون وجوه، تجثو فوق عريها، لا يروون منها غير لحظة عطشهم، مثل جرة ماءٍ مأخوذٍ من البحيرة، من خداع الحب. العدوى والمرض، هو أقصى ما ينالونه منها.

لكنّها، وفي لحظة لم يتوقّعها أحد، بدأت تولدُ من جديد. عادت الغدّة النقيّة حيّةً جذعةً في أنوثتها المتأججة المحطّمة. لم يعد أحد يتخطّى حاجز الحصيرة. لكنّ أحداً لم يصدّق إرادتها في التطهّر. لم ينفعها ذلك. فهي حبيسة ماضيها المدنّس القريب، ماضيها الذي ينغلق عليها كما ينغلق القفصُ على ببغاء صغيرة. لم يحكموا عليها من قبل، لكنّهم يحاكمونها الآن، حين باتت غير التي كانت. فما زالت سالوي، في أعين الجميع، عاهرة البحيرة، «ببغاء» حيّ «پسيتاكوسيس» [= حمّى الببغاوات]، الذي تعود إليها تسميته. أرادوا طردها. وأنزل الحيّ العلوي ثقل شرفه وسمعته على بيوت الحيّ السفلي المريبة. وقدّمت لجنة من السيّدات المظلّلات شكوى إلى قيادة الموقع. لكنّ نشوب الحرب والانصراف إلى إجلاء السكّان المدنيين حال دون أن تُنفى المرأة الخاطئة.

حملت الشاحنات النساء الفزعات، اللائي هربن من القنابل إلى بويرتو كاسادو، وبقيت المرأة التي أوشكوا قبل أيام على رميها كالحشرة، وحيدةً في القاعدة. تتذكّر ذلك جيّداً، لأنّ سحابة جراد مليونيّة سقطت ذلك اليوم، مع بداية موسم الجفاف، على الحقل، في موجاتٍ متتابعة. وسرعان ما راح السهل يهتزّ تحت دثار من الحمم البركانية الذهبيّة المجنّحة. حتى خضرة البحيرة عادت صفراء. وبات الهواء كثيفاً خانقاً. رحلت السيّدات في الشاحنات يسعلن ويبصقن جراداً.

في اليوم التالي دخلَتْ للعمل في المستشفى، وكان ما يزال فارغاً، إذ لم يبدأ يغصّ بالنزلاء إلّا مع حصار بوكيرون. وبعد وقت قصير، وصلت خوانا روسا. فأصبحتا اثنتين. قطعتان من الحلوى، بتنّورة، وسط بحرٍ من رجال رماديين.

وها هي ذي الآن، تقف عند المنحدر، وسط دويّ قصفٍ مفاجئ.

تحرّكت القافلة بسرعة جنونيّة وفوضى. ذهب هو وتركها. فتقدّمت عدة خطوات وتوقّفت، وهي تجاهد نفسها. ثمّ استدارت صوب البحيرة، وصعدت تعدو نحو المستشفى.

.7

اضطربت السماء. توتّرت وتقعّرت. زمجرت فيها الطائرات ودوّت الانفجارات. حلّقت ثلاث طائرات جونكير بوليفيّة فوق القاعدة في تشكيلة هجوم، وألقت عليها قنابلها. راحت الأرض تتصدّع يساراً ويميناً في أعمدة ملتهبة من تراب ورصاص. تزاحم الرجالُ وتدافعت العربات

والحيوانات بين تلك الانفجارات المفاجئة. وختمت الطائرات مهمتها بأن انقضّت لتمشّط البركان الذي فجّرته في طيران منخفض برشقات من رشّاشاتها الأوتوماتيكيّة. ذهاباً وإياباً. لا شكّ أنّهم، من فوق، كانوا يرون رابية إيسلا پوي مثل بيت للنمل يجيش بساكنيه بعد أن انتزعت القنابل أحشاءه.

فعلت المواضعُ الدفاعية، التي أُعِدَّت على عجل، فعلَها، لكنّها لم تكن تتوفّر على مضادّات جويّة حقيقيّة، بل على قطع قليلة من الرشّاشات التي كانت تطلق أشرطة كاملة من الرصاص، فلا تداوي جرحاً. مع ذلك، فقد تفرّقت طائرات جونكير وانتشرت، يلاحقها الرصاص الكثيف، فينفجر في محيطها وحولها. وابتعدت واحدة منها وهي تنفث دخاناً من ذيلها. أمّا الأخريات فقد ارتفعت في طيرانها وواصلت رسم أشكال جغرافية معقّدة، وقد اصطبغت بالأحمر من انعكاسات شمس الغروب عليها. أمّا المراوح فكانت تنثر ناراً خالصة، هي أشدّ حمرةً من ألسنة النار التي تنبعث من الرشّاشات.

صارت القنابلُ أقلّ دقّة في إنجاز مهمتها التخريبية، ترفع فجأةً رشّاشاتها السريعة، لتسقط مطراً كثيفاً من تراب وشظايا. اثنتان من القنابل سقطتا قرب البحيرة، فأثارتا طوفاناً من الماء برتقالي اللون. أمّا الأكواخ التي على ضفافها، فقد التهمتها النيران. سقطت بعض القنابل في أرض خالية. أشعلت الانفجارات في مزارع القصب حرائق كبيرة شبيهة بتلك التي تضرم في حفلة إحياء طقوسٍ في إحدى القبائل.

وتحوّل رعبُ اللحظة الأولى إلى عملية إنقاذ سريعة. ساعد الجنودُ رجالَ الحمّالات على نقل الجرحى إلى الملاجئ. تتحرّك الأسرّة بسرعة بين الضباب الكثيف. في لحظة من اللحظات، امتلأت الملاجئ وغصّت،

فحُملت النقّالات إلى الجبل. وتعلّقت الأشواك والأعواد بالبطانيات والضمّادات، فكشفت عن أطراف عولجت على عجل. سقطت قنبلة فوق ذلك الجمع من الأجساد الممددة، لكنّ شبكة الشجيرات الملتفّة حمتها، بعد أن طارت نقّالة وعلقت في كأس شجرة «ساموهو»، وطارت معها ذراع علقت بقطع الحديد الملتوي.

كان عمّال النقّالات رابطي الجأش. لم يهتزّوا. واصلوا نشاطهم. كانوا يركضون منحنين، ملتصقين تقريباً بالأرض، يسحبون الأجساد التي تئنّ. وكانت سالوي النشيطة بينهم، تركض في خطٍّ متعرّج، فلا يبلغ جرأتها أحدٌ. ترفع حمّالات الأمصال، تقود، توجّه، تأمر الآخرين، وكأنّها مقاتل في الجبهة. يتعاظم جسمها الصغير بين الرمال والدخان مع شعرها الأشعث وعينيها المتوهّجتين. سحبت، فجأةً، رجُلاً بترت ساقاه، من ذراعيه، وحملته لتحميه تحت الأشجار. كانت تروح وتجيء، تحمل صفيحة ماء لتسقي بها العطشى. توزّع حبوب التخثّر لقطع النزيف وتصلّح، كيفما اتفق، من حال الضماد. أمسك فتى هزيل بيدها، وهو يحتضر:

- أمي.. أمّي..! لا تتركيني! [بالغوارانيّة].

أغمضت عينيها. من أعماق الموت كان هناك من يدعوها بذلك الاسم، الذي كان له وقعٌ رائع في أذنها. ارتخى مخلبُ العظم والجلد. سحب يده ببطء. أطبق الجفنين على الكريّتين الزجاجيتين. رحل بسرعة.

في تلك الأثناء، بلغت قافلة الماء الغابة للاحتماء بها. لم تفقد شاحنة واحدة من شاحناتها.

بدأ الصخب المجنون بالانحسار. راحت الماكنات الصفر تفقد لونها. وراحت الطائرات، وقد أفرغت حمولتها القاتلة، تبتعد غامقة، بينما لاحت

طائرات يو تز في الأفق، كالمتفرّجين الذين وصلوا متأخّرين. وحينئذٍ علت الصرخات من بين الأنقاض.

.8

هبط الظلام فجأةً. رائحة البارود والحرائق تشيع في الأجواء. ما زالت الحركة كثيفة. رجال يتحرّكون صاخبين في كلّ الاتجاهات، يحملون ما يحملون، بعد أن انتهوا من إطفاء بؤر النار، وراحوا يزيحون الأنقاض. أعيد الجرحى من الخنادق وملاجئ الغابة المؤقّتة إلى المستشفى. الجثث وحدها ظلّت هامدة حيث سقطت. تتأرجح المصابيح والمشاعل في الظلمة. وفجأة باتت الأجسامُ بيضاً حين وقعت عليها حزمة الضوء المنبعثة من مصابيح الشاحنات.

ثمّة خيالٌ يتحرّك عند حدّ الجبل الصغير الشائك. لا يحمل قنديلاً ولا مصباحاً. بل يبدو وكأنّه يهرب من الضوء. إنّها سالوي تبحث عن شيء ما بين الجثث. توقّفتْ فجأة عند واحدة منها. انحنت. لكنّها سرعان ما تركتها. اتجهت إلى أخرى، أقلّ تلطّخاً بالدم، أقلّ تمرّغاً في التراب، تحمل على ظهرها بندقية. تلفّتَتْ حولها، ثمّ أمسكتْ بذراع القتيل وسحبته إلى الحشائش. هناك، سحبت منه البندقيّة وراحت تجرّده من ملابسه.

.9

انطلقت القافلة ببطء. سارت الشاحنات، الواحدة بعد الأخرى، بمحاذاة البحيرة، تبحث عن بداية «الكامينو بيبخو». استمرّ، عند ضفة البحيرة،

احتراقُ الأكواخ، التي بدا عددُها على السطح مضاعفاً، فكأنّها تشتعل تحت الماء.

كان سلفستري أكينو يسير في مقدّمة الرتل. مصابيح شاحنته تشعّ بضوء أصفر، وكأنّها تلقي أمامها بأكداسٍ من بيض مكسور. أمّا كريستوبال خارا فكان يغلق الطريق بشاحنته العتيقة المقلقلة، بينما جلس غامارّا مضطرباً على مقعده، وبدا أصغر ممّا كان، وأكثر تكوّراً، يحاول أن ينام على الرغم من المطبّات. تسير الشاحنة الطبيّة في المقدّمة، يقودها ريباس ومعه آرغويّو مسؤولاً عن النقّالات. هما «المتطوّعان» اللذان اختارهما خارا. وثلاثتهم من أبناء ساپوكاي. وهكذا اختارهم سلفستري أكينو حين تشكّل الرتل، لكنّ متمرّدي الهور عادوا من جديد، بعد وصولهم إلى القاعدة، وبحكم ظروف الحرب: «جنوداً للوطن».

لا شيء يوحّد، في الأوقات العصيبة، قدرَ الانتماء إلى منشأ واحد وأصل واحد. أفراد من مسقط رأس واحد. وما كان من قاعدة أرسخ من هذه لبناء الثقة المتبادلة. لقد اختارهما خارا بالإشارة إليهما بإصبعه. لم يسمّهما، بل لم يسألهما ما إن كانا يريدان الذهاب أو ما إن كانا متحمّسين للذهاب. بل أشار إليهما بإصبعه وخاطبهما بالضمائر، التي بات لها، منذ تلك اللحظة، قيمة حياديّة، لا شخصيّة.

– أنتَ.. وأنتَ.. وأنتَ! [بالغوارانيّة].

انغلقت طريقُ الغابة عليهم، وبات المسيرُ أبطأ وأشقّ. يتراجع فراغ الطريق غير المنتظم أمام الشاحنات، ويشكّل الرتل المترابط بالمصابيح، في الأرض المفتوحة، صفّاً واحداً من دودِ ضوءٍ مسطّح، يزحف بين النباتات القصيرة، حتّى يعود دربٌ آخر أو أرضٌ جرداء أخرى إلى ابتلاعه. في تلك الحالة، تهيم كلّ شاحنة وحيدة، في قطعة الليل المحجوزة لها.

وقد تتقدّم شجرة ساموهو، في أحد المنعطفات، بطيئة، نحو الشاحنة، وقد امتلأت بطنها بالماء. أو تظهر أجسامٌ آدمية غامضة من بين الأحراج، ثمّ يتبيّن أنّها صبّارات أو نباتات شوكيّة، مكسوّة بالغبار، تنتصبُ أمام ضوء المصابيح. وتظهر، من حين إلى حين، بقايا عجلات وعظامُ حيوانات، لترسم مسار الطريق الشاقّ الذي حدّده الطيران المعادي.

الليل في الأراضي الخلاء وفي الوديان مختلف. له رائحة الرياح، والراتينج ومنابت القصب الرطبة. تتنفّس الشاحنات بكلّ رئتيها، بعد أن امتلأتا بهواء مسالك الهنود الخانق، عبر الغابة. تلك المسالك المليئة بالغبار والبعوض، والمشحونة بنتانة ناموس الجبل وبول الظربان. تتلألأ السماء في الأعالي ببريق النجوم، ويتلألأ الحقلُ في الأسفل بوميض اليراعات، فكأنّ النجوم واليراعات شيء واحد، بينما يبحرُ الفضاءُ الواسع من خلفهم طريّاً ناعماً. لكنّ الأرض تصبح، مع تقدّمهم، أشدّ جفافاً، فتغوص العجلاتُ في الرمل. وتلهث المحرّكات القديمة وتهتزّ، فيلزم عليهم، في أغلب الوقت، أن يلجؤوا إلى كامل قوة الدفع فيها. كانت علبة التروس التفاضليّة تنغرس في الحفر أو تنحشر في الأكوام، فيتعيّن، عندئذٍ، النزول لتخليص الشاحنة، بالحفر من تحتها بالأرفاش والحراب. صارت أيدي سائقي الشاحنات تتشنّج على عتلات التبديل. وبدأت علب السرعة، وقد حُشرت فجأة أو وُضعت في أقصى درجاتها، تُحدث صريراً متواصلاً. وبات لزاماً عليهم أن يستجمعوا كلّ قوة فيهم وفي محرّك الشاحنة، للخروج من ذراع الطريق اللين ذاك والعنيد الذي ما كان يسمح لهم بالعبور. يتقدّمون رويداً، يبتلعون مسلك الغابة الذي كان، هو أيضاً، يبتلعهم بأفواه متليّفة متشابكة مغبرّة. لزمهم أكثر من ساعتين ليقطعوا ذلك الفرسخ والنصف فرسخ من الطريق، وما زال أمامهم أكثر من خمسة عشر

فرسخاً لبلوغ قيادة الفرقة. لم تكن المصاعب تقف عند ذلك الحدّ. فهناك لصوصُ الماشية وجنودُ الغابات، من الأصدقاء أو من الأعداء، الذين على السائقين أن يواجهوهم دونما سلاح غير البنادق الصدئة وقليلٍ من القنابل اليدويّة التي حشروها في أكياس المؤونة.

بدأ التعبُ والنعاسُ يفتّ في عضدهم. لم يدخل أجوافهم غير إناء فيه من الماء أكثر ممّا فيه من الطبيخ، تناولوه قبل خروجهم من القاعدة. ولم يذوقوا طعاماً غيره.

دخلوا في وادٍ منبسط عريض كالبحيرة. من بعيد، كانت بقعة الضوء الصفراء تتحرّك بحثاً عن الممر. لاحظ كريستوبال أنّه توقّف أمام فتحة الوادي. فبدأ الضوء الزيتي يومض بإلحاح أشدّ.

«ماذا دهى أكينو؟» -قال غامارّا، وهو يتمطّى- «يبدو أنّه يرسل إشارة».

لم يردّ خارا، بل راح ينظر، متوتّراً، نحو الأمام، وقد انعكس على وجهه ضوء مصباح لوحة القيادة فحفره حفراً.

.10

ظهر الجسمُ مغطّى بالغبار، وتقدّم نحو الشاحنة، وسط الطريق، بيدين مرفوعتين. ليس هو، هذه المرّة، شبحاً من الأشباح. راح الجسمُ الآدميّ يتوضّح أكثر فأكثر على الضوء المنبعث من المصابيح. ضغط سلفستري أكينو على المكابح في الحال.

«انظر!» -تمتم- «جندي هارب، أكيد!».

«أو لصّ مواشٍ بوليفي» - قال المساعد أوتاثو، وهو يتناول البندقية ويصوّب نحوه.

أومض أكينو المصابيح ليبهر المجهول، الذي راح يتقدّم ببطء، من دون أن يخفض ذراعيه.

«قفْ!» - صرخ أوتاثو، مهدّداً، وحرّك الزناد.

توقّف الجسم. سقطت ذراعاه على جانبيه، لكنّه لم يُبدِ ما يدلّ على عدوانٍ أو تحدٍّ. كان جندياً صغيراً، لا يحمل بندقية ولا عتاداً.

«من أنت؟» - صرخ أكينو بكلمة السرّ الكلاسيكية بالغوارانية، ثمّ كرّرها بالقشتاليّة.

لم يردّ الجندي.

«صديق أم عدو؟» - ألحّ أكينو.

رآه يفتح فمه، لكنّه لم يسمع صوتاً. واصل سيره نحو الشاحنة، فاستند أكينو على ظهر مقعده، وبدت على وجهه دهشة ممزوجة بابتسامة هادئة.

«سأطلق النار عليه!» - دمدم أوتاثو.

- لا داعي لذلك.

- لماذا، أيّها الرقيب؟

اقترب الجندي الصغير. علا وجهَه تعبيرٌ قلقٌ وحازم، فبدا مشدوداً على ضوء المصباح المصفرّ. توقّف ثانية، على بعد خطوتين من الشاحنة. وهنا، تعرّفوا على سالوي. كان شعرها، الذي قُصَّ بالسكين، يظهر من القبّعة، في خصلات بيض. وكانت ملابس الجندي القتيل تفيض على جسمها من كلّ ناحية، وقد صار لونها بلون الخوخ، من شدّة المصابيح المسلّطة عليها وكثافتها.

«إلى أين أنتِ ذاهبة، سالوي؟!» - سألها أكينو، بنبرة أبويّة تقريباً.

«هل أستطيع الصعود معكم؟» - قالت.

«هل أتيتِ لتغيّري الجوّ قليلاً؟!» - سألها أوتاثو، مازحاً.

لم تكلّف نفسها حتى عناء النظر إليه. وظلّت تنتظر أن يفسحوا لها مكاناً بينهم.

«افسَحْ لها لتجلس!» - أمر أكينو.

خرج أوتاثو إلى دكّة الباب، مستاءً.

تحرّكت الشاحنة ودلفت إلى مسلك الغابة. استأنف الرتل، من المقدّمة إلى الذيل، مسيره، ودخل من جديد في لجّة الرمال الكثيفة. كانت أضواءُ المصابيح المخروطيّة تدخل فيها كالبرغي لتفتح الطريق أمام الأجسام المعتمة. غطّى أكينو وأوتاثو وجهيهما بخرق من القماش.

أمّا هي فكانت شاردة. تجلس بين أكينو وأوتاثو، وتدخّن السيجارة تلو السيجارة، من تلك التي أعطتها خوانا روسا إيّاها. تسعل، من حين إلى آخر، حدّ الاختناق.

«كيف خطر لك أن تأتي بهذه الطريقة؟!» - سألها سلفستري بصوت أجشّ.

- ما من طريقة أخرى.

- وهل يعلم كيريتو أنّك أتيتِ؟

- رفض أن يأخذني معه.

- لماذا لم تخبريني بأنّك تريدين المجيء؟

- هو المسؤول عن المهمة.

- وماذا ستفعلين الآن؟

- سأستمرّ إلى حيث أستطيع.

- معه؟

- لأجل هذا أتيتُ؟

- لن يستطيع الآن أن يرفض أن تكوني معه.

- الآن يستطيع أن يأمر بإعدامي.

«لا يُعدم إلا الهاربون من الجيش» - قال أكينو ضاحكاً.

«أنا هاربة» - قالت واجمة.

- لا يمكن أن تكوني هاربة، وأنت ذاهبة برجليك إلى النار.

ظلّت صامتة، تنظر من دون أن ترى كيف تنفتح حنجرة الغابة أمام مقدّمة الشاحنة، التي كانت تتقدّم متعثّرة. همّت بالسؤال عن شيء، لكنّ نوبة السعال عاودتها. ناولها أكينو منديلاً ممزّقاً. ورمت هي بالسيجارة إلى العتمة وربطت المنديل على وجهها.

.11

حشرجت شاحنة خارا أيضاً في مسلك الغابة الضيّق. دخلت سحابة من البعوض الشرس، كالدبابير، قمرة الشاحنة. راح خارا يطرد بيده الحشرات الغاضبة التي كانت تثقب له وجهه وذراعيه. أمّا غامارّا فكان يغطّ في النوم، رغم اهتزاز الشاحنة ورغم سياط الأغصان، وقد تدثّر حتّى رأسه بالبطانية، التي بدت وكأنّها بدلة غطس.

لا شكّ أنّ كريستوبال خارا سائق ماهر، إنه يبدو جزءاً من أجزاء الشاحنة، قطعة حيّة وحسّاسة تشيع القوّة والإرادة في أربطة العجلة المتهالكة وأعصابها المعدنيّة. كانت خبرته ومهارته معروفة في القاعدة وفي المحطّات. تملأ التصليحات والحبالُ شاحنته المتهالكة. لكنّه لم

يكن يتجنّب الطرق، ولا يكون حجرة عثرة فيها. ما عادوا يضحكون من الشعار الذي كتبه على السقف: «لا شيء يستعجلني.. لا شيء يؤخّرني».

بات معروفاً عنه، بين هزل وجدّ، أنّه قادر على أن يحرّك الشاحنة بقطعة من السلك، وحتى من دون بنزين. قبل لحظة من الخروج، كان قد فحص الشاحنة بعناية غير معهودة، لأنّ مسؤوليّة المهمة تقع عليه، ولأنّها لا تتصل بحمولة من معمل الآجر، بين كوستا دولثي وساپوكاي.

حين كانوا على وشك الانطلاق، اقترب منه سلفستري أكينو وقال له: «طلبَتْ منّي القيادة رجلاً مؤهّلاً فأعطيتهم اسمك. لو كنت أعلم بالمهمة، ما فعلت».

لم يبدُ عليه أنّه سمعه. استمرّ في فحص الشاحنة، بسرعة وعناية. فقد يؤدّي مسمار مقلقل أو شمعة قدح مستهلكة أو مطاطة طريّة إلى أعطال غير متوقّعة. كان يعرف ما يعني كلّ ذلك في طريق كامينو بييخو الوعر. المسالك الضيّقة لا تسمح بتقاطع العجلات. فعلى إحداها أن تتراجع حتّى بداية وادٍ أو أرض خلاء. وما أكثر ما وقع من مشاجرات بين السائقين لأنّ كلّ واحد منهم يريد أن يحظى بأولويّة المرور. أمّا المعبر صوب بوكيرون فلا يقبل الجدال. فسائقو شاحنات الماء لا يتراجعون إلا أمام شاحنات نقل الجرحى. ما عدا ذلك، فإنّ أسبقيّة المرور لهم. ذات ليلة، بعد بدء الهجوم، التقت شاحنة أكينو بشاحنة صغيرة، تابعة لقيادة الأركان، في طريق مناورات، بالقرب من «إيسلا ساموهو». قفز سائق السيارة واقترب راكضاً.

«ارجع إلى الخلف!» -أمره بحزم وتعالٍ- «افسَح لي الطريق! أنا أحمل القائد العام!».

عقد أكينو ذراعيه فوق مقود شاحنته، وقال مرتاباً وببرود: «قد تكون تحمل القائد. لكنّي أحمل الماء».

- إلى الوراء.. إلى الوراء! إنّه مستعجل!

- وأنا مستعجل أيضاً.

في تلك اللحظة، رأى الجميع، على ضوء المصابيح، رجلاً متوسط القامة يرتدي بدلة مكرمشة غير مزرّرة يترجّل من السيارة. كان وجهه، من تحت الخوذة البيضاء، متجهّماً. قفز أكينو فوراً وأدّى التحيّة، بعد أن تأكّدت له هوية القائد.

«يبدو وكأنّ الطريق ملكك، بنيّ!» - قال الصوت الناعم الأخنّ، الذي علا، مع ذلك، على صخب المحرّكات.

«كلّا، سيّدي» -ردّ الرقيب أكينو- «الطريق طريق الجميع.. طريق كلّ ذاهب لأداء واجبه».

- ولكن، ليس واجبك وحدك هو المهم، يا بنيّ.

- عذرا، سيّدي.. لم أصدّق أنّك في السيارة.

«وها قد عرفتَ. عليك أن ترجع، وبلا تأخير» - لم تتبدّل نبرة صوته قيد شعرة.

- أمرك، سيّدي!

في تلك الأثناء، علا، قريباً منهم، صوتٌ يشبه ضرباً مكتوماً ورتيباً بالسياط. كان خارا ورجال الرتل الآخرون يسوّون بمعاولهم وحرابهم إحدى حافات النفق. وفي دقائق قليلة كانت مساحة شبه دائريّة قد سوّيت وحُشيت بالأغصان والتراب، فصار المرور من هناك ممكناً. وهكذا عبر القائد العام وعبرت شاحنة الماء عبورَ قوتين جوهريتين، دون أن يتنازل طرف لطرف.

«وهكذا تجنّبت القيادة التراجع» - تبجّح بعد ذلك الرقيب أكينو، وهو يشير إلى ذلك الحادث.

كانت تلك المرّة الوحيدة التي يُشاهد فيها كريستوبال القائدَ الأعلى لجيش چاكو واقفاً وسط التراب، بينما كان هو يشقّ طريقاً في تقاطع الغابة، ليسهّل مرور شاحنة الماء.

يتمايل، وهو ممسك بالمقود ويفتح عينيه، فالانتباه والإرادة انعكاس صادق لغريزة السائق التي تسكنه.

ضربة خفيفة على الزجاجة الأمامية المفتوحة، ثمّ دخل في القمرة طائرٌ من طيور الشنقب، يرفرف ويصرخ ويحاول الهروب. أنشب مخالبه في وجه كريستوبال. فأمسك هذا به وألقاه خارجاً. انحرفت الشاحنة، وداست عجلاتها نبتة شوكيّة، فدوّى انفجار قوي. مال صهريجُ الماء. رفع كريستوبال الكابح ونزل بقفزة واحدة، بينما راح غامارّا يتلوّى ويحرّك يديه للتخلّص من دثاره الذي لفّه، بعد أن قطع الانفجار واهتزاز الشاحنة نومه. بدأ يصرخ من تحت البطانيّة.

«ماذا جرى؟!» – صرخ ونزع عنه غطاءه.

تفحّص كريستوبال الإطار الأمامي، الذي انفجر.

«الهرّ!» – أمره.

«الهرّ؟» – قال الآخر، وهو لا يفهم قصده.

– أفقْ من غفوتك واجلبْ لي صندوق العِدّة[55].

«آه، حسناً!» – تمتم، وانصرف يتمطّى ويتثاءب.

– بسرعة، ميديو مترو!

انتقل هذا بسرعة من الخمول إلى النشاط. رفع المقعد وأخرج الرافعة ومفاتيح الصوامل: سقطت منها واحدة، فالتقطها ووضعها بين أسنانه.

---

(55) في الإسبانية يطلق على رافعة السيارة كلمة gato ومعناها «الهرّ».

«حلمتُ أنّ دورية بوليفيّة هاجمتنا» - تمتم والمفتاحُ في فمه.

«ليتها كانت دورية بوليفية!» - قال كريستوبال بغضب.

«يا للورطة!» [بالغوارانيّة] - قال غامارا متذمّراً، وأطلق صفيراً من فمه.

كشف ضوء المصابيح، عند سقوطه على الأحراج، جانباً من الشاحنة المائلة في أخدود الطريق، وأظهر الرجلين جاثيين أمام العجلة المعطوبة، بينما راحت الأوراق الشائكة تحزّ في صدريهما ووجهيهما، وهما يجاهدان مع العجلة.

.12

مع انتصاف النهار وصلت الشاحنات إلى وادٍ جديد. واحدٍ من أودية كثيرة، لكنّه أقلّ سعة وانحداراً من السابقات، نصف دائرة كاملة وسط الغابة. خرج للقائهم عطرُ عود الأنبياء الزكيّ ورائحةٌ نفّاثة تشبه رائحة دبابير الورق.

وقف أوتاثو على دكّة الباب وراح يعدّ الشاحنات ورأسه يتمايل من النعاس: «إحدى عشرة. لا أرى شحنة خارا» - قال.

التفتت سالوي على عجل لتنظر من فتحة القمرة الخلفيّة.

«ما الذي أخّره يا ترى؟» - قال أكينو، وقد ساوره القلق، وصار ينظر إلى السهل الصغير الذي راح يضيق في عنق الوادي، بين صفوفٍ من الأشجار.

«مدخل غارغانتا دي تيغري [= حنجرة النمر]» -أعلن أوتاثو، وعاد إلى مقعده وهو ينظر بطرف عينه إلى الممرّ المخيف- «من حسن حظّنا أنّنا سنعبر طريق الغابة في وضح النهار».

باتت أصوات المدفعية المتقطّعة تُسمع أقرب. وفجأة علا أزيزٌ على دويّ القذائف وضجيج المحرّكات. وتحوّل قلق قائد الرتل إلى إنذار. أخرج نصف بدنه من الشاحنة وصرخ بالآخرين، من دون أن يوقف المسير، بينما ضغط على دوّاسة البنزين واستدار بشدة نحو حافة الممرّ.

- طائرة معادية! ابتعدوا عن الطريق.. ابتعدوا عن الطريق!

وما هي إلا لحظات حتّى ظهرت طائرة جونكير تحلّق فوق الغابة، مع خط الطريق. اكتشفت القافلة فانقضّت عليها بمدفعها الرشّاش. وسرعان ما أصاب وابلُ الرصاص الرتل المغبرّ، فدبّ الذعر فيه، وتفرّقت الشاحنات تحاول بلوغ الجبل. تسابقت إحدى شاحنات الماء مع شاحنة الإسعاف لتجنّب الحفر، لكنّ الطائرة عادت من جديد لتمطرهما برصاصها ولتلقي، هذه المرّة، بقنبلة سقطت بالقرب من شاحنة الإسعاف، لكنّها لم تنفجر. قفز طاقمها كالمجانين، وهربوا نحو الغابة. انبطح حامل النقّالة على الأرض. أمّا شاحنة الماء فقد توقّفت عند حافة الطريق. من خلال الزجاج الأمامي المهشّم، رأوا السائق منكفئاً على وجهه، فوق المقود، وقد غطّى الدمُ رأسه، وتناثر على الزجاج. وراح الماء يتدفّق في نافورات من الثقوب التي أحدثها الرصاص في الصهريج. في الغابة، كانت الشاحنات، هنا وهناك، تجاهد للخروج إلى أماكن أكثر أمناً، وتحاول التخفّي عن عيون النسر الأصفر الناريّة، وهو يحوم ويهزّ الوادي بهدير رشّاشاته ودويّ قنابله. وجاهد أكينو للدخول بشاحنةٍ أخفاها بين الأشجار، عند حافة الغابة تقريباً. عملت سالوي على تمويه الشاحنة بكلّ ما جمعته يداها من فروع الأشجار. راح سلفستري أكينو، من مكانه خلف المقود، يوجّه الآخرين بالصياح، ليوقف التوتّر الذي استبدّ بأعصابه. ركّز عينيه، اللتين عكّرهما الشعور بالعجز، في شاحنة الماء الواقفة عند حافة الطريق. وفجأة انفجرت

الشاحنة فتطايرت ماءً وتراباً ونيراناً. وكنست مروحةُ الشظايا والحطام المتطاير من الشاحنة المحيطَ. طار غطاء تبريد الهواء من فوق رؤوسهم فقطع الأغصان العالية. وأضاء حريق البنزين، في وسط أجواء الوادي الكثيفة، كومةً من الحديد الملتوي المتناثر حول الحفرة التي أحدثتها القنبلة. حين انزاحت غمامة الغبار والدخان، ظهرت شاحنة الإسعاف، التي بدت وكأنّها لم تصب بضرر.

عاودت الطائرة الظهور، وحلّقت فوق الغابة، في حركات أكروباتيكيّة، لكنّها لم تُلقِ بالقنابل. بدا وكأنّها تتسلّى بإخافة السائقين. وفي ردّ فعل يائس، قابل هؤلاء فعلتها بإطلاق النار عليها من بنادقهم، وسط صخب الظرف والموقف.

مدَّ أكينو ذراعه نحو سيارة الإسعاف.

– انظروا!

رأوا بين العجلات جسماً أسطوانياً غامق اللون. إنّها القنبلة التي سقطت ولم تنفجر.

«قد تنفجر في أيّ لحظة!» – قال وهو يشقّ طريقه بين الأشجار، صوب الشاحنات الأخرى.

في ردّة فعل فجائيّة، خرجت سالوي، وهي تطلق النار على شاحنة الإسعاف. كان في سرعة مبادرتها ما شلَّ أكينو فوقف عاجزاً عن منعها. لم يستطع إلا أن يصرخ فيها: «توقّفي! إنّه خطير!».

لكنّها واصلت الجري. لم تأبه بنداءات أكينو. وصلت إلى العربة، التي كانت قد تضرّرت كثيراً بفعل الرصاص والشظايا: كانت القنبلة قد حفرت الأرض، لحظة سقوطها، وظلّت مغروسة في تلك الحفرة المبطّنة بالرمل.

فتحت سالوي باب شاحنة الإسعاف الصغيرة وصعدت. بحثت في داخلها بعجلة، ولكن بحكمة وحذر. أخرجت صندوق الإسعافات الأوليّة، وحملت الأدوية وعلب الضمّادات وكلّ ما استطاعت حمله وعادت مسرعة. في ذلك الوقت عاودت الطائرة التحليق استعداداً لانقضاض آخر على طريق الغابة. مرق ذيل سحابات الغبار بسرعة، يقضم الطريق قريباً جداً منها. أسرعت في عدْوها وابتعدت، متعرّجةً، بين حطام صهريج الماء المشتعل وجثة حامل النقّالة.

دهش سائقو الشاحنات، وخرج أكينو للقائها، وانتزع العلبَ من بين يديها بغضب.

– لماذا فعلتِ ذلك؟ لم يكن الوقت مناسباً!

«قلتَ إنّ القنبلة قد تنفجر!» – قالت وهي تلهث.

– أنا هنا من يأمر!

جلست سالوي على دكّة الباب، ووضعت صندوق الإسعافات على ركبتيها. كان أوتاثو ينظر إليها من مخبئه، مفزوعاً مضطرباً.

واصلت الطائرة تحليقها فوق الغابة. ثمّ صعدت إلى الأعلى، وكأنّها سئمت الدوران، وما هي إلا دورة واحدة أخرى، ثم اختفت.

انتظروا برهة طويلة للتأكّد. وظلّوا، بين انتظار وصمت، يراقبون السماء الملبّدة.

«دبّور قذر!» –دمدم أكينو– «لقد شمّ رائحتنا، وسنجده فوقنا طوال النهار».

انغمست سالوي في تصنيف الأدوية التي جلبتها من الشاحنة. وكانت، بين الحين والحين، تنظر خفيةً إلى فتحة طريق الغابة.

وبحث سلفستري أكينو بعينيه عن مساعده. لمحه مستلقياً بين الأحراج. تجهّم الوجه العريض ثانية، وهو في الطريق إليه.

- ماذا تفعل هنا، مختبئاً كالأرنب؟

«أنا مريض» - همس.

- مريض من الخوف! اذهبْ وابحث عن خارا.

نهض أوتاثو مستاءً.

«بسرعة، أيّها الجبان!» - أمره سلفستري وصفعه.

ابتعد أوتاثو، والفروع والأغصان تضربه على وجهه، واللعاب يملأ فمه، كالسكارى.

.13

وصدقَتْ نبوءة قائد الرتل. فبين حين وحين، وكلّما استعدّ السائقون لاستئناف مسيرهم، يظهر شبحُ الطائر-الكلب الأصفر فوقهم، فكأنّه يشمّ رائحتهم ويقرأ أفكارهم، لينفخ بوحشيّة، فوق مستوى الأشجار تقريباً، في الهواء الساخن الممزوج بالبارود والتراب والدخان. قرّروا، عندئذٍ، المكوث عند الملجأ المتهالك ليقيهم حرارة الشمس المتعامدة. راح بعضهم يقضم حصته من الطعام، بمسح شقوق العلبة بأصابعه ومصّ آخر قطعة من اللحم الباقي فيها. بينما نام آخرون وقد وضعوا قبّعاتهم القذرة على وجوههم. هكذا لن يروا شاحنة الإسعاف الواقفة فوق القنبلة، في ما يقرب من المزحة. مخبز غواراني-أسونثيون. مختصون بالخبز المحمّص والبسكويت المدهون بالزيت...، تقول اللافتة المكتوبة على جانب ما كانت شاحنة للتوزيع.

«هيّا؛ هات قليلاً من البسكوت الصغير، ريفاس!» - قال أحد الذين كانوا يأكلون للسائق.

«لقد أكلتَ كثيراً» -أجابه هذا- «ستتقيّأ».

- هيّا أعطني، يا رفيقي. فالمخبز يرسل لنا بسكوته مجاناً. وعلينا أن نستغلّ الفرصة.

تناول بإظفره قطعة كانت قد سقطت على ركبته، ولطعها ثمّ رقد، بعد أن وضع قبّعته أيضاً على وجهه.

«لقد نجوتَ بأعجوبة، ريفاس!» - واصل كلامه.

- لا أحد يموت قبل ساعته، رفيقي.

- أرغويّو مات، يا له من مسكين!

- لأنّه بائس! لم يعجّل بالنزول.

- فاستعجل الموت.

كان حامل النقّالة يرقد جثة هامدة محترقة، وعلى وجهه المغمور في الأخدود، الذي حفرته إطارات العجلة، تتراقص انعكاسات الضوء.

كانت لحية سلفستري، القاسية كالقش، تتحرّك أيضاً من تحت القبّعة، تلامس صدره، كلّما تكلّم مع سالوي، الجالسة في الشاحنة.

«لم يأتِ!» - تمتمَتْ.

- لا بدّ أنّه في الطريق.

صمتٌ طويل. يحطّ الذبابُ على علبة فارغة، بين الحشائش، ويلطعها. في الأعلى، بين الأغصان، يلوح ضوءٌ برتقالي مرتعش. إنّها حلقة منظومة تبريد الهواء البرونزيّة.

«ما عاد الواحد يعرف الناس» -قال سلفستري فجأة من تحت القبّعة-

ظننتُ أنّ مجيئك لم يكن إلا نزوة.. نزوة امرأة مجنونة -ساراكي، اختار الكلمة الدقيقة بالغوارانيّة [= عاهرة]-. لكنّ نزوة كهذه تساوي ما هو أكثر من الحياة.. إنّك تولدين من جديد، سالوي!

نظرت إليه، لكنّها لم تقل شيئاً. فليس لديها ما تقوله.

.14

عند الغروب، تشكّلت الشاحنات في مجموعاتٍ صغيرة متفرّقة عند حافة الغابة، بانتظار الأمر بالتحرّك. راح أكينو يتجوّل في الوادي، يراقب السماء تارة، والحفرَ التي أحدثتها القنابل، تارة أخرى. كان الدخان ما يزال ينبعث من حطام صهريج الماء. بعد أمتار قليلة، تقبع الشاحنة الطبية، صغيرة منذرة، تسدّ الطريق. توجّه أكينو صوبها بخطا متوتّرة. لم يخمّن أحدٌ مرامه في البداية. التفّ حولها، تفحّصها من جميع جوانبها، ثمّ توقّف على بعد خطوات من القنبلة.

في تلك اللحظة، دخلت شاحنة خارا في طريق الغابة. كان أوتاثو جالساً في مؤخّرتها واجماً عكرَ المزاج، بينما راح غامارّا البدين يحيّي الجميع ويغدق عليهم بأفضل ما عنّ على باله من كلمات.

أشار لهم أكينو، من بعيد، بعلامة آمرة. صمت غامارّا، لكنّ خارا واصل التقدّم. عاد أكينو إلى رفع ذراعه. فدوّى صوته في الوادي.

- قفْ!

فرمل خارا، وهو ينظر إليه مستغرباً ما يحدث، أو ماذا سيحدث. أشار أكينو إلى القنبلة.

- سأخلع ضرسَها!

نهض الرجال وراحوا ينظرون بفضول إلى حركات قائد الرتل. رأوه ينبطح على الأرض ويزحف نحو القنبلة، فوق الأخدود ذاته الذي فتحته حين سقوطها. انتقل همسٌ قلق من واحد إلى آخر، وازداد ترقّبهم توتّراً. من فوقهم، كانت سالوي تركّز نظرها على شاحنة خارا. كان الزجاج المغبرّ يعكس آخر ضياء الغروب، فلم تستطع أن ترى وجه السائق، الذي غطاه انعكاس الضوء البرّاق والمعتم في الوقت نفسه، والذي كان يترجم، بشكلٍ من الأشكال، أعمق رغباتها وأشدّها سريّة.

اقتربَتْ يدُ سلفستري بحذرٍ من القنبلة. بدأ يعالج الصاعق، الذي بدا محشوراً، وقد غطّت وجهه قطراتُ العرق، وكسا التراب لحيته حتى باتت بيضاء كلحية رجل عجوز. وأخيراً، بدأ بفكّ صامولة الجهاز.

حول الوادي، بدا ذلك الصرير البسيط لامتناهياً. وجمت الوجوهُ، وعلتها مسحة قلقٍ مشؤوم. ولم يلبث وميضٌ ساطع أن كساها فجأة بالسواد، فأضاء كلّ ركن من أركان تلك الأرض. هزَّ الضوء الساطع ذاك أركانَ الوادي، ثمّ انطفأ، شيئاً فشيئاً، في عمق الغابة، قبل أن يهطل عصفُ الانفجار في وابل ملتهب من ترابٍ ورذاذ. وابلٌ بدا، من بطئه وهدوئه، أنّه لن يتوقّف.

.15

على ضوء المصابيح الساطع والنار المشتعلة في بقايا شاحنة الإسعاف، عمل الرجال العشرون بهمّة لردم الحفر. وجاهد كريستوبال خارا في توجيه أوامر سريعة وصارمة إليهم ليعجّل في حركة المعاول والحراب، بينما راحت الوجوهُ والأجساد تتصبّب عرقاً. أمّا سالوي، فكانت تأتي

بفروع الأشجار وتردم بها الحفر. في لحظة معيّنة، التقت نظرتُها بنظرة كريستوبال. بدا، وهو ينظر إليها، وكأنّه يراها للمرة الأولى. حدث توقّفٌ قصير بين الاثنين، ثمّ التفت وانصرف إلى عمله للانتهاء من ردم الحفرة وتسويتها. ثمّ راح يطفئ النار بالرفش. فجأة، وجد بين الأشواك شيئاً طريّاً ومبلولاً. إنّها قبّعة سلفستري. التقطها من دون أن يراه أحدٌ، وأخفاها في جيبه.

«حسناً!» -صاح- «اجلبوا الآن الشاحنات!».

تفرّق الرجال نحو الأشجار الكثيفة. خطا كريستوبال خطوات، ثمّ توقّف عند جانب الطريق، بالقرب من الصليبين المعمولين من فروع الأشجار، حيث يرقد رفيقاه، ابنا بلدته، توءما مسقط رأسه، في حفر التضحية. هناك، عند قدميهما، ولكن بعيداً، بعيداً جداً، انحنى وأخذ حفنة من تراب الصحراء الجاف، وأهاله عليهما، في لفتة وداع مبهمة، ربّما لفتة تمرّد غريزي. طفولة ومصير، زمن الحياة، وهو ما بقي في الوراء، وهو ما لا مستقبل له، تناثرا في تلك الحفنة الساخنة التي سقطت من يده، محكومة بالجاذبية المحتومة التي تُرجع كلّ شيء إلى التراب، مفكّراً، ربّما، في أنّ كلّ أرض چاكو الهامدة لن تستطيع أن تغطّيهم، أن تردم تلك الثقوب التي لها حجم رجل.

باتت الشاحناتُ على الطريق. خفّ مسرعاً إلى شاحنته. أمرَ ريفاس بقيادة شاحنة أكينو، وصعد أوتانو معه. حين التفت، رأى سالوي أمامه، تحمل صندوق الإسعافات وعلب الضمادات.

«اصعدي!» – قال لها.

ساعدها غامارّا بعد أن أخذ جزءاً من حملها.

تحرّكت شاحنة خارا لتكون في مقدّمة الركب.

.16

ومنْ جديد فتحت الغابة بابها أمام المصابيح، في طريقها المتعرّج. الفروع الشائكة تخمش بدن كلٍّ من الشاحنات وسقفها وصهريجها. الإطارات تئنّ وهي تراوح، بين حين وحين، في مكانها، في رمال الطريق المحفورة. يناور كريستوبال بين مواضع تبديل السرعة، ليجعل الشاحنة تتقدّم بمعونة أيّ نوع من التضاريس، وهو يسير في حقل من الأعشاب، على حافة المسلك المشطور.

يسعل الثلاثة ويبصقون رائحة الغبار الحامضية النتنة. تنظر سالوي كالمنوّمة إلى الشريط المضيء الذي أمامهم، ولا تشعر بلسع البعوض الذي كان يحوم، وهو يطنّ، فوق مفرق شعرها. تدثّر غامارا ثانيةً ببطانيته وحشر رأسه في زاوية العارضة.

باتت شاحنة ريفاس وأوتاثو في المؤخّرة. وراح الاثنان يصارعان، وهما مقنّعان، الأمواج الخفيّة الخانقة.

«ما أسوأ ما يصادفنا في هذه الرحلة!» – قال أوتاثو بصوت أجشّ.

«كانت البداية سيئة» – وافقه الصوتُ المنبعث من خلف خرقة القماش.

«وستنتهي سيئة.. فأمامنا الموت!» – قال أوتاثو وهو يلقي برأسه في إيماءة استياء.

– تقصد مَن؟ سالوي؟

– طبعاً!

انغرست الإطارات في حفرة رمليّة، فمنعت بصريرها ريفاس من سماع بقية الكلام.

«ما الذي جاء بها؟» – سأل ريفاس.

– جاءت في إثر خارا. هربت من المستشفى. سمعتُها وهي تحكي قصتها لأكينو.

– يكفي أن تكون امرأة!

«أتذكر قبلَ الحرب؟!» –قال أوتاثو متبجّحاً– «كلّنا كنّا نذهب إلى بيتها. أنا نفسي ضاجعتها».

«لكنّها الآن تتصنّع العفّة والقداسة.. لا تريد أن تواصل لعبة البحث عن الخاتم[56]» – ضحك الآخر، وكأنّه دجاجة تقوق.

– جلبَتْ لنا المصائب. هذه الرحلة ستنتهي على أسوأ ما يكون. ها قد مات أكينو وأرغويّو. ولا ندري ما الذي ينتظرنا. ونحن بعدُ في منتصف الطريق.

«طبعاً. أتمنّى أن أكون في سايوكاي، أشرب الجعة المثلّجة في حانوت ماتيّاس سوسا» – قال ريفاس، وهو شارد.

– أمّا أنا فأتمنّى أن أكون في لوكي، أشرب تيريريه قرب بئري، حيث يُصنع الثلج بين السراخس.

حفرة غائرة ألزمتهما الصمت.

«يا لقذارة هذا الجبل!» – تمتم أوتاثو وبصق في الظلمة.

«طبعاً، فلسنا في پاركي كابابيرو» – قال الآخر مستهزئاً.

حفرة أخرى ارتطمت لها رؤوسهم.

«أتعرف شيئاً، أيّها البراص؟» –قال أوتاثو وهو يبدأ الحديث من جديد– «أحياناً، أشعر، وأنا في طريق الغابة، بأنّي ذبابة».

---

(56) لعبة للعثور على خاتم يضعه أحد اللاعبين في يده وعلى لاعب الفريق المقابل أن يخمّن مكان وجوده.

- ذبابة؟

- نعم. رجل، ولكن كالذبابة. أشعر ببطني تنتفخ. ثمّ أقع فجأة في شبكة عنكبوت، ثمّ تنقضّ عليّ أرجلُ رتيلاء مشعرة كبيرة بحجم الشاحنة.

«أظنّ أنّ ما بك شيء آخر، أوتاثو» - قال له الآخر، وهو ينظر إليه بطرف عينه.

- لا.. ما أقوله لكَ صحيح. هذا ما أشعر به.

- لكنّك قادر على أن تشعل النار في نهر، أوتاثو.

«ألا يبدو لك أنّنا قد نعود فجأة؟!» - قال صارخاً في وجهه.

- نعود؟

- إلى إيسلا پوي.. نستطيع فعل ذلك الآن، ما دمنا في مؤخّرة الرتل.

«لكنّهم قد يمسكون بنا» - قال ريفاس معترضاً.

- أنا عدت مرّة. وقد نجحتُ. وحكيتُ أنّهم ساعدوني في الطريق. كسبتُ يوم استراحة في القاعدة، طبختُ وأكلتُ جيّداً على الأقل، بدلاً من الذهاب للقتال مع الجوقة في خطوط النار.

«لكنّهم يحتاجون إلى الماء هناك» - قال ريفاس مرتاباً.

- شاحنة أكثر.. شاحنة أقلّ.. لن تقتل عشرة آلاف رجل عطشاً!

***

على اللوحة المضيئة، رأت سالوي وجهَ كريستوبال الواجم. يصل إلى مسامعهم دويّ محرّك. ضجيج يقترب. تململ غامارّا في مقعده.

«إنّها شاحنة، رفيقي!» - قال، وهو يقلّب جفنيه ليخرج من ظلمته المزدوجة، وهو يتصبّب عرقاً، وكأنّه يعوم في ساقية.

أفصحَتْ ملامحُ وجه كريستوبال عن حيرته، وهو يبحث عن تقاطع

يصعب وجوده. ما من أدنى مخرج. فالدغل المتشابك المعقّد يلتفّ على الشاحنة كالجدار. لم يكن ممكناً فتح طريق جانبيّ هناك، حيث جذوع الأشجار مدفونة عند حافة الأخاديد الرملية العميقة.

«نحن في ورطة، أيّها السادة!» -تمتم غامارّا- «تقاطعٌ في غارغانتا دي تيغري! حين يؤشّر الحمار بذَكَره...» - عضّ على شفتيه، حين تذكّر أنّ سالوي معهم[57].

بدأ ضجيجُ المحرّك يقترب، مشفوعاً بضجيج آخر يشبه لهاث أجسام كثيرة تدفع العجلة في تقدّمها البطيء.

- حذارِ أن ترجع، كيريتو! حذارِ!

ظهرت المصابيح في منعطف، وسقطت على شاحنة الماء. أغمض غامارّا عينيه اللتين أتعبهما النعاس. ورمّش كريستوبال أيضاً منزعجاً. خفّف من السرعة. توقّفت الشاحنتان أنفاً بأنف. كانت شاحنة لنقل الجرحى. كان يُسمَع واضحاً أنينُ الحمولة المكدّسة في الداخل. أخرج السائقُ رأسه وصرخ: «إلى الخلف، إخواني! فحالة ركّابي تستدعي العجلة!».

كان كريستوبال قد أتمّ حركة التغيير اللازمة، وبدأت شاحنته تعود أدراجها. قفز غامارّا إلى المؤخّرة وراح يصرخ: «إلى الوراء.. إلى الوراء!».

بدأت الشاحنات بالتراجع، على صوت إلى الوراء.. إلى الوراء!، الذي صار ينتقل من واحد إلى واحد، حتى لم يبقَ منه غير راء.. راء.. راء.. في صدى مولول ضاع في الخلف. علا ضجيج المحرّكات، التي بلغت أقصى جهدها، على أنين الشاكين الأجشّ، الذي ما كان يتغيّر إلا عند المطبّات.

(57) لم أعثر على تكملة لهذا المثل بالصيغة التي ورد فيها. هناك مثل آخر يقول: حين يحرن الحمار فما من سبيل لزحزحته مهما أكثرت من ضربه.

أجساد مكدّسة؛ سيقان وأذرع هشّة، أعضاء وجذوع لُفّت بأربطة دبقة لزقة، وجوه تعلوها ملامح الموتى، أظافر محترقة أطبقت على حفنات التراب والحشرات التي كانت تلوّث الضوء.

.17

تظاهر أوتاثو وريفاس بالانهماك في عطل موهوم. وانتظرا أن يختفي ضجيج المحرّكات. فأنزلا غطاء المحرّك. كانا وحيدين في الوادي. اقترب أوتاثو من صنبور الماء وفتحه. شرب حتّى ارتوى. وفعل الآخر مثله. لكنّهما لم يغلقا الصنبور. سال الماء فوق الرمال مختنقاً. حين توقّف عن القرقرة والخرخرة، توقّفت الهمسات والهمهمة الغامضة البعيدة، ثمّ علا صوت الليل في الغابة العظيمة، وكأنّه ينبع من ذلك الصمت نفسه. صوت حادٌّ عميق، ليكون محسوساً ومسموعاً. شيء من قبيل موسيقا الهارب التي يدندن بها الهنود بين أسنانهم، حين يحبسونها في الحنجرة والصدر، وهم يرقصون ويرقصون حول نيرانهم المقدّسة. في خط المصابيح الهلامي، تنتشر بقعة بيضاء كبيرة وسط الأخدود المحفور في الطريق، مثل بقعة متخثّرة من القمر، مزروعة بالعظام السود. ولكن، ما من قمر. إنّها رقعة الأرض المتفحّمة حيث احترقت الشاحنة الطبيّة. في نهاية المشهد، كان الصليبان وحيدين، ينتظران.

استدارت الشاحنة استدارة كاملة ومرّت من أمامهما.

«لو كان سيلفستري حيّاً لأمر بإعدامنا بالرصاص!» – تمتم ريفاس.

وراح أوتاثو، وقد حنى بدنه وانثنى، يفرك، لا إرادياً، خدّه، بعد أن تصوّر صفعة أصابته.

.18

راح الفجرُ يتسلل من بين الأشجار، في سير معاكس لاتجاه الشاحنات، على طريق الغابة التي ما تزال مظلمة. كثافة النباتات تتناقص. وصلوا إلى أرض خالية. أشباحٌ علاها التراب، وبنت العناكبُ عليها بيوتها، طرحتها أمعاء الغابة على بحر الصحراء الرمادي، المزروع بجزر صغيرة شاحبة.

كان غامارّا معلّقاً بالأعمدة، على هيكل الشاحنة، يحاول عدّ شاحنات الرتل، ويده فوق العينين المحتقنتين، وكأنه يومٌ تركته الغابة معلّقاً هناك، عاجزاً عن النظر إلى الشمس البازغة.

«نحن عشرة، لا أكثر.. لا أرى شاحنة أوتاتو» – قال وهو ينزل بصعوبة من مرقبه ويحشر نفسه مجدداً في القمرة التي راحت تهتزّ.

من ناحية الغرب، ومن فوق الجزر، يصل دويُّ المدافع وأزيز الرشّاشات. بدؤوا يسمعونها حتّى قبل خروجهم إلى الأرض المفتوحة بكثير. وفي القطعة الأخيرة من الطريق، تملّكهم الشعور بأنّهم يدرجون فوق ذلك الاهتزاز الذي يملأ طريق الغابة بالرياح والحفر. صاروا يشعرون به في الإطارات وفي أسنانهم. وبات للضجيج مجالٌ رحبٌ مناسب للانطلاق، ثمّ إنّه بات أقرب.

«إيسلا ساموهو» –أبلغ الرجل القصير الثرثار الراكبة، وهو يشير بيده إلى واحدة من تلك الجزر الصغيرة– «هناك تعسكر القيادة. وبعدها بقليل، تبدأ خطوط القتال. اليوم أصبحت مشتعلة!».

ظلّت سالوي صامتة. كان كريستوبال يقود وكلّ انتباهه على الطريق، متجهاً صوب ضفة الغابة، التي تقبع وراء الجزر.

.19

كانت فوضى الحصار على جزيرة أشجار «الساموهو» و«الكبراچو»، حيث تستقر قيادة الفرقة في معسكر إسناد بوكيرون، تبدو أشدّ توتّراً وسخونة ممّا هي عليه في القاعدة. فمن حين إلى آخر، يُسمع ما يشبه فقاعات هواء كبيرة تنفجر في أعمق أعماق الأرض، فتزلزلها وتهزّ ما علق بها من تراب. ثمّ سرعان ما تشتدّ رشقاتُ المدافع الرشّاشة والبنادق فترسم، خلف الجبل، خطّ نار غير دقيق. بين الأشجار، كانت السواتر والخنادق تتقيّأ وتبتلع أجساماً مضطربة تترنّح سكرى في عزّ النهار.

قريباً من مدخل طريق الغابة، تناثرت أغراض مجاميع الجنود الشاحبين، ممن تمّ إجلاؤهم. وها هم أولاء ينتظرون لحظة نقلهم إلى القاعدة أو العودة بهم إلى الجبهة، بحسب إيقاع المعركة وشراستها. «فمن تزيد له ساق أو تفيض عن حاجته ذراع، يمكنه مواصلة الرقص في الحلبة...»، بدا أنّ هذا هو الشعار. فعلى القادرين على الوقوف على أقدامهم، أن يحملوا حقائبهم.

حين سمعوا هدير المحرّكات، نهضوا وكأنّهم مربوطون إلى نابض. كانت شاحنة كريستوبال خارا تدخل في الأرض المنخفضة. تقافزت الأجسام الملفوفة بالأسمال على الشاحنة وسدّت عليها الطريق، غير عابئة بالعواقب. لم يجد كريستوبال بدّاً من التوقّف. قفز وحاول ردّ الأشباح، ولكن عبثاً. فقد الجنود صوابهم، بعد أن استبدّ بهم العطش، وراحوا يتنازعون الصنبور. وجرف السيلُ غامارّا. حين ظهرت بقيّة الشاحنات، انقضّ الكثيرون عليها، ليكونوا أوّل الواصلين إليها. اقترب ضابطٌ، يحمل وشاح الشرطة العسكريّة على ذراعه، مسرعاً، يتبعه عدد من أعوانه. شقّ

طريقه وهو يرفع مسدّسه ويصيح كالممسوس: «إلى الوراء.. إلى الوراء! بالصفّ! اصطفّوا!».

وراحت ماسورة المسدّس ومقابض بنادق رجال الشرطة العسكرية تنهال بالضرب على الرؤوس، حتّى تمّ لهم ما أرادوا: تراجع الجنود الذين تجمّعوا وتصارعوا أمام صنابير الماء، وانسحبوا مرغمين. اقترب خارا من الضابط.

- شاحنة الماء هذه لن تذهب إلى الخطوط، سيّدي. أنا في مهمّة خاصة!

«اخرج من هنا إذاً!» - صاح الآخر.

صعد خارا نحو الملاجئ. وهرول غامارّا يعرج خلف الشاحنة. كانت عينا سالوي جامدتَين.

.20

«اصطفّوا! الجرحى أوّلاً!» - استمرّ الضابط في أعطاء أوامره لفرض النظام، يصرخ ويركض من ناحية إلى أخرى.

اصطفّ الطابور امتثالاً لأعقاب البنادق. عندئذٍ أمر الضابط بتوزيع حصة الماء: نصف جرّة لكلّ فرد. وظلّ يتحرّك بين الطابور ويراقب التوزيع بحذر وصرامة. يمدّ الواقفون في الخلف نحوه أعناقهم ووجوههم المتلهّفة المتعبة. يطول الطابور وتستطيل.

«كفاية!» -قال الضابط، فجأةً، وهو يرفع ذراعه- «البقيّة ينتظرون في وحداتهم! سنرسل بقية الماء إلى الخطوط! أرى أنّ أقدامَكم ما زالت تحملكم! وفي إمكانكم القتال!».

علت صيحاتُ اعتراض جشّاء، حيوانيّة تقريباً، على امتداد الطابور. وبكى بعضهم بعبرات مخنوقة. وسقط أحدهم على ركبتيه وهو يضرب على الأرض بقبضتيه، ويصرخ: «لا أحتملُ المزيد.. ما عدتُ أحتمل المزيد!». كان يبكي دماً؛ نهض وابتعد مترنّحاً نحو الغابة.

تفرّق الطابور، لكنّ العطشى واصلوا الانتظار، وظلّوا يلوكون همساً مكتوماً وحزيناً، مسحوقين باليأس. أمرهم الضابط بالانصراف، ووجّه إليهم صراخاً تضاعفت فيه نبرة الغضب.

- تفرّقوا.. قلتُ لكم تفرّقوا! انتهى الماء! عودوا إلى وحداتكم، وهناك ستجدون حصتكم!

كان الذين تولّوا توزيع الماء يملؤون، محمومين، الصفائح، فيمرّر حاملوها العصيّ من خلالها ويضعونها على أكتافهم ثمّ ينطلقون بها، وقد احدودبت هاماتهم من ثقل ما يحملون، وراح رذاذ الماء يتطاير من حملهم الثقيل.

عاد الجندي الذي دخل إلى الغابة، وشقّ طريقه، بين المتفرّجين، وتقدّم من الضابط.

«أريد ماءً، سيدي. أنا جريح!» - أظهر يده مربوطةً ومعلّقة من إصبع بزرّ سترته.

«أينَ جُرحت؟» - حدّق فيه بعينين مرتابتين.

«في الجبهة، سيّدي» - كان يحاول أن يبدو ثابتاً صادقاً.

- قبل قليل كنتَ في الطابور!

- أبداً.. سيّدي! لقد جرحتُ في الجبهة!

«أرني جرحك!» - رفع اللفافة المنقوعة بالدم.

كانت حافات الجرح المفتوح في اللحم تشي بآثار البارود.

«يا لكَ من بائس.. جبان!» -ركله فطرحه أرضاً- «كان الأجدر بك أن تطلق النار على رأسك!».

زحف الجندي وهو يئنّ، وقد التصق وجهه بالأرض، فكأنّه يتمنّى أن تبتلعه.

- خذوه!

انقضّ رجال الشرطة العسكريّة عليه، حذرين مبلولين.

.21

مقابل ملجأ الإدارة، كان خارا يتلقّى آخر التعليمات.

«عناصر طبيّة؟ أنتَ تحلم!» -قال له مسؤول الدائرة- «ما عادوا يبعثون لنا بعناصر طبّية! وصار من العبث أن نطلبهم منهم!».

«معي حامل نقّالة» - قال كريستوبال، بعد تردّد، وهو يشير إلى سالوي، التي كانت في الشاحنة.

«فاكتفِ بما عندك. سأبحث عن بديل للرقيب أكينو. يا لها من خسارة كبيرة! وفي هذه اللحظة بالذات! انصرف الآن! هذا سيساعدك على الوصول!» -قال وهو يشير إلى رجل هزيل- «رقيب مونخيلوس، دُلّه على طريق الكتيبة. حالفكم الحظ!».

استعدّ الهيكل الحافي ذو الملابس المهلهلة.

حين مرّوا من جانب الغابة، رأوا جنوداً يُعدمون رجلاً.

.22

راحوا يدرجون في الطريق نحو القوة المعزولة في الأرض الحرام، منقادين إلى مصيرهم. تثير الشاحنة التراب من خلفها في دوّامات تصنع جداراً يغطّي طريق العودة.

مدَّ الرجل الهزيل، المدعو مونخيلوس، يده صوب طريقٍ موهومة كان يحملُ خطّ سيرِها موسوماً على عروقه المتيبّسة. على تلك الطريق، راحت الشاحنة تتقدّم في الأرض الوعرة، تصطدم بأحراج وصبّارات وكثبان تتأجج، تحت الشمس البيضاء التي تدقّ على الرؤوس، من سماء تخيّم على الصحراء، مثل لوحة من الزنك.

يهتزّ الدليلُ وغامارّا، القابعان فوق براميل من البنزين والوقود، رُبطت بالحبال في جانبي الشاحنة؛ بينما أُحكم غطاءُ الصهريج بطبقتين من جلد البقر لتحافظ على الماء من التبخّر ولتوضع، في الوقت نفسه، تحت العجلات إذا ما علقت العجلات بالرمل.

جبل وصحراء. صحراء وجبل. وهذا الطرْق المدوّي الذي لا يتوقّف، والذي بات يهتزّ على الجلد، بعد أن لم تقوَ طبلتا الأذنين على استيعابه، لأنّه يشقّق ذاكرة السمع. مع حلول الليل، تصمتُ المدافع، لكنّ الأزيز يستمرّ ويستمرّ، في اهتزاز غوالامبو[58] كبير، أوتارُه شقوقُ الأرض، مشدودة إلى قوس الأفق. ما عادوا يسمعون حتّى ضجيج المحرّك.

من خلال الزجاج الذي كساه الغبار، راحت سالويْ تنظر، بين الحين والحين، إلى وجه كريستوبال النحيل. تنظر إليه من الجانب فتراه مختلفاً،

---

(58) Gualambau: آلة موسيقية بدائية مؤلّفة من قوس ووتر. موطنها باراغواي.

ترى وجهاً آخر، وجهاً قاسياً ذا عينين صدئتين، تتطلّعان إلى الأمام، وتحسبان أدنى تفاصيل الطريق.

بعيداً عن ذلك الوجه، رأت، فجأة، أجساماً تقفز على الشاحنة.

نحو عشرين جندياً يلوّحون بأيديهم ويصرخون رافعين حرابهم البرّاقة. الوجوه الخضر الزيتونيّة تشي بهويّة حامليها.

«قف!» – صرخوا بهيستريا، وطوّقوا الشاحنة منذرين محذّرين.

حاول كريستوبال تجنّبهم، فاستدار بالشاحنة استدارة عنيفة. لكنّهم ضيّقوا عليه. انحنى ليلتقط البندقيّة، فهجم أحدهم عليه وضربه على يده، فسقط السلاح منه.

«دعونا نمرّ!» – صرخ غاضباً، من دون أن يوقف سير الشاحنة المتعرّج.

في تلك اللحظة، مزّق المهاجمون العجلة بحرابهم، فتوقّفت الشاحنة فجأة. طار غطاءُ الصهريج ودخلت رشقةُ ماءٍ كبيرة من النافذة، فبلّلت ظهرَي كريستوبال وسالوي.

فوق الشاحنة، ظلَّ مونخيلوس وغامارّا بلا حراك، لأنّ حراباً عديدة لامست أضلاعهم. راحت الوجوه المفزوعة تتدافع على الصنبور وتبدّد الماء. كان مشهداً شبيهاً بمشهد اغتصاب، الماءُ فيه امرأة عارية تحاول أن تنفذ بجلدها، وهي تئنّ بين أفخاذ الرجال المتوحّشين ووجوههم. ما كان لقوّة، غير الموت، أن تزيحهم عن فعلهم المجنون.

«جبناء! أنتم لا تحسنون الموتَ كما يموت الرجال في مواقعهم!» – صرخ بهم كريستوبال في سورة غضبه. لكنّ صرخته ضاعت بين لهاث الغاصبين وصراخهم.

وحاول غامارّا، في لفتة مزاح يائسة، أن يرسم صورة ساخرة للحالة،

ليخفّف عمّا داخل قلبه من رعب. أبعد بإصبعه الحربة التي كانت تخِزه في خاصرته، وهو يقول لحاملها: «لا تدغدغني، رفيقي! اشربوا على مهلكم! لا تستعجلوا! فنحن لم نجلب الماء إلّا لكم!».

استمرّ الهرج أمام الصنبور، فكأنّهم خنازير تبحث في زريبة. راح البعض منهم يحاول ملء زمزميته، بين تهديد وشتائم.

حاولت سالوي وقف النزف في يد كريستوبال، التي راحت تقطر وكأنّ بها ثقباً. لكنّه انتزع يده غاضباً، وانتزع منها الحربة. لم يسمح لها بتضميدها إلا حين تراجع المهاجمون إلى الجبل، وهم يصوّبون البنادق نحوهم. تفرّقوا ثمّ اختفوا في الأجمة. في تلك اللحظة، بدا له واضحاً ما سيقع لاحقاً.

.23

بدت الشاحنة صغيرة مربوعة بعد أن انغرست دواليبها المفرغة من الهواء في حقل الحَلفاء. أمّا ظلّها فقد استطال وامتدّ وراءها، وراحت الشمس، وقد باتت قرصاً أحمر، تتوارى في الأفق الملتهب.

«سأعود مع غامارّا لجلب إطار آخر» – اقترح مونخيلوس.

«لا» – قال خارا، وهو يتطلّع ملياً إلى حقل الحلفاء.

«لماذا، كيريتو؟» – سأل غامارّا وهو يشير إلى الإطارات.

«سنملؤها بالحلفاء» – قال كريستوبال، وكأنّه يأمر بنفخها في محطة تعبئة للوقود.

هرع الجميعُ إلى العمل، وراحوا يحشون الإطار بالحلفاء المبلولة، ثمّ

يُلبسونها في الدولاب. أمّا سالوي فراحت تحصد الحلفاء القاسية المطّاطة وتحملها في حزم، بينما انهمك كريستوبال في عمله وهو مألوم. نقّع الدمُ ضمّاده. فأخرج قبّعة أكينو واتخذها قفّازاً يحمي يده. اقتربت سالوي منه وشدّت القبّعة على معصمه. قدّمت له القرص المخثّر مرة أخرى، فقبله هذه المرة.

سحب غامارّا ومونخيلوس الرافعات. صعد كريستوبال إلى الشاحنة وشغّل المحرّك. اقترب منه الدليل.

– لا نستطيع الآن أن نواصل الطريق.

– أعلم هذا. سأخفيها في الجبل.

حرّك الشاحنة حتى وصل بها إلى منطقة كثيفة الأشجار، كثيفة الظلال. علا صريرُ دواليبها الجديدة. أشار إليها غامارّا بإيماءة.

– إنّها تدين لنا بحذائها الجديد.

خيّم الظلام على الشاحنة المتوقّفة في الأجمة، فريسة اهتزازٍ رتيب غريب. بعد قليل، ظهر القمرُ فوق الغابة هلالاً، فأضفى عليها ضياء خافتاً.

كان ذلك أوّل توقفٍ قسري عن المسير، بعد يومين لم يذوقوا فيهما طعاماً ولا نوماً. أخرج غامارّا حصّته من الطعام، ودعا مونخيلوس.

– تفضّل!

جلس الاثنان بالقرب من الشاحنة، وراحا يلتهمان البسكوت المتحجّر واللحم المعلّب. من فميهما، راحت تصدرُ أصواتٌ عجيبة غريبة. أخرج كريستوبال زوّادته وتقاسمها مع سالوي. ثمّ نهض وأتى بقليل من الماء في إناء الزيت، وأعطى لكلّ واحد نصف جرّة. أمّا هو فلم يشرب.

«ألا تشرب؟!» – سألته سالوي.

- لا.

«أنا لستُ عطشانة» - قالت، ومدّت له يدها بإنائها.

- ولا أنا.

تبادلا نظراتٍ مبهمة. بدت أسارير كريستوبال للمرة الأولى منفرجة وآدميّة.

وفجأةً سمعوا غامارّا يقول للآخر: «هذا هو عشاؤنا الأخير! ما ألذّه!».

«يبدو لي الأوّل» - قال الدليل. ابتسمت سالوي وكريستوبال.

«ناما» -قال كريستوبال، وهو ينهض- «سأتولّى أنا الحراسة أوّلاً».

قدّمت سالوي لهما سجائر وصعدت إلى القمرة.

نظّف غامارّا ومونخيلوس منطقة قريبة من الشاحنة واستلقيا فوق بطانيّتيهما.

«لا ينقصني إلا أن تأتي أفعى يارارا لتنام معي!» - علّق غامارّا مازحاً وأشعل سيجارته.

أشعل مونخيلوس سيجارته أيضاً، وبقي الاثنان صامتين.

«يبدو أنّ هذه الحرب ستطول» - قال غامارّا، حين بدا وكأنّه نام.

- بل لقد بدأتْ للتوّ.

- هي بالنسبة إلينا تنتهي.

«ممكن» - وافقه الدليل، من دون حماس كبير.

«ما أبعد ما سرنا من أجل أن نموت!» - تنهّد غامارّا.

- وهذا ما يجب أن يكون.

كانت نقاط السجائر المتوهّجة تتحرّك فوق الوجوه الكالحة.

- أذكر أنّنا في ساپوكاي، مونخيلوس، شكّلنا قوة من المقاتلين. كانت الثورة قد اشتعلت في الأنحاء كافةً. لكنّهم اكتشفونا. أرسلوا في طلب سلاح الفرسان من پاراغواري وأمسكوا بنا جميعاً.. جميع من لم يُقتل في مجزرة الهور. كان كيريتو الوحيد الذي أفلح في الهرب. بأعجوبة. وها هو ذا الآن هنا أيضاً. ليته يعود إلى الهرب هذه المرة أيضاً. ونحن معه.. أليس كذلك، مونخي؟

- نمتُ وحلمتُ بذلك، مديو مترو.. شيء خير من لا شيء.

أدار ظهره وغطّى رأسه بطرف البطانيّة.

كان القوس المضيء يخمش الزجاج، فيصدر وميضٌ، فكأنّ يراعات التصقت بالغبار.

عاد كريستوبال من دوريته وصعد إلى الشاحنة. كان الآخرون يشخرون تحت.

- هل يؤلمكَ الجرح؟

- لا.

- هل تريد أن تدخّن؟

- ليس معي دخان.

- أنا عندي.

أخرجت سيجارة من تلك التي بقيت من سجائر خوانا روسا. دعكت عود ثقاب بالزجاج فاشتعل. سحبت عدداً من الأنفاس حتّى توهّجت جمرتها، ثمّ ناولته إيّاها.

- كم غريب أن نكون معاً هذه الليلة، في شاحنتك!

- وما الغرابة في ذلك؟

- لقد احتقرتني دائماً واستهنتَ بي.

- أنا لا أحتقر أحداً.

- لكنّك احتقرتني.. حتّى البارحة. صعدتُ إلى شاحنتك على غير إرادة منك.

نفث كريستوبال سحابة طويلة من الدخان صوب طنين البعوض المُلحّ.

- هل لي أن أسألك عن شيء؟

نظر إليها.

- هل تحتقرني بسبب ما أنا عليه؟

- كلّ واحد منّا هو ما هو عليه. وليس لأحد أن يحتقر أحداً.

- إن كان الواحد سيئاً، مثلاً، ألا ترى أنّ من الممكن أن يتغيّر؟

- الواحد يتغيّر بين الحين والحين، لكنّ ذلك لا يهمّ إلا الفرد نفسه.

أومأت له طالبة السيجارة منه، فوضعها في فمه إلى أن خرج الدخان من أنفه:

«أحياناً، أحياناً أراك مجرّداً من الشعور تجاه أيّ شيء أو أيّ شخص. لكنّي الآن...» -توقّفت عن الكلام، حرّكت رأسها، وأبعدت يدها التي تحمل السيجارة- «هناك كنتَ الصديق الوحيد لذلك الهندي كانايتي. عمّ كنت تتكلّم معه حين تذهب إليه في الخيام؟».

- عن أمور الجبل، عن قومه.

- لكَ طريقة في الاستماع إليه.

- هو واسعُ الاطلاع، ويعرف الكثير دائماً.

- هل قصّ عليك حكاية نساء قبيلة الورو، اللائي يخرجن للرقص في وديان الأنهار وقد تمنطقن بأحزمة من اليراعات لجلب الأمطار؟

- لا. كان يكلّمني عن أشياء أخرى.

- لا أذكر جيّداً.. أعلم فقط أنّ النساء كنّ يرقصن ويرقصن طوال الليل والبدر وراء ظهورهنّ، ونطاق اليراعات.. يرقصن ويرقصن حتّى تبدأ السماء بالتعرّق ثم بالمطر. هذا ما يقوله الهنود.. ولا أدري ما إن كان ما يقولونه صحيحاً.

- وهكذا يجب أن يكون. فهم لا يخطئون.

- أريد أن أسألكَ عن شيء آخر، كريستوبال!

«خيرٌ لكِ أن تنامي» - قاطعها.



- لا أشعر بالنعاس.

- غداً أمامنا عملٌ شاقّ.

«ربّما الموت» - قالت بنبرة مسالمة، سعيدة تقريباً، ليست مستفهمة، بل شبه واثقة.

- ربّما.

- سأنام إذاً. سيكون نوماً طويلاً.

ما من حزن في صوتها. ما من تأكيد. ما من مرارة؛ كلماتها جذلى. ما من كلمات حزينة في الغوارانيّة؛ فالكلمات تخرج طازجة، ولا وقت عندها لتشيخ. فلكي تقول سيكون النوم طويلاً، قالت: *Jho'ata che'ari keraná pukú*... لتوحي بنومٍ هانئ، مليء براحة مطلقة وأحلام سعيدة، مع ذبابة تدغدغ الأنف.

أخفت سحابةٌ مضيئةُ الحواشي القوسَ المغروس في السماء وأطفأت الزجاج. وانطفأت أيضاً السيجارة، التي دخّناها معاً، هو وهي.

- هل تؤمن بالمعجزات، كريستوبال؟

– معجزات؟

– نعم، أي حين يقع أمرٌ مستحيل لا يستطيع فعله إلّا الربّ.

«ما لا يستطيعه الإنسان، لن يستطيعه أحدٌ سواه!» – قال بفظاظة.

– نعم.. ربّما هذه هي القوّة التي تصنع المعجزات.

– لا أدري. لا أفهم ما تقوله الكلمات. لا أفهم إلّا ما أنا قادر على فعله. عندي مهمّة. وعليّ أن أنجزها. هذا هو ما أفهمه.

– أنا أيضاً بدأتُ أفهم الكثير من الأشياء، كريستوبال. قال لي أكينو، قبل أن يموت، إنّي أولد من جديد. ربّما كان على حقّ. وجودي هنا، إلى جنبك.. من دون أن أشعر بالخجل.. يبدو لي مستحيلاً.

كانت تتكلّم بلغة الهمس، فكأنّها تتحدّث مع نفسها بصوت منخفض.

سحق خارا سيجارته بعقب بندقيته ورمى بها إلى الظلام. طوّق رقبتها بذراعه وجذبها نحوه، فاستقرّ رأسُها، بخصلات شعرها الذي قُصّ بحدّ السكّين، على كتفه، واستسلمت هي أمام فيض سعادتها.

.24

كان انكسارُ ضوء الشمس يشطر صورة الشاحنة وهي تتقدّم فوق الرقعة الرملية المترامية الأطراف. يزأر المحرّكُ ويهدر. وتتقدّم العجلات، سنتيمتراً سنتيمتراً، فوق جلد البقر الذي راحت سالوي تضعه، سجادة على الرمل، المرّة تلو المرّة، بينما راح مونخيلوس وغامارّا يدفعان من الخلف ويراقبان توازن الصهريج، الذي راح يتمايل، بعد ما أصابه من تفكّكٍ وتزعزع. تشبّث كريستوبال بالمقود وسمّر نظره في بياض الرمال الساطع.

مرّوا بحجارة لها شكل الفطر، غامقة منطفئة، وسط سطوع الرمل.

«نعم.. هنا كان!» -أعلن مونخيلوس، مشيراً إلى الحجارة- «النيزك! وفتحة الطريق هناك!» - أضاف وهو يشير إلى غور أسود في الغابة الرماديّة، بدا متحجّراً.

كان غامارّا يتأمّل الحجارة مستغرباً، وفجأةً، فزع، إذ نظر إلى الجنب الأسفل من الشاحنة، فرأى الدخان ينبعث من العجلات الخلفية، وقد راحت ألسنة صغيرة من اللهب تندلع فيها.

«توقّف.. توقّف!» -صرخ- «الحلفاء تشتعل!».

أوقف كريستوبال الشاحنة ونزل ليعاين الأمر. أخمد مونخيلوس وغامارّا النار المشتعلة في الإطارات، بعد أن ألقيا عليها وابلاً من الرمال. حين اختفى الدخان، صعد كريستوبال وحاول أن يدوّر المحرّك، لكنّ محاولته باءت بالفشل. نزل ثانيةً، ورفع غطاء المحرّك وفحص مدوّر التشغيل. فعل ذلك كلّه بيدٍ واحدة. أمّا الثانية، الملفوفة بقبّعة أكينو، فقد كانت معلّقة إلى جنبه، تنضح طيناً مخلوطاً بالدم. بدت يده بنفسجيّة متورّمة، من أثر الغانغارينا. نظرت إليها سالوي مفزوعة.

حلَّ صمتٌ ثقيل. ما عاد يُسمع صوتُ المدافع البعيد. ما كان من صوت غير صوت سخونة المحرّك الخافت، وصوت أنفاس كريستوبال، وهو يعالجه.

«ما أغرب هذا!» -قال مونخيلوس- «ما زال الصمت مخيّماً هناك، أصدقائي».

«ربّما سقط حصن بوكيرون!» - قال غامارّا بإيماءة تحاول أن تكون متفائلة.

- ربّما. فقد بدأت الخطوط تسقط.

«اليوم يكون قد مضى عشرون يوماً على بدء الحصار» -أضاف غامارا- «إن سقط بوكيرون، فستنتهي الحرب بالتأكيد».

- من يدري!

رفع الجميعُ وجوههم نحو السماء، بعد أن سمعوا أزيز طائرة. ظهرت فوقهم طائرة جونكير، في تحليق منخفض ومباشر. بدا أنّها لم تنتبه إلى الشاحنة البادية، فوق الرمال، لكلّ ذي عينين.

«ألا يرون؟!» -قال غامارّا، وهو يفرك يديه، حين اختفت الطائرة المعادية- «الجميع خائفون! انتهت الحرب! طاخ.. طاخ!».

أعادهم أمرُ كريستوبال إلى الواقع.

- انتباه، هيّا!

استأنفوا مسيرهم بصعوبة وبطء: تنحني سالوي ثمّ تنهض، لتضع، في طريق مرور الشاحنة، الجلد الذي يرسم دوائر سوداً فوق بقعة الرمال الملتهبة. وراح كريستوبال يوجّه المقود باحثاً عن الزاوية الأقرب، ويتنقّل، باليد نفسها، بين السرعات ليختار منها ما يناسب اندفاع العجلات. أمّا اليد الأخرى المرفوعة، المتفخة داخل القبّعة، فكانت ترسم فوق الزجاج شبحَ رأسٍ في حالة ترقّب وانتباه. رأس سلفستري أكينو، الذي أطاحت به القنبلة! ترمش عيناه في الغبار، وتنظران إلى كريستوبال. عليه أن ينظر إلى الرمل، من وراء الزجاج، ليطفئهما فيه، ويعرف أنّهما عيناه. لكنّهما كانتا هناك من جديد، فجأةً، عميقتين، مشوّشتين، بصيرتين، تخترعان الطريق، وتواصلان المسير. فما من شيء الآن غير التقدّم، حثيثاً، ومهما كان الثمن، عبر الغابة، والصحراء، والعناصر المشتتة، ورأس الصديق الميّت، وذلك

الإيقاع المتتابع الذي تمتزج فيه الحياة والموت، في حدّ لا يمكن تحديده. ذلك هو المصير. وما المصير في نظر رجل مثل كريستوبال خارا، غير اقتياد هاجسه، كما يقتاد العبد، عبر طريق ضيّقة في الغابة أو عبر سهل لامتناهٍ، تلفّه رائحة الحرية الوحشيّة. وما المصير غير أن يشقّ طريقه عبر مشتبك الأحداث المنيع، الذي يفني فيه جسده، ولكن بعد أن يحوّل تلك الأحداث عن طريق تلك الإرادة التي لا تنمو قوّتها إلّا بالاندماج فيها. ما لا يستطيعه الإنسان، لن يستطيعه أحدٌ سواه! ذلك ما قاله هو نفسه. ومثله الكثيرون، لا يعدّون ولا يحصون، مجهولون. لا تكمن قوّتهم ربّما في الإذعان ببساطة لقانون يشتمل عليهم ويتجاوزهم، في أنّهم لا يعرفون شيئاً، ولا حتّى الأمل. لا شيء غير الجدّ في طلب شيء وصولاً إلى نسيان ما عداه. التقّدم ونسيان النفس. فالفرح والنصر والهزيمة والجنس والحب واليأس ما هي إلّا محطات في مسيرة عبر صحراءَ بلا حدود. قد يسقط أحدها، لكنّ البقيّة ستواصل المسير، تاركة أخدوداً، بصمة، دماً، فوق التربة القديمة، بعد أن تكون عذريّتها الوحشيّة والبدائية قد باتت خصبة.

.25

درجت الشاحنة عبر طريق الغابة، وقد علتها سحابةٌ من غبار، وراح يصوّت من تحتها صريرُ عجلات حادّ. وعاد دثار الجلد يغطّي الصهريج ثانية.

جسمٌ غريب مبهم، يقبع محدودباً ومنكمشاً بين فروع طريق غير مستوية. بداء من سكونه، كالمومياء. ربّما هو بقيّة من قط اليغورندي أو قرد المكاك أو نسر الكاركار، ذي الرأس الأصفر. ولكن، أيّ حيواناتٍ في

ذلك الظرف؟ تحرّكت المومياء. من تحت القناع المطّاطي، أومض شقّانِ مائلانِ، وهما يبصران زحف الشاحنة الصغيرة، التي لها شكل حيوان أسطوري، وهي تكبر في قطع الطريق المتداخلة الأوصال. استدار الشقّان المتعامدان باضطراب. أمّا الفم ذو الأسنان الصفر، فقد أصدر بسبسة تحذير.

«بتنا قريبين من وادي النهر!» -صرخ مونخيلوس وهو يشير إلى شجرة كبراش ضخمة في منعطف- «لم يبقَ أمامنا إلا القليل!».

قطع كلماتِه إطلاقُ نار كثيف. اندفعت ظلالٌ بلون الخاكي نحو الطريق، وهي تطلق صرخاتٍ وحشيّة. استدار كريستوبال بالشاحنة نحو الأجمة، لكنّ الوقت كان متأخراً. ألقى بسالوي بين الأحراج وتسلّل هو من الطرف الآخر. وسقط رصاص المهاجمين على مونخيلوس وغامارّا، إذْ لم يسعفهما الوقت للقفز من الشاحنة. سقطا يتلويان تحت الرصاص الذي كان ينقر على جسميهما بفرقعة مترهّلة. نهض كريستوبال من بين الأعشاب، ورفع إحدى ذراعيه ليتناول البندقية، التي كانت في القمرة، لكنّ رصاصة أصابت يده، فسقط، وزحف مسافة، ثمّ همد.

انقضّ المهاجمون، بين رصاص وصراخ، وصدمت بساطيلهم يد كريستوبال المصابة. هجموا على الصنبور، يتدافعون بالوجوه وبالأيدي وبالأفواه، ويتنازعون الماء، بالخمش والضرب. أطلق أكثرُهم عطشاً الرصاصَ على الصهريج، فبدأ الماء يتدفّق في حزمٍ من خلال دثار الجلد.

«بسرعة، عجّلوا! سريعاً.. فسيظهر جنود پاراغواي!» – صرخ أحدهم بجمع الظلال المفترسة، وكان برتبة نائب ضابط. لم يسمعوه. تصطكّ الأسنانُ فوق الصنبور في لهاث الأجساد المكتوم والمتشنّج.

«بسرعة، يا أوغادا» -استعجَلهم نائبُ الضابط من جديد- «بسرعة.. بسرعة! لنحرق الشاحنة!».

تفرّق الجمع. خرج بعضهم كالسكارى، استلقوا، وراحوا يتقيّؤون الماء، بعدما عبّوه عبّاً. وتخلّف آخرون عند الصنبور، أو شمّروا عن أسنانهم ليتلقّوا دفق الماء الساقط من الجلود، ويتحمّلوا تدافع أولئك الذين كانوا يجاهدون لملء زمزمياتهم بالماء.

- بسرعة، بسرعة، فجنود پاراغواي قادمون! لنحرق الشاحنة!

دوّى برقٌ فوسفوريّ وراء ظهورهم، وأطاحت الشظايا ببعضهم. وخرج الآخرون مبهورين من عصف الانفجار. ودوّى انفجار آخر في الجوّ، فعلت سحبٌ من غازات خضرٍ وصفرٍ وحمرٍ، بعد هروب الجمع غير المنظّم.

حين تلاشت سحابة الغبار والدخان، ظهرت سالوي من بين الأحراج. كانت تبحث في جراب غامارّا عن قنبلة يدويّة أخرى، وهي منفوشة الشعر، تثير الفزعَ بهالة التراب التي تحيط بها. كانت على وشك أن ترمي بالرمانة اليدويّة على واقية الطين، حين رأتْ كريستوبال في الطرف الآخر، وهو يتقدّم مترنّحاً نحو الصنبور، محاولاً غلقه بأسنانه. هُرعت لتساعده، ثم راحت تغلق الفتحات بالأعواد. وفجأة حدّقتْ في يد كريستوبال المهشّمة.

«يا إلهي!» - تمتمت متجهّمة.

وقفت إلى جانبه وحملت ذراعه على كتفها. تقدّما، يسند كلّ منهما الآخر، فقد كانت هي الأخرى تتمايل، لا من ثقل كريستوبال، بل من ثقل ذلك القرح الذي راح يتسع في ظهرها.

جلسا على دكّة الصعود إلى الشاحنة. أخرجت صندوق الإسعافات وراحت تضمّد جرحه.

«لا بدّ أن نواصل السير! عليّ أن أصل!» - تمتم كريستوبال وقد تجهّم وجهه وتوتّر من تحت قناع التراب والدم الذي كان يغطّي وجهه.

كانت حركات سالوي مضطربة، متعبة، لكنّ تعابير وجهها راحت تهدأ وتسترخي، فكأنّ عدوى هوس الإرادة عنده انتقلت إليها وتمكّنت منها. حين انتهت من تضميد جرحه، ساعدته ليصعد إلى الشاحنة. جلس خلف المقود ونظر إلى يديه المربوطتين. لم يساوره الشعور بالعجز، بل راح يفكّر في حلّ استثنائي. ردّد من جديد متمتماً: «عليّ أن أصل!».

نظرت إليه سالوي بعينين نديّتين.

- في صندوق العدد، ستجدين سلكاً. أخرجيه!

استدارت سالوي حول المحرّك، منحنيةً عليه، حتى وصلت إلى الباب الآخر. حاولت أن تبدو حركاتها طبيعيّة. حاولت الصعود، لكنّها لم تستطع. فتحت، وهي على الأرض، غطاء الصندوق، وأخرجت لفافة السلك. عادت بها، بعد أن استدارت بالطريقة نفسها.

- ها هو ذا!

- شدّي هذه الذراع على المقبض!

فعلت سالوي ما أمرها به. كان وجهها شاحباً يتصبّب عرقاً.

«أقوى!» - قال لها، حين لاحظ أنّ بين الساعد والمقود ما زالت فجوة صغيرة.

لفّت السلك مراتٍ أخرى وضبطت الحمّالات، إلى أن قال لها: «حسناً.. والآن اربطي هذه بعتلة تغيير السرعة!» - مدّ لها الذراع الأخرى.

ربطت معصمه إلى العتلة بأربطة مماثلة. وكان عليها أن تنحشر أكثر في مقعد المؤخّرة لتستطيع أن تصل إلى السلك وتتحكّم به. بدأت حركاتُها

تضعف. كانت تنتابها، من حين إلى حين، رعشاتٌ يهتزّ لها بدنها اهتزازاً، بل لقد وصل بها الأمر، في لحظة من اللحظات، أن توقّفت ومرّرت يدها على عينيها، فكأنّها شعرت بدوارٍ.

«عجّلي!» - استعجلها، بنبرة خشنة.

شدّت الرباطَ على عجل وقطعتِ السلكَ وأحكمَتْ ربط أطرافه. ظلّت يدها، لحظة، فوق يده المربوطة، وعيناها مغمضتان، فكأنّها تودّعه.

«اصعدي، هيّا!» - أمرها، من دون أن ينظر إليها، وضغط على زرّ تشغيل المحرّك.

سقطت سالوي منهكةً جنب الشاحنة. أخرج كريستوبال رأسه ونظر إليها، فرأى البقعة التي كانت تغطّي ظهرها كلّه، وتنفخ فيه كرةً ورديّة بالقرب من كتفها، تحت قماش السترة المبلولة. ازداد الذهول على ملامح وجهه. بدا للمرة الأولى متردّداً. كانت تعابيره من العمق والعجز أنّها أظهرت، وللمرة الأولى في حياته، مدى تردّده، وفداحة تلك الحيرة التي يجد نفسها فيها بلا خيار. الوقت يطير. هو مربوط بالشاحنة. وهي، على الأرض، تحتضر. ضغط كريستوبال، في جهد خارق، على الدوّاسة بهدوء، فأرجع الشاحنة إلى الوراء، ووضعها على أخدود الطريق، في مناورة بطيئة، راعى فيها ألّا تمسّ العجلات جسد سالوي الطريح، وألّا تحرّك إلّا خصلةً خفيفة من شعرها فوق وجهها، يداً مغبرّة، ومداعبةً ناعمة وأخيرة.

تأمّلها مرّة أخرى. كانت النافورة الصغيرة ما تزال تنزف في ظهرها. تشبّثتْ بنبتة صغيرة وظلّت ساكنة. حينئذٍ، تحرّك كريستوبال بالشاحنة ولم ينظر إلى الوراء. كانت العجلات تئنّ فوق طريق الغابة المنبسط المستقرّ،

وتدرج أسرع فأسرع. من بعيد، بدأت الإطارات تطلق حزمتين سوداوين من الحلفاء في الدوّامات التي راحت تمحو الصورة المزعزعة.

لم يلبث أن دخل الوادي، الذي بدا مهجوراً. تقدّم على غير هدى، والعجلات تحترق، تتمايل بين الحلفاء والأمتعة والرزم المتناثرة تحت الأشجار المتفحّمة. فجّرت رشقات مدفع رشّاش طائشة، زجاج الشاحنة، لكنّ الشاحنة واصلت تقدّمها المتعرّج عدة أمتار أخرى. توقّفت حين اصطدمت بشجرة. تدفّق الماء من فتحة الصهريج، فسقط على بؤر النار التي ملأت الوادي بالأخيلة. عاد الوادي إلى سكونه. لكنّ الزمّور بدأ يدقّ في عزف طويل ومستمرّ.

ظلّ سائق الشاحنة منكفئاً على وجهه، فوق المقود، في وضعية استراحة قصيرة.

الفصل التاسع

خشبٌ محترق

(تصريح بوّابة الرهبانيّة الثلاثيّة)

.1

سأحكي لك، سيّدي. نعم، سيّدي، على الرغم من أنّني أمضي اليوم بطوله في خدمة رهبانيّة القديس فرانسيسكو للفقراء، فقد رأيت الكثير من شرور الحياة تحدث مراراً وتكراراً. لكنّي لم أرَ من أحداث التلّة تلك، التي سقطت كالوصمة فوق بلدة إيتاييه، إلا قليلاً، أو لا شيء بالأحرى ممّا يمكنني حكايته. أمّا القليل القليل الذي أعلمه فقد علمته وأنا أنظر من خارج الحظيرة، لم يكن لي في ما جرى في داخلها ناقة ولا جمل. لذلك لا أستطيع أن أخبر حضرتك، سيّدي، بوقوع ما لم يحدث، أو كما اعتاد الناس أن يقولوا، متبرّعين متطوّعين: قل لي القليل وسأكمله لك أنا. لأنّ هذا العالم لا روح له ولا عودة إلا بعون سيّدنا المسيح وأمّه القديسة، العذراء ماريّا.

فحضرتك، أيّها الحاكم السياسي أوالعمدة أو المأمور، ما عدت أدري

كيف أخاطبك، لنفترض أنّ حضرتك رأيتَ طيراً يطير، لنفترض! فهل ترى أثره مرسوماً في الهواء؟ فالطير بريء. والهواء، هل تراه حضرتك خارجَ المسيحي أم داخله؟ وهل ترى، داخل المسيحي وخارجه، أثرَ التفكير، وآثار الذكريات؟ ما أقلّ ما نرى الشرّ! وإذا ألححتَ حضرتك عليّ قليلاً، فسأقول لك، وبكلّ احترام، إنّنا لا نرى الشرّ، لأنّه موجود فينا، نحن الخاطئين المساكين. موجود فينا، منفردين ومجتمعين.

فليس لديّ، إذاً، ما أصرّح لكَ به بشأن الأحداث، لا مؤيدة ولا معارضة. لا شيء عندي أدين به الموتى الذين ماتوا، لأنّ شرّهم الدائم، الذي لا نظير له، مات فيهم. أمّا الآخرون، فلأنّهم نسوا أنّ البراءة والوحدة والحياة لا يرعاها إلا الربّ. وهكذا تسير الأمور، تختلط وتتشابك، عشوائياً وعبثاً.

.2

حضرتك تسألني عن سيرة سلفكَ ومعجزاته. تسألني عن دون ميليتون إيساسي، سلفك في الإدارة، أثناء حرب چاكو، وهو يتولّى أعلى سلطة في إيتاپيه، هذه البلدة البائسة. لا أستطيع أن أقول لك إنّه، وبينما كنتم تحاربون وتموتون هناك من أجل الوطن، انصرف إلى معالجة مصائب أهل إيتاپيه. أقصد مصائب نساء البلدة ومسنّيها وأطفالها. أمّا الرجال، فقد أرسل بهم إلى الجبهة. حتّى العاجزون منهم، حتّى الفتية الذين لم يبلغوا سنّ التجنيد. أرسل بهم ليموتوا غير مأسوفٍ عليهم.

وقد مات دون ميليتون أيضاً، ولا بدّ أنّ الربّ القويّ، الجبّار، العادل، تكفّل بحفنة رماد روحه التي تعبت جداً. من المحتمل جداً والمؤكّد جداً

أنّه نفخها لتعود مرفرفة فوق رؤوس سكّان إيتاپيه، الذين صاروا، من ذلك الوقت، يسيرون مطأطئي الرأس.

لكنّ الصحيح هو أنّ الكارثة حلّت بالبلدة قبل وصول ميليتون إيساسي بكثير. فالأمور تأتي دائماً من وقت سابق. لا أحد يدري متى تبدأ، وأصعب من ذلك، متى تنتهي. فنحن الآن، وهذا مثال ينطبق على كلّ شيء ومن أجل كلّ شيء، نبحث عن أصل تلك الأشياء، عن الزمن الذي سبق زمن وقوعها، وأستطيع أن أقول لك، سيّدي، إنّنا، من هنا، لن نصل إلى أيّ نتيجة. وخصوصاً أنّك تكتب، لأنّك متعلّم، ببطء ما أقصّه عليك سريعاً عن كلّ ما أعرفه، وهذا يوازي الجهل بكلّ شيء، خصوصاً أنّني لا أعرف من القراءة والكتابة إلا التوقيع بعلامة الصليب أو ببصمة الإبهام.

مصيبة إيتاپيه عندي، أقول ذلك، وأنا أرسم علامة الصليب على صدري، بدأت حين وضع هرطقيو البلدة، بقيادة مكاريو العجوز، عند قمّة التلّ، تمثال المسيح الذي حفره غاسپار مورا، بعد أن لجأ مجذوماً إلى الجبل ومات محروقاً بنار النيزك. حضرتك، سيّدي، ولدتَ وترعرعتَ هنا وتعرف القصّة كاملة. أتذكّر حضرتك حين كنتَ صبيّاً. لذلك فما من حاجة أنّ أذكّرك بالأشياء التي لم ينسَها أحد.

لم تكن حضرتك هنا حين وصل ميليتون إلى البلدة. سرعان ما عرفنا ما سيقع. لم يبادر وحسب إلى إرسال مجنّدين إلى الجبهة، ولا التحكّم بمقدرات من ظلّ منهم. لم تكن آفة الحاكم الجديد الشرابَ ولا القمار. بل النساء اليافعات. فهنّ من يصنعن فرحته، وهنّ من يقضضن مضجعه. فمن أجلهنّ يستبدّ به جوعٌ فحولي لا يستطيع مقاومته. يخرج ليلاً، من دون رفقة ولا حراسة، على ظهر حصانه، يحميه خوفُ ضحاياه، وخوفُ البلدة، التي باتت كلّها امرأة في عين الفحل الشبق الذي نام فوقها. هكذا.

وأيّ أعمى أسوأ من أعمى لا يريد أن يرى خوفه! في ذلك الجوّ من الخوف صار ميليتون شبحاً لا يرى. يمرّ من أمام العجائز اللائي كنّ يتجسسن من خلف الأبواب، والشابّات المختبئات تحت الأسرّة. يمّم وجهَه الشرّير شطر أيّ وجهة، المهم أن تكون وجهة جديدة. صاروا يطلقون عليه لقب «كوروبي»[59]. علم بذلك، لكنّه لم يغضب، بل لقد ملأه اللقب زهواً. هدّأ ميليتون الناس، ذات يوم، حين ذهبوا إلى مقر الحاكم للاحتجاج، لكنّه لم يعِذْهم إلّا بالقليل، أو بلا شيء. ثمّ أبدى لهم سلطته بأن ضربَ على ما بين فخذيه، وهو يضحك مثل حوذي جريء. «هذا نما عندي بسرعة!» -قال وهو جالس في الشرفة- «بل إنّ عضو كوروبي ليس بطول عضوي ولا بجودته. فعضوي معمول لكلّ وظيفة وعجيبة. فدعوكم من الاحتجاج وعودوا إلى بيوتكم وانتظروا هناك دوركم!». هذا هو، وعذراً منك، ما قاله بالنص.

.3

وصل إلى إيتاپيه مع زوجته. امرأة مسكينة مريضة مسكونة، هي الأخرى، بالخوف. وماذا كان في مقدور نيا بريخيدا دي إيساسي غير أن تعاني وتتحمّل بصمت، وهي تعيش مع ذلك الرجل الذي أنزل البلاء بالبلدة كالطاعون؟ لكنّها كانت تحبّ زوجها أكثرَ من حياتها، المليئة بالعذاب وبالضياع.

---

(59) في التراث الشعبي للغوارانية يصوّرُ «كوروبي» رجلاً قصير القامة قوي الجسم طويل العضو، يجدّ في طلب الفتيات، ويربطهنّ بعضوه. وربّما ابتدعه الفولكلور لتحذير النساء من خطر السير في الغابة والتعرّض للاختطاف.

سكنا هناك، مقابل مقرّ الحاكم. في مقدورك أن ترى باب البيت الخرب من دون أن تتحرّك من مقعدك. في ذلك المكان المهجور أمضت نيا بريخيدا وقتها محجوزة، أسوأ من معتقلي المطبق. لا تخرج لحظة، ولا تنتظر أن تجد، إن خرجَتْ، غير المصيبة. أترى، سيّدي، تلك الفتحة التي لها شكل قلب في الباب؟ كان النظر من تلك الفتحة هو كلّ ما تستطيع نيا بريخيدا فعله لتعاين ما يفعله ميليتون هنا، داخل مقر الحاكم أو خارجه. كان ذلك شغلها الوحيد. متعتها المحزنة الوحيدة. شيء تفرّدت به. ما قلّ منه وما كثر. أمّا هو، فقد كان، على مرأى الجميع وصبرهم، يطلق العنان لغرائزه المنحرفة ويكبحها. يطوف بالأكواخ ليلاً. وقد يبتعد ليصل إلى نواحي «روخاس» أو «كانديا» ومواقعها.

حين لا يكون ميليتون موجوداً، تستدعيني نيا بريخيدا، لأظلّ في صحبتها، أواسيها وأسلّيها كما تأمرنا أن نفعل مبادئ ديننا المقدّس مع الغير. كنتُ أساعدها في صلاة المسبحة الورديّة، أدعوها إلى أن تضع ثقتها بالربّ، سيّدنا. لكنّي لم أفلح في حملها إلى الكنيسة. شيء يجب أن أقوله أيضاً. لا لنقصٍ في إيمانها. لا، سيّدي، بل لخوف. كان الخوف يسكنها، خوف يرخي الأسنان، ويفتح قروحاً في اللحم حتّى يبلغ الأفكار. كنت أحضّر لها علاجات من نباتات مهدئة. قلب السذاب، جذر البسباس، حبّ الينسون، حبّ الشبت. كلّ ما أعرفه وأكثر. فإن اعتراها رعاش واستبدّت بها الرجفة، كنتُ أعرّيها من ملابسها وأدعكُ جسمَها بزيت ثعبان الأناكوندا أو بيديّ العاريتين ولعابي. فقط. تنام. ثمّ تبدأ، شيئاً فشيئاً، وهي في غمرة أحلامها، تصرّح بما سيحدث. ما عدا آخر ما وقع في التلّة. كانت، وهي عارية ونائمة، تبدو شابّة رائعة، كالمجدليّة، ساقطة في الذنب وقدّيسة. صوتها يخرج من بعيد، وينطفئ في نفثة حين تنطق باسم ميليتون،

ثمّ تواصل التنفّس مع رجفة في بطنها، فكأنّ قلبها نزل إلى هناك لينبض لذكر زوجها. يا يسوع! كنتُ أنظر إليها، وهي مستسلمة وديعة رائعة حتّى لأغبطها وأتمنّى أن أكون مثلها. كلّ ذلك لأجل ماذا؟! وأظلّ أفكّر في ميليتون، في غباء الرجل-الفحل الذي يبحث في أصقاع بعيدة عن شيء يمتلكه في بيته، وفيراً وجيّداً. أحدّثك، مع كلّ احترامي، سيّدي، حتّى عمّا أفكّر فيه، وأنا هناك، مع نيا بريخيدا، التي تنام بين ذراعيّ، بينما ميليتون، على ظهر فرسه، يطوف تلك الديار، منساقاً وراء رغباته، باحثاً عن الحبل الذي سيلتفّ يوماً ما حول عنقه.

.4

بحث ميليتون، ذات ليلة، عن خوانا روسا، امرأة كريسانتو بيّالبا، في منطقة «كابيثا دي أغوا» البعيدة، حتّى عثر عليها. كان يعلم أنّها تعيش وحيدة في المزرعة، مع ولدها الصغير، كوچوي، الذي أتيتَ به حضرتك ليسكن في بيتك، وهو، لعمري، امتيازٌ لم يظفر به يتامى آخرون من أيتام هذه البلدة.

ولا أظنّك نسيتَ أنّ خوانا روسا هي ابنة ماريّا روسا، مجنونة «كاروبيني»، التي ما زالت، إلى يومنا هذا، تهذي وتقول إنّ خوانا روسا هي ابنة غاسپار مورا، الذي حفر تمثال المسيح، ويعلم أهالي إيتاييه القدماء أنّ كلامها لا يمكن أن يكون صحيحاً. ومن يعلم بمكان ثقب الإبرة الذي يلج من خلاله جَمَلُ الحقيقة، كما يقول الإنجيل. وخوانا روسا، كأمّها، هي واحدة من تلك النساء المسكونات بالأوهام. إرث يأتي في الدم.

الحقيقة هي أنّ ميليتون إيساسي لم يكن محتاجاً إلى أن يحمل معه

خوانا روسا، ليلة عثر عليها في «كابيثا دي أغوا». فقد حضرَتْ هي بنفسها مع صغيرها، صباح اليوم التالي، إلى مقرّ الحاكم. أعرف أنّ الهنديّة كونچيه آفاهاي أشاعت، هنا وهناك، أنّ خوانا روسا لم تجد بدّاً من أن تساير ميليتون إيساسي، لأنّه هدّدها بقتل ولدها. لكنّ ميليتون لا يحتاج إلى التهديد، ثمّ إنّ الطفل يضايقه بالتأكيد في مقر الحاكم. لم يكن كوچوي تجاوز السنة والنصف. يتدحرج وسط رماد المطبخ بينما تُعدّ أمّه الطعام للحرس. أو يختبئ بين بنادق المشجب. يلاعبه الحرس كما يلاعبون حيواناً صغيراً، وحين يلحّ بالبكاء، كان ميليتون يحشره بالركل في إحدى الزنزانات. ويحشره في الزنزانة أيضاً حين يخرج بعد الغداء لينام في مكتبه، بعد أن يعبر الشارع. حينئذٍ يأمر باستدعاء خوانا روسا، فتخفّ طائعة، وعلامة الرضا مرتسمة على وجهها، وبادية على جسمها الذي حدّد ثوبُها البالي تقاطيعه. تشفّ تنورتها المبلّلة عن فخذيها، وعن خصرها النحيف، ونهديها الصلبين. ثمّ تدخل عليه، وشعرها الأسود يغطّي وجهها.

ومن ثقب الباب، كانت نيا بريخيدا تشهد ما يحدث في الداخل. من مكانها، ترى خوانا روسا تخلع لميليتون جزمته. ثمّ تغلق الباب. ومن مكمنها، تسمع زئير الفحل وأنين الأنثى... رعانا الربّ وعفا عنّا!

أعلمُ أنّ الهنديّة كونچيه آفاهاي جاءتك أيضاً، لتحكي لحضرتك أنّ خوانا روسا قالت لها إنّها ذاهبة إلى چاكو لتبحث عن كريسانتو، لتموت هناك أو لتعود به. تركَتْ صغيرها مع الجدّة المجنونة واختفت. لكنّ أحداً لا يدري أين انتهى بها المطاف، ولا أين هي. عاد كريسانتو بيّالبا نصف أرمل، إذا ما افترضنا أنّ خوانا روسا ما زالت تهيم متعثّرة في هذه الأرض. فها أنت ذا ترى، سيّدي، أنّ هذه البلدة سرعان ما تضمّ حتّى ما لا وجود له.

.5

لم تكن خوانا روسا محظيّة ميليتون إيساسي الوحيدة، فلديه، أحياناً، فتاتان أو ثلاث فتيات، يسعين في الباحة، بين دخان النار وبخار الطبيخ. أمّا خوانا روسا، فقد كانت أقلّ من دامت له. في تلك الأثناء، وقعت في شباكه فليثيتاس غويبورو، شقيقة إسبرانثا الصغرى، وكان راعي أغنام قد اختطفها وأخفاها الله أعلم أين. أوَلسنا نحيا في أرض الشيطان، سيّدي؟!

لم يصطد ميليتون فليثيتاس في الظلام، في جولة من جولاته الليليّة، بل اصطادها في وضح النهار، وهي خارجة من المدرسة. لم ينتظر طويلاً، بل استمالها بتفاهتين أو ثلاث تفاهات. كان هو من يأمر أحد الجنود بقطع الورود التي اعتادت الطفلة حملها هدية للمعلّمة.

استدعتني نيا بريخيدا ذاتَ عصر. دخلتُ من الباب الخلفي، عبر مزرعة الموز، وأنا خائفة. وجدتُها تسترق النظر من فتحة الباب، وقد تملّكتها نوباتُ الارتعاش الأولى، وراحت أسنانها تصطكّ، فما عادت تقوى على الكلام. وجدتُها تعاني من كلّ ما اعتادت أن تعانيه، وأكثر. أبعدتُها عن مرقبها، وبدأت أعرّيها وأدعك جسمها بلبخة القصب المحروق والسذاب. زفرت بشدّة، فكأن غصّة مستحكمة في حنجرتها خرجت. ثمّ هدأت. كانت عيناها مغمضتين، وكانت تتنفّس بعمق، بينما رحت أكلّم نفسي بصوت مسموع، وأنا أتلو الصلوات. كنتُ أفكّر في المصيبة الكبرى التي ستضاف إلى المصائب الأخرى إذا ما انتهت الحرب وعاد التوءمان غويبورو، شقيقا فليثيتاس. أردتُ أن أروّح عن نيا بريخيدا، وأن أخفّف، ولو مقدار قطرة، من حزنها. «فليثيتاس دخلَتْ بإرادتها، نيا بريخيدا! هي التي سعت وراء دون ميليتون، وطلبته!». لكنّ كلامي لم يكن أكثر من

صرخة في وادٍ. لم تكن تستمع إليّ، لأنّها غائبة. شاردة، تملأ الدموع عينيها، وإن ارتسمت على شفتيها ابتسامة كالتي ترتسم على شفتي سانتا ليبرادا في الصورة. في تلك اللحظة، أحسستُ، لا أعرف كيف ولا لماذا، بحبّ جارفٍ نحو تلك المرأة. ربّما لأنّني الحمل الذي قدّم للربّ قرباناً عنّا جميعاً. طبعتُ على شفتيها قبلة مقدّسة وغطّيتها بالشال.

.6

أتمّت الحربُ عامها الثالث. وبدأ الحديث عن سلام وشيك بين باراغواي وبوليفيا. أمّا نحن، في إيتابيه، ففي رأينا أن بعد السيّئ يأتي ما هو أسوأ. وأنّ بعد الأسوأ، يأتي الموتُ وعذابُ السعير.

استدعاني دون ميليتون. بدا مكسوراً ومتألماً. طلب منّي أن أساعد فليثيتاس في التخلّص من حملها، الذي مرَّ عليه أربعة أشهر. حضرتكِ أعلم بما عليكِ فعله، قال لي مكسوراً. بدا صوته وكأنّه يخرج من تحت الأرض. طلب منّي أيضاً أن أبات مع فليثيتاس، لأعتني بشؤونها، ولأقطعَ دابر كلام الناس. لا عليكَ، دون ميليتون، قلتُ له. فكلّما شاع السرّ، ازداد غموضاً، كما يقول المثل. نظر إليّ بتلكما العينين الشبيهتين بعيون سمك البيرانا الضارية أو عيون الصقر. لم يقل شيئاً، ولم يفهم شيئاً. أدار لي ظهره، ورسمتُ أنا علامة الصليب، لأنّي تصوّرتُ الرصاصَ الذي سيطلقه عليه التوءمان.

دخلتُ لأخفّف عن فليثيتاس. لم أجدها في البداية. كانت تجثو في الظلام. أخذتُ يدها. أجهشَتْ بالبكاء، وقالت، وهي تغالب دمعها: «لا أريد التخلّص من طفلي! هو أغلى شيء عندي! أرجوكِ، أختي ميكائيلا،

ساعديني!». حاولتُ أن أشرح لها أنّ ذلك غير ممكن. السيّد ميليتون متزوّج، ولا يمكنه الزواج منكِ، فليثيتاس! قلتُ لها. لا يمكنكما الزواج، فذلك يخالف شريعة الربّ وشريعة الإنسان. فلن يلبث أخوالك أن يأتيا، وسيطالبان بالثأر لشرفهما المهان وسيقتلان دون ميليتون.

بكَتْ فليثيتاس بكاءً مرّاً. ثمّ هدأت وقالت: «حسناً.. ليفعل الربّ ما يشاء.. فلن أرغب في ولد يكلّف أباه أو أخواله حياتهم...».

أعطيتها، على مدى أكثر من أسبوعين، كلّ ما أعرفه من علاجات: مغليّات ومسهّلات ومطهّرات ومجهضات مخالب القط. غسول زهرة الآلام، تاپيكوي، وفحل الغار. كانت نيا بريخيدا تسمع، من مكانها، تهوّع الفتاة وأنّاتها. ما كان أشدّ ما تقاوم أحشاؤها تلك الهجمات! مرَّ شهر، أصبحت فليثيتاس، بعده، جلداً على عظم. عجوزاً في الخامسة عشرة!

دخل دون ميليتون، ذات ليلة، ثملاً وباكياً. سلّم فليثيتاس رسالة من التوءمين، كان قد فتحها وقرأها. «أخوالك» -قال لها- «وصلا إلى أسونثيون.. إنّهما ينتظران استعراض النصر وأوراق تسريحهما ليستطيعا العودة إلى إيتاپيه!».

نصحتُهما بأن يعجّلا في البحث عن قابلة في بورخا. أعطيتهما اسم أمريثيانا بنيتيث وعنوانها. يمكن لفليثيتاس أن تضع ابنها في بيتها وتنتظر مرور الأزمة. تعانقنا ثلاثتنا وبكينا حتى امتزجت دموعنا. كان ميليتون يضعف حين الشدّة. تناولتُ متّة قوية حتّى منتصف الليل. ثمّ بدأتُ صلاة الأسرار الخمسة عشر بالمسبحة الورديّة، لأطيل وقوفي عند قدمَي الربّ وأطلب منه العون والرحمة. ما كانت تنقصنا هناك غير نيا بريخيدا. أنا ذاهبة لأراها، قلتُ، وخرجت.

رأينا، من ثقب الباب، ميليتون وفليثيتاس يبتعدان، على ظهر الحصان،

في ليلة بلا قمر. التفّا من وراء البلدة ليسلكا الطريق القديم. بدأتْ نيا بريخيدا تئنّ وتصكّ على أسنانها. حضنتُها وضممتها. هزّت الرعشاتُ بدنها. حملتُها إلى السرير وبدأتُ أعرّيها، وأنا أشعر في فمي بطعم عَرَقها المرّ.

.7

مرّت الأيام، تجرّ خطواتها ثقيلة، وعلى ظهر كلّ واحد منها حملُ عالم. مراقبة وانتظار ما لا علاج له. ظنّ أهل البلدة، أوّلاً، أنّ ما حدث اختطاف، أو هروب. ثم جاهروا بالقيل والقال، بعد همسات الخوف، فقد زادت جرأتهم مع انتهاء الحرب وغياب السلطة.

غطّى خبرُ عودة المحاربين على اختفاء ميليتون وفليثيتاس، اللذين لم يعرف مصيرهما غيري، حتّى يأذن لي الربّ بالكشف عنه.

على طول خط السكّة، كان عمّال التلغراف يتناقلون ساعات وصول القطار إلى كلّ بلدة. في محطة إيتابيه، كانت التحضيرات للاستقبال الكبير تجري على قدم وساق. وخرج الناس كلّهم في موكب كبير للترحيب بأبناء البلدة القليلين العائدين.

اندسستُ بلباس الإخوانيّة، بين هتاف الناس وفرقعة الألعاب الناريّة. رأيت الرجال ينزلون من القطار، عائدين من آخر الدنيا، وقد قُطعت ذراعُ هذا، وبُترت ساقُ ذاك. وجوه محترقة، عبثت بها الندوب والجروح. عيونٌ وأصابعُ وأيدٍ ناقصة. بقايا رجال، فضلات بشر، في أوضح صورة! كان صعباً التعرّفُ عليهم بالشكل الذي جاؤوا به. لقد تغيّروا. باتوا غريبين. غرباء في كلّ شيء، وبسبب كلّ شيء، فقد كانوا، في ما مضى، رجالاً

أشدّاء وشبّاناً أقوياء. فلا هم استطاعوا الموت في سبيل رفعة الوطن، ولا عادوا قادرين على الموت من أجل مجد الربّ.. رحماك سيّدي، ربّ الجيوش، الربّ القويّ الفاني!

نزل الجميعُ، لكنّ الشقيقين غويبورو لم يصلا. بدأ الناس يتساءلون ويسألون. قال الواصلون، بين ضحك وتندّر، إنّهما سيصلان بالتأكيد سيراً على الأقدام، فطالما رغبا في معارضة الجمهور. وراح البعض يروي مازحاً مآثر التوءمين في جبهة القتال، ويتندّر على ما عانى منه الجميع طوال ثلاث سنين طويلة من المعارك في الأراضي القاحلة. حزنٌ في غمرة الضحك والضجيج.

وحين كان الواصلون يرفعون وجوههم ويصبّون عليها ماء زمزمياتهم، أخرجتُ كوراثون كورّال من الحلقة جرّاً، من شريط الرقيب الذي يحمله. عرفني وعانقني ونحن وسط الجمهور. «كيف حالك، أيّتها الأخت ميكائيلا، رقيبة إخوانيّة العالم الثالث؟!» - قال، وهو ينفجر ضاحكاً. انتهزتُ الفرصة وسألته ما إن كان يعرف شيئاً عن الشقيقين غويبورو: «اسمعوا!» -قال والتفت نحو الآخرين- «الأخت ميكائيلا تريد أن تعرف متى يصل التوءمان إلى إيتابيه، بلدتكم العزيزة الشهيرة!».

ردّ آخر جاداً: «بقيا في أسونثيون ليقدّما ترشيحهما لمنصب رئيس الجمهورية ونائب الرئيس!».

.8

عدتُ لأهيّئ المذبح، فقد يأتي الأب پدروثا ليلقي عظة المباركة مع القربان المقدّس. ومن هناك تسلّلتُ خفيةً لأزور نيا بريخيدا. لم أجدها.

أبلغني أحدُ الحرّاس بأنّ زوجة الحاكم السياسي خرجت وحدها صوب الرابية ولم تشأ أن يرافقها أحد.

ذهبتُ للبحث عنها، بما تبقّى لي من قوة. لم أصادف أحداً في الطريق. كنتُ أركض تقريباً، وفي داخلي خوفٌ وضيقٌ يقطعان نَفَسي. يا للمسكينة نيا بريخيدا! أقول لنفسي، فتردّد الريحُ ما أقول. وتصرّ تلك الريح على أن تغلق عليّ الطريق، فأنازعها، لكيلا تكشف عنّي أربطة قفطاني.

صعدت حتى قبر المسيح المجذوم. كانت قمّة الرابية جرداء موحشة، خالية إلا من الفراشات البيض الصغيرة التي تصعد من نبع الماء. بحثتُ عن آثار أقدامٍ جديدة فرأيتُ شيئاً يلمع بين الحجر. انحنيتُ لألتقطه، فإذا هي مسبحة نيا بريخيدا الفضيّة. كان صليبها ملطّخاً بالدماء. جثوت أمام المسيح، لأنّي لا أجرؤ على رفع بصري نحوه. كانت المرّة الأولى التي أصعد فيها إلى هناك. شعرتُ بأنّ الرابية كلّها تدور بطيئة، في ضوء المساء الأحمر.

بدأتُ أصلّي، وأنا لا أعي ما أفعل، أكرّ حبّات مسبحة نيا بريخيدا. يبرق الصليب الصغير بين يديّ. حين انتهيتُ من المسبحة، قبّلتُ الصليب، فشعرتُ بطعم الدم في فمي. بصقته ورفعت رأسي أبحث، من حولي، عن شخص قربي. وفجأة تحوّل جسمي كلّه إلى ثقب أسود، وانفجرت روحي في صرخة. لم أشأ، لم أستطع، أن أؤمن في ذلك الذي كان ينظر إليّ طوالَ الوقت، والذي كنت قد بدأتُ أراه. كان المسيح يرتدي جزمة. رفعتُ عينيّ قليلاً، فرأيتُ المسيح يرتدي ثياباً عسكريّة ملطّخة بالدم. تمكّنتُ، وأنا بعدُ جاثية، أن أتعرّف، في ما يشبه كابوساً، على ميليتون إيساسي. كان مربوطاً على الصليب الأسود الكبير، ومذبوحاً على النصف.

نهضتُ لأهرب، لكنّي تعثّرتُ بالمسيح الخشبي الملقى بين الحشائش. كان يحترق وخيوط الدخان ترتفع منه. حين نهضتُ لأواصل الجري، رأيتُ، في نهاية الجدول، نيا بريخيدا، وهي جثّة هامدة. لا أدري ما الذي حدث، فقد أُغمي عليّ، في تلك اللحظة، وسقطتُ، فارتطم وجهي بالجمر.

انظرْ، تطلّعْ، ها هي ذي آثار الحروق!

الفصل العاشر

محاربون قدماء

.1

نزل من القطار، متردّداً. بدا وكأنّه يجد صعوبة في التعرّف على المكان، أو كأنّه غير مهتم بالبقاء هناك. انكمشت عيناه تحت شعاع الظهيرة الثقيل. ضغط على جبهته بطرف قبّعته التي كانت تحمل وشاحاً ملصقاً على شريطها، نزل من إحدى عربات الدرجة الثانية ووضع، متلمّساً متحسّساً، قدميه الحافيتين على الرصيف. في البداية، لم يتنبه إليه أحد، وسط الزحمة والتدافع. أمّا أنا فقد انتبهتُ. رأيته في الحال، لكنّي بقيتُ أراقبه من بعيد، لأنّي تصوّرتُ ما سيحدث، ولم أرد أن أكون أوّل من يلاحظ وصوله. كنتُ جديداً في منصبي؛ وعليّ أن أراعي المظاهر وروح السلطة. كان ذلك الرجل يضعنا، من جديد، أمام وقائع مستعصية على الحل، على الأقلّ بالنسبة إلينا. بل يصعب، حتّى عليه، التصدي لها وتحمّل مسؤوليتها. وفي هذا، ربّما، تفسير لموقفه الفاتر والرافض.

رأى القطار يبتعد. فخالط تردّدَه فتورٌ، فكأنّه أحسّ بأنّهم تركوه في

صحراء. أدار رأسه نحو البيوت والأكواخ العائمة على الغبار، على ظلال أشجار «الهوڤينيه» والحدائق التي أحرقتها الشمس. صعُب عليه التعرّف على بلدته، عقب سنوات الحرب، ليس لأنّ البلدة تغيّرت خلال تلك السنوات، بل لأنّه تغيّر، تغيّر في داخله، في داخل عينيه، اللتين ما عاد يقدر على وضعهما في الخارج.

نظر إلى الطريق العام، الذي كان يشطر مجموعة البيوت إلى نصفين. من بعيد، كان جبل «توپا-راپيه» المسودّ المخضرّ يعجّ بانكسارات الضوء. يبدو أنّ رؤية التلّ هي ما وجّهه ووضعه في مكانه.

سار ببطء. لفَّ الغبار جسمه الضامر، وصعد حتّى وجه العصفور المنقاري، حيث يلتصق الجلد اليابس بالعظم الناتئ، مدبوغاً، موسوماً بالنار، بأشواك چاكو، بغبار البارود البنفسجي الذي يلطّخ وجنتيه المتربتين، التي مزّقت شظيّةٌ واحدةً منهما. بدا مختلفاً.

إنّه غير الذي يعرفون. مع ذلك فقد تعرّفوا عليه في الحال.



.2

«انظروا من جاء!» -صاح أحدهم- «الرقيب كريسانتو بيّالبا!».

لكنّ الاسم ما زال غريباً على مسامعه. لم تصدر منه إيماءة. لم يحفل بشيء. واصل مسيره الوئيد، وكأنّه لم يعد قصير النظر وحسب، بل أطرش أصمّ.

أثار الخبرُ موجةً من الهمهمات والتعليقات بين الناس الذين تجمهروا في المحطة. اقترب منه عددٌ من الرجال، وكانوا أيضاً بملابس القتال

المهلهلة؛ يتوكأ أحدهم على عكاز، وبُترت ذراع آخر، فطوى ردن قميصه وعلّقها بدبّوس. توقّف الواصل حديثاً وتطلّع إليهم بوجهه البارد، الأكثر عتمة في الجانب الجريح، بسبب الظلّ الذي يُسقطه عليه طرفُ القبّعة.

«وأخيراً وصلتَ، خو...!» - خاطبه أليخيو بريسوينيا، وهو يهزّ نحوه ردنه الفارغ، دون أن يكمل لفظ البقيّة الباقية من لقبه.

«عاد خوكو!» - صرخ أحدهم.

واندفع الآخرون يردّدون:

- خوكو!

- خوكو!

- خوكو!

فما زال ذلك هو اسمه الحقيقي. اسم طائر. تجمهر الناس من حوله. إنّه يقف في الغبار، بين أناسٍ غرباء، لا يتعرّف على وجوههم، أو لا يتذكّرها. نظر إليهم بوجه طائر البلشون، وقد انحنى ظهره من ثقل الجراب الذي كان يحمله تحت ذراعه بشيء من الارتياب والحرص. عادت عيناه تومضان في حجريهما الغائرين. لم يكن يعاني، بالتأكيد، من سوء في النظر. إنّما هي العتمة التي في داخله، هذه العتمة هي ما يمنعه من الرؤية في وضح النهار. ربّما هو ضعف الذاكرة. كانت البدلة الزيتونيّة الشهيرة، بدلة حرب چاكو، مليئة بالرقع والرفو. رقعٍ ورفو صبورين مصابرين. ثلاث قطع من شريط ملوّن، بهت لونها كما بهت لونُ وشاح القبّعة، خيطت على جيب المعطف الأيسر، لتكون شاهداً على الصلبان الثلاثة التي في جراب المؤونة. كان يحمل البطانية مطويّة مواربة على صدره. من أحد الجيوب، تطلّ ملعقة الصفيح المعوجّة. أوردة غليظة وأعصاب كالحبال تعلو عنقه.

نادوا عليّ، فلم أجذ بدّاً من الذهاب. كانوا يحيطون به على نحوٍ خاصّ. يغمرونه بالاحترام ويجاملونه، وإن كانوا ضاجّين فرحين بابن بلدتهم ورفيقهم الذي عاد متأخراً من بعيد.

دخلتُ بينهم. ربّتُّ على كتفه بودّ: «كيف حالك، كريسانتو؟».

من جراب المؤونة يصدر صوت قطعٍ من الحديد تتصادم. فكّرت في صحنٍ وفي جرّةٍ. لقد جاء بكلّ شيء معه.

«ألا تذكر الملازم بيرا؟» – قال له پيدرو مارتير، وهو يشير إليّ.

– لا.

في الواقع، كان كريسانتو يعرفني قليلاً. فقد خرجتُ من إيتاپيه وأنا صبي.

– هو الآن عمدتنا.

– ها...

«انتهى عصر الحكّام!» –قال هيلاريون بنيتيث، وهو يتوكّأ على عصاه– «لدينا الآن عمدة».

– ها...

«عجباً.. كريسانتو!» –قال كوراثون كابرال، وهو يشير إلى قطع الشريط الملصقة على جيب المعطف– «المقاتل الوحيد الذي يحمل النياشين والأوسمة في بلدة إيتاپيه!».

ارتسمت ابتسامة خفيفة على وجه المقاتل العائد.

اندسّ صبيّ ممزّق الهندام بين الجمع وراح ينظر إليه كالحالم. كان فمه ملطّخاً بعصير البرتقال الذي خالطه الغبار. القشر اليابس كان يتدفّق على صدره الذي لطّخته بقع الجذام.

«وكيف حالك، صديقي خوكو؟» -سأله تاني لوپيث- «ماذا يقول الرجل!».

«لا شيء. صمتٌ» - قال أخيراً بصوته الوادع الجاف، الذي ما كان يخرج برغبته.

«لقد تأخّرتَ!» - قال هيلاريون، وكأنّه يعاتبه.

«مرَّ عامٌ على استعراض النصر» - قال كوراثون كابرال، وهو ينظر إليه بعينين ساخرتين.

تأخر قليلاً في الردّ. كان يصعب عليه العثور على صوته أو على الآليّة التي تحرّكه. ثم قال: «بقيتُ هناك».

«في چاكو؟» - سأله پيدرو مارتير.

- لا، في أسونثيون.

«وماذا كنتَ تفعل؟» - قال أليخيو بريسوينا.

- في المعسكر. بانتظار التسريح.

«ولمَ العجلة!» -تمتم هيلاريون بنيتث- «المهم، لا بدّ أنّهم عصروك عصراً!».

«ولكن جاء بك الحنين» - قال تاني لوپيث.

- جئتُ...

«وصلتُ أنا أولاً» -قال هيلاريون- «حين سلّموني، في المستشفى العسكري، ساقي الخشبيّة الجديدة.. ثمّ، وصل العريف بريسوينيا».

«لم يجدوا لي ذراعاً خشبيّة» - قال هذا.

«قرّرنا الانسحاب إلى هنا» -واصل هيلاريون- «لقد صرنا عبثاً! ثم جاء الآخرون.. تاني لوپيث و پيدرو مارتير وخوسيه دل كارمن...».

«وأنا!» - قال كوراثون كابرال، مقاطعاً.

«ثم وصل الشقيقان غويبورو» -استمر هيلاريون- «وكالعادة، الواحد بعد الآخر، كالسجق، لكي يعودا إلى السجن مباشرة، بعد أن قتلا ميليتون إيساسي».

سكتَ. نظرنا إليه جميعاً لائمين مؤنّبين. شحذ تاني لوپيث بقميصه ظفر خنصره، الطويل كمخلب الجغوار.

«وصلوا جميعاً!» -قال هيلاريون مستاءً، كاسراً الصمت. ظنّ أنّ من الضروري إشاعة جوّ من الظرف للتخفيف من التوتّر الذي سبّبه. أشار إلى تاني لوپيث-: «لم يستطيعوا تقليم أظافر هذا ولا بالمدافع».

لم يضحكْ أحد.

«ظننّا أنّك لن تعود، كريسانتو» -قال له العجوز أپلوناريو روداس، الذي ما كان يرى وجهه من تحت القبّعة الكبيرة- «هل ستبقى في بلدتك؟».

- لا أدري. حسب...

راح الصبيّ، وقد أحسّ بالملل في غمرة الهمهمات، يحشر أصابعه في عكاز هيلاريون بنيتيث.

«جرابك عامرٌ» -قال كوراثون كابرال، وهو يضرب عليه برفق.

تكرّر الصوت الناعم: «ربما بالجنيهات الإسترلينيّة!» - قال مازحاً.

- أبداً. فتاتٌ وبقايا، لا غير.

قهقه الجميع تخفيفاً وتنفيساً. لم أضحك. ففي ضحكاتهم تكلّفٌ وتصنّع، لأنّها ليست صادرة عن ظُرف، بل عن تلك الأجواء الثقيلة التي تلفّنا. جرّتْ عجوز تلبس رداء الرهبانية الثلاثيّة كوراثون كابرال من كمّ قميصه وأخرجته من الحلقة. وشوشت في أذنه. هزّ رأسه مستاءً، ومغتاظاً

منها، فقد كانت تكلّمه بالتأكيد عن شيء بالغ الوضوح. تملّص منها وعاد إلينا.

في تلك اللحظة عاد هيلاريون بنيتيث ليتفوّه بحماقة أخرى.

«هذا ابنك، كريسانتو» - ووضع يده على الفتى الأشعث رثّ الهيئة الذي كان يدعك عكازه.

خيّم الصمتُ ثانية على الحلقة. بصق هيلاريون بقوّة، ناقماً على نفسه. كان الصبيّ يخطّ الغبار بإبهام قدمه. رأينا العينين الصلبتين والسوداوين ترقصان بين خصلات الشعر. عينان تشبهان عيني الأب. عندئذٍ، حدّق هذا في الصبيّ للمرة الأولى.

«إيه، كوچوي!» - همهم شارداً؛ بلا فرح ولا دهشة ولا حنان. لا أكثر من تحية عصفور على عصفور آخر.

دفع هيلاريون الصبيّ فاقترب من كريسانتو، لا أحد يعرف ما إن كان به خوف منه أم خجل. ولكي يتشجّع، فقد راح يحكّ قماش الجراب الخشن. أبعد كريسانتو بيده الظفر المحشو بالتراب، فكأنّه يطرد ذبابة.

«عاش الرقيب كريسانتو بيّالبا!» - صاح كوراثون كابرال، للخروج بطريقة ما من الموقف.

«عاااش!» - هتفنا جميعاً.

«ومرحى لابن البلدة الشجاع، الرقيب الذي لا يقهر!» -عاد كوراثون، الذي أثار النجاح فيه الحماس- «مرحى.. مرحى.. مرحى!».

انضمّ إلى الحلقة ناسٌ كثيرون. وهتف الجمع الصغير بحماس لا يخلو من التصنّع. شعرت بأنّ صرخاتي ما كانت تسعى إلى الإعلاء من شأن محارب چاكو العائد، قدر ما كانت تواسي ذلك الشخص المسكين

الواقف تحت الضياء المتعامد المتسرّب من السقف، ذلك الظلّ المتوحّش الخالي من كلّ زينة وزخرفة.

«وماذا يبقينا هنا تحت ضوء القمر؟!» -قال كوراثون كابرال- «هيّا بنا إلى حانوت كانتاليثيو لنحتفل بعودتك!» -دعاهم. رقصت العينان الداكنتان على الوجه الدامي المبلول بالعرق- «هيّا بنا!».

«هيّا، أنا أدفع، أيّها السادة!» - قلتُ.

«لا...» -اعترضَ- «عليّ أن أذهب إلى كابيثا دي أغوا».

«كلّا، خوكو» -ألحّ كوراثون- «لن نتركك. لقد وقعت أسيراً في أيدينا. بعد كلّ هذا الوقت، لن نعتقك. فحربٌ كالتي انتهت لن تقع كلّ سنة».

هبّت عاصفة من الحماس.

«مرحى.. أيّها الرقيب بيّالبا، بطل حصن بوكيرون المجيد!» -امتدحه إيليخيو بريسوينيا- «هل تتذكّر لا پونتا برافا، حيث فقدتُ أنا ذراعي، وحيث نلتَ أنتَ أوّل ترقية لكَ، بعد أن أبليت بلاء حسناً وسيطرتَ على الموقع البوليفي؟!».

«إلى الأمام، فصيل بيّالبا!إلى الأماااااااااااام!» - حاول كوراثون، مستغلاً المناسبة ومقلّداً ميليشيا تخوض الغمار.

حرّك كريسانتو جفنيه بسرعة. تراخى فكّه، لكنّه لم يقل شيئاً. كتم صوتاً غريباً. لأوّل مرّة، شيء شبيه بالعاطفة يشعّ في حدقتيه، تضرب صيحة الحرب على عصبٍ ما عميق وحسّاس، ينتقل فجأة إلى وادٍ ملتهب، وسط الدخان والبارود ودويّ المدافع الرشّاشة وانفجارات الرمانات اليدويّة. استطاع أن يلوّح بحركة هجوم مبهمة. ربّما هي ردّة فعل متشنّجة من عضلات، من ذكريات. ثمّ هدأ، تحجّر، أنفه المدبّب ينبض، عروق

رقبته تنتفخ، عيناه تنحرفان وتتأجّجان. ظلَّ هكذا لحظة. وفجأة عاد يسمع الأصوات والضحكات، يرى الوجوه الملتوية، والإيماءات، والغمزات.

عادت عيناه إلى الانطفاء، فرك جفنيه. انساق مثل ثور وديع. وراح كوچوي يخبّ إلى جانبه.

كان موكباً حزيناً وصامتاً،على الرغم من الصراخ والضحك. فالصمت هو ما كان يملأ داخلنا. كنّا، في الواقع، نسير مع رجل على صدره ثلاثة صلبان، صليبٌ عن كلّ سنة قتالٍ وتضحيةٍ وشموسٍ غاضبة وفقرٍ عقيم، في صحراء الشمال الفسيحة الغاضبة، التي يغلي في أحشائها النفط الأسود الغاضب.

لذلك نصخب ونعربد، كما كنّا نفعل، قبل سنوات، حين يأتي الجراد، نضطر إلى إخافته بالطرق على علب الصفيح وطرده بدخان الحرائق. أثرنا ذلك الصخب لكي نشوّش على كريسانتو، ونخفي عليه أثرَ الوباء وخرابَ البلوى. أخذناه إلى الدكّان لنساعده على أن ينسى، مقدّماً، كلّ الذي ما زال يجهله.

.3

بدأت النسوةُ جميعهنّ يثرثرن في الحلقة التي تشكّلت حول عجوز الإخوانيّة الثلاثيّة، التي أفلحت في فرض مهارتها الكلامية، حتّى ما عاد من صوتٍ يعلوعلى صوتها.

- يبدو أنّه لا يعرف شيئاً! حتى وجهه لم يتغيّر حين رأى كوچوي! وهو ابنه!

«وهو بالفعل ابنه، أختي ميكائيلا» -ساندتها أخرى- «لم يسأل عن خوانا روسا. لا بدّ أنّه ما زال لا يعرف شيئاً».

«إن لم يسأل عن خوانا روسا» -قاطعتها أخرى- «فلأنّه يعلم: فمن يعلم لا يسأل».

«ما تقولين صحيح أيضاً» - قالت التي ساندت عجوز الإخوانيّة.

«قد يعلم وقد لا يعلم» -عادت تلك إلى القول، وهو تومئ، بحركة من وجنتها- «إن كان يعلم، فإنّه يتصنّع الجهل. من خجله.. ولكن لا. أرى أنّه لا يعلم شيئاً. هل رأيتم وجهه؟ وجه ميّت! الآدمي لا يستطيع أن يخفي المصيبة حين تأكله من الداخل».

- ربّما تعود خوانا روسا.

«تعود من أجل ماذا؟» -قاطعت العجوز- «لا بدّ أنّ الشيطان أخذها! كانت حادة الطبع، وطبيعيّ أن تلقى تلك النهاية».

- وماذا عن كوخه المهجور، ومزرعته الخربة؟

«يمكن ترميمه» -تدخّلت أخرى- «خوكو قادر وعامل».

- وماذا عن كوچوي؟

- لقد عاش وحده طوال الوقت. أمّا الآن فالأب موجود، على الأقل. ربّما سيذهبان كلاهما إلى المزرعة. سيعيش مع أخرى.

«ولكن، ألا ترين كيف هو؟» -سألت العجوز- «فكيف سيقدر على فعل أيّ شيء؟».

- هكذا يعود الجميع من هناك. هذا في البداية. لكنّهم سرعان ما يتجاوزون الحالة ويعودون إلى سابق عهدهم.

– أو يموتون، كما مات لورينثو أوبيلار، الذي عاد ليعيد عظامه المسلولة إلى البلدة وحسب. لم أرد أن أظلّ هناك، يذكرن أنّه قال.

– يا لكريسانتو بيّالبا المسكين! وضعه أسوأ!

«من حسن حظه أنّ الأخوين غويبورو صفّيا حسابهما مع ميليتون إيساسي! وإلّا...» -قالت إحداهنّ وهي تنظر إلى العجوز- «لصفّى كريسانتو حسابه معه».

تفوح أنفاسُ البخار المعتم من جديد في تهامس النسوة. مهذاراتٌ يُزايدن على ثرثارات. وها هو ذا الخوف، نذير الشؤم، يظهر في كلماتهنّ. فعودة كريسانتو بيّالبا تحرّك المياه الراكدة. ينظرن إليه، وهو يتقدّم نحو الحانوت، بين الآخرين، ويتأخّر. يبتدئن به ليسترجعن الأحداث منذ البداية، ولكن بطريقة مختلفة، فيها ترقّب أكثر، هدوء أكثر، لأنّ الفراغ الذي يعنيه غيابُ الزوج في القصّة بات مملوءاً، ليس بظهور الرجل الذي يريد الانتقام، بل بمظهر الرجل، البارد، البعيد.

لم يكنّ، مع ذلك، متفقات على التفاصيل. فصورة خوانا روسا ما زالت تتحلّل في ذكرياتهنّ. حتى لقد انطمست مادياً ومعنوياً. حلّتْ محلّها خوانا روسا أخرى، مختلفة، خوانا روسا بعدد كلّ واحد من سكّان إيتابيه. بل إنّ تلك الصور كانت تتغيّر ربّما في ذاكرة كلّ واحدٍ منهم.

كان ذلك أكثر ما استرعى انتباهي حين بدأتُ، لدى عودتي إلى إيتابيه، بحثي المتأخّر عن الوقائع. وأقول «متأخّر» لأنّي كنتُ غريباً تقريباً. بدأتُ بحثي لا لمساعدة العدالة -التي تحققت خارج القانون-، بل لسبر أعماق ظلمٍ كان يوجّه إصبع الاتهام إلينا جميعاً.

.4

حين عاد الشقيقان التوءمان من چاكو، قتلا ميليتون إيساسي شرّ قتلة. علمت البلدة بالجريمة في اليوم التالي، فأصابها الذهول؛ كان قصاصاً لا مثيل له، وفي محلّه، لكنّ دلالته كانت تتجاوز الألم والكراهية. لقد قتلا الحاكم السياسي، وصفّيا، في وقت واحد، حساباً وديناً: حسابَهما معه إذ غرّر بشقيقتهما، ودينَهما القديم بخصوص هرطقتهما وكرههما للمسيح. لذلك تأخر أهل إيتاپيه في فهم دلالة فعل الشقيقين غويبورو. تأخروا في فهم دلالة أن يزيحا المسيحَ من الصليب ويربطا الحاكمَ السياسي مكانه، بحبل شدّوه عدة مرات، ويعلّقاه ميّتاً بعد أن قطعا عضوه، فكأنّ مسيح غاسپار مورا، بعد ربع قرن من تعليقه في الهواء الطلق، معرّضاً للريح والطير والشمس والمطر، لا في عتمة الكنيسة النتنة برائحة البخور، أصبح بملابس الحاكم السياسي، سترته وجزمته وقراب مسدّسه، وبوجهه المترهّل وعينيه الحمراوين المحتقنتين، التي بدأت ظلال العقبان تحوم حولها.

خفَّ الكاهن إلى المكان. وأمرَ بأن يُغسل لأيامٍ المكان الذي دنّسته الجريمة، ويُرقّى ويُعوّذ ويُرشّ بالماء المبارك. أعيدت منحوتة المسيح إلى مكانها على الصليب، في طقوس لرفع الفساد عنها، ساد أثناءها البكاء والعويل، في نسخة مشوّهة من الأسبوع المقدّس. أسبوع مقدّس في غير وقته. فقد أمر الأب پيدروثا بأن يؤتى بأكثر من مئة نائحة من بورخا، وما عاد يعرف ما إن كان الداعي إلى ذلك هو التدنيس الذي لحق بالمسيح المجذوم، أم السهرَ على جثمان الحاكم القتيل، الذي كان، حينئذٍ، يرقد تحت التراب في المقبرة.

طلب الراهبُ متطوّعات لإقامة حراسة دائمة في القبر. وكانت ماريّا

روسا الوحيدة التي تطوّعت للبقاء هناك، في الأعلى، ليل نهار، للعناية بالمسيح. تطوّعت وفي عينيها الشاردتين بريقُ تأثّر، فكأنّها كانت تنتظر تلك اللحظة منذ ربع قرن.

.5

مات ميليتون إيساسي. وماتت فيليثيتاس غويبورو المسكينة، ولكن لا أحد يعلم بمكان قبرها. ماتت وثأر لها أخواها، اللذان يقبعان في سجن أسونثيون، بعد أن حاربا ثلاث سنين في الصحراء القاصية، فأصبحا قاتلين، بعد أن كانا بطلين.

وثأرا لخوانا روسا بيّالبا. وأخذا بنصف الثأر لضحايا أخريات، حتّى اللواتي لم يكنّ ضحايا ميليتون إيساسي، على الرغم من أنّ الثأر لم يُزل، في يوم من الأيام، ضرراً، ولم يُزِح ظلماً.

بقي كوچوي مع جدته الخرفة، في تلّة كاوربيني، إلى أن أصبحت حارسة على تمثال المسيح. وعندئذٍ صارت جميع بيوت البلدة بيته. صار يتنقّل من بيتٍ إلى بيت، يتحرّك غارقاً، كالطائر الذي يحمل اسمه، في تلك الحريّة التي تتوفّر له كما الضياء والهواء. بدأت تظهر عليه، في تلك الأوقات، بقعُ الجذام. ربّما هي الجمرة البيضاء للمرض الذي أصاب غاسپار مورا، أو كتلُ الرماد التي كان يحبو عليها، بين الركلة والركلة، في مقر الحاكم، نصفَ يتيم، في تجسيد لبقيّة المشرّدين، وإن لم يكن هو نفسه ابن سفاحٍ، ولدته واحدة ممّن روين ظمأ فجور الحاكم وغليل عربدته.

حتّى يوم عودة أبيه، كان كوچوي يسير هائماً في شوارع البلدة، في

ذلك الوقت الذي تلقّى فيه، دونما إرادة منه، بذرة رجلٍ زُرعت في مخلوقٍ غافٍ، لا يريد أن يستيقظ من نومه، ربّما لكي لا يرى الكابوس، كابوس الحياة. هذا هو ما كانت بائعات الچيپا والألوخا في المحطة يفهمنه فهماً غامضاً، إذ لم ينقص كوچوي يوماً كسرة خبز أو قطعة نقانق متعفّنة أو قدح من شراب مرطّب. لا شكّ أنهن يشعرن بشيء من الشفقة، لكنّي، حين رأيتُه، شعرتُ أيضاً بشيء من الخوف، من الذنب، من الخجل. كنتُ أستدعيه إلى مقر الحاكم وآمره بالجلوس على كرسي المكتب. كان الصبيّ يرفض مفزوعاً، فهو لا يفهم معنى لفتتي. أطلب أن يأتوا له بالحليب والبسكوت والموز، ثمّ أبدأ أنظر إليه وهو يلتهم ذلك كلّه. أمّا أشدّ ما كان يعجبه فهو مسدّسي. كنتُ أسمح له بأن يلعب به، برهة، على المنضدة. بل لقد علّمته استعماله. وتعلّم، بمخزن فارغ، أن يضغط على الزناد، بعد أن يصوّب نحوي، وظهري إلى الجدار.

أراه الآن يسير نحو الحانوت مع أبيه، بين سيقان الرجال وضجيجهم.

.6

وُضِعت الصلبانُ الثلاثة على الطاولة القذرة المقلقلة، التي جلسنا بالقرب منها نحيط بكريسانتو. صلبان صغيرة، بدائية الصنع، لا يُرى عليها نقش ولا كتابة ممّا غطّاها من الصدأ.

«... صليب بوكيرون.. صليب چاكو.. صليب الدفاع...» -عدّدها تاني لوپيث، وهو يتلمّسها بإصبعه، واحداً واحداً- «ما أجملها من ذكرى، خوكو!».

«نعم...» – تمتم، من جديد، كالصدى، وهو يُبعد يد تاني.

«شيء خيرٌ من لا شيء.. قال الذي رضي بلطع الشحم الباقي في المقلاة...[60]» - قال كوراثون كابرال مقلّداً المثل الشعبي.

«وماذا فعلتَ لكي يمنحوك هذه النياشين؟!» -سأل هيلاريون بينيتث، بنبرة خبيثة- «ما كانوا يمنحون نواب الضبّاط أو الجنود صلباناً أو ميداليات. على الأقل، حتّى وقت عودتنا. لم يعطونا غير ورقة الخدمة» -التفت إليّ- «أليس كذلك، أيّها الملازم؟».

بقيتُ صامتاً. كنتُ أفكّر في موضوع آخر.

«منحوني الصلبان» -قال كريسانتو بهدوء، بعد توقّف، ودون أن يبدو عليه الاضطراب- «أؤكّد لك إنّها لي».

- ومتى حدث هذا؟

- قبل غلق معسكر المجنّدين بقليل. لم نكن حينذاك كثيرين. دعونا للاصطفاف. نادوا عليّ. تقدّمتُ ثلاث خطوات إلى الأمام، بينما علا صوت البوق والطبل. وزير الحرب بنفسه سلّمني الصلبان.

- يااااه! الوزير بنفسه؟ ما أرقّه!

- علّق النياشين على صدري وعانقني وقال لي: «الوطن ممتنّ لك!». وصحنا جميعاً: يحيا الوطن! ثم انصرف الوزير، محاطاً بمساعديه.

«عجباً! وزيرُ الحرب بنفسه!» -كرّر كوراثون القول مستغرباً- «ما رأيكم؟! هذا شيء كبير! بينما نحن هنا، يابسون أكثر من أقراص الذرة التي يبيعونها في الكالباريو!».

---

(60) لبعض الأمثال بناء مماثل: شيء خير من لا شيء، قال السلوقي حين رأى عظماً. شيء خير من لا شيء، قال الأقرع حين رأى الشعر نابتاً في ركبتيه. شيء خير من لا شيء، قال الأصلع حين وجد مشطاً بلا أسنان.

سُمعت ضحكات مكتومة. مطَّ هيلاريون شفتيه وحدّق في كريسانتو.

«ولكن ألم تفكّر...» - قال له، ثم سكت.

«لا تفكير في ما هو واجب الوقوع» -قاطعه آخر بثقة- «يحملها على صدره، وينتهي كلّ شيء».

«لقد عدلوا، هذه المرّة، على الأقل!» -قال كوراثون كابرال، موازناً بين كلامه- «حتى الرقيب كريسانتو بيّالبا لم يُستثنَ من قُرعة توزيع النياشين!».

«صحيح» -قال- «وها هي ذي».

رفع الجرّة، ببقيّة الجعة التي فيها. حسِبنا أنّه سيشربها، لكنّه أمال الجرّة وسكب، بيدٍ مرتعشة، قطرة واحدة فوق كلّ واحدٍ من الصلبان. ثمّ دعكها بعناية، مستعيناً بلعابه وزفيره. اهتزّت المنضدة المقلقلة مع تلك الحركة. من تحت كمّ قميصه المنسول ظهر رباط المعصم المعمول من ورق الزجاج، الذي كان يستعمله لرمي القنابل اليدويّة في القتال. كان أسودَ متجلّداً ممّا علق به من وسخ.

استردّت الصلبانُ شكلها، وصارت تسطع ببريق غامق. حينئذٍ، لفّها من جديد في ورقة الجريدة عدّة مرات، حتى لا يصطدم الواحد منها بالآخر. وضع الجراب على ركبتيه وحفظ الرزمة. سمعتُ الصوت الرقيق ثانية في العمق، ولمحتُ عدة أكداس غامقة كأنّها فلفل يابس. إنّها كلّ «غنائم» الرقيب. هممتُ أن أقول له شيئاً، لكنّي اكتفيت بقول ما خطر على بالي أن أقول: «هل أنتَ فرحان بالعودة، كريسانتو؟».

ظلّ مطرقاً، وكأنّه يحاول هضم السؤال. تحرّكت شفتاه مرّتين أو ثلاثاً قبل أن ينطق قائلاً: «أنا لم أرغب...».

- لم ترغب في ماذا؟ في أن تُسرّح من الجيش؟

- لا. لم أرد.

- لكنّ الحرب انتهت قبل أكثر من سنة، خوكو؟

«هذا ما أتأسّف له» -قال وعكس صوته حزناً حقيقياً- «انتهت حربنا الجميلة!».

نظرنا كلٌّ منّا إلى الآخر، لا نحيرُ كلاماً. ولم تنطلق منّا قهقهتنا الجاهزة. لم نكن نتوقّع أن يقول ما قال. لكنّه قال ذلك بنبرة من استسلم لأمر لا معدل عنه. كان جادّاً. لم يمزح. لم يروِ نكتة. لم يكذب.

«ما أجملَ ما تقول!» -قال كوراثون، وهو يترجم المفاجأة التي شعرنا بها- «حسبتُ أنّ ما قلته لا يقول به إلّا المخانيث من ضبّاط إدارة پويرتو كاسادو. فالحرب الجميلة، حربهم، انتهت حقّاً! هم والمختبئون في المعسكرات الخلفيّة. ضباط الإدارة وجنود المعسكرات الخلفيّة. ولكن، ماذا عن الجنود المقاتلين الذين شهدوا الموت وذاقوا المرّ في الجبهة طوال ثلاث سنين؟ لماذا تقول ذلك، خوكو؟! الجميل حقّاً هو أن تلك الحرب القذرة انتهت».

«المهمّ. هي جميلة بما أرادوه منها!» -دمدم هيلاريون- «لا شكّ أنّ الحكومة تفرّط الآن، على الورق، بما كسبناه نحن على الأرض» -ثارت ثائرته- «تركنا هناك سواعدَ وسيقاناً! سنزرع عظام القتلى الخمسين ألفاً! من أجل ماذا؟ فالرجال تحت التراب لا يمسكون بشيء!».

«طيّب، هيلاريون!» - حاولَ پيدرو مارتير أن يوقفه.

«لا، ما أجمل هذا!» -تمتم- «يقولون إنّنا كسبنا حرباً، ولكن، ماذا يعني كسب الحرب، ليتهم يخبرونني؟ على الأقل، بالنسبة إلينا» -مرّر يده بعصبيّة على جبهته المتعرّقة- «انظروا إلى إليخيو، لقد كسبَ الحرب! وما عاد قادراً حتى على مداعبة عضوه!» - بصق وبقي صامتاً.

هزّ إليخيو بريسوينيا فضلة ذراعه المبتورة، وضحك بعض الحاضرين. ظلَّ كريسانتو صامتاً، على هامش الصخب. بدا وكأنّه لم يسمع ما قاله هيلاريون. وحين حلَّ الصمت، قال وقد قوّس حاجبيه: «في البداية لم أشأ أن أصدّق.. كان يقال إنّ الحرب ستندلع من جديد في أيّ لحظة. انتظرت. كنتُ أريد العودة إلى هناك».

«إلى چاكو؟» - سأل تاني لوپيث.

- نعم. إلى الجبهة. كنتُ أريد أن أعود إلى الجبهة للقتال. وكان عليّ أن أظلّ هناك. فتلك هي حياتي: الخروج في دوريّة استطلاع، في حملة، الزحف عبر الوديان، الانقضاض على موقع معادٍ واحتلاله.

«مرحى، أيّها الرقيب بيّالبا، بطل الغودونال ومانديو-پيكوا!» - هتف له كوراثون.

«أوامر.. طاعة.. قتال! تلك هي الحياة!» -كرّر- «لم أشأ يوماً أن أترك الجبهة، ولا وحدتي، ولا فرقتي».

«صحيح، خوكو» -قال خوسيه دل كارمن، ولم يكن فتح فمه حتى تلك اللحظة- «أذكر تلك المرّة التي أسرتَ فيه جندياً بوليفياً في مستنقع القصب، بالقرب من غوندرا. استحقّ..» -توجّه بالكلام إلى الحاضرين- «على ذلك إجازة مدتها شهر. لكنّه رفضها».

- ولماذا أقبل بها؟ فقد كنتُ هناك مرتاحاً. ثمّ أُعلن وقفُ إطلاق النار. كنت أريد البقاء. لكنّهم خدعوني وسرّحوني. قالوا لي إنّهم سيعيدونني إلى چاكو بعد الاستعراض.

«ولم يفوا بوعدهم!» - قال كوراثون.

- بقيتُ أنتظر في المعسكر. لكنّهم سلّموني أمرَ التسريح. ثمّ أُغلقت المنطقة العسكرية لاحقاً. وصرفوني. همتُ على وجهي. ذهبتُ إلى

الوزارة. ذهبت إلى الميناء لأراقب حركة النقل.. صعدت ذات مرّة واختبأت في عنبر الپينغو، لكنّ بحّارة المحافظة أخرجوني.

أستطيع تخيّله وهو يجوب خلسة أرصفة الميناء الجديد، بعينين يابستين مهووستين مسمّرتين، عبر النهر، في أفق چاكو البعيد، وقد تمكّنتْ من رأسه تلك الفكرة النبيلة، مثل إبرة بوصلة مفكّكة. كان يستطيع أن يتابع لهفته، شعوره التدريجي الخفيّ بالإحباط، وهو يرى أن لا قوات جديدة تنزل، وما من جوقات موسيقيّة، ولا من أعلام، ولا من حشودٍ تتأجج حماساً ووطنيّة. بل هناك رافعات عادت إلى شحن أكداس القطن والتبغ والجلود والعفص، وإنزال صناديق وصناديق، حجمها بحجم أكواخ هؤلاء الرجال. تُنزع الألواح فتخرج سيارات فارهة كثيرة الألوان. تخيّل كريسانتو ينظر إليها، لا مبالياً، وهي تخرج من الصناديق، مختلفة تمام الاختلاف عن عربات چاكو القديمة، والمموّهة باللون الأخضر والترابي.

«أنفقتُ كلّ المال الذي أعطوني إيّاه» -قال- «شعرتُ بالضعة، لأنّ ذلك المال لم يكن مالي. أعطوني إيّاه لأدافع عن وطني. وليس للدفاع عن الوطن ثمن».

«الدفاع عن الوطن!» -تمتم من جديد هيلاريون، وهو يطرق على الأرض بعصاه- «ذهبنا للدفاع عن أرض الأغراب! ونحن الوطن أيضاً، فمن يدافع عنّا الآن!».

«أنفقتُ آخر سنت» -واصل كريسانتو كلامه، بالنبرة الرتيبة ذاتها- «كنت أنتظر. في الليل، كنتُ أنام في ممرّ المحطة، في رواق الميناء. اعتقلوني بتهمة التسكّع، ومن حسن الحظ أنّي دفنتُ جرابي في خرابة».

«كانوا سيسرقون حتّى كراكيبك» - قال هيلاريون.

«في الشرطة العسكرية، تفحّصوا أوراق الخدمة. وعندئذٍ أعطوني بطاقة سفر وسلّموني إلى مأمور القطار. وها أنا ذا هنا!» - سكت وكأنه تعب من كثرة الكلام، أو كأنّه قال كلّ شيء، وكشف دفعة واحدة، على الرغم من المزاح، عن سرٍّ ثمين، سرّ تحفّظِهِ وأملِه وفشلِه. عضّت الشفتان الساكتتان والرفيعتان بقوّة على طرف القبّعة الوسخة، المطلّ على تقاطيع الوجه.

«أنت الآن، ومن جديد، في بلدتك، وبين أصدقائك» -قال إليخيو بريسوينيا، وكأنّه يحاول مواساته وتشجيعه- «الوحيد الذي كنّا ننتظره من الأحياء» - كان صاحب نصف الكم، وفضلة الذراع المبتورة بداخله، يتحرّك مثل حيوان هائج، على الرغم من نعومة صوته.

«خوكو، ولدي!» -همس العجوز أپوليناريو روداس- «أنتَ كنتَ أفضل فلّاحي إيتاپيه. سنساعدك كلّنا. عليكَ أن تبني بيتك وتنظّف مزرعتك!».

- لا أدري.

في زاوية من زوايا الحجرة، قرفص كوچوي يحاول ربط شريطٍ في ذيل هرّ. شريط النقانق التي أكلها. الأرضيّة مزروعة بجلود مصارين غامقة، منثورة بين بقع بصاق صفرٍ.

نهض كريسانتو، يهمّ بالانصراف. ترك كوچوي الهرّ ونظر إلى أبيه. تململ الآخرون قلقين. علا الضجيج، فجأةً. لقد نسينا المشكلة لوقت، لكنّ المشكلة ما زالت قائمة. إنّها هناك، قريبة وبعيدة، في كلّ ناحية، تنتظر حلّاً.. حلّاً بدا صعباً، لأنّه يعتمد الإبقاء على كريسانتو جاهلاً بالمصيبة الأخيرة التي تنتظره، عن طريق إلهائه بحفلة التكريم الساذجة تلك، التي لا يمكنها أن تدوم إلى الأبد.

«بوركتم، أيّها السادة!» - قال بامتنان، وبشيء من الخجل أيضاً.

«ما زال الوقت مبكراً، خوكو! لنلعب التروكو» - قال كوراثون.

«لستُ منافساً غنياً في اللعب» -قال وهو يبتسم- «لا أمتلك ريالاً واحداً زائداً».

«لا يهمّ، خوكو. سيكون لعباً بين أصدقاء. سنراهن على ورقة. فإذا خسرنا، فسأدفع عنك، ثمّ تدفع لي في ما بعد.. كانتايثيو!» -نادى كوراثون على صاحب الدكّان- «تيريريه الصبّار لتبريد المعدة! بسرعة!».

«أمرك، عريفي!» - قال صاحب الحانوت، منطلقاً من طاولة الخدمة حيث كان يستمع إلى المحادثة. بدأ يتحرّك بالكأس والمصاصة والزمزميّة، في نشاط مفاجئ.

«لننتزع السرج، خوكو» - ألحّ كوراثون، وهو يجرّه من ذراعه.

- أريد أن أصل إلى كايثا دي أغوا قبل طلوع الشمس. الطريق طويل.

- لن يعوزك سرير تنام عليه وتستريح في البلدة، هذه الليلة. وغداً باكراً، بعد أن تتناول المتّة، تستطيع أن تخرج على برد الهواء.

«لا..» -قال وهو يطلق ذراعه- «شكراً. سأرحل».

وانصرف وما كان في مقدور أحد أن يؤخّره دقيقة واحدة.

تبعه كوچوي. التفّا حول الساحة المظلّلة بأشجار الليلك، ودخلا في الطريق العام، الذي بدأ يدخّن تحت وقع خطوات كريسانتو الطويلة والمنتظمة، وتحت قفزات كوچوي الصغيرة التي تشبه قفز العصفور.

رأيناهما يضيعان في منعطف. لم يلتفت كريسانتو، مرة واحدة، ليرى ما إن كان ولده يتبعه.

«يا له من مسكين!» -قال كوراثون- «لقد انتهت حربه الجميلة!».

.7

«أتذكّر...» -قال خوسيه دل كارمن، محدّثا نفسه تقريباً- «عقب انسحاب سابيدرا[61]، حوصرت فرقة ليون كاريه بالقرب من غوندرا. احتمينا بمواقعنا. أنا كنتُ في مجموعة خوكو. أثناء الانسحاب، أصابته رصاصة في وجهه. بدأت حالة جرحه تسوء، لكنّه صمد في موقعه. لم تكن لدينا قوات كافية. كان صراعاً حتّى الموت. فقد عزّز البوليفيون مواقعهم أمام خطوطنا وراحوا يضغطون على الأجنحة. وأوشكنا أن نقع في الفخ الذي كنّا نصبناه لهم دائماً. لكنّ البوليفيين بدؤوا يتعلّمون. وكنّا قاب قوسين من الانهيار والهروب غير المنظّم. حينئذٍ أمر ليون كاريه برفع الراية أعلى شجرة في الجبل، وراح يتجوّل بيننا في الجبهة، يكلّمنا بودّ ويتبسّط معنا» -سكت، فقد أتوا لنا بالتريريه، وقد بلغت رغوة العشب الخضراء فيه حافة قرن الشراب. أخذ رشفة ثمّ أضاف، بعد أن فرقعت فقاعة في فمه-: «وقد رفع ذلك من معنوياتنا.. فأبلينا بلاءً حسناً في الموقع.. ورأينا شعار النصر أو الموت، الذي رفعه المارشال لوبيث، يلمع على أسنّة حرابنا».

كان خوسيه دل كارمن ينظر، من بعيد، إلى الصحراء القاحلة. ما عاد من شيء يلمع غير مصّاصة التريريه المغروسة في قرن الشراب، الذي كان يتنقّل من يدٍ إلى يد. نحن أيضا كنّا نرى راية المعركة منشورة على الأشجار.. ونرى الزعيم ذا العينين الحديديتين الساكتين، الذي يدعى ليون رينغو، الذي يحبّه جنوده حدّ التعصّب، وهو يلوّح لهم بشعار الحرب العظيمة القديم، ذلك الشعار الذي يلخّص قدر شعب اقترن مصيره، منذ القدم، بالحروب.

---

(61) أعقب هذا الانسحاب معركة الكيلومتر سبعة، ضمن حرب چاكو بين الپاراغواي وبوليفيا (1932-1933).

«هكذا بقينا نحواً من شهر» -واصل خوسيه دل كارمن حديثه- «يختبر كلّ منا قوة عدوّه، عن طريق هجمات صغيرة وهجمات مضادة. كان علينا أن نكسر الطوق بأيّ طريقة. لكننا كنّا نقاتل على غير هدى. كنّا في حاجة إلى معلومات، أن نعرف شيئاً عن العدو. وعندئذٍ عُرضت إجازة لمدة شهر لمن يأتي لنا بأسير حيّ. شهر إجازة! هل تدركون معنى ذلك، رفاقي؟».

«وهل كان ذلك حين أتى خوكو بالبوليفي؟» - سأل تاني لوبيث، الذي كان يحشر طرف خنصره الطويل والمعقوف في أذنه.

- نعم. كان قد عثر على بئر هندي في منبت للقصب، غطّته نباتات جلد العجوز ولسان الحمل الكبير. لا أحد يعرف كيف عثر عليه، لأنّ كلّ شيء من حوله كان يابساً. لكنّ خوكو شمّ الماء من تحت الأرض. وظلّ هناك ينتظر، ليلاً ونهاراً. كان يعلم أنّ العدو سيعثر آجلاً أم عاجلاً على الماء. وهكذا كان. فقد سقط أحد البوليفيين في الفخ. كان جندياً صغيراً وضعيفاً. تركه خوكو، المختبئ بين الدغل، يدخل مطمئناً. فقد كان عليه أن يمسك به حيّاً لكي يحصل على الإجازة. شرب البوليفي، وهو جاثٍ على البئر. شرب ما يشربه حصان. ثمّ تعرّى وبدأ يستحمّ، يرفع الماء بيديه ويلقيه على جسمه، كما تفعل الكلاب. في تلك اللحظة، انقضّ خوكو عليه وأمسك به. لكنّ البوليفيّ، المبلول والمفزوع، تملّص من بين يديه كالسمكة. أفلت وانطلق راكضاً. وساعده صغر جسمه على أن ينطلق بسرعة وخفّة. لكنّ خوكو لحق به واشتبك معه. وأوشك الأسير أن يفلت منه مجدداً. وعندئذٍ لم يجد خوكو بدّاً من أن يستلّ سيفه. وضع رأسه المدبب على بطن البوليفي لإخافته، لكنّ هذا أقدم على حركة يائسة فانغرس النصل في بدنه. بدأ يولول، ووضع يديه على طرف مصرانه، الذي أطلّ من الثقب. كان خوكو أشدّ فزعاً منه. مسح وجه البوليفيّ بيده. ما كان

يدري ماذا يفعل. ذهب وأحضر ماء من البئر، غسل له دمه، والأوساخ، وحشر المصران في الداخل وأغلق الثقب بورقة سحقها من لسان الحمل الكبير. لكن البوليفي ظلّ يولول، ولكن بوتيرة أخفّ. ودبَّ اليأس في قلب خوكو. فأسيره سيموت. رفعه بين ذراعيه وكأنّه رضيعٌ يتيم عثر عليه في الجبل، وراح يهدهده، وكأنّه يغنّي له ترنيمة لينام: "اسكت أنتَ، أيّها البوليفي!"، يقول له. "لا تبكِ، أيّها البوليفي! لا تمت، أيّها البوليفي! لا تمت!" وعلى هذه الحال وصل إلى القيادة، ومعه البوليفي حيّاً بين ذراعيه.

«آي، تبّاً!» – قال تاني، وهو يصطاد بسنارة أظافره شمع العنبر من أذنه.

– لم يرد خوكو قبول الإجازة. وواصل القتال.

«هل كانت هذه حالته؟» – سأل كوراثون.

«لم تكن قد صارت هكذا بعد» –قال خوسيه دل كارمن– «بعد وقت قصير حطّمنا خطوط العدو. أنا نُقلتُ إلى توليدو. ولم أسمع بعد ذلك بأخبار خوكو. يقولون إنّ الحالة بدأت معه في غوندرا، حين حفر نفقاً يخرج من خلف تحصينات البوليفيين. لقد رمى وحده بأكثر من مئة رمانة يدويّة، وكان واحداً من أوائل الذين دخلوا الموقع على رأس مجموعته. عمّموا الحادث على الجنود. استمر هو في الجبهة. فهناك كان يريد أن يكون.. ألم تسمعوا ما قاله؟ ولمّا كان طويل الصمت، ولمّا ظلّ باسلاً شجاعاً في المعارك كعهده، لم يلحظوا عليه شيئاً غريباً حتّى النهاية. ثمّ إنّه ما كان يطمع في شيء غير القتال. وهذا هو المطلوب هناك».

خيّم الصمت. وبصق هيلاريون للمرة الألف حقده على البركة السوداء التي تشكّلت حول عكازته.

في ذلك الصمت، عاودني فجأةً الشعورُ بالوحدة. وحدة أشدّ وطأة. كنتُ كالغريب في بلدته، الدخيل في مسقط رأسه. أجلس على طاولة في

حانوت، مع بقايا من حرب بشرية أخرى لا يجمعني شبهٌ بهم. كما في وادي چاكو البعيد ذاك، يحرقني العطش ويفتنني الموت. وادٍ لا مخرج له. مع ذلك فما زلت هنا. أظافري ما زالت تنمو وشعري ما زال يطول، ولكن، ليس لميّت أن ينسحب أو يستسلم أو يتنازل، عن القليل، المرّة تلو المرّة... ما زلتُ حيّاً إذاً، على طريقتي. زاد اهتمامي بما رأيتُ، لا بما سأرى. المعاناة جعلتني، في وقت من الأوقات، وحيداً وفخوراً. ثمّ بات يأسي هادئاً ومتواضعاً، وجعل منّي مفكّراً متأملاً. أنتمي إلى نوع من الناس، المستقبلُ لا يعني لهم شيئاً. وحدتهم هي صدى عجزهم عن الحب وعن الفهم. ووجوههم تيمّم شطر الماضي، شطر صورهم المشحونة المفتونة بالشوق. نشوة التطلّع إلى سرّتهم المتميّزة[62]، كما كان ثوردو يقول في السجن. أمّا هؤلاء الرجال فلا يهمّهم إلّا مستقبلٌ، لِقدمه سحرٌ يعدلُ ما للماضي من سحر. إنّهم لا يفكّرون في الموت. يشعرون بأنّهم يعيشون الأحداث. يشعرون باتحادهم مع عشق اللحظة الذي يقذف بهم خارج أنفسهم، يربطهم بقضيّة حقيقية أو موهومة، المهمّ.. المهمّ أنّه يربطهم بشيء. ما من حياة أخرى في نظرهم. لا وجود للموت عندهم. لأنّ التفكير في الموت هو ما يستنفد، هو ما يستهلك، وهو ما يقتل. هم يعيشون، يعيشون وحسب. حتّى شرود كريسانتو بيّالبا هو عشق قاتل كالحياة. إبرة العطش تؤشّر لهم إلى اتجاه الماء في الصحراء، الصحراء الأشدّ غموضاً، والأشدّ عطشاً واتساعاً من كلّ صحراء: القلب البشري. قوّة أخوّته الراسخة المتينة هي إلهُه. يسحقونها. يكسرونها. يُفتّتونها، لكنّها تعود، تتشكّل، مستعملة قطعها وشظاياها، لتكون أكثر حيويّة وأشدّ

(62) تعبير mirarse el ombligo يشير إلى تطلّع الإنسان إلى نفسه وزهوه بتأمّل جسمه ورسمه.

اندفاعاً. حلقاتها تتوسّع في حركة حلزونيّة. في إيتاپيه كلّها، كما في بلدات كثيرة أخرى، تُزرَع، من جديد، بذورُ الثورة، في أجواء من التململ، من الضيق، من الاستياء. المحاربون القدماء يُحرمون من العمل. معوّقو الحرب لا يستطيعون العمل. ولذلك يضطرب عكازا هيلاريون بنيتث، بين الفينة والفينة، بغضب وحقد. عاد الناسُ ينزحون، قاصدين الحدود، باحثين عن العمل، عن الكرامة، عن النسيان. لكنّ آخرين بقوا. وبدأ الفلّاحون وعمّال المصانع والجزّارون والمياومون والمطرودون ينظّمون أنفسهم في حركات مقاومة من أجل أجورٍ مجزية، والإطاحة بالأجور البخسة التي تضعها الحكومة. يحرقون المحاصيل أو يكدّسونها في أكوامٍ على الطرقات، حتى تضطر شاحناتُ الجيش إلى أن تنظّف الطرقات التي علّمتها الحرائق الكبيرة. ويعود رجال العصابات إلى الغابات. ويُرفع من جديد شعارُ: أرضٌ وخبزٌ وحريّة! في أرجاء البلاد كافةً، وتصحو المدن والبلدات كلّ يوم وقد كست جدرانها شعاراتٌ كتبت بحروف غليظة متعجّلة.

شيء ما يجبُ أن يتغيّر. لا يمكن الاستمرار في قمع شعبٍ إلى ما لا نهاية. الإنسانُ كالنهر، أبنائي...، قال العجوز مكاريو فرانسيا. يولدُ ويموتُ في أنهار أخرى. وما أسوأ النهر الذي يموت في الهور! الماءُ الراكد سامّ. يكوّنُ مستنقعاتٍ تتوطّنها حمّى خبيثة، جنونٌ مجنون. وحين تريد أن تداوي المريض أو تخفّف عنه، فليس أمامك إلا قتله. بات تراب هذه البلاد متخماً بالموتى. «والموتى تحت التراب لا يتجذّرون!».

أخشى أن يأتوا، في يوم من هذه الأيام، ليقترحوا عليّ، كما اقترحوا عليّ في ساپوكاي، أن أعلّمهم القتال. أنا أعلّمهم، أيّ سخريّة هذه! ما عادوا يحتاجون أن يعلّمهم أحد، فقد تعلّموا كثيراً. شاحنة كريستوبال خارا

لم تعبر الموت لكي تنقذ خائناً. وما زالت تدرج ليلاً، وألسنة اللهب تلفّها. تدرج في الصحراء، في طرق الغابة، تحمل الماء لتروي عطش الناجين.

نزلَتْ عليّ سخرية الحظ، ونزل عليّ تهكّمه، حين خطر ببالي أنّ الوحيد الذي كان يجب أن يموت في وادي چاكو الكئيب موجود الآن هنا، يشغل منصب ميليتون إيساسي.

ضحكت بقوّة، بعصبيّة، بل لقد طفر الدمع من عينيّ.

نظر الجميع إليّ. عاد الصمتُ يخيّم مطبقاً.

«ضحكوا منه حتّى النهاية!» -سمعتُ هيلاريون يقول- «الرفاقُ أنفسهم! بهذه الصلبان التي صُنعت من ألواح برميل!».

تذكّرتُ عندئذٍ أنّنا كنّا نتكلّم عن كريسانتو بيّالبا. ذكر هيلاريون فاصل التهكّم بالنياشين.

«كان أسوأ من الضحك على ميّت!» - همهم العجوز أپولوليناريو روداس، الذي غاب وجهه وعمره، تحت قبّعة القشّ العظيمة.

«لكنّ الصلبان في نظره حقيقيّة» - قال كوراثون.

«ولهذا السبب بالذات!» - علّق هيلاريون.

من بعيد، على الطريق الذي يومض بشرر معتم، راحت تتلاشى سحابات التراب الصغيرة التي كانت خطوات كريسانتو وابنِه تثيرها.

.8

بعد المقبرة بقليل مرّوا من أمام التلّة.

يصعد الدربُ المتعرّجُ نحو كوخ المسيح، الذي يبدو للناظر إليه من

الأسفل مصوّباً نحو السماء. من الرأس المنكّس تتدلّى الجذائل وتتمايل، مع نسمة العصر الساخنة. لكنّ كريسانتو بيّالبا لم ينظر إلى الأعلى. بل ما كان يعلم أنّهم انتقموا له في ذلك المكان نفسه. انتقموا له أيضاً. ولو أنّه علم، ما كان سيهتمّ، ربّما، فهو زاهد بكلّ ما لا يتصل بالهاجس الكبير الذي يشغل الآن حياته.

كان أبوليناريو روداس قد قال إنّ كريسانتو، قبل چاكو، كان خيرَ فلّاحي إيتاپيه. ويعلمُ رفاقه أنّ فلّاحَ إيتاپيه هذا أفضلُ مقاتل بينهم. أمّا المزرعة الخربة، أمّا ازدراء الصلبان الثلاثة، فلا تنفي هذه الحقيقة ولا تلك. لكنّه ما عاد فلّاحاً ولا جندياً. لا شيء. ما عاد غير بقايا إنسان، وحشي، يحيا على خمول الحياة الدائم أو، ربّما، على صحّة هواجسه التي غرستها چاكو فيه.

بين قصب الخيزران ونباتات الشوك الذي تصنع منها التيجان، يقع نبع «توپا–راپيه». في الأطراف، يُسمع حفيفُ أشجار الكزوارينا، أعلى نبرةً من خرير النبع. اقترب الاثنان وشربا جاثيين، الصبيّ أولاً. وراح الأب يتأمّل الماء يتدفّق. تحوم الدبابير الصغيرة والفراشات البيض فوقهما. اصطاد كوچوي اثنتين منها ولصقهما، بلعابه، على صدره، فوق بقع الجذام، بينما ملأ الرقيب، جاثياً، زمزميته بالماء.

كانت الحارسة، الجالسة على الدكّة، تحت رواق الكوخ، تراقبهما من مكانها في أعلى التلّة، بقعة مرسومة في الضوء. لم تتعرّف ماريا روسا، مجنونة كاروبيني، على حفيدها، ولا على زوج ابنتها.

لم يلاحظها كريسانتو، بل نهض، ورسم علامة الصليب وفعل الصبيّ مثله. ثمّ استأنفا سيرهما وواصلا رحلتهما. اصطاد كوچوي فراشتين أخريين وعاد إلى لصقهما باللعاب فوق دوائر الشامات البيض.

استطال خيال الاثنين، نحو الخلف، شيئاً فشيئاً، وانبسط فوق الطريق.

.9

إنّهما يوشكان على الوصول إلى «كابيثا دي أغوا».

عند الخروج من طريق الغابة، يتملّكك الشعورُ بحضورٍ للجدول، تحسّه ولكن لا تراه، في جانبه الذي تكون فيه خضرة الجبل أطرى وأنضر. حتّى الهواء هناك، له رائحة أخرى. فوق تلال «إيبيتيروسو» البعيدة، تتمدّد الشمس على الأطراف، تغسلها بالنار. وسرعان ما يغيّر الضوء لونه، ملتفّاً ومتمايلاً في وجه السماء المتفحّمة، فوق أشجار جوز الهند وهياكل أشجار العلّيق الشائكة. تخرج الطيورُ من الأجمة، لكنّ الحَرّ يصدّها، فتعود إلى الجبل ضاجّة صاخبة.

يخبّ كوچوي وراء أبيه، يأكل الجوّافة التي يقطفها أثناء مروره بها، فتلطّخ فمه ببذورها المدوّرة وتصبغه بحمرة قانية.

اجتازا أحد المراعي، ثمّ عبرا قطعة أرضٍ قديمة، مُعدّة للزراعة، تناثرَتْ فيها جذوع أشجار نصف محترقة، أزهرت فيها البراعم؛ ودخلا في حقلٍ للموز، سقطت فيه الأوراق الكبيرة التي راحت تهسّ مع مرورهما، فيسمع لها صوتُ صندوق غيتار يتكسّر. يختفي كوچوي، أحياناً، بين عراجين الموز، ثمّ يظهر، بعد وقت قصير، ليتبع خطوات أبيه، وقد امتلأ شعرُه بالحسك والشوك. وقطعا حقل كاسافا عمرته الهوام. كانا يحسّان، تحت أقدامهما، بدبيبها المفزوع، في خيوطٍ من أصوات وطقطقات. بالقرب من بيتٍ للنمل، تمدّدتْ أفعى أخفت نطاقها الرمادي الغليظ بين الأعشاب. سارا مسافة بمحاذاة القنال، الذي أخفته أحراجٌ كثيفة، وعادا ليظهرا في الطريق، الذي ما كان يكشف، بين دغلٍ وآخر، إلّا عن سحجاتٍ حُمر من الأرض، بين آثار العجلات القديمة. عرانيس ذرة سود معلّقة في الجانبين،

على سيقان متخشّبة متكسّرة. في بقعة خالية من الأرض، شاهدا حيواناً مدرّعاً يعبر الطريق متثاقلاً، يتمايل بقرونه وحراشف الدرقة. رماه كوچوي بحجارة على قوقعته.

- لنُمسك به، أبي. لنتعشَّ به!

«كلّا، ولدي!» -قال كريسانتو، وهو يدعوه «ولدي»، للمرة الأولى، وبرقّة غير معهودة في صوته- «دعه يعيش، ثمّ إنّك أكلتَ!».

- وأنتَ؟

- أنا لستُ جائعاً.

قال عبارته الأخيرة بالقشتاليّة. ما هذه اللغة التي جرت فجأة على لسانه؟ ما هذا الصوت الطفيلي الغريب؟ نظر إليه كوچوي، فكرّر العبارة بالغوارانيّة. وقام اتفاقٌ ضمني بينهما في واحدة من فترات الصمت تلك، التي يجري فيها الحديث، من دون نظرات ولا كلمات. عاد كوچوي يسير وراء أبيه، يضبط خطواته على إيقاع خطواته، لكنّ ساقيه قصيرتان. فأضاع الإيقاع مراراً، واضطرّ، في كلّ مرّة، إلى الإسراع لتقليل المسافة، وسط اهتزازات بطيئة تغمرهم بالغبار.

يزيد الرجل من بطئه، بمزاج يتراوح بين الاستغراب واللامبالاة. هو في مزرعته، لكنّه لا يتعرّف على المكان. شعوره نفسه حين نزوله من القطار، قبل ذلك بساعات. حين وطئ أرضاً بدت له مجهولة وغريبة. ثمّ إنّها باتت موحشة بفعل النسيان. يجرّ قدميه من ظلّه، ويضعهما، بحذر، في ذلك الضوء الرئيس الذي لا يذكّره بشيء، يتلمّس، كالأعمى، السرَّ الوعر، العطرَ المشؤوم لتلك الأرض التي تتخفّى حين مرورِه.

خرجا إلى أرض جرداء. كان الكوخ البعيد، المغطّى بين الدغل،

يتأملهما، في سطوع الغروب الوردي العائم. ينظر إليهما، أعمى وميّتاً، بجدران الطوب المثقوبة. توقّف الرجلُ فجأة، ومدَّ يدَه نحو الفتى، لا لحمايته من المشهد المفاجئ، بل للاستناد عليه. بقايا من حياته الميّتة ظهرت متناثرة هنا وهناك، في الضياء الساكن الوديع. مقعدٌ مسند إلى عارضة. أسمالٌ مسودّة من تنورة نسائيّة داخلية عُلّقت على سلك رُبط بعصا مكسورة. خرابُ الوحدة ينتصر في كلّ ناحية، يجسّد ميدانَ معركةٍ إثرَ الهزيمة. أمّا الخرقة التي تدلّت من القصبة، فيمكن أن تكون راية استسلام تطلّ خائفة من مؤخّرة الكوخ.

يتعاظم الصمتُ ويتورّم، حتّى يبلغَ التلال البعيدة. ومن بين ذلك الصمت، يُسمعُ خريرُ الجدول الذي يخرج من الجبل ويسير متعثّراً، ليتحوّل إلى دويّ ارتدّ نحو الكوخ، وفقد الرجلُ المستند على الصبي، توازنه، بسببه.

ظلّ جامداً للحظة، ربّما ليجتاز عمراً إلى عمر، ذكرى إلى ذكرى، حتّى اكتشف ما كان يجهله، وما عرفه فجأة، عن طريق الأرض نفسها. دفع، حينئذٍ، بالصبيّ دفعة بين الحشائش. وانحنى متوتّراً مرتجفاً. بحث في جرابه وأخرج واحداً من قرون الفلفل. سقطت لفافة الصلبان على الأرض.

«حملة بيّالبا، قفزة إلى الأمام، إلى الأمااااااام!» – صرخ من جديد كما في مئة معركة من معارك القتال رجلاً لرجل.

نهض بقفزة واحدة، دعك طرف الفلفلة السوداء بمعصمه وألقى بها أمامه بسرعة.

شبّت نارٌ، ودوّى انفجار، وتناثر الكوخُ قطعاً، كمربض في خندق.

راح الرقيب يلقي على الموقع المعادي الذي توهّمه، بالقنابل اليدوية الاثنتي عشرة التي جلبها من چاكو على سبيل التذكار. رمى بها تباعاً..

الواحدة بعد الأخرى. فأحدث ثقباً كبيراً في المزرعة التي غزاها الدغل، وشقّ صمتَ الليل برعود الانفجارات وبرقها الأصفر.

راح كوچوي، بين خائف وفرح، يراقب، من مكمنه بين الشجيرات، أباه، وهو يركض من ناحية إلى أخرى، يصرخ كالوحش ويرمي بالقنابل. راح يراقبه وقد صُمّ سمعه. لا شكّ أنّ الصبيّ حسب أنّ أباه أراد أن يصوّر له تلك الحرب التي طالما سمعه يتحدّث عنها.

.10

حين وصلتُ مهرولاً، كان كريسانتو هادئاً، يجلس على بيت للنمل، بينما راح كوچوي ينظر إليه دون أن يجرؤ على كسر صمته. كانت الظلال ترسم عليه خطوطها. أمّا هو، فقد كان ينظر شارداً إلى ظلمة الليل التي راحت تتنامى من حوله، مشدوداً إلى الخفيّ الذي لا يُرى، يسحقه ذلك الخضوع البارد، وسط السلام الأبدي الذي يحيط به. كانت رائحة البارود هناك هي كلّ ما تبقّى من ثورته. حتّى تلك البقعة البنفسجية تلاشت سريعاً. بعد برهة، ما عاد واحدنا يرى وجه الآخر. أسمعُ صوتي في الظلمة، وكأنّي أسمع صوتَ غيري. لم يشأ أن يسمع شيئاً عن العودة إلى البلدة.

«لا!» - لم يقل غير تلك الـ«لا» المؤكّدة، قدر ما كان مؤكّداً ضياعُه وانطفاؤه.

كيف كان عليّ أن أتصرّف؟ لا أدري. في تلك اللحظة، لا أدري.

الأيام تمضي. تردّدتُ بين أن أتركه يعيش ضائعاً، أو أن أحاول علاجه. وماذا إذا تبيّن أنّ ما فجّره الرقيب هو بقايا روحه؟ نوبة الجنون تلك، التي

انحسرت وسكنت، بعد أن دمّر بالقنابل أطلالَ كوخه وحقله، تدلّ على أنّه يجهل، على الأقل، فشل وجوده، ذلك الفشل الذي لا علاج له.

في اللغة الغوارانيّة، كلمة آراندو تعني الحكمة، وتعني الإحساسَ بالزمن. ما عادت ذاكرة كريسانتو تحسّ بالزمن؛ لذلك توقّفت عن معرفة شقائها. لقد بات كالصبيّ، مثل ابنه تقريباً.

كتبتُ إلى الدكتورة روسا مونثون أستشيرها في الحالة. فردّت عليّ بأنّ واجبي يحتّم إرسال كريسانتو إلى أسونثيون للعلاج. تعهّدَتْ لي بالتكفّل بكلّ شيء، لأنّ المؤسسات الرسميّة لا تتكفّل بمخلّفات الحرب. أعلم أنّها ستفي بوعدها.

لن أجد صعوبة في السفر مع كريسانتو. حكاية أنّ الحرب الرائعة بدأت من جديد ستجعله يركب القطار كطفل ذاهب إلى مهرجان.

وسآخذ كوچوي ليعيش معي.

لا أفكّر فيهما وحدهما. أفكّر في أمثالهم، في أولئك الذين انحدروا إلى آخر دركات صفتهم، فكأنّ الإنسان الذي يعاني ويهان هو، في كلّ زمان ومكان، الكائن الوحيد المخلّد.

لا بدّ من مخرج من هذا التناقض المرعب. تناقض الإنسان المصلوب على يد الإنسان. وإلّا فسيقودنا تفكيرنا إلى أنّ لعنة أبديّة حلّت بالجنس البشري، وأنّ هذا هو الجحيم، وأن لا أمل لنا في نجاة أو خلاص.

لا بدّ من مخرج، وإلّا...

(من رسالة من روسا مونثون)

«... هكذا تنتهي مخطوطة ميغيل بيرا، كومة من الأوراق المجعّدة

وغير المتناسقة، تحمل ختم مكتب العمدة، مكتوبة في القفا ومحفوظة في كيس جلديّ. كان قد كتبها حتى قبيل أن يتلقى الطلقة التي استقرت في حبله الشوكي.

حين ذهبنا إلى إيتاييه مع القاضي ميلغاخيرو لحمل المصاب، عثرت على جراب الميدان المهترئ، معلّقاً في طرف السرير، والأوراق في داخله. كان حبر الورقة الأخيرة ما زال نديّاً؛ وقد مسحت الفقرة الأخيرة منها باليد. حملتها معي، واثقة من أنّ الجزء الحيّ من ذلك الإنسان، الذي بات مشلولاً يحتضر، التجأ إليها. استنسختها دون أن أغيّر فيها شيئاً. لم أحذف إلّا بعض الفقرات التي تخصّني، ولا تهمّ أحداً غيري.

كانت روايات الحادث متناقضة؛ فقد أفاد البعضُ بأن الرصاصة انطلقت منه، بينما كان ينظّف مسدّسَه؛ بينما نسب آخرون الفعل إلى الصبيّ، الذي كان العمدة يتركه له أحياناً ليلعب به. وقد رجّح التحقيقُ الرواية الأولى».

أوغستو روا باستوس (1917-2005):

أشهر كتّاب پاراغواي عالميّاً، وأحد أبرز فرسان الرواية أميركيّاً لاتينيّاً. ألّف أعماله كلّها تقريباً في منفاه، الذي بدأ عام 1947 وانتهى بوفاة دكتاتور پاراغواي ستروسنر عام 1989.

أقام في فرنسا، حيث عمل في الصحافة ودرّس في الجامعة.

تتصف أعمالُ روا باستوس بمزجها بين التراث الغواراني والإسباني، وتمحورها حول مأساة پاراغواي المعاصرة، وبتناغمها مع جميع الحركات الأدبيّة الطليعيّة التي عاصرتها.

في عام 1985 قُلّد روا باستوس وسامَ الفنون والآداب الفرنسي، وفي عام 1989 كُرّم بجائزة ثربانتس، وجائزة نصب أميركا اللاتينيّة التذكاري في ساو پاولو.

دواوينُه الشعريّة: شجرة البرتقال المتوهّجة (1960)، حاجبُ الصمت (1983)؛ مجاميعه القصصيّة: الرعد بين الأوراق (1953)، الأرض البور (1966)، الأقدام فوق الماء (1967)، الموت (1969)، قتال حتّى الفجر (1979)؛ ورواياته: ابن الإنسان (1960) (فازت بجائزة دار النشر لوسادا للرواية الأميركية اللاتينيّة)، أنا الأعلى (1974)، النائب العام (1993) -هذه الروايات الثلاث تؤلّف ما أسماه هو بـ«ثلاثيّة الحاكم الأوحد»-،

المسرنم (1976)، حرس الأدميرال (1992)، ضدّ حياتي (1994)، مدام سوي (1996) (فازت بالجائزة القوميّة للأدب في پاراغواي).

بسّام البزّاز:

مترجم عراقي من مواليد 1952. حائز على الإجازة في الأدب العربي، والدكتوراه في اللغة الإسبانية.

له العديد من البحوث في اللغة الإسبانية والأدب الإسباني.

عمل في جامعات بغداد ودمشق وفي معهد ثرباتس بدمشق وبيروت، ويعمل الآن أستاذاً في جامعة الجزائر الثانية.

ترجم عدداً من الأعمال الروائية عن اللغة الإسبانية، منها: «طائر الليل البذيء» للتشيلي خوسيه دونوسو، «الرجل الذي كان يحب الكلاب» للكوبي ليوناردو بادورا، و«ثلاثة نمور حزينة» للكوبي غيّرمو كابريرا إنفانته.

صدرت بترجمته لدى داري «سرد» و«ممدوح عدوان للنشر والتوزيع»: «الرأس الحليق» للكاتب الإسباني خيسوس فرنانديث سانتوس، «أسلوب المنهج» و«كونشرتو باروكيّ» للكاتب الكوبي آلخو كاربنتييه، «الكوخ» للإسباني بيثنته بلاسكو إيبانيث، «ابن الإنسان» للباراغواياني أوغستو روا باستوس.




mohmed khatab

telegram @soramnqraa



متذكّراً طفولته يحكي "ميغيل" عن تمثال من الخشب بحجم رجل، نحَتَه صانع آلات موسيقية قبل وفاته، فيقرّر أهل "إيتابيه" وضْعَه في أعلى التل، ليصبح مَعْلماً من معالم القرية. تجري أحداثُ جسام وحروب، وتتشعّب الرواية لتروي أحداث عقدين من تاريخ باراغواي، قبل أن تعود إلى ذاك التلّ بتمثاله الصامد، وقد أصبح له رمزية كبيرة.

يُظهر "روا باستوس" التاريخ من منظور الناس العاديين، مصوّراً على نحوٍ مؤثّر محاولات تمرّدهم على السلطة، كاشفاً وحشية مفارقات التاريخ حين يُجبر هؤلاء الناس أن يُقتلوا ويموتوا في حروب عبثية يخوضونها واقفين مع السلطة نفسها التي يتمرّدون ضدها.

ضارباً التسلسل الخطي في روي أحداث روايته، راسماً لوحة جدارية هائلة عن "الباراغواي"، يكتب "روا باستوس"، في حبكةٍ مُحْكَمة، روايته التي قال عنها الكاتب الأرجنتيني الكبير "بورخس" إنها من أفضل روايات أميركا اللاتينية في القرن العشرين.

"ابن الإنسان" صرخة من أجل الإنسان، الذي لم يطلب يوماً أكثر من "وطن، خبز، حرية".

تصميم الغلاف نجاح طاهر





ISBN 978-9933-641-74-0

